



في عُمق التاريخ

دراسات مقارنة لقصص الأنبياء
في القرآن والكتاب المقدس

السَّيِّدُ عَلِيُّ حَسَنٌ غُلُومٌ

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

تلفون : ٢٥٤٢٧٦٦٧ - ٢٥٤٢٧٩٩٧

فاكس : ٢٥٤٢٨٥٥٨

Email: alwalaa66@yahoo.com

الشيخ
علي حسن غلوم

في عمق التاريخ
دراسات مقارنة لقصاص الأنبياء
في القرآن والكتاب المقدس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مباحث الكتاب

١١	□ مقدمة بقلم المؤلف
١٥	□ □ تمهيد حول الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى
١٥	التَّخ / التَّخ الكتاب المقدس
١٩	 الكتاب المقدس
٢٣	١. إسماعيل في الأرض الحرام
٢٥	 مصدر القصة
٢٩	 في العهد القديم
٤٢	 تقييم القصتين
٤٥	٢. تاريخ وجود مكة
٤٧	 ادعاءات جيبسون
٤٩	 ذكر مكة في المصادر
٥٧	٣. السامري والعجل الذهبي
٦١	 الإشكال المطروح حول السامري
٦٢	 الاحتمال الأول
٦٨	 الاحتمال الثاني

٤. ورفعنا فوقكم الطور ٧٣
- لماذا التكرار؟ ٧٦
- مقارنة بين النصوص ٧٩
- سؤال عقدي ٨٢
٥. فكّ لُغز الأسباط ٨٥
- مصادر الحديث ٨٨
- من كتب التفسير عند أهل السنّة ١٠٠
- من كتب التفسير عند الشيعة ١٠٣
- سفر الأسباط ١١٦
- وجاء دور الأسباط ١٤٤
- نبوة المرأة ١٤٧
- خلاصة وخاتمة ١٥٧
٦. النبي سليمان وتسخير الجن ١٦١
- قصص سليمان في التّخ ١٦٤
- المعتقد اليهودي في الشياطين ١٦٩
- تهمة باطلة ١٧٥
- البساط السحري الطائر ١٨١
- خاتم النبي سليمان ١٨٦
٧. النبي يونس والحوت ١٩٣
- يونس في المصادر اليهودية ١٩٦

- بلعوم الحوت ٢٠٦
- يونس لدى النصارى ٢٠٨
- النبي يونس في القرآن ٢١٨
- القصة في سائر المصادر الإسلامية ٢٢٣
- قصة النبي يونس والعصمة ٢٤٨
- خاتمة ٢٥٥
٨. يأجوج ومأجوج ٢٥٩
- في القرآن الكريم ٢٦١
- في التَّنْخ ٢٦٢
- في العهد الجديد ٢٦٦
- تأويل الآيات ٢٦٧
- في الشعر الجاهلي ٢٧٧
- المغول أم الروس؟ ٢٨٤
- النسل البشري ٢٩٢
- يأجوج ومأجوج والآخرة ٣٠٢
٩. عَزِير ابن الله ٣٠٩
- تحديد هويّة عَزِير ٣١٢
- الاحتمال الأول، عزرا الكاتب ٣١٣
- مرقد عزرا ٣١٨
- من أقوال المفسّرين ٣٢١

- ٣٢٣ تساؤل مهم
- ٣٢٧ الاحتمال الثاني، أوزيريس إله الموتى
- ٣٢٩ الاحتمال الثالث، البنوة المجازية
- ٣٣٢ الخاتمة
١٠. عاد إلى الحياة بعد مائة عام ٣٣٧
- ٣٤٠ نقد روايات أسباب النزول
- ٣٤٦ تحديد الشخصية في كتب التفسير
- ٣٤٩ هل يحيلنا القرآن على الكتاب المقدس ؟
- ٣٥٧ محاولة ابن عاشور
- ٣٥٩ نتيجة البحث
١١. حق اليهود في أرض فلسطين ٣٦١
- ٣٦٤ القراءة التاريخية
- ٣٧٣ القراءة الدينية
١٢. التقويم اليهودي «العبري» ٣٧٧
- ٣٨٣ التلاعب في التقويم اليهودي
- ٣٩٠ إدعاء ثبات شهر رمضان
- ٣٩٩ نتيجة الموضوع
١٣. السعاة لخراب المساجد ٤٠١
- ٤٠٣ مقدمة حول التأويل والتفسير
- ٤٠٥ استعراض أقوال المفسرين

٤١٠	تحديد المراد بالمساجد
٤١٢	تحديد الخائفين
٤١٦	الرأي المختار
٤٢٣	١٤. الشجرة الملعونة في القرآن
٤٢٥	الفكرة الإجمالية للآية
٤٢٦	الرؤيا
٤٢٩	الشجرة الملعونة
٤٣٣	نقد الأقوال
٤٣٥	تعليق
٤٤٥	١٥. الإيمان بالآخرة
٤٤٨	تناسخ الأرواح
٤٥٠	عودة الروح أم الجسد والروح معاً؟
٤٥١	اليهود والإيمان بالآخرة
٤٥٣	النصارى والإيمان بالآخرة
٤٥٦	قدماء المصريين والإيمان بالآخرة
٤٦٣	الإيمان بالآخرة في بلاد الرافدين
٤٧١	الإيمان بالآخرة لدى الإغريق
٤٧٤	ملاحظة أخيرة
٤٧٧	□ مصادر الكتاب
٤٨٥	□ □ إصدارات المؤلف

بقلم المؤلف

الحمد لله العليّ عن شَبّه المخلوقين، الغالب لمَقَالِ الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين، الباطن بجلال عزّته عن فكر المتوهّمين، العالم بلا اكتساب ولا ازدياد، والمقدّر لجميع الأمور بلا رويّة ولا ترداد.

ثم الصلاة والسلام على الخاتم لما سبق، والفتاح لما انغلق، والمُعلن الحقّ بالحقّ، محمد، وعلى آله الطّاهرين، دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام، الذين بهم يعيش العلم، ويموت الجهل، وينزاح الباطل، وعلى جميع النبيّين والمرسلين والصّدّيقين.

أصاب التراث الإسلامي في رُكنيه الأساسيين - القرآن والسنة - الكثير من الخلل والضرر، أما القرآن الكريم، فمع تسليمنا بحفظ نصّه من أي تحريف أو تغيير أو زيادة أو نقصان، إلا أنّه قد طالته يد العابثين والجاهلين أحياناً كثيرة تحت عنوان التفسير والتأويل وبيان أسباب النزول؛ وأما ما أصاب السنة الشريفة فشأن غير خافٍ على أحد، وبات الحديث فيه من بديهيات المعارف الخاصّة بالتراث الإسلامي، على مستوى الوضع والزيادة والنقصان والتحريف والتغيير والتفسير والتأويل ووضع الأسانيد وتضييعها وتزويرها وتحريفها وغير ذلك مما تحدّثت به المصادر المختصّة بهذا العلم.

بالطبع، لست هنا في وارد الطعن في أحد من العلماء المخلصين الورعين الذين اجتهدوا في القرآن والسنة، وأخطأوا في ما وصلوا إليه من نتائج، فأولئك الأعلام مثابون بإذن الله «عز وجل» كما دلت على ذلك الأخبار، وكما يقتضيه حكم العقل، وهم معذورون - كما أسأل الله أيضاً أن أكون من المعذورين - في هفواتهم وأخطائهم وما توصّلوا إليه مما لا يطابق الواقع، أو لا يمت إلى الحقيقة بصلة.

وقصص القرآن الكريم - التي جاءت لأغراض رسالية وأهداف سامية ولتكون عبرة لمن يعتبر - طالتها الأيدي العابثة، فأساءت إليها بشدة من خلال ما أضافت إليها واختلقته من أحداث وشخصيات وأماكن وتفاصيل، أو شوّهتها بذريعة التفسير والتأويل وبيان ما غمض منها وتفصيل أحداثها وزمان وأماكن وقوعها وأسماء أصحابها وما إلى ذلك مما كانت وما زالت تشناق لمعرفته النفوس، لا سيما بلحاظ الطبيعة الفطرية في الإنسان والمتعلقة بفضول المعرفة وإشباع حب الاستطلاع. وهذا ما جرى من قبلُ لقصص النبيين والصالحين وتفاصيل أحداث التاريخ القديم في الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى.

ويأتي هذا الكتاب^(١) كمحاولة نقدية لهذا التراث الذي اختلط فيه السليم بالسقيم، وإعادة قراءة الآيات القرآنية القصصية بعيداً عن تأثير المرويات، وآراء المفسرين القدماء، مع الاستعانة بعدد من المحاولات التي قام بها

١. أكثر من نصف مادة الكتاب عبارة عن محاضرات أقيمت في شهر رمضان من العام ١٤٣٩ هـ في مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت، وأضفت إليها عدة بحوث أخرى.

بعض العلماء والمحققين والباحثين والمهتمين بشأن القصص القرآنية ووضّعها في إطار التقييم والدراسة والعرض المقارن. وحيثما لم أصل إلى رأي حاسم في موضوع ما، أشرتُ إلى ذلك موكلاً علمه إلى الله «سبحانه وتعالى»، سائلاً الله أن تكون النتائج التي توصّلتُ إليها صائبة، ولم أبتغ من ورائها إلا توضيح الحقائق ودفع الشبهات، لاسيّما بلحاظ حجم وكُمّ الإشكالات التي باتت مطروحة من قبل الملاحدة واللا دينيين والمتأثرين بهم حول القرآن الكريم وروايات وأقوال المفسّرين وآرائهم.

وكان من الضروري أن أستعين بالكتاب المقدّس بعديهِ القديم والجديد، وبيعض المؤلّفات والموسوعات والمواقع على شبكة الإنترنت باللغات العربية والإنجليزية والعبرية والتي اختصّت في دراسة القصص والشخصيات الواردة في الكتاب المقدّس والكتب الدينية لدى اليهود من قبيل التلمود والزohar وغيرهما، هذا بالإضافة إلى الاستعانة بالمصادر المتعلقة ببعض الحضارات كالمصريّة الفرعونية وحضارة بلاد ما بين النهرين - العراق - واليونان، وبرنامج Google Earth الخاص بالخرائط الحديثة مع إعادة رسمها بهدف ضمان وضوح الصورة عند طباعة الكتاب بلون واحد، علماً بأنه تمّ ترتيب البحوث زمنياً - ما أمكن - إما بلحاظ تاريخ وقوعها أو ذكرها في مصدرها بشكل تقريبي.

ختاماً، أسأل الله «عز وجل» القبول والعفو.

علي حسن غلوم علي

الكويت - ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى

قبل قراءة الكتاب، لابد من معرفة بعض المصطلحات التي سيتكرر ذكرها في الأثناء، ليكون القارئ على دراية بالمراد منها على وجه الدقة:

• التَّنَخْ / التَّناخ:

التَّنَخْ أو التَّناخ وبالعبرية «תנ"ך» مشتق من «تنخ» وهي عبارة عن كلمة مكوّنة من أول حرف «ت» - «ن» - «خ» مأخوذة من ثلاث كلمات هي: «توراة» - «نبيئيم: أنبياء» - «كتوييم / كتوفيم / ختوييم: كُتب»، أي: التوراة وكتب الأنبياء.

والتَّنَخْ هو الكتاب المقدس لدى اليهود، ويسمى أيضاً في بعض الأحيان المقراً «מקרא». وينقسم التَّنَخْ إلى ثلاثة أقسام:

• التوراة: وتعني الشريعة.

• أسفار الأنبياء.

• كتب أو كتابات غير الأنبياء «بعض الملوك والأحبار والرّبيين».

تمثّل التوراة الأسفار الخمسة الأولى من التَّنَخْ وتشتمل على:

١. سفر التكوين، وبالعبرية «براشيت - בראשית».
 ٢. سفر الخروج، وبالعبرية «شموت שמות».
 ٣. سفر اللاويين، وبالعبرية «ويقرا ויקרא».
 ٤. سفر العدد، وبالعبرية «بמידبار במדבר».
 ٥. سفر التثنية، وبالعبرية «دباريم דברים».
- وتحتوي أسفار الأنبياء على قصص وتاريخ الأنبياء والملوك الإسرائيليين، ويتم تقسيمهم إلى الأنبياء الأوائل، وبالترتيب التالي:
٦. سفر يشوع، وبالعبرية «يهوشوع יהושוע».
 ٧. سفر القضاة، وبالعبرية «شوفطيم שופטים».
 ٨. سفر صموئيل الأول، وبالعبرية: «شموئيل أليف שמואל א'».
 ٩. سفر صموئيل الثاني، وبالعبرية «شموئيل بيت שמואל ב'».
 ١٠. سفر الملوك الأول، وبالعبرية «ملخيم أليف מלכים א'».
 ١١. سفر الملوك الثاني، وبالعبرية «ملخيم بيت מלכים ב'».
- ثم أسفار الأنبياء المتأخرين، وبالترتيب التالي:
١٢. سفر أشعيا، وبالعبرية «يشعياهو ישעיהו».
 ١٣. سفر إرميا، وبالعبرية «يرمياה ירמיהו».
 ١٤. سفر حزقيال، وبالعبرية «يحزقيال יחזקאל».

ثم أسفار الأنبياء الاثني عشر:

١٥. سفر هوشع، وبالعبرية «هوشيع הושע».

١٦. سفر يوئيل، وبالعبرية «يوئيل יואל».

١٧. سفر عاموس، وبالعبرية «عاموس עמוס».

١٨. سفر عوبديا، وبالعبرية «عوبديا עובדיה».

١٩. سفر يونان، وبالعبرية «يوناה יונה».

٢٠. سفر ميخا، وبالعبرية «ميخا מִיכָה».

٢١. سفر ناحوم، وبالعبرية «ناحوم נחום».

٢٢. سفر حبقوق، وبالعبرية «حبقوق חבקוק».

٢٣. سفر صفنيا، وبالعبرية «صفنيا צפניה».

٢٤. سفر حجي، وبالعبرية «حجي חגי».

٢٥. سفر زكريا، وبالعبرية «زكريه זכריה».

٢٦. سفر ملاخي، وبالعبرية «ملاخي מלאכי».

ثم مجموعة الكتابات المتألّفة من أسفار الحكمة الشعرية، وهي:

٢٧. سفر المزامير، وبالعبرية «تهليم תהלים».

٢٨. سفر الأمثال، وبالعبرية «مشلي משלי».

٢٩. سفر أيوب، وبالعبرية «أيوب איוב».

٣٠. سفر نشيد الاناشيد، وبالعبرية «شיר هاشيريم שיר השירים».

٣١. سفر الجامعة، وبالعبرية «قوهيليت קהלת».

٣٢. سفر راعوث، وبالعبرية «روت רות».

٣٣. سفر المراثي، وبالعبرية «إيخا איכה».

٣٤. سفر أستير، وبالعبرية «أستير אסתר».

٣٥. سفر دانيال، وهو مزيج من اللغتين العبرية والآرامية الغربية، وبالعبرية «دانيئيل דניאל».

٣٦. سفر عزرا، وهو مزيج من اللغتين العبرية والآرامية الغربية، وبالعبرية «عزرا עזרא».

٣٧. سفر أخبار الأيام الأول، وبالعبرية «دبري هاياميم أليف דברי הימים א'».

٣٨. سفر أخبار الأيام الثاني، وبالعبرية «دبري هاياميم بيت דברי הימים ב'».

وقد يضاف إليها:

٣٩. سفر نَحْمِيَا، وبالعبرية «نحميه נחמיה». ولربما جُعل ضمن سفر عزرا، ليصباحا كتاباً واحداً.

• الكتاب المقدس:

يؤمن النصارى بمجموعة كتب سماوية ودينية تجتمع كلها تحت عنوان «الكتاب المقدس»، والذي ينقسم بدوره إلى قسمين:

١. العهد القديم: مجموعة أسفار التَّخ «ما قبل الإنجيل».

٢. العهد الجديد: ويشتمل على الأناجيل الأربعة وبعض الكتب الأخرى.

وحيث لا يؤمن اليهود بالأناجيل وبسائر الكتب الموجودة في العهد الجديد، لذا فلا توجد عندهم تسمية العهد القديم والجديد، بل يطلقون على العهد القديم بالنسبة إلى النصارى عنوان «التَّخ» كما مرّ.

يشتمل العهد الجديد على سبعة وعشرين سفرًا فيما يلي أسماؤها :

١. إنجيل مَتَّى.

٢. إنجيل مَرْقس.

٣. إنجيل لوقا.

٤. إنجيل يوحنا.

وفي الأصل فإن لفظ الإنجيل مختص بهذه الأسفار الأربعة، وهو لفظ معرَّب، أصله في اليونانية «إنكليوس»، وفي القبطية «إنكليون»، ومعناه: البشارة والتعليم والخبر السار. وقد يتسامح البعض ويُطلق على كل أسفار العهد الجديد عنوان «الإنجيل»، بينما مُلحقات العهد الجديد تشتمل على كتابات لبعض الحواريين وشخصيات أخرى مرتبطة التاريخ المسيحي القديم:

٥. سفر أعمال الرسل.
٦. رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية.
٧. رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس.
٨. رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس.
٩. رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية.
١٠. رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس.
١١. رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي.
١٢. رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي.
١٣. رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكى.
١٤. رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل تسالونيكى.
١٥. رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس.
١٦. رسالة بولس الرسول الثانية إلى تيموثاوس.
١٧. رسالة بولس الرسول إلى تيطس.
١٨. رسالة بولس الرسول إلى فلپمون.
١٩. الرسالة إلى العبرانيين.
٢٠. رسالة يعقوب.
٢١. رسالة بطرس الأولى.

٢٢. رسالة بطرس الثانية.

٢٣. رسالة يوحنا الأولى.

٢٤. رسالة يوحنا الثانية.

٢٥. رسالة يوحنا الثالثة.

٢٦. رسالة يهوذا.

٢٧. سفر الرؤيا.

وبهذا يكون مجموع أسفار الكتاب المقدس عند النصارى على حسب التوراة العبرانية: العهد القديم «٣٩» + العهد الجديد «٢٧» = ٦٦ سفرًا .

إسماعيل في

الأرض الحرام

إسماعيل في الأرض الحرام

من القصص المعروفة والمشهورة بين الناس خبر اصطحاب النبي إبراهيم الخليل «عليه السلام» هاجرَ وابنه إسماعيل «عليه السلام» إلى حيث مكة المكرمة، وذلك بضغط من زوجه سارة التي كانت تغار من خادماتها، وصار هذا في ما بعد سبباً في وجود بلدة مأهولة بالسكان وذات قدسيّة خاصّة، هي مكة المكرمة، وما ترتّب على ذلك من بناء - أو إعادة بناء - الكعبة المشرفة.

• مصدر القصة:

مصدر هذا تصوّر ما جاء في بعض الأخبار المروية في كتب الحديث لدى المسلمين، ومن ذلك ما رواه المجلسي عن: (تفسير علي بن إبراهيم: أبي، عن النضر، عن هشام، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: إن إبراهيم «عليه السلام» كان نازلاً في بادية الشام، فلما وُلد له من هاجر إسماعيل «عليه السلام» اغتمّت سارة من ذلك غماً شديداً لأنّه لم يكن له منها ولد، وكانت تُؤذي إبراهيم في هاجر، فتغمّه، فشكا إبراهيم ذلك إلى الله «عز وجل»، فأوحى الله إليه: إنّما مثّل المرأة مثل الضلع العوجاء،

إِنْ تَرَكْتَهَا اسْتَمْتَعَتْ بِهَا، وَإِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا^(١). ثم أمره أَنْ يُخْرِجَ إسماعيل «عليه السلام» وأمه عنها، فقال: يا رب إلى أي مكان؟ قال: إلى حَرَمِي وَأَمْنِي وَأَوَّلَ بَقْعَةٍ خَلَقْتُهَا مِنَ الْأَرْضِ وَهِيَ مَكَّةَ^(٢)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ جِبْرَائِيلَ بِالْبَرَقِ فَحَمَلَ هَاجِرَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ «عليه السلام»، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ لَا يَمُرُّ بِمَوْضِعٍ حَسَنٍ فِيهِ شَجَرٌ وَنَخْلٌ وَزَرْعٌ إِلَّا وَقَالَ: يَا جِبْرَائِيلُ إِلَى هَهنا إِلَى هَهنا^(٣)، فيقول جبرئيل: لا، امضِ امضِ، حتى وافى به مكة، فوضعه في موضع البيت، وقد كان إبراهيم «عليه السلام» عاهد سارة أَنْ لَا يَنْزِلَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا نَزَلُوا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ كَانَ فِيهِ شَجَرٌ^(٤)، فَأَلْقَتْ هَاجِرُ عَلَى ذَلِكَ الشَّجَرِ كِسَاءً كَانَ مَعَهَا، فَاسْتَظَلُّوا تَحْتَهُ، فَلَمَّا سَرَّحَهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَوَضَعَهُمْ وَأَرَادَ الْانْصِرَافَ عَنْهُمْ إِلَى سَارَةَ قَالَتْ لَهُ هَاجِرُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، لِمَ تَدْعُنَا فِي مَوْضِعٍ لَيْسَ فِيهِ أُنَيْسٌ وَلَا مَاءٌ وَلَا زَرْعٌ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أَضْعُكُمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ هُوَ يَكْفِيكُمْ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُمْ، فَلَمَّا بَلَغَ كَدَى وَهُوَ جَبَلٌ بَنِي طَوًى^(٥) التفت إليهم إبراهيم فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ

١. هذه واحدة من الأفكار الإسرائيلية التي أَقْبَحَتْ فِي رِوَايَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَبِشْكَالٍ مُتَكَرِّرٍ، وَفِيهَا احْتِقَارٌ لِلْأَنْثَى مَعَهُودٌ فِي ثِقَافَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْعَرَبِ الْجَاهِلِيِّينَ.

٢. جيولوجياً لا معنى لهذا الكلام.

٣. لماذا يطلب النبي إبراهيم النزول في هذه الأماكن على الرغم من أن الله أخبره - بحسب الرواية - أن مقصده مكة؟

٤. في الآية ٢٧ من سورة إبراهيم وعلى لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.. ألا يخالف مضمون الرواية ما جاء في الخبر؟ نعم، يمكن أن يقال أن الزرع هو المثمر من الشجر، ولا دليل على أن تلك الأشجار كانت مثمرة.

٥. كدى: من جبال مكة المكرمة. وطوى: وادي يقع شمال المسجد الحرام.

الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»^(١) ثم مضى وبقيت هاجر، فلما ارتفع النهار عطش إسماعيل وطلب الماء فقامت هاجر في الوادي في موضع المسعى فنادت: هل في الوادي من أنيس؟ فغاب إسماعيل عنها^(٢) فصعدت على الصفا، ولمع لها السَّراب في الوادي وظنَّت أنه ماء، فنزلت في بطن الوادي وسعت، فلما بلغت المسعى غاب عنها إسماعيل، ثم لمع لها السراب في ناحية الصفا، فهبطت إلى الوادي تطلب الماء، فلما غاب عنها إسماعيل عادت حتى بلغت الصفا فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات، فلما كان في الشوط السابع وهي على المروة نظرت إلى إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه، فعدَّت^(٣) حتى جمعت حوله رملاً، فإنه كان سائلاً، فزمتَه بما جعلته حوله، فلذلك سُمِّيَتْ زمزم^(٤)، وكان جرهم^(٥) نازلة بذي المجاز^(٦) وعرفات، فلما ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحش على الماء، فنظرت جرهم إلى تعكف الطير على ذلك

١. سورة إبراهيم: ٣٧.

٢. أي ابتعدت بحيث لم تعد تراه.

٣. في المصدر: «و سَعَت تطلب»، وفي نسخة: قعدت. وفي نسخة: فعمدت.

٤. أي حفظته من الضياع. قال المجلسي: (قوله: «فلذلك سُمِّيَتْ» يحتمل أن يكون مبنياً على أن زمزم يكون بمعنى الحبس والمنع، أو الماء الممنوع من الجريان، وإن لم يذكره اللغويون، ويحتمل أن يكون المراد أنها لكثرتها وسيلانها قبل الزمّ سُمِّيَتْ زمزم، أو أنها لما منعت من السيلان واحتبست كثرت في مكان واحد فلذلك سميت به).

٥. قبيلة يمانية. قال ابن كثير في «البداية النهاية» عند الحديث عن النبي إسماعيل: (ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون في أنسابهم إلى ولديه نابت وقيدر، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمور الحاكم في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم: نابت بن إسماعيل، وهو ابن أخت الجرهميين. ثم تغلبت جرهم على البيت طمعاً في بني أختهم، فحكموا بمكة وما والاها عوضاً عن بني إسماعيل مدة طويلة).

٦. موقع لسوق من أسواق العرب على بعد ٥ كم تقريباً إلى الشرق من عرفات.

المكان، واتبعوها حتى نظروا إلى امرأة وصبيّ نازلين في ذلك الموضع، قد استظلّا بشجرة، وقد ظهر الماء لهما، فقالوا لهاجر: من أنت؟ وما شأنك وشأن هذا الصبي؟ قالت: أنا أم ولد إبراهيم، خليل الرحمن، وهذا ابنه، أمره الله أن ينزلنا هنا. فقالوا لها: فتأذنين لنا أن نكون بالقرب منكم؟ قالت لهم: حتى يأتي إبراهيم «عليه السلام»، فلما زارهم إبراهيم يوم الثالث^(١) قالت لهاجر: يا خليل الله، إنّ ههنا قوماً من جرهم يسألونك أن تأذن لهم حتى يكونوا بالقرب منا، أفتأذن لهم في ذلك؟ فقال إبراهيم: نعم، فأذنت هاجر لجرهم، فنزلوا بالقرب منهم وضربوا خيامهم، فأنسّت هاجر وإسماعيل بهم، فلما زارهم إبراهيم في المرة الثالثة نظر إلى كثرة الناس حولهم فسرّ بذلك سروراً شديداً، فلما ترعرع إسماعيل «عليه السلام» وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كل واحد منهم شاة وشاتين، وكانت هاجر وإسماعيل يعيشان بها، فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال أمر الله إبراهيم «عليه السلام» أن يبني البيت، فقال: يا رب، في أية بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلتُ على آدم القبة^(٢)، فأضاء لها الحرم، فلم تزل القبة التي أنزلها الله على آدم قائمة حتى كان أيام الطوفان أيام نوح «عليه السلام»، فلما غرقت الدنيا رفع الله تلك القبة وغرقت الدنيا إلا موضع البيت، فسمّيت البيت العتيق، لأنه أعتق من الغرق، فلما أمر الله «عز وجل» إبراهيم أن يبني البيت لم يدّر في أيّ مكان يبنيه، فبعث الله

١. هنا نعرف لماذا أقحم الراوي - واضع الخبر - البراق في تفاصيل القصة، وذلك لكي يبرّر هذا التنقّل عبر مئات الكيلومترات من الشام إلى مكة في فترات زمنية قصيرة بالنسبة إلى وسائل النقل في ذلك الزمان.

٢. القبة نوع من الخيام التي تُصنع من جلود الأنعام عادة، كخيام القبائل التركية.

جبرئيل «عليه السلام» فخطَّ له موضع البيت، فأُنزل الله عليه القواعد من الجنة. وكان الحجر الذي أنزله الله على آدم أشدَّ بياضاً من الثلج، فلما مسَّته أيدي الكفار اسودَّ، فبنى إبراهيم البيت ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى، وفرَّعه في السماء تسعة أذرع^(١)، ثم دلَّه على موضع الحجر، فاستخرجه إبراهيم ووضعه في موضعه الذي هو فيه الآن، وجعل له بابين: باباً إلى المشرق، وباباً إلى المغرب، والباب الذي إلى المغرب يسمى المُستجار، ثم ألقى عليه الشجر والإذخر^(٢)، وعلَّقت هاجر على بابه كساءً كان معها، وكانوا يكونون تحته، فلما بناه وفرغ منه حج إبراهيم وإسماعيل، ونزل عليهما جبرئيل يوم التروية لثمان من ذي الحجة فقال: يا إبراهيم، قم فارتو من الماء، لأنه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسُمِّيت التروية لذلك، ثم أخرجته إلى منى فبات بها ففعل به ما فعل بآدم «عليه السلام»، فقال إبراهيم «عليه السلام» لما فرغ من بناء البيت: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٣) قال: من ثمرات القلوب، أي حبَّهم إلى الناس لينتابوا إليهم و يعودوا إليه^(٤).

• في العهد القديم:

لذات القصة ذكْرٌ في التَّنْخ، مع اختلاف في التفاصيل، حيث جاء فيها أن هاجر كانت خادمة لدى سارة زوج النبي إبراهيم «عليه السلام»، وأنها كانت

١. أي أربعة أمتار ونصف المتر تقريباً.

٢. من النباتات الصحراوية العطرية التي تنبت في مكة.

٣. سورة البقرة: ١٢٦.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٩٦-١٠٠.

مصرية، وحيث أن إبراهيم لم يُرزق بذرية من سارة، فقد قرّرت أن تزوجه خادمتها، لعلّها تأتي له بولد: (وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجِرُ، فَقَالَتْ سَارَايُ لِأَبْرَامَ: «هُذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَني عَنْ الْوِلَادَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزِقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشْرِ سَنِينَ لِإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كِنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لِأَبْرَامَ رَجُلَهَا زَوْجَةً لَهُ فَدَخَلَ عَلَى هَاجَرَ فَحَبَلَتْ) (١).

وهكذا تحقق لإبراهيم وسارة ما أرادا، إلا أن هاجر - بحسب هذا النص التوراتي - تكبرت على مولاتها بعد أن رأت أنّ هذا الحمل سيرفع من شأنها في عيني إبراهيم: (وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبَلَتْ صَغُرَتْ مَوْلَاتُهَا فِي عَيْنَيْهَا. فَقَالَتْ سَارَايُ لِأَبْرَامَ: «ظُلْمِي عَلَيْكَ! أَنَا دَفَعْتُ جَارِيَتِي إِلَى حِضْنِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبَلَتْ صَغُرَتْ فِي عَيْنَيْهَا. يَقْضِي الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ». فَقَالَ أَبْرَامُ لِسَارَايَ: «هُذَا جَارِيَتُكَ فِي يَدِكَ. افْعَلِي بِهَا مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكَ». فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهَهَا) (٢).

وتنتقل القصة بعد ذلك لوصف حال هاجر الهاربة والحزينة التي تتدخل يد العناية الإلهية من أجل إعادتها إلى بيتها والبشارة العظيمة التي سيبشرها بها الملك: (فَوَجَدَهَا مَلَائِكَةُ الرَّبِّ عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ فِي الْبَرِّيَّةِ، عَلَى الْعَيْنِ الَّتِي فِي طَرِيقِ شُورَ) احتمال بعض مفسري التوراة أنها كانت متجهة إلى مصر

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ١٦: ١-٤.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ١٦: ٤-٦.

موطنها الأصلي، فقد وُصفت شور في التَّخ بأنها «أمام مصر»، أي شرق مصر أو على حدودها الشرقية، أي في الجزء الشمالي الغربي لشبه جزيرة سيناء. وفي نص آخر أن النبي موسى قاد بني إسرائيل بعد عبور البحر الأحمر من شواطئ البحر إلى برية شور (وَقَالَ: «يَا هَاجِرُ، جَارِيَةَ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟»). فَقَالَتْ: «أَنَا هَارِبَةٌ مِنْ وَجْهِ مَوْلَاتِي سَارَايَ». فَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «ارْجِعِي إِلَى مَوْلَاتِكَ وَأَخْضِعِي تَحْتَ يَدَيْهَا». وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أَكْثَرَ نَسْلِكَ فَلَا يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ». وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «هََا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِيْنَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكَ»^(١). فبحسب هذا النص، فإن اسم «إسماعيل» يعني الذي سمعه الله أو الله يسمع أو سميع الله.

ويستكمل النص التوراتي عرض الأحداث: (فَوَلَدَتْ هَاجِرُ لَأَبْرَامَ ابْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجِرُ «إِسْمَاعِيلَ». كَانَ أَبْرَامُ ابْنُ سِتِّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجِرُ إِسْمَاعِيلَ لَأَبْرَامَ)^(٢).

ويعود الإصحاح الحادي والعشرين ليتحدّث عن حمل سارة، وغيرها المجدّدة، ولكن هذه المرّة من إسماعيل، لتقرّر على إثر ذلك أن تبعده وأمّه من أمام ناظريها: (وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لِإِبْرَاهِيمَ يَمْرُحًا، فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لِأَنَّ ابْنَ هَذِهِ الْجَارِيَةِ لَا يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ»). فَقُبِحَ الْكَلَامُ جَدًّا فِي عَيْنَيِ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ. فَقَالَ

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ١٦: ٧-١١.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ١٦: ١٥-١٦.

اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: «لَا يَقْبَحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلَامِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَّتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لِأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَاجِدٌ أُمَّةً لِأَنَّهُ نَسْلُكَ»^(١). لا يخفى ما في هذا المقطع من نظرة عنصرية ترفع من شأن إسحاق وذريته، ومنهم بنو إسرائيل فيما بعد، معتبرة أن الامتداد الحقيقي لإبراهيم في ذريته إنما جاء من هذا الفرع الإسحاقى، دون التغافل عن أن نسل إبراهيم سيكثر من جهة ابنه الآخر والأكبر إسماعيل، إلا أن هذا الامتداد الآخر يأتي برتبة متأخرة لاسيما بلحاظ أنه ابن الجارية! واستجابة لأمر الرب بالنزول عند إرادة سارة: (فَبَكَرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقَرِيبَةً مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لَهَا جَرًا، وَاضْعَا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفَيْهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةٍ بئرِ سَبْعِ)^(٢).

بئر السبع، وفي العبرية: «בְּרִית שָׁבַע»، وتلفظ بئر شيبا من أكبر وأقدم مدن فلسطين التاريخية، تقع على بُعد ٧١ كم جنوب غرب القدس. وهي أكبر مدن منطقة النقب الصحراوية، وتسمى أحياناً «عاصمة النقب». وتعتبر المدينة، المركز الإداري والتجاري لهذه المنطقة التي تمتد جنوباً حتى مدينة إيلات. أي أننا نتحدث عن نقل هاجر وابنها إلى منطقة ضمن الأراضي الفلسطينية، ولا تبعد كثيراً عن المنطقة التي يسكن فيها إبراهيم وسارة. وبذا تختلف القصة التوراتية عن القصة القرآنية، وعن روايات المسلمين.

نعود من جديد إلى النص التوراتي: (وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقَرِيبَةِ طَرَحَتْ

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ٩-١٢.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ٩-١٤.

الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الْأَشْجَارِ، وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمِيَةِ قَوْسٍ،
لأنَّهَا قَالَتْ: «لَا أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. فَسَمِعَ
اللَّهُ صَوْتَ الْغُلَامِ، وَنَادَى مَلَاكَ اللَّهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكَ يَا
هَاجِرُ؟ لَا تَخَافِي، لَأَنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ لَصَوْتَ الْغُلَامِ حَيْثُ هُوَ. قَوْمِي أَحْمِلِي
الْغُلَامَ وَشُدِّي يَدَكَ بِهِ، لِأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». وَفَتَحَ اللَّهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ
بُئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلَأَتِ الْقَرْيَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلَامَ. وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْغُلَامِ فَكَبُرَ،
وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِي قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ
زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ^(١).

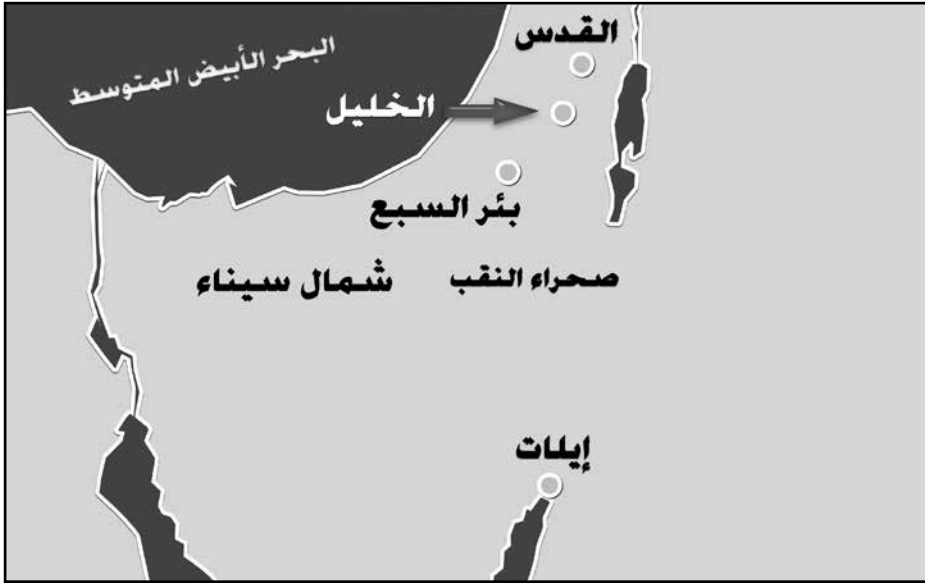
هل يتعارض ذكر «برية فاران» مع ذكر «بئر السبع» بحيث يمكن القول بأن
تحريفاً وقع في النص، انطلاقاً من أن فاران جبل في الحجاز بحسب كلمات
بعض الباحثين المسلمين، بينما المُدَّعى في النص التوراتي أن القصة وقعت
في فلسطين؟

علماً بأن «فاران» ذكرت في أكثر من موقع من الكتاب المقدس ومن بينها
هذا النص: (جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سَيْنَاءَ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرٍ وَتَلَأَلَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ
وَأَتَى مِنْ رِبَوَاتِ الْقُدْسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارٌ شَرِيعَةٌ لَهُمْ)^(٢).

وقد علّق «القُمُص عبدالمسيح بسيط» على تفسير بعض الباحثين
المسلمين على هذا النص فقال: (أين هو الموقع الحقيقي لفاران؟ وبالرغم
من وضوح المعنى والقصد في الآيات السابقة إلا أن بعض الكتاب من الإخوة

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ١٥-٢١.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التثنية ٣٣: ٢.



المسلمين قالوا أن «مجيئه من سيناء يعني إعطاؤه التوراة لموسى، وإشراقه من سعيير يعني إعطاؤه الإنجيل لعيسى، وتلكؤه من فاران يعني إنزاله القرآن على نبي المسلمين، لأن فاران من جبال مكة»!! وقال أحد هؤلاء الكتّاب «لكن تذكر التوراة أيضاً أن إسماعيل قد نشأ في بريّة فاران «تكوين ٢١/٢١» ومن المعلوم تاريخياً أنه نشأ في مكة المكرمة في الحجاز»!! وقد اختلف هؤلاء الكتّاب في تحديد موقع فاران ولم يتفقوا على شيء:

١. فقال الشيخ «رحمة الله الهندي» فاران جبل بمكة: «استعلانه من جبل فاران تعنى إنزاله القرآن، لأن فاران جبل من جبال مكة»!! هكذا دون توثيق!!
٢. وقال محمد الشرقاوى أنها بلاد الحجاز نفسها: «فاران هي بلاد الحجاز التي هاجر إليها إبراهيم ووُلد فيها النبي»!! ولم يذكر لنا خريطة تدل على ذلك!!

٣. ولمّا وجد إبراهيم خليل أحمد أنه لا يوجد لا جبل ولا بلد في بلاد الحجاز تُسمّى باسم فاران قال أنها مجرد مجاز: «فاران مجاز عن الأرض التي سكن فيها جدّ الرسول الكريم سيدنا إسماعيل»!!

٤. وقال بشري زخاري أنها بريّة من جبال مكة: «فاران برية بين ثلاث جبال بمكة هي أبو قيس وقيعان^(١) وجبل حراء، وفيها سكن إسماعيل»!! وليته يدلّنا على خريطة واحدة أو مرجع واحد يثبت صحة مزاعمه!!

٥. وعندما وجد د. السقا أن هذه الاستنتاجات غير مجدية فقد حاول تأويلها بقوله أنّ فاران سُكنى بنى إسماعيل، وحيث أنّ إسماعيل له بركة وقد ظهر في بني إسماعيل نبي في مكان سكناه وانتشر دينه شرقاً وغرباً، فيكون المعنى بالتلاؤم من جبل فاران، يُشير إلى بدء بركته!!

٦. وقال أبو عبيد الله القضاي في كتابه تخطيط مصر أنّ فاران، والطور كورتان من كور مصر القبلية، وفاران من قرى صفد سمرقند، ويُنسب إليها أبو منصور الفاراني. «تخطيط مصر للقضاي». ولم يقل أنّ فاران جبل في مكة إلا ياقوت في كتابه «المشترك وضعاً والمختلف صقعا»: «فاران اسم جبال مكة. وقيل اسم جبال الحجاز. وقال أبو عبيد القضاي في كتاب خطط مصر: وفاران والطور كورتان من كور مصر القبلية. وفاران أيضاً من قرى صفد سمرقند، يُنسب إليها أبو منصور الفارابي». ومع ذلك لم يحدد يقيناً ذلك، إذ أنه قال أنّ فاران موجودة في أربعة محلات، وهي مكة والحجاز ومصر وبلاد فارس!! ومع ذلك تؤكد الآيات الكتابية التي وردت فيها كلمة

١. يقصد أبو قيس وقيعان.

فاران أنها تقع فيما بين مصر وفلسطين بالقرب من إيلات الحالية وتبعد عن مكة بحوالي ٥٠٠ كيلو متر!!

٧. بل وقد جاء في كتاب معجم البلدان أنَّ اسم «فيران، فيرن، فارايان، فاران» كلها أسماء مختلفة لجبل واحد يقع في المنطقة ما بين مصر والشام وعلى الأرجح في فلسطين»^(١).

ثم جاء الكاتب بعدة نصوص من مصادر كتابية تؤكد كلامه، لننتهي إلى نتيجة مفادها عدم التعارض بين ذكر استقرار هاجر وإسماعيل عند بئر السبع، وبين ذكر فاران بعد ذلك بحسب النص التوراتي.

بينما نجد في كتاب «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» محاولة مطوّلة لإثبات أن ذلك النص التوراتي تحدّث في الضمن عن بعثة النبي محمد «صلى الله عليه وآله» وأن ذكر «فاران» إشارة إلى مكة المكرمة، قال ابن قيم «ت ٧٥١ هـ»: (قد تقدّم نص التوراة: «تجلّى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران». قال علماء الإسلام - وهذا لفظ أبي محمد بن قتيبة - ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض، لأن المجيء أي مجيء الله من طور سيناء: إنزاله التوراة على موسى من طور سيناء كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير: إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح من ساعير، أرض الخليل، بقرية تدعى ناصرة، وباسمها تسمّى من أتبعه نصارى، وكما وجب

1. <https://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-005-Is-there-a-New-Prophet-After-Jesus/Is-Muhammad-After-Jesus-07-Chapter-6-Faran-VS-Timan.html>

أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران: إنزاله القرآن على محمد «صلى الله عليه وسلم» وجبال فاران هي جبال مكة، قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة، فإن ادّعوا أنها غير مكة - وليس يُنكر ذلك من تحريفهم وإفكهم - قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران؟! وقلنا لهم: دلّونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح. أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد، وهما ظَهَرَ وانكشَفَ، فهل تعلمون ديناً ظَهَرَ ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فبينوه لنا؟ قال علماء الإسلام: وساعير جبال بالشام، منه ظهور نبوة المسيح إلى جانب قرية بيت لحم - القرية التي وُلد فيها المسيح - تسمّى اليوم ساعير. وفي التوراة أن نسل العيص كانوا سكاناً بساعير، وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم. قال شيخ الإسلام: - يعني ابن تيمية «رحمه الله» - وعلى هذا فيكون قد ذكر الجبال الثلاثة، وحراء الذي ليس حول مكة أعلى منه ، وفيه ابتداء رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بنزول الوحي عليه، وحوله جبال كثيرة، وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم، والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برية فاران ، ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأماكن ولا بعث نبي، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد «صلى الله عليه وسلم» وهو «سبحانه» ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزمني، فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله «تعالى» وهدايته، وقال في الأول: جاء، وفي الثاني: أشرق،

وفي الثالث: استعلن، وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس، ونزول القرآن بمنزلة ظهور الشمس في السماء. ولهذا قال: واستعلن من جبال فاران، فإن محمداً «صلى الله عليه وسلم» ظهر به نور الله وهدهداه في مشرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس في مشارق الأرض ومغاربها إذا استعلت وتوسطت السماء، ولهذا سماه الله تعالى سراجاً منيراً، وسمى الشمس سراجاً وهّاجاً، والخلق يحتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهّاج، فإنّ هذا يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وأما السراج المنير فيحتاجون إليه كل وقت، وفي كل مكان ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية. وقد ذكر الله «سبحانه وتعالى» هذه الأماكن الثلاثة في قوله «تعالى»: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾^(١) وهو في الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح، وأنزل فيها الإنجيل، ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾^(٢) وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى «عليه السلام» تكليماً، وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة في الشجرة التي فيه، وأقسم بـ ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(٣) وهو مكة، التي أسكن إبراهيم إسماعيل وأمه فيه، وهو فاران كما تقدّم، ولما كان ما في التوراة خبراً عن ذلك أخبر به على الترتيب الزمني، فقدّم الأسبق، ثم الذي يليه، وأما القرآن فإنه أقسم به تعظيماً لشأنها، وإظهاراً لقدرته وآياته وكتبه ورساله، فأقسم بها على وجه التدرّج درجة بعد درجة، فبدأ بالعالِي، ثم انتقل إلى أعلى منه، ثم أعلى منه، فإنّ أشرف الكتب القرآن، ثم التوراة، ثم

١. سورة التين: ١.

٢. سورة التين: ٢.

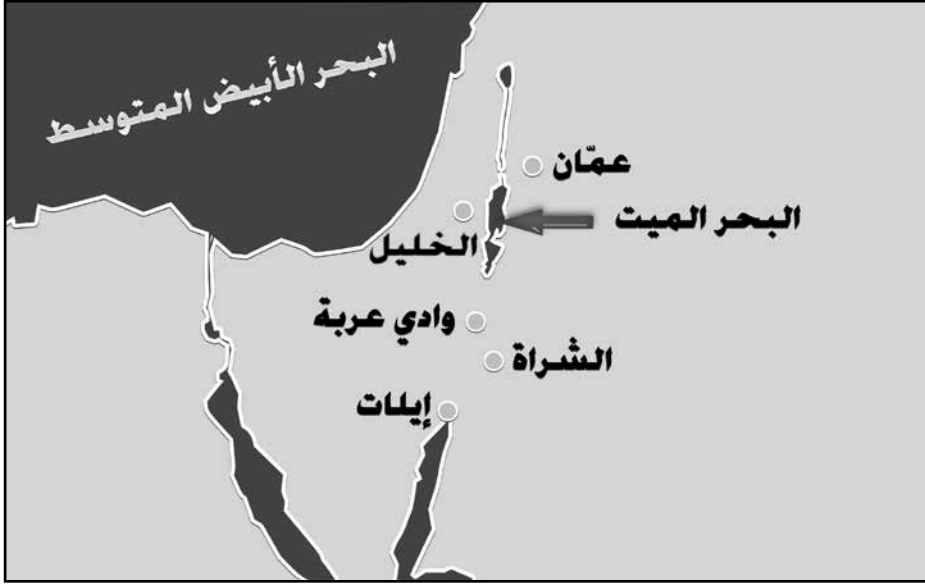
٣. سورة التين: ٣.

الإنجيل، وكذلك الأنبياء الثلاثة)^(١).

وهذه المحاولة من ابن قيّم وأستاذه ابن تيمية «ت ٧٢٨ هـ» تعتمد بشكل كبير على الاستنتاج، وينقصها الإثبات المادي القوي، وقد سبقهما إليها عدد من علماء المسلمين من بينهم من علماء الإمامية قطب الدين الراوندي «ت ٥٧٣ هـ» في كتابه «الخرائج والجرائح» حيث قال: (وقال في التوراة: «أقبل من سيناء، وتجلّى من ساعير، وظهر من جبل فاران» فسيناء جبل كلم الله عليه موسى، وساعير هو الجبل الذي بالشام كان فيه عيسى، وجبل فاران مكة. وفي التوراة: إنّ إسماعيل سكن بركة فاران، ونشأ فيها، وتعلم الرمي. فذكر الله فاران مع طور سيناء، وساعير التي جاء منها بأنبيائه - ومجيء الله إتيان دينه وأحكامه - فقد ظهر دين الله من مكة وهي فاران، فأتمّ الله تعالى هذه المواعيد لإبراهيم «عليه السلام» بمحمد - فظهر دين الله في مكة بالحج إليها، واستعلن ذكره بصراخ أصحابه بالتلبية على رؤوس الجبال وبطون الأودية، ولم يكن موجوداً إلا بمجيء محمد «صلى الله عليه وسلم» وغيره من ولد إسماعيل عبّاد أصنام، فلم يظهر الله بهم تبجيله. ويدل على تأويلنا ما قال في كتاب حبقوق^(٢): «سيد يجيء من اليمين مقدّس من جبل فاران يعطي السماء بهاءً، ويملأ الأرض نوراً، ويسير الموت بين يديه، وينفر الطير بموضع قديمه». وقال في كتاب حزقيل النبي لبني إسرائيل: «إني مؤيّد بني قيدر بالملائكة - وقيدر جد العرب ابن إسماعيل لصلبه - وأجعل الدين تحت أقدامهم فيدينونكم بدينهم، ويهمشون

١. ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص ٣٤٥-٣٤٧.

٢. من أسفار التّنخّ.



أنفسكم بالحمية والغضب. ولا ترفعون أبصاركم ولا تنظرون إليهم، وجميع رضاي يصنعونه بكم». وإن محمداً - أخرج إليهم من أطاعه من بني قيدر فيقتل مقاتليهم، وأيدهم الله بالملائكة في بدر والخندق وخيبر^(١).

كما قام الشيخ محمد جواد البلاغي «ت ١٣٥٢ هـ» في كتابه «الهدى إلى دين المصطفى» بمحاولة أخرى من خلال تتبع وصف المنطقة التي جاء فيها ذكر فاران في الكتاب المقدس في الأسفار المختلفة، وتبلغ ١٢ موضعاً، وتكلم حول ذلك كلاماً مفصلاً ثم قال مستنتجاً: (المراد من برية فاران هي البرية الواقعة في شرقي سلسلة جبل الشرات^(٢))، فإنه لا برية له في غربه، لأن غربه مضائق بالأردن وبحيرة لوط^(٣) ووادي العربية والبحر الأحمر، وهذه البرية

١. الراوندي: الخرائج والجرائح، ج ١، ص ٧٤-٧٥.

٢. وتكتب «الشراة».

٣. أي البحر الميت.

هي الشاملة للحجاز ومكة. فالتوراة ذكرت منزل إسماعيل في مكة والحجاز لا بالتعيين، بل بالجهة الشاملة. قال في الجلد السابع من دائرة المعارف ص ٦٩١: «الحجاز قيل، وأحسن ما قيل في تحديده ما قاله ابن الكلبي - وهو العلامة النسابة في أواخر القرن الأول من الهجرة - : إن الحجاز عبارة عن جبل الشرات وما اتصل به»^(١). ثم ردّ بالتفصيل على عدة إشكالات في المقام وبما يخرج عن غرض هذا البحث، ومَن أراد فليراجع الجزء الثاني من الكتاب. والحقيقة أنّ هذا التحليل الذي قدّمه العلامة البلاغي غير كافٍ أيضاً في إثبات أنّ فاران هي مكة أو الحجاز، والأمر بحاجة إلى أدلة أخرى نصيّة أوضح وأقوى دلالة.

وذكر السيد سامي البدر في كتابه «السيرة النبوية، تدوين مختصر» تحليلاً مختلفاً عما سبق، إذ اعتبر أنّ كلمة فاران قد لا تكون في النص التوراتي اسماً لمكان، بل وصفاً له، قال: (فاران «𐤕𐤓𐤕» وهي اسم من أسماء مكة، أو وصف مشهور لها، والكلمة لا يبعد أنها مشتقة من الفعل «𐤕𐤓» بمعنى: يُعظم، يُكرّم، يُمجّد، فهي تعني البريّة المُكرّمة أو المعظمة، وقد ورد في سفر التثنية: «وَهَذِهِ هِيَ الْبَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى، رَجُلُ اللَّهِ، بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: أَقْبَلَ الرَّبُّ مِنْ سَيْنَاءَ، وَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَاعِيرَ، وَتَأَلَّقَ فِي جَبَلِ فَارَانَ جَاءَ مُحَاطاً بِعَشْرَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ الْمُقَدَّسِينَ». وقوله: «وتألق في جبل فاران» وفي ترجمة أخرى: «وأشرق من جبل فاران» أي أشرق نور الرب من جبل فاران، إشارة إلى نبوة محمد «صلى الله عليه وآله»^(٢).

١. البلاغي: الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ١٥٩.

وهذا التحليل إن صحَّ يمكنه أن يفسّر لنا لماذا لا نجد اتفاقاً على أن فاران هي مكة، إلا أن هذه المحاولة تصطدم مرّة أخرى مع النص التوراتي الذي يقول: (فَبَكَرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْرًا وَقَرَبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لَهَا جَرًا، وَاضْعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفَيْهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةٍ بَيْتْرِ سَبْعٍ)^(١)، وهي كما ذكرت من قبل منطقة في جنوب فلسطين، وليست في الحجاز (.....) وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْغُلَامِ فَكَبُرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِي قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ)^(٢).

فالقصة التوراتية بهذه الصورة من الترجمة لا يمكنها إلا أن تُفسّر بأنها تتحدّث عن الهجرة إلى جنوب فلسطين فحسب، لا إلى الحجاز، وهذا يجعلنا نقول باحتمال وجود تحريف في الترجمة أو في أصل النص المدوّن من قبل عزرا الكاتب حين أعاد كتابة التوراة بعد انتهاء السبي البابلي.

• تقييم القصتين:

قد تكون بعض أجزاء الخبر الذي جاء في كتاب تفسير علي بن إبراهيم القمّي صحيحة، بالإضافة إلى بعض ما جاء في التّنخ، إلا أنه لا بد وأن نقرّر مسألة مهمّة وهي أن خروج إبراهيم بابنه إسماعيل وهاجر إلى منطقة بعيدة جداً قطع خلالها مئات الكيلومترات بحسب القصة الإسلامية، لم يكن استجابة لضغوطات سارة، وإلا لاكتفى بأن يُسكنهما في إحدى المدن أو القرى القريبة من البلدة الفلسطينية التي كان يقطن فيها آنذاك مع سارة، وذلك

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ٩-١٤.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ٢٠-٢١.

كي يتسنى له الاطمئنان على ابنه وهاجر على الأقل من حين إلى آخر، هذا ما يقتضيه التصرف العقلاني، لا أن يأخذه وأمه ليضعهما في صحراء قاحلة تبعد مئات الكيلومترات وحيث لا ماء هناك ولا أمان.

لقد كان التصرف الإبراهيمي استجابة لأمر الله «عز وجل» لتحقيق غاية مهمة، تجلت فيها الثقة الكبيرة بالله، ولخصتها الآية الشريفة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(١).

وفي رواية الطبري عن ابن عباس - إن صحّت - ما يدلّ على أن هاجر أيضاً كانت على ثقة عظيمة بالله «عز وجل»، قال: (جاء نبيّ الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر، فوضعهما بمكة في موضع زمزم، فلما مضى نادته هاجر: يا إبراهيم. إنما أسألك ثلاث مرات^(٢): من أملك أن تضعني بأرض ليس فيها ضرع ولا زرع، ولا أنيس، ولا زاد ولا ماء؟ قال: ربي أمرني، قالت: فإنه لن يضيعنا. قال:

١. سورة إبراهيم: ٣٥-٤١.

٢. لعل المراد: لثالث مرة.

فلما قفا إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنُ﴾ يعني من الحزن ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١).

وأما الغاية من هذه الهجرة، فكانت تأسيس البلد الحرام وبناء أو إعادة بناء الكعبة المشرفة، وما سيطرت على ذلك من تهيئة للبيئة المؤمنة الموحدة في شبه الجزيرة العربية، وما تمثلت الصلاة من مظهر للعبودية الخالصة له «عز وجل». أي أن تلك الهجرة كانت لله وفي سبيل الله، لبذر نواة التوحيد التي أراد الله لها أن تستمر عبر القرون، ثم ليخرج من البلد الحرام الذي سيتأسس - ولو بعد قرون متمادية - ذلك الرسول الذي ينحدر من ذريته الإسماعيلية، ليكمل مسيرة الرسل ويتمم الرسالات: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

١. الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج ١٧، ص ٢٠.

٢. سورة البقرة: ١٢٥-١٢٩.

تاريخ وجود مكة

تاريخ وجود مكة

أين يقع المسجد الحرام؟ وما هي كعبة المسلمين؟ وما هي المدينة المقدسة التي تحتضنها؟ ثم أين تقع القبلة الحقيقية للمسلمين.. هل هي في مكة المكرمة أم في مدينة أخرى تبعد عنها مئات الكيلومترات؟

قد يستغرب القاريء هذه التساؤلات ويستهجنها، إلا أن بعض الملاحظة وأشباههم وبعض المحاربين للإسلام قاموا بنشر مقطع تسجيلي، وفصل من كتاب «الجغرافيا القرآنية» للباحث الكندي المعاصر «دان جيبسون»، حيث يطرح هذه التساؤلات، ويثير جواً من التشكيك في بعض مسلمّات المسلمين. وكان لزخم الحملة الإعلامية بهذا الاتجاه، وطريقة تقديم المعلومات المتلاعب بها، وسطحية المعلومات وضعفها لدى كثير من الشباب في ما له علاقة بالقرآن الكريم والتاريخ واللغة والفقه، دورٌ في وقوعهم في الفخ.

• ادّعاءات جيبسون:

قال جيبسون - وباختصار - أن:

١. الأدلة - بما في ذلك القرآن - تُثبت أن النبي لم يولد ولم يعيش بمكة، وإنما في البتراء بالأردن.



٢. والدا النبي - من الأنباط، ولم يكونا من قريش! علماً بأن الأنباط عرب هاجروا من الجزيرة العربية في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً، واستقروا جنوب بلاد الشام.

٣. مكة لم تُذكر نهائياً في أي مصدر تاريخي قبل القرن السابع الميلادي.

٤. الوصف الخاص بالأرض الحرام في القرآن إنما ينطبق على البتراء لا على مكة.

٥. العرب كانوا يحجّون إلى البتراء لا إلى مكة.

٦. مما سبق يتضح أنّ قبلة كل المساجد، ولأكثر من مائة سنة من الهجرة، كانت باتجاه البتراء، وأنّ الأمويين وابن الزبير ثم العباسيين هم من زوّروا القبلة وجعلوها نحو الكعبة حيث مكة، وتم الانتهاء من تحويل كل المساجد إلى القبلة الجديدة بعد قرنين تقريباً من هجرة النبي!

٧. كل المصاحف كانت خالية من آيات تحويل القبلة، وأن هذه الآيات أُضيفت لاحقاً.

٨. كل ما ورد في كتب المسلمين عن القبلة وكونها باتجاه مكة مزور ولا قيمة له، وقد وُضع من قبل السلطات لِيخدم مشروع تزوير قبلة المسلمين وأرضهم المقدسة.

هذه تقريباً خلاصة الأفكار التي طرحها جيبسون، ومن تكون له شيء من الدراية التاريخية والقرآنية والفقهية واللغوية يدرك كيف يتلاعب جيبسون في «الأدلة» المدّعاة على صحة نظريته، لاسيّما وأننا نعرف أن من السهل أن تدّعي ما تشاء، ولكن الأهم أن تثبت صحة كلامك.

ولا أدري كيف فلتت أو تم محو المعلومة المدّعاة - على مستوى الحفظ والتدوين - بأن النبي ولد وعاش في البتراء تبعاً لوالديه، وأن العرب كانوا يحجّون إليها لا إلى مكة، وأن القبلة كانت باتجاه البتراء... إلخ من كل المؤلفات والنصوص والقصائد والأدبيات وكتب التفسير والحديث والتاريخ والفقه والأدب والتراث، بحيث لم تصل إلينا ولو مجرد إشارة بذلك، بينما «اهتدى» إليها هذا الباحث الكندي بعد كل هذه القرون وعلى طريقة الاستنتاجات المزاجية بقبول ما يشاء من نصوص قرآنية وغير قرآنية، ورفض ما يشاء منها دون أية معايير علمية؟!

• ذكر مكة في المصادر:

ما يهمني هنا في هذا البحث هو الرد على ادّعائه بعدم وجود أي مرجع تاريخي ذكر مكة المكرمة قبل القرن السابع الميلادي، في الوقت الذي

نجدها مذكورة - وبالاسم - في العهد القديم «التنخ» من الكتاب المقدس وفي نص يعود تاريخه إلى قبل ٣٠٠٠ سنة تقريباً؟

ولننطلق - بدءاً - من قوله «عز وجل»: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١). إذاً الحديث في الآية يدور حول:

١. بيت الله «عز وجل» الذي بناه إبراهيم «عليه السلام» ببكة.
 ٢. وعند هذا البيت علامات وآيات بيّنات وواضحات على أن هذا هو البيت المقصود هنا.
 ٣. ومن هذه العلامات وجود مقام إبراهيم عنده، أي أن تاريخه يعود إلى ما قبل ٢٥٠٠ سنة من البعثة النبوية الشريفة.
 ٤. وأن هذا البيت يقع في الأرض الحرام.
- ولطالما تساءل المفسّرون لماذا ذكر الله «عز وجل» مكة هنا باسم آخر لها عُرِفَتْ به وهو «بكة»؟! وكلُّ منهم قدّم تفسيره الخاص بذلك.. ولكنّ الإجابة المفاجئة تُبيّن أنّ الأمر لم يكن اعتباطياً، بل هي رسالة إلى أهل الكتاب ليُدرِكوا أنّ القرآن من عند الله، وأنّ محمداً «صلى الله عليه وآله» رسول من عنده.
- ففي مزامير داود «عليه السلام» «الزبور» كلام عن الاشتياق إلى الحج، وإلى بيت الله الموجود في وادي بكة! وهذا ما يتحدّث عنه الإصحاح ٨٤ من السّفر

حيث جاء النص العربي كالتالي: (تَشْتَاقُ بَلَّ تَتُوقُ نَفْسِي إِلَى دِيَارِ الرَّبِّ.... طُوبَى لِلْسَّاكِنِينَ فِي بَيْتِكَ، أَبَدًا يُسَبِّحُونَكَ. سَلَاةً. طُوبَى لِلْأُنَاسِ عِزُّهُمْ بِكَ. طُرُقُ بَيْتِكَ فِي قُلُوبِهِمْ. عَابِرِينَ فِي وَادِي الْبُكَاءِ)^(١). وهنا وقع التحريف في الترجمة.. فهل ذكر النص الأصلي «وادي البكاء» أم «وادي بكّة»؟

في ١٤ ترجمة باللغة الإنجليزية - على سبيل المثال - جاءت الكلمة «بكّة»^(٢): As they pass through the Valley of Baka / Baca.

وفي النص العبري:

וַיַּעֲבִירֵם בְּעֵמֶק הַבִּקְעָה... (يعبري بعمق هبكه...)

yBUrY B'yMQ HBK'a'^(٣)

وهناك مورد آخر أقدم منه زمنًا حيث يعود إلى عهد النبي موسى «عليه السلام». ففي الإصحاح ١٠ من سفر التكوين من التوراة نجد اليوم في الترجمة العربية نصاً يتحدث عن بعض قبائل العرب ثم يقول: (جَمِيعُ هَؤُلَاءِ بَنُو يَقْطَانَ. وَكَانَ مَسْكَنُهُمْ مِنْ مِيشَا....)^(٤).

هكذا نجد الترجمة في النسخ العربية الحديثة للكتاب المقدس، على خلاف ما جاء في ترجمة الرابي اليهودي سعيد «سعاديا» بن يوسف الفيومي والتي تُعدّ أول ترجمة للعهد القديم إلى العربية. وقد جاء في الموسوعة

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر المزامير ٨٤: ٢-٦.

2. <https://www.biblegateway.com/passage/?search=Psalm+84%3A6&version=NIV>

3. <https://www.hebrewoldtestament.com/B19C084.htm>

٤. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ١٠: ٢٩-٣٠.

البريطانية ما ترجمته: (سعاديا بن يوسف «٨٩٢-٩٤٢» هو أول من ترجم العهد القديم إلى العربية، كما كتب تفسيراً لمعظم أجزائه، وهو ما جعله متاحاً للجماهير اليهودية التي كانت لا تعرف العبرية. ويُعدُّ سعيد من أوائل الذين درسوا اللغة العبرية دراسة منهجية، وتُعدُّ ترجمته للتوراة هي أول وأهم التراجم العربية للتوراة على الإطلاق، وقد ترجمها سعاديا الفيومي مباشرة من العبرية وكتبها بالخط العبري، وأصبحت هي النسخة القياسية لجميع اليهود في البلاد الإسلامية. ولقد مارست هذه النسخة تأثيرها على نصارى مِصْرَ، وتبنى هذه الترجمة أبو الحسن السامري، ونقلها إلى التوراة السامرية في القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلادي).

والنص الإنجليزي من الموسوعة البريطانية^(١) كالتالي:

The first and most important was that of Sa'adia ben Joseph (892–942), made directly from Hebrew and written in Hebrew script, which became the standard version for all Jews in Muslim countries. The version also exercised its influence upon Egyptian Christians and its rendering of the Pentateuch was adapted by Abu al-Hasan to the Samaritan Torah in the 11th–12th centuries.

فقد ترجم الفيومي النص العبري كما يلي: (كل هؤلاء بنو قحطان وكان مسكنهم من مكة...) ^(٢)، وهي ذات الترجمة المعتمدة في نسخة للكتاب

1. -<https://www.britannica.com/topic/biblical-literature/Versions-after-the-4th-century#ref597417>

٢. الأعمال الكاملة لرابي سعيد الفيومي «التوراة العربية بالحروف العبرانية»، ج ١، ص ١٧.

بنو سام خوزستان والموصل وارتخشد ولوذ واروس * وبنو ارام النوبة والحولة والجرامقة وساش * وارتخشد اولد شالخ وشالخ اولد عابر * وولد لعابر اثنان اسم احدهما فالخ لانه في ايامه انقسمت الارض واسم اخيه قحطان * وقحطان اولد المذاذ والشلف وحصر موت ويارح * وهذورام واوزال ودقلا * واوبال وابيمائل وشبا * واونسير وحويلا ويوباب كل هولاء بنو قحطان * وكان مسكنهم من مكة الي ان تجي المدينة الي الجبل الشرقي * هولاء بنو سام لعشائيرهم والغاتهم في بلدانهم واممهم * هولاء عشائير بني نوح لتوالدهم واممهم ومنهم تفرقت الامم في البلد بعد الطوفان *

الفصل الحادي عشر

وكان جميع اهل الارض اهل لغة واحدة وكان الكلام واحدا * وكان لما رحلوا من المشرق وجدوا بقيعا في بلد الشينور فاقاموا ثم * وقال بعضهم لبعض تعالوا نلبن لبننا ونخبه طبخا فكان لهم اللبن كالحجارة والنفير كان لهم بدل الطين * وقالوا تعالوا لنبن لنا قرية ومجدلا راسه يداني السماء ونصنع لنا اسما كيلا يتبدد علي وجه الارض * فانحدر ملايكة لنظر القرية والمجدل الذي بناه بنو ادم * وقال الله هولاء هم شعب واحد ولغة واحدة لجميعهم وهذا ما اختاروا ان يفعلوه والآن لا يفوتهم جميع ما هموا به ليصنعوه * لكني اورد امرا اشنت به لغاتهم حتي لا يسمع كل فريق لغة صاحبه * وبددهم الله من ثم علي وجه جميع الارض وانتها عن بناء القرية * ولذلك اسميت بابل لان بها بلبل الله لغة اهل الارض ومن ثم بددهم الله علي جميع وجهها * هذا شرح اولاد سام لما كان سام ابن مائة سنة اولد ارتخشد لستين بعد الطوفان * وعاش بعد ذلك خمس مائة سنة اولد فيها بنين وبنات * ولما عاش ارتخشد خمسا وثلاثين سنة اولد شالخ * وعاش بعد ذلك اربعماية سنة وثلاث سنين اولد فيها بنين وبنات * ولما عاش شالخ ثلاثين سنة اولد عابر * وعاش بعد ذلك اربعماية سنة وثلاث سنين اولد فيها بنين وبنات * ولما عاش عابر اربعما وثلاثين سنة اولد فالخ * وعاش بعد ذلك مائتي سنة وتسع سنين اولد فيها بنين وبنات * ولما عاش رسو اثنين وثلاثين سنة اولد سروج * وعاش بعد ذلك مائتي سنة وسبع سنين اولد فيها بنين وبنات *

الكتاب المقدس - طبعة هدجسون ١٨٨١م

المقدس طُبعت في ١٨١١م على يد «سارا هدجسون» Sarah Hodgson وجاءت تحت عنوان «الكتب المقدسة وهي كتب العهد العتيق والعهد الجديد». وما سبق مجرد نموذج مما يفضح كذب التلفيقات التي ساقها جيبسون، والأدلة أكثر من ذلك، ومنها ما ذكره الجغرافي اليوناني بطليموس «ت ١٦٥م» عن مكة وباسم «ماكورابا» أي بيت الرب، وكلمات العديد من المستشرقين حول تاريخ مكة، فضلاً عن علماء المسلمين.

ولنأخذ ما جاء في «قصة الحضارة» للمؤرخ الأمريكي «ول ديورنت» حيث قال تحت عنوان «جزيرة العرب»: (توفي «جستيان»^(١) في عام ٥٦٥ وهو سيد إمبراطورية عظيمة، بعد خمس سنين من وفاته وُلد محمد في أسرة فقيرة

١. إمبراطور الروم الشرقية.

في إقليم ثلاث أرباعه صحراء مجدبة قليلة السكان، أهله من قبائل البدو الرحّل، إذا جمعت ثروتهم كلها فإنها لا تكاد تكفي إنشاء كنيسة أو صوفيا. ولم يكن أحد في ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضي قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد فتحو نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسية، وجميع بلاد الفرس، ومصر، ومعظم شمالي أفريقية، وساروا في طريقهم إلى أسبانيا. والحق أن ذلك الحادث الجلل الذي تمخّضت عنه جزيرة العرب، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى^(١).

ثم عند حديثه عن المعلقات قال: (ولم يكن في هذا السوق محكمون غير الجماهير المُنصّطة التي تبدي استحسانها لما تسمع أو احتقارها له. وكانت أحسن القصائد التي تقال في هذه السوق تُكتب بحروف جميلة براقة فسميت من أجل ذلك «بالمذهّبات»، وكان يُحتفظ بها في خزائن الأمراء والملوك تراثاً خالداً قيماً. وكان العرب يسمّون هذه القصائد أيضاً بالمعلقات لأن الفائز منها - كما تقول القصص المتواترة - قد كُتبت على الحرير المصري بأحرف من ذهب وعلقت على جدران الكعبة في مكة. وقد بقيت من هذه المعلقة التي قيلت في الجاهلية سبع قصائد يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي)^(٢).

ثم تحدّث عن مكة فقال: (وكانت مكة مركز عبادة الأصنام، ولم يكن

١. ديورنت: قصة الحضارة، ج ١٣، ص ٦-٧.

٢. ديورنت: قصة الحضارة، ج ١٣، ص ١٠.

سبب قيام هذه المدينة المقدسة في موضعها الذي قامت فيه هو جودة مناخها، ذلك أن الجبال الجرداء التي تكاد تطبق عليها من جميع الجهات تجعل صيفها حاراً لا يُطاق، وكان الوادي الذي تقوم فيه غير ذي زرع، ولا يكاد يوجد في البلدة كلها كما عرفها محمد حديقة واحدة، ولكن موقعها في منتصف ساحل البلاد الغربي، وعلى بُعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر، جعلها محطة صالحة في طوق القوافل الطوال التي تجمع في بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض، والتي كانت تحمل المتاجر بين جنوبي بلاد العرب «ومن ثم بين الهند وأفريقية الوسطى» وبين مصر، وفلسطين، وبلاد الشام. وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصّة^(١)، ويسيطرون على أسواق عكاظ، ويقومون بالشعائر الدينية المُجزية حول الكعبة وحَجَرها الأسود المقدّس. ومعنى الكعبة البيت المربع. واللفظ ذو صلة باللفظ الإنجليزي Cube «مكعب»..... وفي ركنها الجنوبي الشرقي، وعلى بعد خمسة أقدام من سطح الأرض، الحجر الأسود، وهو حجر قاتم اللون يضيء الشكل قطره سبع بوصات. ويعتقد الكثيرون أن هذا الحجر قد نزل من السماء - ولعله كان صاعقة^(٢) - ويقول معظمهم إنه وجد بالكعبة من أيام إبراهيم، ويرى علماء المسلمين أنه رمز لذلك الفرع من أبناء إبراهيم فرع إسماعيل وأبنائه الذي نبذه بنو إسرائيل فكان منه آباء قبيلة قريش.

١. شركة تجارية تتعقد بين شخصين أو أكثر يمارس أعمالها شريك ظاهر يتعامل مع الغير، بحيث تكون الشركة مقتصرة على العلاقة الخاصة بين الشركاء، وهي تتكون من طرفين وبغرض قضاء حاجات مشتركة.

٢. من المحتمل وقوع خطأ في الترجمة، والصحيح «نيزك».

ويؤيدون قولهم هذا بما جاء في المزمور الثامن عشر بعد المائة في الآيتين ٢٢ و ٢٣ «الحجر الذي رفضه البنّاؤون صار رأس الزاوية»، وفي الآيتين ٤٢ و ٤٣ من الإصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متي، وهو قول عيسى بعد أن نطق بهذه العبارة العجيبة: «لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره»، وإن لم يكن في وسع المسلمين أن يقولوا إنهم قد حققوا ما قاله عنهم المسيح. وكان في الكعبة قبل الإسلام عدد من الأصنام تمثل معبودات العرب. منها، اللات، والعزى، ومناة. وفي وسعنا أن ندرك قدم عهد هذه الآلهة العربية إذا عرفنا أن هيرودوت قد ذكر الإلات «اللات» على أنها من أكبر أرباب العرب.... وكانت قريش في بداية القرن السادس منقسمة إلى فئتين متنافستين، إحداهما يتزعمها التاجر الثري الخير هاشم، والأخرى يتزعمها ابن أخيه أمية^(١).

وعليه فإنّ ما ادعاه جيبسون حول عدم ذكر مكة في المصادر القديمة كلام لا يمتّ إلى الحقيقة بصلّة، كيف، والعهد القديم من الكتاب المقدس قد ذكرها مرّة بهذا العنوان، وأخرى بعنوان بكة وارتباط الحج بها ووجود بيت الله فيها.

ومثلما كذب الباحث في هذه النقطة، كذب في نقاط كثيرة ذكرها، حين نفى وجود آيات تحويل القبلة في القرآن، وأنّ هذا تمّ بعد أكثر من قرن من نزوله، وفي أنّ العرب كانوا يحجّون إلى البتراء، وأنّ قبلة كل المساجد كانت باتجاهها لا باتجاه مكة، وأمثال ذلك من سخافات لا يقبلها عاقل.

١. ديورنت: قصة الحضارة، ج ١٣، ص ١٧-٢٢.

السامري

والعجل الذهبي

السامري والعجل الذهبي

قال «عز وجل»: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ....
 قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا
 فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ
 وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا
 نَفْعًا، وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ
 فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي، قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى،
 قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي، قَالَ يَا ابْنَ
 أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي، قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ
 فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، قَالَ فَادْهَبْ
 فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ
 الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا، إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ
 الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١).

تحكي هذه الآيات وما سبقتها كيف سَوَّلَ السامري لبني إسرائيل صناعة

عجل ليعبدوه: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾، أي قالوا إن موسى نسي وغفل عن أن يخبرهم بأن إلههم بهذه الصورة، وكأنهم يبررون ما فعلوه.

وقد اعتادوا في مصر مشاهدة عبادة العجل، واسمه في بعض المناطق «آبيس» وفي مناطق أخرى «سراييس» ويرمز للخصوبة. ويبدو أنهم كانوا يعتقدون بألوهيته بشدة بدليل قوله «عز وجل» في مورد آخر: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾^(١).

وفي العراق لدى الآشوريين والبابليين: إله السماء «أنو» ويرمز له بالثور.. وعند الزرادشتية فإن البقرة هي بنت إله الخير «أهورامزدا».. وعند الهندوسية تقديس البقر، وإلهة الأرض عندهم في شكل بقرة! وفي نيبال يعبدونها. ولدى الهندوس الإله «ناندي» على هيئة ثور.

الآيات السابقة تخبرنا أن هارون لم يقف موقفاً سليماً مما جرى حال غياب أخيه موسى، بل حاول بهدوء وبالحوار أن يقنعهم بأن السامري قد خدعهم، وأن إلههم الحقيقي هو الرحمان لا ما تتصوره عقولهم، وطلب منهم أن يطيعوه ويتبعوه، ولكنهم أصروا على موقفهم واتبعوا السامري.

ولعل البدء بـ ﴿لَقَدْ﴾ التي تفيد التحقيق، للتأكيد على بطلان ما في التوراة الحاضرة من تهمة لهارون بأنه هو الذي خدعهم وصنع لهم العجل، وأنه لم ينكر عليهم عبادته، والصورة المقدمة فيها كالتالي: (وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمْ

أَصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لِأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ». فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: «انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي أَذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأَتُونِي بِهَا»....^(١).

وقد شرح القرآن لماذا استبطأوا النبي موسى «عليه السلام»، قال «عز وجل»: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمِّ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾^(٢)، وهذا يعني أنه كان قد أخبرهم عن نيته الغياب ثلاثين ليلة، فلم يعد في الموعد المحدد وتأخر لعشر ليالٍ آخر.

• الإشكال المطروح حول السامري:

وقد شنع بعض المستشرقين والنصارى واليهود على النص القرآني الذي ذكر «السامري» كمحرّض على صناعة العجل، بدلاً من هارون، وأن النبي محمداً «صلى الله عليه وآله» يكون بذلك قد أخطأ في القصة وخلط بين الأسماء، أو أنه تعمد ذلك لتنزيه الأنبياء عن كل شنيعة ليشمله ذلك بالتبع، أو لعلمه بكرهية اليهود لطائفة السامريين فذكرهم بسوء.

علماً بأن الطائفة السامرية – أو السُمرة^(٣) – هي مجموعة عرقية دينية تنسب إلى بني إسرائيل، وتختلف عن اليهود، إذ يتبعون «الديانة» السامرية المناقضة لليهودية، رغم اعتمادهم على التوراة، لكنهم يعتبرون توراتهم هي الأصح وغير المحرفة، وأن ديانتهم هي ديانة بني إسرائيل الحقيقية. يُقدَّر

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٣٢: ١-٢.

٢. سورة الأعراف: ١٤٢.

٣. العبرية: סַמְרִיִּים، تلفظ «شمرونييم»، وفي التلمود يعرفون باسم סַמְרִיִּים «كوتيم».

عدد أفرادها بأقل من ألف شخص حالياً، موزعين بين قرية لوزة في نابلس ومنطقة حولون بالقرب من تل أبيب. يُنسب السامريون إلى شامر الذي باع جبلاً للملك عمري وبنى عليه مدينة شامر، والتي حُرِّفت إلى سامر ومن ثم السامرة نسبة لملكها الأول شامر.

ظهر الخلاف بين الطائفتين بعد العودة من السبي البابلي، إذ تمسك كل طرف بتوراته على أنها التوراة الصحيحة غير المحرّفة. وتتكوّن التوراة السامرية من خمسة أسفار، وتختلف عن التوراة العبرانية في بعض الألفاظ والمعاني.

وعموماً، يمكن أن يُردّ الإشكال وفق احتمالين على الأقل، نبيّنهما كالتالي:

• الاحتمال الأول:

ما ذكره العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي في كتابه «الرحلة المدرسية والمدرسة السيارة في نهج الهدى»، وهو كتاب يعتمد على الأسلوب الحوارى التخيلى ويدور بين عدة أشخاص، وجاء فيه: (الشيخ: أترى أن هؤلاء العلماء الكثيرين لم يقرأوا في توراتهم في العدد الثالث عشر من الفصل السادس والأربعين من سفر التكوين أن أحد أولاد يساكر بن يعقوب اسمه «شمرون». ولم يقرأوا في العدد الثالث والعشرين من الفصل السادس والعشرين من سفر العدد أن من أولاد «شمرون بن يساكر» كان مع موسى عشيرة الشمرونيين وهم عدد كثير يبلغون الألوف.

القس: لا بد لهم من أن يقرأوا هذا في التوراة ويعرفوه منها.

الشيخ: إذن فلماذا لا يفهمون أن «السامري» المذكور في القرآن الكريم هو

واحد من عشيرة الشمرוניين الذين كانوا مع موسى. فإن «سامري» في اللغة العربية تعريب «شمروني».

القس: إنهم لا يعرفون أن «سامري» تعريب شمروني، وإنما يعرفون أن «سامري» هو المنسوب إلى أرض السامرة المسماة باسم البلدة التي بناها «عمري» ملك إسرائيل بعد أيام سليمان بأكثر من خمسين سنة، وسمّاها «سامرة». فيكون بناؤها وحدوث النسبة إليها بعد واقعة العجل بنحو خمسمائة وسبعين سنة. فلاجل ذلك لا يمكن أن يكون سامري في أيام موسى، ولذا قالت جمعية «كتاب الهداية» في الجزء الأول صحيفة ٣٧: «إن ذكر السامري يدل على جهل تام بالتاريخ ويعلم توقيع البلدان ولا نعلم من أين أتى هذا السامري؟ هل نزل من السماء أو طلع من الأرض؟ ولم يكن للسامرة في زمان موسى اسم ولا رسم». وقالت في الجزء الثاني صحيفة ٥٥: «لم يكن في عصر موسى شيء يقال له سامرة أو سامري، فهو من التخیلات البعيدة المستحيلة كما يدل عليه تاريخ بني إسرائيل بل تواريخ العالم قاطبة». وقال هاشم العربي في تذييلاته المستقلة صحيفة ٥٥: «لا يمكن أن يكون في بني إسرائيل على عهد موسى سامري وإن هذا المنعت لم ينعت به إلا بعد جلاء بابل».. نعم يا شيخ إذا ثبت أن لفظ سامري هو تعريب شمروني فلا بد من أن نقول: إن السامري المذكور في القرآن هو من عشيرة الشمرוניين الذين كانوا مع موسى. فيسقط اعتراض أصحابنا.

الشيخ: عجباً أيها القس، وأنت تقول هذا أيضاً؟ أفلا تدري أن المدينة التي تسمى باللغة العربية «سامرة» قد ذكرت في أسفار الملوك الأول، والثاني،

وأشعيا، وأرميا، وعاموس، وميخا، وعزرا، ونحميا، أكثر من ستين مرة، فلم تسميها في الأصل العبراني إلا «شمرون»، وكذا في التراجم اليونانية والإنكليزية والفرنسوية، بل في كل ترجمة ما عدا أغلب العربية والفارسية، وكذا في تراجم إنجيل لوقا، ويوحنا، وأعمال الرسل. وذكر لفظا السامري والسامرية والسامريين في أناجيل متي ولوقا ويوحنا في نحو تسعة مواضع، وكل ترجمة مما عدا العربية والفارسية تذكرها بلفظ «شمروني» ونحوه، انظر التراجم العبرانية واليونانية والإنكليزية والفرنسوية وغيرها. فلا ينبغي لمن يدعى العلم أن يجهل أن «سامري» تعريب «شمروني»، وأنه ليس في الدنيا بلدة أو محل أو نسبة يقال لها في العبرانية: سامرة أو سامري. فالسامري الذي في القرآن الكريم هو «الشمروني» المنسوب إلى شمرون بن يساكر، لا إلى شمرون التي بناها «عمري».. ولا ينبغي للجاهل أن يفتح فمه ويجري قلمه بالجرأة القبيحة على القرآن الكريم. فإنّ الجاهل لا يستهزيء إلا بنفسه.

القس: إني أعرف ما تقوله من قبل ذلك وهذا الذي تذكره أنت قد وجدته أنا في العهدين في اللغة العبرانية وسائر اللغات المختلفة ما عدا بعض النسخ العربية والفارسية، بل إن النسخ الفارسية بترجمة «وليم كلن» لم تذكر «سامرة»، بل إنما ذكرت «شمرون»، وكذا في بعض التراجم العربية القديمة فمن الواضح وضوح الشمس أن سامري تعريب «شمروني»، وأن السامري الذي يذكره القرآن هو الشمروني من عشيرة الشمرونيين الذين تذكرهم التوراة في جُند موسى. يا شيخ، بعض صفات الإنسان تفعل به وتفعل. فلا تنزعج من جرأة الجمعية والعربية على مجد قرآنكم.

عمانوئيل: يا شيخ، هل تسمح لي بأن أتكلم شيئاً في هذا المقام بحرية تامة؟

الشيخ: تكلم يا عمانوئيل بحرية من عبودية التعصب والتقليد الأعمى. عمانوئيل: إن القرآن يقول: إن الذي صنع العجل الذهبي الوثني ودعا بني إسرائيل لعبادته هو السامري «الشمروني» وهو من سبط يساكر بن يعقوب، والتوراة تقول في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج ما ملخصه: «إن بني إسرائيل قالوا لهرون، اجعل لنا آلهة يسرون أماناً فقال لهم: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وأطفالكم وآتوني بها، فأتوا بها إلى هرون، فأخذ ذلك وصيَّره عجلاً مسبوكةً، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل، فلما نظر هرون، بنى مذبحاً أمام العجل» لإجراء رسوم عبادته الوثنية وتقديم قربابين للعبادة له «ونادى هرون غداً حجٌّ للرب. فأصعدوا في الغد على المذبح الذي بناه هرون مُحَرَّقات، وقَدِّموا ذبائح سلامة، فأجروا رسوم العبادة والحج للعجل كما أمرهم هرون».. يا شيخ، وهرون هو أخو موسى من سبط «لاوي» لا من سبط يساكر. فكيف يصح ما في القرآن مع مخالفته للتوراة؟

الشيخ: لا أقابلك الآن بما في توراتك الموجودة من الخلل الداخلي والخارجي.. ولكن أقول لك: إن هرون أخا موسى إذا كان هو المؤسس في بني إسرائيل لضلال الشرك بالله، والعبادة الوثنية للعجل الذي صنعه كما ترعمون، فكيف يختاره الله نبياً ويكلِّمه بالشرائع بعد واقعة العجل كما تقول توراتكم؟ تارة، مع موسى كما في الفصل الحادي عشر والرابع عشر من سفر اللاويين والثاني والرابع والتاسع عشر من سفر العدد، وتارة منفرداً

كما تكرر في الفصل الثامن عشر من سفر العدد.. وكيف يختاره الله لكرامة الكهنوت والامامة في الدين والشريعة ويخصه بالكرامات الكبيرة قبل واقعة العجل وبعدها؟ بل إن توراتكم تقول: إنه حينما كان هرون يصنع العجل ويدعو لعبادته والشرك بالله كان الله يكلم موسى في اختيار هرون للكهنوت والامامة، وفي تقديسه وتمجيده في تفصيل ثيابه للكهنوت المقدس بكلام طويل ذكرته توراتكم في الفصل الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من سفر الخروج! يا عمانوئيل، إن بين المكان الذي كلم الله فيه موسى في تقديس هرون وبين المكان الذي صنع فيه هرون العجل ودعا إلى عبادته لم يكن إلا مسافة ميل أو ميلين. فإذا قلت: إن الله جل شأنه لا يعلم بما صنع هرون، قلنا: إذن فلماذا دام بعد أن علم على تقديس هرون وتكليمه بالشريعة مع موسى ومنفرداً؟! وإذا قلت، إن الله كان يعلم، قلنا: فكيف يختاره ويقده حينما كان هرون يؤسس العبادة الشريكية الوثنية ويدعو إليها، وكيف دام الله على تقديسه واختياره وتكليمه؟

عمانوئيل: كان الله حينئذ يعلم بعمل هرون وهو الذي أعلم موسى أن شعبه فسدوا وعملوا لهم عجلاً وسجدوا له ودعوه إلهاً، كما نصّ على ذلك نفس الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج. ولكن يا شيخ هذا لا يضر، فإن كتبنا وحينما المقدسة تذكر أن الله اختار سليمان بن داود نبياً وأوحى إليه أسفار الحكمة والجامعة ونشيد الإنشاد وكرّمه بأن جعل بناء بيت المقدس على يديه دون أبيه داود الذي كان يريد ذلك. وأظهر الله مجده بأن قال لداود كما في العدد السادس من الفصل الثامن والعشرين من سفر الأيام الأول: «سليمان ابنك هو يبني بيتي ودياري لأنني اخترته لي ابناً وأنا أكون له

أباً» ونحوه من الفصل الثاني والعشرين من السفر المذكور. وفي السابع من سفر صموئيل الثاني، هذا مع أن كتب وحيناً المقدسة تقول كما في الفصل الحادي عشر من سفر الملوك الأول إن سليمان خالف الشريعة وتزوج بالنساء المشركات، فأملَن قلبه وراء آلهة أخرى، فذهب سليمان وراء «عشتاروت» آلهة الصيدونيين، و«ملكوم» رجب العمونيين، وبنى مرتفعة لـ «كموش» رجب الموايين، ولـ «مولك» رجب بني عمون^(١)، وعمل لسائر نساءه المشركات مثل ذلك. وكررت كتبنا نسبة هذا العمل الإشرافي لسليمان في العدد الثالث عشر من الفصل الثالث والعشرين من سفر الملوك الثاني، يا شيخ، فمقتضى كتب وحيناً المقدسة أن الله يختار للنبوّة والقداسة مَنْ يَعْلَمُ أنه يشرك ويدعو إلى عبادة الأوثان ويبني لها مشاعر العبادة. فحال هرون مع الله كحال سليمان.

الشيخ: يا عمانوئيل لا تنزعج من المثال الذي أضربه لك. فإن الأمور تبينها أمثالها. إذا أراد واحد من الناس أن يجعل في بيته وكيلاً مؤدباً ورقبياً على أزواجه وبناته وأخواته لكي يؤدّبهن على الحياء والعفة ويمنع عنهن إفساد المفسدين والتهتك بالفحشاء، فهل يوكل عليهن امرأة يعلم أنها تكون زانية تغوي نساءه على الزنا ودوامه؟ وهل يبقى على اختيارها وتمجيدها حتى إذا رأى تأثيرها في إغواء نساءه على الزنا؟ وحتى إذا رآها ناصبة على بيته راية القيادة للزنا لكي ترغّب نساءه على تكرار الزنا ودوامه؟

عمانوئيل: يا شيخ، لقد أزعجتني من هذا المثال وقد اضطربت روحي من مجرد سماعه.

١. ما بين القوسين أسماء لآلهة متعددة، ورجس إشارة إلى الصنم أو الإله.

الشيخ: هذا مثال ما في كتبكم التي تنسبونها إلى الوحي. هل أنت والناس أكمل من الله القدوس العزيز الحكيم؟ إذن فكيف ترضى أن يقال في جلال الله أنه يختار لإنقاذ عباده من الشرك والفساد رجلاً يعلم أنه يشرك ويدعو إلى العبادة الوثنية ويعمل أوثانها ويبني مشاعر عبادتها؟

عمانونيل: حقاً تقول في كل ما ذكرت، وأنا واثق بأن الكلام الكذب يذكر هذه المتناقضات في شأن هرون وسليمان لا يمكن أن يكون من وحي الله والكتاب المقدس النبوي ولا من كتابة مؤمن عارف بجلال الله^(١).

• الاحتمال الثاني:

جاء في الموسوعة اليهودية^(٢) أن في التراث اليهودي خارج النص التوراتي عدة روايات حول العجل الذهبي، وواحدة منها ترتبط بشخص يعرف باسم «ميكا».. وهو لقب لفرد من بني إسرائيل، فبحسب هذه الرواية فإن بني إسرائيل أثناء فترة عبوديتهم في مصر، كانوا يُجبرون على صنع الطوب من طين النهر، وعلى إنهاء كميات معينة خلال فترات زمنية محددة، ومن يقصّر في ذلك يضع طفلاً إسرائيلياً مكان الطوب! وكان أن فشل أحدهم في تحقيق ذلك، فوضع هذا الطفل - الذي سيُلقب بلقب «ميكا» لاحقاً - بدلاً من الطوب، فوفقت كمية منها عليه، فأُنقذه موسى، ولُقّب الطفل بميكا، أي المحطّم^(٣).

وكبُر الولد ليغدو لاحقاً شخصاً وثنياً! وينصّ أحبار اليهود في مصادرهم

١. البلاغي: الرحلة المدرسية والمدرسة السيارة في نهج الهدى، ص ٢٤-٢٧.

2. <http://www.jewishencyclopedia.com/articles/10776-micah>.

٣. وهي نفس كلمة «بكة» في العربية. يقال بك الشيء: هشمه وحطمه ومزقه؛ وقالوا: سُميت مكة بكّة لأنها تدقّ وتهشم أعناق الجبابرة.

على أنه كان من الذين خرجوا مع موسى ونجوا بعد العبور.

وبحسب بعض المصادر اليهودية، ومنها الموسوعة السابقة^(١) فقد جاء في «مدراش تنحوما يلمدّينو»^(٢) أن «ميكّا» هو السبب وراء ظهور العجل الذهبي، وأن بني إسرائيل خرجوا من مصر مصطحبين معهم التابوت الذي فيه عظام النبي يوسف (وَأَخَذَ مُوسَى عِظَامَ يَوْسُفَ مَعَهُ)^(٣).

ثم إن التابوت الحجري الذي كان فيه جثمان يوسف حُفظ في أعماق النيل، فكتب موسى على شظية خشب أو لوحة ما لفظه عن العبرية: Aleh Shor، أي «اعلُ ثور» وبالإنجليزية Up, Ox... وأنه رمز ليوسف بالثور، فخرج التابوت من الماء وتم استنقاذ ما فيه.

وإنما استعمل رمز الثور - أو العجل - لأنه كان لكل سبط «فرع أو قبيلة»

١. ونجد هذا الرأي أيضاً في الموقع التالي:

https://www.chabad.org/library/article_cdo/aid/3613047/jewish/What-Was-the-Golden-Calf.htm

٢. مدرّاش تنحوما يلمدّينو Yelammedenu Tanhuma يعود أصله إلى العهد البيزنطي في فلسطين قبل بعثة النبي محمد، وتم تطويره خلال القرون اللاحقة حتى اكتمل ما بين القرن الثامن والعاشر الميلاديين. والمدرّاش كتاب تفسير للتَّخ.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٣: ١٩. ولكن لماذا لم يُدفن النبي يوسف في مصر وحُفظ جسده في تابوت؟ في الموقع التالي نجد الإجابة:

<http://www.usefulbible.com/hebrews/bones-of-joseph.htm>

حيث جاء فيه ما ترجمته عن النص الإنجليزي: أخبر الله إبراهيم أن بني إسرائيل سيمكثون في مصر ٤٠٠ سنة، وخلال تلك الفترة سيعانون كثيراً، ولكن الله في النهاية سينقذهم ويأتي بهم إلى كنعان كما وعد إبراهيم وإسحاق ويعقوب... تلك العظام «عظام يوسف» ستذكرهم بأن بقاءهم في مصر ليس أبدياً.

من أسباط بني يعقوب «إسرائيل» رمز، فمثلاً كان لسبط «يهودا» رمز الأسد، وللسبط «أشير» رمز شجرة الزيتون، وللسبط «دان» الميزان، وللسبط «نفتالي» أنثى الغزال، وللسبط «زبلون» رمز السفينة، وكان يُرمز لسبط «يوسف» بحفنة من سنابل القمح، ثم صار لـ «نفتالي ابن يوسف» رمز الثور - العجل - وغلب رمز الابن على الرمز السابق.

وقد عمد «ميكّا» لاحقاً إلى أخذ هذه اللوحة أو الشظية الخشبية، وألقاها في النار التي أوقدها هارون وصبّ فيها الذهب، فخرج لهم الذهب بسبب ذلك على شكل عجل ذهبي^(١). وينص «راشي» - شارح التوراة - على حضور «ميكّا» وقت صناعة العجل الذهبي، ويكرر ما ذكرناه حول كيفية استفادته من اللوح في صناعة العجل الذهبي، وأنه صار سبباً في بداية حركة تعمل على نشر عبادة الأصنام بين اليهود^(٢).

وتم اختيار ذرية هارون المنحدر من ذرية لاوي بن يعقوب ليكونوا الكهنة، وكلّ من كان من ذرية لاوي أطلق عليهم عنوان Shamar أي حارس، فهم حراس بني إسرائيل^(٣).

وعلى هذا، وبحسب هذا الاحتمال، فإن لقب السامريين كان موجوداً

١. من المحتمل أن يكون هذا تفسير قوله: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

2. <http://curiousjew.blogspot.com/2005/12/oedipus-rex-micah-and-garcia-ma-rquez.html>

3. <http://www.torahclass.com/teacher/37-old-testament-studies/old-testament-studies-numbers/197-lesson-3-chapter2-3>

قبل تأسيس دولة السامرة، و«ميكاً» كان منهم، ولذا خاطبه موسى بعنوان السامري.

وأخيراً فإننا نجد في كتاب يحمل عنوان: Legends of the Patriarchs and Prophets and Other Old Testament Characters ومؤلفه سابين بارينج قاوولد^(١) أن «ميكاً» كان من ذرية لاوي.. أي كان شامرياً «سامرياً»، الأمر الذي يتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم الذي ذكره بهذا العنوان.

وسواء أخذنا بالاحتمال الأول الذي يبدو أقرب للصحة وأقل مؤونة، أو بالاحتمال الثاني، فإن الإشكال الذي أثير على الآيات القرآنية الشريفة يرتفع، وليؤكد مرة أخرى على حقيقة أنه كتاب سماوي، وأنه ما كان للنبي «صلى الله عليه وآله» يُخبر عن شيء من هذه المعارف الخاصة والدقيقة لولا أن الله «عز وجل» هو الذي أوحى إليه بالقرآن الكريم وما فيه من قصص وتعاليم، من هنا قال الله بعد أن عرض قصة النبي نوح «عليه السلام» بالتفصيل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

1. Sabine Baring-Gould

٢. سورة هود: ٤٩.

ورفعنا فوقكم الطور

ورفعنا فوقكم الطور

قال «عز وجل»: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

وقال «عز وجل»: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

وقال «عز وجل»: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٣).

وقال «عز وجل»: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٤).

الطور هو الجبل كما بدله منه في قوله «عز وجل»: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾، والنتق هو الجذب والافتلاع.

١. سورة البقرة : ٦٣.

٢. سورة البقرة : ٩٣.

٣. سورة النساء : ١٥٤.

٤. سورة الأعراف : ١٧١.

• لماذا التكرار؟

كما نرى، تَكَرَّرَ ذِكْرُ قضية رفع الجبل في القرآن الكريم، بل في سورة واحدة هي سورة البقرة مرتين في غضون ٣٠ آية. فلماذا جاء التكرار في سورة البقرة ثم في سور أخرى؟ وما هي الرسالة أو الرسائل التي تحملها الآيات؟

الآية الأولى في سورة البقرة جاءت بعد أن بدأ الخطاب فيها موجَّهاً لبني إسرائيل كالتالي: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ، وَأَمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾^(١).

ثم تعود الآيات بعد ذلك لتعيد عليهم الخطاب: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٢).

ثم تبدأ الآيات بسرد نعم الله «عز وجل» عليهم وتمردهم المرة تلو الأخرى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ، وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَ الْبَحْرِ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَآغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ، ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَإِذْ قَالَ مُوسَى

١. سورة البقرة: ٤٠-٤١.

٢. سورة البقرة: ٤٧-٤٨.

لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَوُتُّوْا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾.

وهكذا تتوالى الآيات المذكّرة بنعم الله «عز وجل» عليهم وعفوه عنهم المرة تلو الأخرى، وعودتهم في كل مرة إلى صورة من صور العناد والتمرد، ثم الاستغفار والتوبة، وبنفس صيغة الآيات السابقة ﴿وَإِذْ... وَإِذْ... وَإِذْ... وَإِذْ...﴾ إلى أن نصل إلى المرة العاشرة وفيها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢).

ثم تتكرر ﴿وَإِذْ... وَإِذْ...﴾ ٤ مرات بعد ذلك وفي نفس السياق للتذكير بالنعم وحالات التمرد والعفو عنهم. ثم يبيّن الله «عز وجل» بعد ذلك موقفهم من الرسالات السماوية تمهيداً للحديث عن موقفهم من رسالة النبي محمد: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٣). ثم تعطف الآيات على الحديث عن موقفهم الفعلي من رسالة النبي «صلى الله عليه وآله»: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ

١. سورة البقرة: ٤٩-٥٦.

٢. سورة البقرة: ٦٣-٦٤.

٣. سورة البقرة: ٨٧.

عند الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ، بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ^(١).

ثم جاءت الآية ٩٣: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

من خلال العرض السابق يتبين لنا أن ذكر الحدث في المرة الثانية جاء في سياق بيان موقفهم من الإيمان برسالة النبي «صلى الله عليه وآله»، وأن صدور العناد والمكابرة منهم أمر ليس بغريب عليهم، على الرغم من أن المسألة كانت عندهم واضحة جداً. وكانوا يبشرون ببعثته من قبل. وكيف يكون غريباً وصعب التصور بحقهم، وقد نتق الله الجبل فوق رؤوسهم وأخذ منهم الميثاق، فإذا بهم ينطقون بشيء، وفي قلوبهم شيء آخر: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؟ إذا السبب في عدم إيمانهم برسالته ليس ضعف الحجة والبرهان على نبوته، بل عنادهم وطبيعتهم المتمردة. خاصة وأن الحجة عليهم لم تبلغ مستوى - نتق الجبل - بالنسبة إليهم الآن. مع الإشارة إلى أن إيمانهم غير الخالص

له دور في ذلك: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾. وأما ذكر نتق الجبل ورفعهم فوقهم - في المرة الأولى - فكان الغرض منه مختلفاً، وجاء في سياق ذكر النعم الإلهية عليهم وتمردهم، وليس في سياق أن نتفهم كيف لهم أن لا يؤمنوا برسالته «صلى الله عليه وآله» مع قيام الحجة عليهم.

• مقارنة بين النصوص:

وهناك قضية أخرى ذات علاقة بالحدث وتتلخص في أننا عندما نعود إلى الكتاب المقدس عموماً لا نجد الحدث بهذه الصورة المذكورة في القرآن، بل بصورة أخرى: (في الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر، في ذلك اليوم جاءوا إلى برية سيناء. ارتحلوا من رفيديم وجاءوا إلى برية سيناء فنزلوا في البرية. هناك نزل إسرائيل مقابل الجبل. وأما موسى فصعد إلى الله. فناداه الرب من الجبل قائلاً: «هكذا تقول لبني يعقوب، وتخبر بني إسرائيل: أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين. وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إلي. فالآن إن سمعتم لصوتي، وحفظتم عهدي تكونون لي خاصّة من بين جميع الشعوب.... فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التي أوصاه بها الرب. فأجاب جميع الشعب معاً وقالوا: «كل ما تكلم به الرب نفعل». فردّ موسى كلام الشعب إلى الرب. فقال الرب لموسى: «ها أنا آت إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلّم معك، فيؤمنوا بك أيضاً إلى الأبد». وأخبر موسى الرب بكلام الشعب. فقال الرب لموسى: «اذهب إلى الشعب وقدّسهم اليوم وغداً، وليغسلوا ثيابهم، ويكونوا مستعدين لليوم الثالث. لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع

الشَّعْبَ عَلَى جَبَلِ سَيْنَاءَ. وَنُقِيمُ لِلشَّعْبِ حُدُودًا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، قَائِلًا: احْتَزُّوا مِنْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى الْجَبَلِ أَوْ تَمَسُّوا طَرَفَهُ. كُلُّ مَنْ يَمَسُّ الْجَبَلَ يَقْتُلُ قَتْلًا. لَا تَمَسُّهُ يَدٌ بَلْ يَرْجُمَ رَجْمًا أَوْ يَرْمِي رَمِيًّا. بِهِيمَةً كَانَ أَمْ إِنْسَانًا لَا يَعِيشُ. أَمَّا عِنْدَ صَوْتِ الْبُوقِ فَهُمْ يَصْعَدُونَ إِلَى الْجَبَلِ». فَأَنحَدَرَ مُوسَى مِنَ الْجَبَلِ إِلَى الشَّعْبِ، وَقَدَّسَ الشَّعْبَ وَغَسَلُوا ثِيَابَهُمْ. وَقَالَ لِلشَّعْبِ: «كُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلْيَوْمِ الثَّالِثِ. لَا تَقْرَبُوا امْرَأَةً». وَحَدَّثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ لَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ أَنَّهُ صَارَتْ رَعُودٌ وَبُرُوقٌ وَسَحَابٌ ثَقِيلٌ عَلَى الْجَبَلِ، وَصَوْتُ بُوقٍ شَدِيدٌ جَدًّا. فَارْتَدَّ كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي فِي الْمَحَلَّةِ. وَأَخْرَجَ مُوسَى الشَّعْبَ مِنَ الْمَحَلَّةِ لِمُلَاقَاةِ اللَّهِ، فَوَقَفُوا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. وَكَانَ جَبَلُ سَيْنَاءَ كُلُّهُ يَدُخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، وَصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الْآتُونِ، وَارْتَجَفَ كُلُّ الْجَبَلِ جَدًّا. فَكَانَ صَوْتُ الْبُوقِ يَزْدَادُ اشْتِدَادًا جَدًّا، وَمُوسَى يَتَكَلَّمُ وَاللَّهُ يُجِيبُهُ بِصَوْتٍ^(١).

وكل الترجمات إلى الإنجليزية ترجمت المقطع السابق عن النص الأصلي كالتالي مؤكدة على التعبير بـ «أَسْفَلَ الْجَبَلِ»:

Moses led the people out of the camp toward God, and they took their places at the foot of the mountain.

أما الرَّبِّي توفيا سنجر^(٢) فيقول أن ترجمة النص عن النسخة العبرية

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ١٩: ١-١٩.

٢. من مواليد ١٩٦٠م في الولايات المتحدة، يمتلك سعة في الاطلاع على التراث الديني اليهودي والنصراني والإسلامي. قائم على مؤسسة Outreach Judaism في أندونيسيا، وله أسلوب فريد في عرض الدين اليهودي، والدخول في حوارات عقدية مع النصارى. أعد برنامجاً إذاعياً على الراديو الإسرائيلي لعدة سنوات، للدعاية للكيان الصهيوني وللروابط الأمريكية الإسرائيلية. له عدة مؤلفات في السعي لإبطال نبوة عيسى بن مريم.

فيجب أن تكون كالتالي: Underneath the Mountain فما الفرق ؟ وما أهمية ذلك؟

يقول الرباي توفيا مؤكّداً وجود هذا النص في التراث العبري المكتوب ما ترجمته عن الإنجليزية: (تقول الجمارا^(١)) أَنَّ بني إسرائيل عندما استعدّوا لتلقّي التوراة عند جبل سيناء، وضع الله الجبل فوقهم وقال لهم: إِنَّ قبلتم التوراة فهذا حسن، وإلا فإنّ هذا المكان سيكون مدفنكم^(٢).

تعليق: لم يكن الأمر مرتبطاً بنزول التوراة على وجه الدقة، بل الوسايا العشر على وجه التحديد، وهذا واضح من خلال تنمة النص في الإصحاح ٢٠: (ثُمَّ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ قَائِلاً: «أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعِبُودِيَّةِ. لَا يَكُنْ لَكَ إِلَهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لَا تَصْنَعْ لَكَ تَمَثَّالًا مَنحُوتًا، وَلَا صُورَةً مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ. لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدُهُنَّ، لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَهٌ غَيْرٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الْأَبَاءِ فِي الْأَبْنَاءِ فِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ مِبْغِضِي،

١. الجمارا تعني التكملة «من الفعل جَمَرَ الذي يعني في العبرية: أتمّ، وفي الآرامية يعني درس». يتكون التلمود من مكوّنين أساسيين، الأول هو المشناه والثاني هو الجمارا. والجمارا هي نقاش حول المشناه. إذ بعد سنة ٢٠٠ م وعلى مدى ثلاثة قرون جرى على المشناه تحليل ونقاش في القدس وبابل ويُعرف هذا التحليل باسم الجمارا. تُطرح الجمارا على شكل سجال جدلي بين اثنين من الحاخامات مُضادين. ورغم أن المشناه واحدة، لكن هناك نوعان من الجمارا: الأورشليمية التي كتبت في أرض أورشليم، والبابلية التي كتبت في بابل. وتعد الجمارا البابلية أكثر شمولاً في محتواها من الأورشليمية. يذكر أن كلا من الجمارا البابلية والأورشليمية كتبتا بالآرامية، وأن أي جمارا مع المشناه تكون التلمود. ولشمولية البابلية أصبحت أكثر شهرة وتدوالاً وهي الكتاب القياسي عند اليهود.

2. <https://www.youtube.com/watch?v=2F1xNUm0Bt8> .

وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى الْوُفِّ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ. لَا تَتَطَقَّ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهَكَ بَاطِلًا، لِأَنَّ الرَّبَّ لَا يُبْرِي مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا. أَذْكَرَ يَوْمَ السَّبْتِ لِمُقَدَّسِهِ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبَّتَ لِلرَّبِّ إِلَهَكَ. لَا تَصْنَعُ عَمَلًا مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِي دَاخَلَ أَبْوَابَكَ. لِأَنَّ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. لِذَلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ. أَكْرَمَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ. لَا تَقْتُلْ. لَا تَزْنِ. لَا تَسْرِقْ. لَا تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةً زُورَ. لَا تَشْتَهَ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لَا تَشْتَهَ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلَا عَبْدَهُ، وَلَا أَمَتَهُ، وَلَا ثَوْرَهُ، وَلَا حِمَارَهُ، وَلَا شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ»^(١).

وعلى كل حال، المدهش هو كيفية معرفة النبي محمد «صلى الله عليه وآله» هذا الأمر وبهذه الدقة التفصيلية، سواء في العهد المكي كما في سورة الأعراف المكية، أو في العهد المدني كما في سورتي البقرة والنساء؟ ومن أين أخذه وهو غير موجود في نص التوراة بل في شرحها؟ كان هذا يحير اليهود، وكان في نفس الوقت حجة عليهم بأن القرآن الكريم كتاب الله العليم، وأنه ليس من تأليف ووضع محمد «صلى الله عليه وآله».

• سؤال عقدي:

قد يثار هنا تساؤل فكري عقدي: أليس في وضع بني إسرائيل في الموقف التهديدي إكراه لهم وإجبار على الإيمان والعمل بما يريده الله منهم، بينما

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٢٠: ١-١٧.

من المفترض أن المبدأ في الإيمان والكفر هو كما في قوله «عز وجل»: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١)، وفي قوله «عز وجل»: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ؟

الجواب: اتضح من تتبع الآيات القرآنية في بداية البحث ومن خلال الشرح التلمودي للحدث أيضاً أن هذا كان بعد إيمان بني إسرائيل بالرسالة، ومعايشتهم للآيات «المعجز» المادية المختلفة، وأخذ التعهد منهم بالالتزام بما سُمِّلَ عليهم... فعهد الله «عز وجل» ليس ألعوبة بيد الناس. ولذا جاء التهديد في حالة ما لورفضوا أو تهاونوا بعد إعطائهم الميثاق الغليظ بالطاعة، فقال «عز وجل» بعد ذلك: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وإذا كانت هذه الآيات الشريفة موجّهة إلى بني إسرائيل في الأساس، ووصفة لسوء حالهم، فإنها لا تبتعد كثيراً عن المضمون التحذيري للمسلمين من تكرار ذات التجربة السيئة مع تعاليم الله «عز وجل» وتشريعاته.

١. سورة البقرة: ٢٥٦.

٢. سورة يونس: ٩٩.

فكّ لُغز الأسباط

فكُّ لُغزِ الأسباط

روت مصادر إسلامية عديدة، وبألفاظ فيها شيء بسيط من الاختلاف قول النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (الحسن والحسين سبطان من الأسباط).. (حسين سبط من الأسباط). وعند العودة إلى محاولات العلماء والمحققين لتحديد مَنْ هم المعنيون بـ «الأسباط» في هذا الحديث، لم أجد شيئاً مُقنعاً يوضح بالدقّة مراد النبي «صلى الله عليه وآله» وإلى ماذا يُشير.

ولكن مع قليل من المطالعة في التَّنَخُّ، وبعض المواقع اللغوية والدينية باللغة الإنجليزية؛ والإنجليزية - العبرية - العربية المقارنة على شبكة الإنترنت، أمسكت برأس خيط استطعت من خلاله أن أتوصّل إلي تحديد شخصيات الأسباط.. أما رأس الخيط فكان التالي: النبي موسى «عليه السلام» يقابل النبي محمد «صلى الله عليه وآله».. وأسفار التوراة الخمسة هي أول العهد القديم؛ ثم الوصي يوشع بن نون «عليه السلام» يقابل الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام».. وسفر يوشع «يشوع» يأتي مباشرة بعد التوراة في ترتيب العهد القديم.. إذاً لابد من أن السفر اللاحق لسفر يشوع مباشرة له علاقة بـ الأسباط الذين أشار إليهم النبي «صلى الله عليه وآله» في مقابل الحسن والحسين ولربما باقي أئمة أهل البيت «عليهم السلام» أيضاً.

أي أن الأسباط الذين يشير إليهم النبي في الحديث لهم ذكرٌ في هذا السُّفر. وعند الرجوع إلى التَّنْخ، كان السُّفر التالي لسُفر يشوع هو سفر القضاة.. فمن هم القضاة؟

ولماذا أخذوا هذا العنوان؟ وكم هو عددهم؟

وما مدى احتمال أن يكونوا هم الأسباط المشار إليهم في الحديث النبوي؟ وماذا كانت مهمّتهم والأدوار التي قاموا بها لكي يذكر النبي «صلى الله عليه وآله» أن الحسن والحسين «عليهما السلام» يمثلان الامتداد لأولئك الأسباط؟ أو لكي يشبّههما بالأسباط من حيث الدور والمسؤوليات المناطة بهما؟ هذه التساؤلات جعلتني على مسارٍ في البحث قادني إلى النتائج التي سأعرضها في هذا البحث بإذن الله «عز وجل».

• مصادر الحديث:

روي قول النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (الحسن والحسين سبطان من الأسباط) وقوله: (حسين سبط من الأسباط) في العديد من مصادر المسلمين، وفيما يلي قائمة ببعض تلك المصادر، وبالألفاظ المختلفة التي وردت فيها، وأبدأ بمصادر إخواننا من أهل السنة والجماعة:

١. مسند أحمد بن حنبل: (حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن أبي راشد، عن يعلى العامري^(١)، أنه خرج مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى طعام دعوا له، قال: فاستمثل رسول

١. يعلى بن مرّة العامري، أسلم وشهد مع رسول الله الحديبيةً وبيعة الرضوان وخيبر وفتح مكة والطائف وحُنيناً، وكان فاضلاً. سكن الكوفة، وكان من أنصار أمير المؤمنين علي.

اللَّهُ «صلى الله عليه وآله» قال عفان: قال وهيب: فاستقبل^(١) رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يأخذه. قال: فطفق الصبي يفرُّ هاهنا مرّةً، وهاهنا مرّةً، فجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» يضا حكه حتى أخذه. قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه، والأخرى تحت ذقنه، فوضع فاه على فيه، فقبّله، وقال: «حسين مني وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً، حسين سبط من الأسباط»^(٢).

٢. سنن ابن ماجه: (حدثنا يعقوب بن حميد بن كاسب. ثنا يحيى بن سليم، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن أبي راشد: أنَّ يعلَى بن مُرّة حدّثهم أنهم خرجوا مع النبي «صلى الله عليه وآله» إلى طعام دُعوا له. فإذا حسين يلعب في السكّة. قال: فتقدّم النبي «صلى الله عليه وآله» أمام القوم، وبسط يديه. فجعل الغلام يفرُّ ههنا وههنا. ويضا حكه النبي «صلى الله عليه وآله» حتى أخذه. فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى في فأس رأسه فقبّله. وقال: «حسين مني، وأنا من حسين. أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً. حسين سبط من الأسباط». حدثنا علي بن محمد. ثنا وكيع، عن سفيان مثله. في الزوائد: إسناده حسن. رجاله ثقات)^(٣).

٣. سنن الترمذي: (حدثنا الحسن بن عرفة. أخبرنا إسماعيل بن عياش. عن عبد الله بن عثمان بن خثيم. عن سعيد بن راشد. عن يعلَى بن مُرّة قال:

١ هذا تصحيح من راو آخر للخبر، إذ لا معنى لكلمة استمئل.

٢ أحمد بن حنبل: المسند، رقم الحديث: ١٧٢٢٠.

٣ محمد بن يزيد بن ماجه: السنن، رقم الحديث: ١٤٤.

قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط». هذا حديث حسن^(١).

قال المباركفوري في شرح سنن الترمذي: (قوله: «حسين مني وأنا من حسين» قال القاضي: كأنه «صلى الله عليه وسلم» علم بنور الوحي ما سيحدث بينه وبين القوم، فخصه بالذكر، وبين أنهما كالشئ الواحد في وجوب المحبة وحرمة التعرض والمحاربة، وأكد ذلك بقوله «أحب الله من أحب حسينا» فإن محبته محبة الرسول، ومحبة الرسول محبة الله «حسين سبط» بالكسر «من الأسباط» قال في النهاية: أي أمة من الأمم في الخير. والأسباط في أولاد إسحاق بن إبراهيم الخليل بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل، وأحدهم سبط فهو واقع على الأمة، والأمة واقعة عليه. انتهى. وقال القاضي: السبط: ولد الولد، أي هو من أولاد أولادي، أكد به البعضية وقررها. ويقال للقبيلة. قال «سبحانه وتعالى» ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾^(٢) أي قبائل، ويحتمل أن يكون المراد هنا على معنى أنه يتشعب منه قبيلة، ويكون من نسله خلق كثير، فيكون إشارة إلى أن نسله يكون أكثر وأبقى، وكان الأمر كذلك^(٣).

٤. المستدرك على الصحيحين: (حدثني محمد بن صالح بن هانئ ثنا الحسين بن الفضل البجلي ثنا عفان ثنا وهيب ثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد عن يعلى العامري: أنه خرج مع رسول الله «صلى الله عليه وآله»

١ محمد بن عيسى الترمذي: السنن، رقم الحديث: ٣٨٦٤.

٢ سورة الأعراف: ١٦٠.

٣ محمد بن عبد الرحمن المباركفوري: تحفة الأحوذى في شرح سنن الترمذي، في شرح الحديث برقم ٣٧٧٥.

إلى طعام دعوا له قال فاستقبل رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمام القوم وحسين مع الغلمان يلعب، فأراد رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يأخذه، فطفق الصبي يفرُّ هاهنا مرّة، وها هنا مرّة، فجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» يضاحكه حتى أخذه. قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقته، فوضع فاه على فيه يُقبّله، فقال: «حُسين منّي، وأنا من حُسين. أحبُّ الله مَنْ أحبَّ حُسيناً. حُسين سبَّطٌ من الأسباط». هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١).

٥. صحيح الأدب المفرد: (عن يعلى بن مرة أنه قال: خرجنا مع النبي «صلى الله عليه وآله» ودعينا إلى طعام فإذا حسين يلعب في الطريق فأسرع النبي «صلى الله عليه وآله» أمام القوم ثم بسط يديه فجعل الغلام يفرُّ ههنا وههنا ويضاحكه النبي «صلى الله عليه وآله» حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقته والأخرى في رأسه، ثم اعتنقه ثم قال النبي «صلى الله عليه وآله»: «حُسين منّي، وأنا من حُسين. أحبُّ الله مَنْ أحبَّ حُسيناً. حُسين سبَّطٌ من الأسباط». حسن. الصحيحة ١٢٢٧) (٢).

٦. صحيح ابن حبان: (أخبرنا الحسن بن سفيان حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا وهيب بن خالد عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد عن يعلى العامري: أنه خرج مع رسول «صلى الله عليه وآله» إلى طعام دُعوا له فإذا حسين مع الصبيان يلعب، فاستقبل أمام القوم ثم بسط يده فجعل الصبي يفرُّها هنا مرّة، وها هنا مرّة، وجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله»

١. الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحین، رقم الحديث: ٤٨٢٠.

٢. ناصر الدين الألباني: صحيح الأدب المفرد للبخاري، رقم الحديث: ٣٦٤/٢٧٩.

يُضاحكه، حتى أخذهُ رسولُ الله «صلى الله عليه وآله» فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت قفاه ثم قَتَعَ رأسه فوضع فاه على فيه فقَبَّلَهُ وقال: «حُسينٌ مِنِّي، وأنا مِن حُسين. أَحَبُّ اللهَ مَنْ أَحَبَّ حُسيناً. حُسينٌ سَبَطُ من الأسباط»^(١).

كانت النصوص السابقة مجرد نموذج مما ورد في كتب علماء أهل السنة، ويمكن أن نضيف إلى المصادر السابقة مصادر أخرى عديدة، وقد أورد القاضي السيد نور الله الحسيني المرعشي التستري في موسوعته «إحقاق الحق وإزهاق الباطل» وكذلك شارح الموسوعة وهو السيد شهاب الدين الحسيني المرعشي النجفي الكثير من تلك المصادر، كما ذكرنا نماذج من نفس النصوص وذلك في الأجزاء «١٠، ١١، ١٩، ٢٦، ٢٧، ٣٣».

ففي الجزء العاشر من «شرح إحقاق الحق» تحت عنوان: «الحسن والحسين سبطان من الأسباط. سبطا هذه الأمة»: (ونروي في ذلك أحاديث: الأول حديث يعلى بن مرة. روى عنه جماعة من أعلام القوم: منهم الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري في «التاريخ الكبير» ج ٤ قسم ٢ ص ٤١٥ ط حيدر آباد، قال: قال: عن يعلى بن مرة قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «الحسن والحسين سبطان من الأسباط»^(٢). ومنهم العلامة ابن كثير الدمشقي في «البداية والنهاية» ج ٨ ص ٢٠٦ ط مصر. روى من طريق الطبراني عن بكر بن سهل، عن عبد الله بن صالح، عن معاوية ابن صالح بن راشد بن سعد،

١. محمد بن حَبَّان: صحيح ابن حَبَّان بترتيب ابن بلبان، رقم الحديث: ٦٩٧١.

٢. جاء في «صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته» لناصر الدين الألباني برقم ٥٤٥٧: «حسين مني وأنا منه أحب الله من أحب حسيناً، الحسن والحسين سبطان من الأسباط.....» عن يعلى بن مرة. قال الشيخ الألباني: «حسن». انظر حديث رقم: ٣١٤٦ في صحيح الجامع».

عن يعلى بن مرة بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة ابن حجر الهيثمي في «الصواعق المحرقة» ص ١٩٠ ط عبد اللطيف بمصر. روى من طريق البخاري في «الأدب المفرد» والترمذي وابن ماجه عن يعلى بن مرة بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة السيد إبراهيم بن محمد الحسيني المشتهر بابن حمزة في «البيان والتعريف» ج ٢ ص ٢٣. روى الحديث بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي في «مجمع الزوائد» ج ٩ ص ١٨١ ط القدسي بمصر. روى الحديث عن يعلى بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة السيوطي في «الجامع الصغير» ج ٢ ص ٥٠٦ ط مصر. روى الحديث عن يعلى بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة المولى علي المتقي الهندي في «كنز العمال» ج ١٣ ص ١٠٥ ط الثانية في حيدر آباد الدكن. روى الحديث من طريق الطبراني وأبي نعيم وابن عساكر، عن يعلى بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة المذكور في «منتخب كنز العمال» المطبوع بهامش المسند ج ٥ ص ١٠٩ ط الميمنية بمصر. روى الحديث فيه أيضاً بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة البدخشي في «مفتاح النجاء» ص ١١٢ المخطوط. روى الحديث من طريق البخاري في «الأدب المفرد» وابن ماجه والطبراني في «الكبير» وأبي نعيم وابن عساكر عن يعلى بن مرة بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة الآمرتسري في «أرجح المطالب» ص ٣٠٣ ط لاهور. روى الحديث من طريق البخاري والترمذي وابن ماجه عن يعلى بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة السيد إبراهيم الشهير بابن حمزة الحسيني الحنفي

في «البيان والتعريف» ج ٢ ص ٢٣ ط حلب. روى الحديث من طريق البخاري في «الأدب» والترمذي، وابن ماجه، والحاكم عن يعلى بن مرة بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير» وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة. ومنهم العلامة القندوزي في «ينابيع المودة» ص ١٨٣ ط إسلامبول. روى الحديث بعين ما تقدم عن «التاريخ الكبير». ومنهم العلامة المعاصر الشيخ يوسف النبهاني في «الفتح الكبير» ج ٢ ص ٧٢ ط مصر قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «حسين مني وأنا منه أحب الله من أحب حسينا، الحسن والحسين سبطان من الأسباط».....

عن يعلى بن مرة. ومنهم العلامة منصور بن علي ناصف في «التاج الجامع للأصول» ج ٣ ص ٣١٨ ط القاهرة. روى الحديث عن يعلى بعين ما تقدم عن «الفتح الكبير». ومنهم العلامة الخوارزمي في «مقتل الحسين» ص ١٤٦ ط الغري. قال: وذكر أحمد بن الحسين برواية أخرى عن يعلى العامري فقال: «الحسن والحسين سبطان من الأسباط». ومنهم العلامة الجزري في «النهاية» ج ٢ ص ١٥٣ ط الخيرية بمصر قال: ومنه الحديث الآخر: «الحسن والحسين سبطا رسول الله «صلى الله عليه وآله»..... الثاني: حديث أبي أيوب الأنصاري، رواه جماعة من أعلام القوم: منهم الحافظ الطبراني في «المعجم الصغير» ص ١٨، ط الدهلي، قال: ثنا أحمد بن محمد بن العباس المري القنطري، ثنا حرب بن الحسن الطحان ثنا حسين بن الحسن الأشقر، ثنا قبس بن الربيع، عن الأعمش، عن حباية يعني ابن ربيعي، عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله» لفاطمة: «نبينا خير الأنبياء وهو أبوك، وشهيدنا خير الشهداء وهو عم أبيك حمزة، ومنا من له جناحان يطير بهما في الجنة

حيث يشاء وهو ابن عم أبيك جعفر، ومنا سبطا هذه الأمة، الحسن والحسين وهما ابناك، ومنا المهدي». ومنهم العلامة محب الدين الطبري في «ذخائر العقبى» ص ٤٤ ط مكتبة القدسي بمصر. روى الحديث من طريق الطبراني في «المعجم الصغير» عن أبي أيوب بعين ما تقدم عنه بلا واسطة. ومنهم العلامة ابن حجر الهيتمي في «الصواعق» ص ٩٨ ط مصر. روى الحديث من طريق الطبراني بعين ما تقدم عن «المعجم الصغير». الثالث: حديث ابن عباس، رواه جماعة من أعلام القوم: منهم الحافظ جلال الدين السيوطي في «الجامع الصغير» ج ٢ ص ٣٥٥ ط مصر. روى من طريق الخطيب وابن عساكر، عن ابن عباس، عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: «لكل شيء سبط، وسبط هذه الأمة الحسن والحسين» إلى أن قال: «ولكل شيء مَجَنٌّ^(١)، ومَجَنٌّ هذه الأمة علي بن أبي طالب». ومنهم العلامة النبهاني في «الفتح الكبير» ج ٣ ص ٢٣، روى الحديث من طريق الخطيب وابن عساكر، عن ابن عباس بعين ما تقدم عن «الجامع الصغير»^(٢).

وورد الحديث أيضاً في مصادر الشيعة، فمن المصادر الإسماعيلية نذكر المثاليين التاليين:

شرح الأخبار: (عبد الله بن صالح، بإسناده، عن يعلى ابن مُرَّة، أنه قال: خرجنا مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» نمشي، فإذا الحسين «عليه السلام» وهو صبي صغير يلعب. فسبط رسول الله «صلى الله عليه وآله» يديه نحوه، فجعل

١. المجن: الترس، والترس: صفحة من الفولاذ مستديرة أو بيضية الشكل تحمل لوقاية الوجه والرأس من الضربات.

٢. المرعشي النجفي: شرح إحقاق الحق، ج ١٠، ص ٦٣٥-٦٤٢.

الحسين يمرُّ مرَّةً هاهنا، ومرَّةً هاهنا، ويُضاحِك رسول الله «صلى الله عليه وآله» حتى أخذه رسول الله «صلى الله عليه وآله» فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى عند رأسه، وأهرى إليه، فقبَّله، واعتنقه. ثم قال: «حُسينٌ مِنِّي وأنا منه، أَحَبَّ الله مَنْ أَحَبَّهُ». ثم قال: «الحسنُ والحسينُ سبطانِ مِنَ الأسباط»^(١). وعن تغلب بن مُرَّة، قال: (سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: حُسينٌ مِنِّي وأنا من حُسين، أَحَبَّ الله مَنْ أَحَبَّ حُسيناً، حُسينٌ سبطٌ مِنَ الأسباط»^(٢)).

ومن المصادر الزيدية نذكر المثال التالي:

مآثر الأبرار المؤلف : (عن النبي أنه قال: «حسين مني وأنا من حسين، أَحَبَّ الله من أَحَبَّ حُسيناً، حسين سبط من الأسباط»^(٣)).

ومن المصادر الإمامية نكتفي بالمثلين التاليين:

(١) كامل الزيارة: (حدثني محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري، عن أبي سعيد الحسن بن علي بن زكريا العدوي البصري، قال: حدثنا عبد الأعلى بن حماد البرسي، قال: حدثنا وهب، عن عبد الله بن عثمان، عن سعيد بن أبي راشد، عن يعلى العامري أنه خرج من عند رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى طعام دعي إليه، فإذا هو بحسين «عليه السلام» يلعب مع الصبيان، فاستقبل النبي «صلى الله عليه وآله» أمام القوم، ثم بسط يديه فطفر الصبي هاهنا مرَّةً، وهاهنا مرَّةً، وجعل رسول الله «صلى الله عليه وآله» يُضاحكه حتى أخذه، فجعل

١. القاضي النعمان المغربي: شرح الأخبار، ج ٢، ص ٨٨، رقم الحديث ١٠١٥.

٢. القاضي النعمان المغربي: شرح الأخبار، ج ٢، ص ١١٢، رقم الحديث ١٠٥٠. والصحيح «يعلى».

٣. ابن قنْد محمد بن علي الصعدي: مآثر الأبرار، ج ١، ص ٢٥٣.

إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت قفائه، ووضع فاه على فيه وقبَّله، ثم قال: «حُسَيْنٌ مِنِّي وأنا مِن حُسَيْن، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، حُسَيْنٌ سَبِطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ»^(١).

(٢) أمالي المرتضى تحت عنوان: «تأويل خبر»: (روي أن النبي «صلى الله عليه وآله» خرج مع أصحابه إلى طعام دعوا له فإذا بالحسين وهو صبي يلعب مع صبية في السكة فاستنَّ رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمام القوم، فطفق الصبي يفرُّ مرَّةً ههنا ومرَّةً ههنا، ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يضحكه، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت فأس رأسه، وأقنعه فقَبَّله وقال: «أنا من حُسَيْن وحسين مِنِّي، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، حُسَيْنٌ سَبِطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ». ومعنى «استنَّ» تقدَّم، يُقال استنَّ الرجل استنتلاً وأبرنثاً أبرنثاً، وأبرنذع أبرنذاعاً، إذا تقدَّم. هكذا ذكره ابن الأنباري. ووجدت بعض المتقدمين في علم اللغة يحكي في كتاب له قال: يقول: استنَّتُ الأمرَ استنتلاً، إذا استعددت له، واستنَّتَ الرجلُ، تفرَّدَ من القوم، ويُقال: استنَّتَ: أشرف. والمعاني متقاربة، والخبر يليق بكل واحد منها. وحكى هذا الرجل الذي ذكرناه في كتابه في أبرنثاً وأبرنذع أيضاً أنه من الاستعداد، فأما «السَّكَّة» فهي المنازل المصطفَّة، والنخل المصطف، ومعنى «طفق»: ما زال. قال الشاعر:

١. جعفر بن قولويه: كامل الزيادة، الباب ١٤، حب رسول الله [الحسن والحسين عليهما السلام] والأمر بحبهما وثواب حبهما رقم الحديث ١٢. وجاء في هامش كتاب جامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي عند نقل هذه الرواية من هذا المصدر تعليقاً على المراد من الأسباط: (السيط ولد الابن والابنة. وفي الحديث الحسن والحسين سبطا رسول الله «صلى الله عليه وآله» ومعناه: أي طائفتان وقطعتان منه). هكذا تم تفسير المراد من الأسباط، وسأبين لاحقاً ما هو الصواب.

طَفَقَتْ تَبْكِي وَأُسْعِدُهَا وَكَلَانَا ظَاهِرُ الْكَمَدِ

وفأس الرأس: طرف القمحدوة المشرف على القفا. ومعنى «أقنعه»: رفعه، هكذا ذكر ابن الأنباري. وقال غيره: يُقال: أقنَعَ ظَهْرَهُ إقْنَاعًا: إذا طَاطَاهُ ثم رفعه برفق. فأما «الأسباط» فأصلها في وُلْدِ إِسْحَاقَ «عليه السلام» كالقبايل في بني إسماعيل^(١). وقال ابنُ الأنباري: هم الصبية، والصبوة، بالياء والواو معاً^(٢).

• الأسباط في القرآن:

ذُكرت كلمة الأسباط في القرآن الكريم - معرّفة بالألف واللام - أربع مرّات، مرتين في سورة البقرة، وثالثة في سورة آل عمران، ورابعة في سورة النساء.. وكلها سور مدنية. ففي سورة البقرة كان الحديث موجهاً لليهود والنصارى:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٣).

وتتمة للخطاب السابق قال «عز وجل» في نفس السورة:

١. هكذا فسّر السيد المرتضى المراد من الأسباط، وسأبين لاحقاً ما هو الصواب.

٢. السيد المرتضى: الأمالي، ص ١٥٧-١٥٨.

٣. سورة البقرة: ١٢٥-١٢٦.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ (١).

وهكذا جاء ذكر الأسباط في سورة مدنية أخرى هي سورة آل عمران وذلك في سياق الحوار مع أهل الكتاب:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢).

وأيضاً في إطار الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم من قضية التوحيد والنبوة قال «عز وجل»:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (٣).

وفي موردٍ واحدٍ جاءت الكلمة من دون (ال) حيث قال «عز وجل»:

﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ

١. سورة البقرة: ١٤٠.

٢. سورة آل عمران: ٨٤.

٣. سورة النساء: ١٦٣-١٦٤.

الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^(١).

والسورة مكية، وقد استعملت كلمة أسباط هنا في معنى مغاير لما في الآيات المدنية، فهي غير محللة بـ (ال) على خلاف الآيات المدنية، كما أن السياق الذي وردت فيه الكلمة هنا مخالف لسياق الآيات المدنية السابقة، إذ جاءت في كل الموارد الأربعة المدنية في سياق الحديث عن النبيين والرسل والرسالات، بخلاف الآية المكية التي تتحدث عن تقسيم قوم موسى إلى اثنتي عشرة قسماً، وعليه فيكون المعنى التالي هو المراد من كلمة أسباط في الآية المكية: (السَّبَطُ من اليهود: كالقبيلة من العرب، وهم الذين يرجعون إلى أب واحد)^(٢).

فما المراد من الأسباط في آيات سور البقرة وآل عمران والنساء؟ وهل هم المعنيون بقول النبي «صلى الله عليه وآله» أن: (الحسن والحسين سبطان من الأسباط)؟ أو (حسين سبط من الأسباط)؟ سأستعرض فيما يلي مجموعة من كلمات المفسرين من المذاهب الإسلامية المختلفة، من المتقدمين منهم والمتأخرين.

• من كتب التفسير عند أهل السنة:

١. قال محمد بن جرير الطبري «ت٣١٠هـ» في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة: (وأما الأسباط الذين ذكرهم، فهم اثنا عشر رجلاً من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا «أسباطاً»). ثم

١. سورة الأعراف: ١٥٩-١٦٠.

٢. ابن منظور: لسان العرب، مادة سبط.

روى الطبري عدة أحاديث للاستدلال على قوله، وهي كالتالي:

٢١٠٤- حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة قال: «الأسباط، يوسف وإخوته، بنو يعقوب. ولد اثني عشر رجلاً فولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا: أسباطاً».

٢١٠٥- حدثني موسى قال: حدثنا عمرو قال: حدثنا أسباط، عن السدي: أما الأسباط، فهم بنو يعقوب: يوسف، وبنيامين، وزوبيل، ويهوذا، وشمعون، ولاوي، ودان، وقهاث^(١).

٢١٠٦- حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، قال: الأسباط يوسف وإخوته بنو يعقوب، اثنا عشر رجلاً، فولد لكل رجل منهم أمة من الناس، فسموا «الأسباط».

٢١٠٧- حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني محمد بن إسحاق قال: نكح يعقوب بن إسحاق - وهو إسرائيل - ابنة خاله «ليا» ابنة «ليان بن توبيل بن إلياس»، فولدت له «زوبيل بن يعقوب»، وكان أكبر ولده.... فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً نشر الله منهم اثني عشر سبطاً، لا يحصي عددهم ولا يعلم أنسابهم إلا الله^(٢).

١. جاء في هامش الصفحة من الكتاب: لا ذكر لولد باسم «قهاث» ضمن أولاد يعقوب، وفي الدر المنثور «وتهان»، ولعلهما محرّقان عن «نفتالي». وقد اقتصر الطبري هنا على ثمانية نفر من الأسباط. وزاد السيوطي في الدر المنثور تاسعاً - في روايته عن الطبري - قال: «وكونوا - بالنون»، وليس في ولد يعقوب هذا الاسم، إلا أن يكون تصحيفاً صوابه «زبلون» كما هو في مصادر أهل الكتاب.

٢. الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

٢. قال أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي «ت٦٧١هـ» في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة: (والأسباط: ولد يعقوب عليه السلام)، وهم اثنا عشر ولداً، ولد لكل واحد منهم أُمَّةٌ من الناس، واحدٌ منهم سبط. والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل. وسمّوا الأسباط من السبط وهو التابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل: أصله من السَّبَطَ «بالتحريك» وهو الشجر، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سَبْطَةٌ^(١). وقال في تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف: (وقيل: أراد بالأسباط القبائل والفرق، فلذلك أنث العدد. قال الشاعر:

وَإِنْ قَرِيشاً كُلُّهَا عَشْرُ أَبْطَنٍ وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِنْ قِبَائِلِهَا الْعَشْرِ

فذهب بالبطن إلى القبيلة والفصيلة، فلذلك أنثها. والبطن مذكّر، كما أن الأسباط جمع مذكّر. الزجاج: المعنى قَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً. «أسباطاً» بدل من اثنتي عشرة «أُمَمًا» نعت للأسباط. وروى المفضل عن عاصم «وقَطَعْنَاهُمْ» مخففاً. «أسباطاً» الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل «عليه السلام». والأسباط مأخوذ من السبط وهو شجر تغلفه الإبل. وقد مضى في البقرة^(٢) مستوفى^(٣).

٣. قال محمد الطاهر بن عاشور «ت١٣٩٣هـ» في شرح قول الله «عز وجل»: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

٢. يشير إلى ما ذكره عن الأسباط في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

٣. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، في تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ^(١): (وبنو يعقوب هم الأسباط أي أسباط إسحاق، ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل وهم اثنا عشر ابناً: رأوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وزبولون، «وهؤلاء أهمهم ليثة»، ويوسف وبنيامين «أهمها راحيل» ودان ونفتالي «أهمها بلهة»، وجاد وأشير «أهمها زلفة». وقد أخبر القرآن بأن جميعهم صاروا أنبياء^(٢). وأن يوسف كان رسولاً. وواحد الأسباط سبط - بكسر السين وسكون الباء - وهو ابن الابن، أي الحفيد، وقد اختلف في اشتقاق سبط، قال ابن عطية في تفسير قوله «عز وجل»: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ في سورة الأعراف «١٦٠» عن الزجاج: «الأظهر أن السبط عبراني عُرِّبَ»^(٣).

• من كتب التفسير عند الشيعة:

كانت هذه آراء بعض المفسرين من أهل السنة، ومن أزمنة مختلفة، وفيما يلي بعض آراء مفسري الشيعة:

١. قال الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي «ت ٤٦٠هـ» في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة: (والأسباط جمع سبط. قال تغلب: يقال: سبط عليه العطاء والضرب: إذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض. وأنشد الثوري

١. سورة البقرة: ١٢٣.

٢. استنتج ابن عاشور من ذكر الأسباط في الآيات المدنية في سياق ذكر النبيين والرسول أن أولاد يعقوب صاروا أنبياء، وقد وقع في هذا الاشتباه نتيجة تصوُّره أن المراد من الكلمة في الآية المكيَّة هو ذات المراد منها في السور المدنية، وأنَّى لأولاد يعقوب أن يصبحوا أنبياء وهم الذين أرادوا قتل أخيهم وكانوا يعيشون عقداً نفسية تجاه أبيهم وأخيهم وبشكل تسوَّل لهم أنفسهم القتل والكذب!

٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، تفسير الآية ١٢٣ من سورة البقرة.

فِي قَطِيعٍ بَقَرٍ: «كَأَنَّهُ سَبَطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ» شَبَّهَهُ بِالْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ يَتَتَابِعُونَ فِي أَمْرٍ. وَالسَّبَطُ: جَمَاعَةٌ. وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ لَوْلَدِ يَعْقُوبَ أَسْبَاطٌ... وَقَالَ ابْنُ دَرِيدٍ: السَّبَطُ وَاحِدُ الْأَسْبَاطِ، وَهُوَ أَوْلَادُ إِسْرَائِيلَ. وَقَالُوا: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَبَطَا رَسُولِ اللَّهِ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» أَيُ وَلَدَاهُ... وَالسَّبَطُ مِنَ الْيَهُودِ بِمَنْزِلَةِ الْقَبِيلَةِ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ... وَقَالَ الزَّجَّاجُ: السَّبَطُ الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يَرْجِعُونَ إِلَى أَبٍ وَاحِدٍ. وَالسَّبَطُ: الشَّجَرُ. وَالسَّبَطُ: الَّذِينَ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْأَسْبَاطُ يُوسُفُ وَإِخْوَتُهُ وَلَدَ يَعْقُوبَ اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا فَوُلَدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ. فَسُمُّوا الْأَسْبَاطُ، وَبِهِ قَالَ السَّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ وَابْنُ إِسْحَاقَ... وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ. وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ مَذْهَبُنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ بِأَجْمَعِهِمْ، لِأَنَّهُ وَقَعَ مِنْهُمْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ مَا فَعَلُوهُ مَعَ يُوسُفَ «عَلَيْهِ السَّلَامُ» مَا لَا خِفَاءَ بِهِ، وَالنَّبِيُّ - عِنْدَنَا - لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ فَعْلُ الْقَبَائِحِ، لَا صَغِيرَهَا، وَلَا كَبِيرَهَا، فَلَا يَصِحُّ مَعَ ذَلِكَ الْقَوْلُ بِنُبُوَّتِهِمْ. وَلَيْسَ فِي ظَاهِرِ الْقُرْآنِ أَنَّهُمْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ، وَقَوْلُهُ «عَزَّ وَجَلَّ»: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ، لِأَنَّ الْإِنْزَالَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ مِمَّنْ كَانَ نَبِيًّا، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ أَمَرُوا بِاتِّبَاعِهِ. كَمَا يَقَالُ: أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَى أُمَّةٍ النَّبِيِّ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» الْقُرْآنَ. كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وَإِنْ كَانَ الْمُنْزَلُ عَلَى النَّبِيِّ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»، لَكِنْ لَمَّا كَانُوا مَأْمُورِينَ بِمَا فِيهِ أَضِيفَ بِأَنَّهُ أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ^(١).

١. الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

وقال في تفسير الآية ١٦٣ من سورة النساء مؤكداً ما ذكره مسبقاً من احتمال كون المراد بالأسباط في هذه الآيات: بعض النبيين من ذرية إسحاق ويعقوب «عليهما السلام» دون تحديد لأشخاصهم:

(والأسباط في ولد إسحاق كالثبائل في أولاد إسماعيل. وقد بعث منهم عدة رسل: كيوسف وداود وسليمان، وموسى وعيسى، فيجوز أن يكون أراد بالوحي إليهم الوحي إلى الأنبياء منهم، كما تقول: أرسلت إلى بني تميم، وإن أرسلت إلى وجوههم، وليس يصح عندنا أن الأسباط الذين هم اخوة يوسف، كانوا أنبياء)^(١).

وعند تفسيره لسورة يوسف عاد ليؤكد خطأ القول بأن المراد بهم يوسف وإخوته مستشهداً بأقوال بعض المفسرين أيضاً: (وأكثر المفسرين على أن إخوة يوسف كانوا أنبياء، وقال قوم: لم يكونوا كذلك، وهو مذهبنا، لأن الأنبياء لا يجوز أن تقع منهم القبائح، وخاصة ما فعلوه مع أخيه يوسف من طرحه في الحب، وبيعهم إياه بالثمن البخس، وإدخالهم الغم به على أبيهم يعقوب، وكل ذلك يبين أنهم لم يكونوا أنبياء. وقال البلخي: ذهب قوم إلى أنهم لم يكونوا في تلك الحال بلغوا الحلم، وقد يقع مثل ذلك ممن قارب البلوغ، وإن لم يبلغ، ويُعَاتَب عليه ويُدَم، ويضرب على فعله. ومن قال: كانوا بالغين، غير أنهم لم يكونوا أنبياء استدل على بلوغهم بقوله ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾^(٢)، وقولهم ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾^(٣) وقال: الأنبياء الأسباط من بني

١. الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ١٦٣ من سورة النساء.

٢. سورة يوسف: ٩.

٣. سورة يوسف: ٩٧.

يعقوب غير هؤلاء^(١).

٢. قال الفضل بن الحسن الطبرسي «ت ٥٤٨هـ» في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة مكرراً الكثير مما ذكره الطوسي من قبله: (الأسباط: واحد هم سبط، وهم أولاد إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم اثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً. وقالوا: الحسن والحسين سبطا رسول الله أي: ولداه. والأسباط في بني إسرائيل بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل. قال الزجاج: السبط الجماعة يرجعون إلى أب واحد. والسبط في اللغة: الشجر. فالسبط: الذين هم من شجرة واحدة. وقال ثعلب: يُقَالُ سَبَطَ عَلَيْهِ الْعِطَاءُ أَوْ الضَّرْبُ: إِذَا تَابَعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِلَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وأنشد الثوري في قطع بقر: «كَأَنَّهُ سَبَطَ مِنَ الْأَسْبَاطِ» شبهه بالجماعة من الناس يتتابعون في أمر. ومن ثم قيل لولد يعقوب أسباط.... قال قتادة: هم يوسف وإخوته بنو يعقوب، ولد كل واحد منهم أمة من الناس، فسُمُّوا الأسباط، وبه قال السدي والربيع ومحمد ابن إسحاق.... وقال كثير من المفسرين: إنهم كانوا أنبياء، والذي يقتضيه مذهبنا أنهم لم يكونوا أنبياء بأجمعهم، لأن ما وقع منهم من المعصية فيما فعلوه بيوسف «عليه السلام»، لا خفاء به، والنبي عندنا معصوم من القبائح، صغيرها وكبيرها، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أنهم كانوا أنبياء. وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ﴾، لأن الإنزال يجوز أن يكون كان على بعضهم ممن كان نبياً، ولم يقع منه ما ذكرناه من الأفعال القبيحة. ويحتمل أن يكون مثل قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وأن المنزل على النبي

١. الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ٨ من سورة يوسف.

خاصة، لكن المسلمين لما كانوا مأمورين بما فيه، أضيف الإنزال إليهم. وقد روى العياشي في تفسيره عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر الباقر قال: «قلت له: أكان ولد يعقوب أنبياء؟ قال: لا، ولكنهم كانوا أسباطاً أولاد الأنبياء، ولم يكونوا فارقوا الدنيا إلا سعداء، تابوا وتذكروا ما صنعوا»^(١).

وقال أيضاً في تفسير الآية ١٦٣ من سورة النساء مؤكداً أن المراد من الأسباط ذرية إسحاق ويعقوب «عليه السلام» وأن الوحي إنما أنزل على النبيين المنحدرين من سلالة هذه الذرية بالإضافة إلى النبي يوسف «عليه السلام» مستثنياً بذلك إخوته لعدم استحقاقهم مقام النبوة والوحي: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: وأوحينا إلى النبيين من بعد نوح، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أعاد ذكر هؤلاء، بعد ذكر النبيين، تعظيماً لأمرهم، وتعظيماً لشأنهم ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم أولاد يعقوب. وقيل: إن الأسباط في ولد إسحاق، كالقبائل في ولد إسماعيل، وقد بعث منهم عدة رسل، كيوسف، وداود، وسليمان، وموسى، وعيسى، فيجوز أن يكون أراد بالوحي إليهم، الوحي إلى الأنبياء منهم، كما تقول: أرسلت إلى بني تميم، إذا أرسلت إلى وجوههم. ولم يصح أن الأسباط الذين هم أخوة يوسف، كانوا أنبياء^(٢).

وقال في تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف:

(قال الأزهري: السبط: الفرقة.... والسبط في كلام العرب خاصة: الأولاد. قال الزجاج: قال بعضهم السبط: القرن الذي يجيء بعد قرن،

١. الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

٢. الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ١٦٣ من سورة النساء.

والصحيح أن الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل، فولد كل ولد من أولاد يعقوب، سبط، وولد كل ولد من أولاد إسماعيل قبيلة، وإنما سُموا هؤلاء بالقبائل، وهؤلاء بالأسباط، ليفصل بين ولد إسماعيل، وولد إسحاق «عليه السلام». ومعنى القبيلة: الجماعة، ويقال للشجرة: لها قبائل، وكذلك الأسباط من السبط، كأنه جعل إسحاق بمنزلة شجرة، وجعل إسماعيل بمنزلة شجرة، وكذلك يفعل النسابون في النسب، يجعلون الوالد بمنزلة شجرة، وأولاده بمنزلة أغصانها، ويقال: طوبى لفرع فلان وفلان من شجرة صالحة، فهذا معنى الأسباط، والسبط^(١).

واستشهد الطبرسي بكلام السيد المرتضى لنفي نبوة بعض إخوة يوسف ونزول الوحي عليهم، محتملاً أن يكون ليوسف إخوة آخرون لم يشاركوا في فكرة قتل يوسف «عليه السلام» وفي إلقائه في الجب وفي الكذب على يعقوب «عليه السلام» وأن يكون هؤلاء هم الأسباط المعنيون بالآيات التي تتحدث عن نزول الوحي إليهم. ومن الواضح أن هذا الاحتمال من السيد المرتضى لا يعضده دليل، ومجرد افتراض، والذي دفعه إلى فرضه محاولة التوفيق بين كون الأسباط هم ذرية يعقوب، وبين حديث القرآن عن إنزال الوحي على الأسباط. قال:

(وأكثر المفسرين على أن إخوة يوسف كانوا أنبياء. وقال بعضهم: لم يكونوا أنبياء، لأن الأنبياء لا يقع منهم القبائح. وقال المرتضى، قدس الله روحه: لم يقم لنا الحجة بأن إخوة يوسف الذين فعلوا ما فعلوه، كانوا أنبياء، ولا يمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوة الذين فعلوا بيوسف

١. الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

ما قصَّه الله «عز وجل» عنهم، وليس في ظاهر الكتاب أن جميع إخوة يوسف، وسائر الأسباط فعلوا بيوسف ما حكاه الله من الكيد. وقيل: يجوز أن يكون هؤلاء الإخوة في تلك الحال لم يكونوا بلغوا الحلم، ولا توجَّه إليهم التكليف، وقد يقع ممن قارب البلوغ من الغلمان مثل هذه الأفعال، ويُعاتب على ذلك ويُلام، ويُضرب، وهذا الوجه قول البلخي، والجبائي، ويدل عليه قوله ﴿نَرْتَع وَنَلْعَبُ﴾^(١). وروى أبو جعفر ابن بابويه^(٢) «رحمه الله» في «كتاب النبوة» بإسناده عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن حنان بن سدير، قال: «قلت لأبي جعفر: أكان أولاد يعقوب أنبياء؟ فقال: لا، ولكنهم كانوا أسباطاً، وأولاداً لأنبياء، ولم يفارقوا الدنيا إلا سعداء، تابوا وتذكروا ما صنعوا». وقال الحسن: كانوا رجالاً بالغين، ووقعت ذلك منهم صغيرة^(٣).

٣. وضع العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي «ت ١٤٠٢هـ» في معرض تفسيره للآية ١٣٦ من سورة البقرة احتمالين في المراد من الأسباط في الآية، الاحتمال الأول: ما يُقابل القبائل عند العرب، والاحتمال الثاني: أفراد من النبيين كانوا من ذرية ونسل النبي يعقوب «إسرائيل» «عليه السلام» ممن استحقوا هذا المقام، وليس المقصود منهم خصوص أولاده المباشرين، ما عدا النبي يوسف «عليه السلام» الذي استحقَّ هذا المقام وكان مؤهلاً له: (الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل، والسبط كالقبيلة، الجماعة يجتمعون على أب واحد، وقد كانوا اثنتي عشرة أسباطاً أمماً، وكل واحدة منهم تنتهي

١. سورة يوسف: ١٢.

٢. أي الشيخ الصدوق.

٣. الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ١٠ من سورة يوسف.

إلى واحد من أولاد يعقوب، وكانوا اثني عشر، فخلف كل واحد منهم أمة من الناس. فإن كان المراد بالأسباط الأمم والأقوام فنسبة الإنزال إليهم لاشتمالهم على أنبياء من سبطهم، وإن كان المراد بالأسباط الأشخاص كانوا أنبياء أنزل إليهم الوحي وليسوا بإخوة يوسف لعدم كونهم أنبياء، ونظير الآية قوله «عز وجل»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى﴾ (١١) (٢).

وبذا يكون العلامة قد وضع أمامنا احتمالين، أحدهما أن يكون المراد من الأسباط القبائل، وأن الآية تعني وتحدثت عن أنبياء ينحدرون منها الأسباط، والاحتمال الآخر أن يكون المراد منهم أنبياء من بني إسرائيل يُطلق عليهم هذا العنوان، دون أن يبين - في الاحتمالين - مَنْ هم وما هي خصوصيتهم. ثم عاد العلامة مجدداً ليؤكد عدم استحقاق إخوة يوسف للنبوّة، لينفي احتمال كونهم هم الأسباط الوارد ذكرهم في الآيات الشريفة التي تحدثت عن إنزال الوحي عليهم وذكّرتهم عند ذكر النبيين، قال: (وليس قوله «عز وجل»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ (٣) الظاهر في نبوة الأسباط صريحاً في إخوة يوسف. والحق أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء بل كانوا أولاد أنبياء حسدوا يوسف وأذنبوا بما ظلموا يوسف الصديق ثم تابوا إلى ربهم وأصلحوا وقد استغفر لهم يعقوب ويوسف «عليه السلام» كما حكى الله عن أبيهم قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ

١. سورة النساء: ١٦٣.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

٣. سورة النساء: ١٦٣.

لَكُمْ رَبِّي ﴿الآية: ٩٨ من السورة﴾ بعد قولهم: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾^(١) وعن يوسف قوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ «الآية: ٩٢» من السورة بعد اعترافهم له بقولهم: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾^(٢) (٣).

وأكد العلامة في مكان آخر ما ذكره المفسرون والعلماء الذين سبقوه كالطوسي والطبرسي، وكالسيد المرتضى من نفي نبوة إخوة يوسف، بالإضافة إلى عدم وجود دليل مقنع بأن المراد من الأسباط الأولاد المباشرين للنبي يعقوب «عليه السلام» قال: (وفي تفسير العياشي عن نشيط بن ناصح البجلي قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام» أكان إخوة يوسف أنبياء؟ قال: لا، ولا بررة أتقياء، وكيف وهم يقولون لأبيهم: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾^(٤)». أقول: وفي الروايات من طرق أهل السنة وفي بعض الضعاف من روايات الشيعة أنهم^(٥) كانوا أنبياء، وهذه الروايات مدفوعة بما ثبت من طريق الكتاب والسنة والعقل من عصمة الأنبياء «عليهم السلام»، وما ورد في الكتاب مما ظاهره كون الأسباط أنبياء كقوله «عز وجل»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾^(٦) غير صريح في كون المراد بالأسباط هم إخوة يوسف، والأسباط تطلق على جميع الشعوب من بني إسرائيل الذين ينتهي

١. سورة يوسف: ٩٧.

٢. سورة يوسف: ٩١.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، في تفسير الآية ٨ من سورة يوسف.

٤. سورة يوسف: ٩٥.

٥. أي إخوة يوسف.

٦. سورة النساء: ١٦٣.

نسبهم إلى يعقوب «عليه السلام». قال «عز وجل»: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾^(١) (٢).

من جميع ما سبق نتوصل إلى أن مجمل المفسرين المسلمين خلصوا إلى ثلاثة آراء رئيسة في محاولتهم لتحديد من هم الأسباط الذين تحدث عنهم الآيات الشريفة، وجعلتهم في مصاف النبيين والرسل، وذكرت أنهم قد أُوحي إليهم كما أُوحي إلى رسول الله محمد «صلى الله عليه وآله» ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ويونس وهارون وسليمان وداود وغيرهم من النبيين «عليهم السلام» الذين ذكرهم القرآن الكريم وممن لم يذكرهم. وفيما يلي خلاصة الآراء السابقة:

١. الأسباط: الأولاد المباشررون للنبي يعقوب «عليه السلام»، أي يوسف «عليه السلام» وإخوته، كانوا اثنا عشر رجلاً، وكانوا أنبياء. ويُلاحَق به الاحتمال الذي افترضه السيد المرتضى من أن يكونوا أولاد يعقوب المباشرين ممن لم يشاركوا في محاولة قتل أخيهام أو إلقاءه في الجب والكذب.

٢. الأسباط: الجماعات البشرية «القبائل» التي انحدرت من ذرية النبي يعقوب الملقَّب بـ «إسرائيل»، على أن يكون مراد الآيات الأربع الواردة في السور المدنية خصوص النبيين المنتمين إلى هذه الأسباط «القبائل» أي المنحدرين من نسل إسحاق وابنه يعقوب «عليه السلام»، دون تحديد لهويّتهم وأسمائهم، على

١. سورة الأعراف: ١٦٠.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، في البحث الروائي الخاص بتفسير الآيات ٩٣-

١٠٢ من سورة يوسف.

اعتبار أن المتكلم قد يتحدث عن أفراد معيّنين، ولكنه يذكرهم من خلال مَنْ أو ما ينتسبون إليه، كأن يتواجد أمامه عدد من الناس المنتمين إلى بلدان مختلفة فيقول: (على الكويتيين أن) وبالطبع فإنه لا يقصد كل الكويتيين الذين هم على قيد الحياة، بل خصوص المعنّيين المتواجدين أمامه.

٣. الأسباط: أنبياء من بني إسرائيل دون تحديد أسمائهم وهويّاتهم. قال العلامة محمد آصف المحسني: (يظهر من قوله «تبارك وتعالى»: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ «البقرة/١٣٦» أن الأسباط أنبياء كمن قبلهم ومن بعدهم في الآية، ويؤيده تكرار كلمة الأسباط في الآية الأخرى «البقرة / ١٤٠»^(١) بعد اسم يعقوب. وفي المجمع^(٢) حول الآية بعد نقل نبوة الأسباط عن كثير من المفسرين أنهم كانوا أنبياء، والذي يقتضي مذهبنا أنهم لم يكونوا أنبياء بأجمعهم لعدم عصمتهم لما فعلوا بيوسف^(٣).

فالتبرسي اعتبر أن الأسباط هم أولاد النبي يعقوب المباشرين، والقرآن ينصّ على ارتكابهم المعصية، فكيف يكونون أنبياء؟

ثم قال العلامة المحسني بعد عرض بعض الإشكالات والتوجيهات وما يرد عليها حول الجمع بين كونهم أولاد يعقوب المباشرين وكونهم أنبياء: (وهنا وهنا وجه ثالث يخطر بذهني، وهو أن المراد بالأسباط ليسوا أولاد يعقوب

١. أي قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

٢. أي تفسير مجمع البيان للتبرسي.

٣. المحسني: مشرعة بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٨-٢٢٩.

بلا فصل، بل من نسله، والأسباط اسم لأولاده ولذريتهم كما يستفاد من قوله «تعالى»: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ «الأعراف / ١٥٩-١٦٠» فلاحظ^(١).

ومع رفض الرأي الأول واستبعاده لما ذكر ضمن كلمات عدد من المفسرين والعلماء، ولأن الاحتمال الذي فرضه المرتضى بلا دليل، بقي لدينا قولان ينتهيان إلى نتيجة واحدة، وهي أن الأسباط أنبياء من ذرية النبي يعقوب، دون أن نصل إلى نتيجة توضّح وتحدّد لنا هويّة أولئك الأسباط النبيين، فضلاً عن شيء من سيرتهم. وقد ذهب بعض العلماء إلى نفي نبوة الأسباط، مع الالتزام بأنه كان يوحى إليهم، مع بيان معنى الوحي في القرآن وكيفياته، ومما جاء في ذلك:

(الأسباط ليسوا من الأنبياء، ولكنهم من الأوصياء، الأسباط ميزتهم أنهم يشاركون الأنبياء في خصلة معينة، وإن لم يكونوا أنبياء.... ألا وهي أنهم يوحى إليهم.....: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾^(٢)..... فما معنى أن الأسباط يوحى إليهم مع أنهم ليسوا بأنبياء؟ نستفيد هذا المعنى من الآية المباركة التي تقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^(٣) البشر يمكن أن يكلمه الله، لكن هناك ثلاث طرق لكلام الله مع البشر، ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ الوحي يعني الإلهام، يمكن للبشر

١. المحسنى: مشرعة بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٣٩.

٢. سورة النساء: ١٦٣.

٣. سورة الشورى: ٥١.

أن يكلمه الله عن طريق الإلهام الصائب، ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ بأن يخلق الله الكلام في جسم من الأجسام، فيسمعه البشر، كما سمع موسى بن عمران «عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والسلام»، عندما وصل لطور سيناء سمع الكلام من الشجرة، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(١)، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: أو ينزل جبرئيل عليه.... النبي هو من يصل إليه جبرئيل، كلام الله مع النبي يختلف عن كلام الله مع الوصي، كلام الله مع الوصي يختلف عن كلام الله مع الولي، لكل درجة درجة من كلام الله، النبي يكلمه الله بإرسال جبرئيل، الوصي أيضاً يكلمه الله وإن لم يكن نبياً، لكن لا عن طريق إرسال جبرئيل، بل عن طريق أن هذا الوصي يلهم الله قلبه المعاني الصائبة والمضامين الصحيحة..... بل حتى غير الأوصياء الله يكلمهم، نحن نقرأ القرآن في حق مريم بنت عمران، مريم ليست نبياً ولا وصياً، ومع ذلك القرآن تحدث أن الله «تبارك وتعالى» أرسل إليها الملائكة، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)..... بل الأعظم من ذلك، أم موسى، مريم امرأة معصومة، القرآن تحدث عن عصمتها، ﴿اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ولكن أم موسى ليست امرأة معصومة، ومع ذلك كلمها الله، أي: أوحى إليها، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ﴾.... إذا كانت أم موسى التي ليست نبياً ولا وصياً ممن أوحى إليه، فكيف نستغرب أن الأسباط - أي: الأوصياء - أوحى إليهم؟!..... فالأسباط -

١. سورة النساء: ١٦٤.

٢. سورة آل عمران: ٤٢.

أي: الأوصياء - هم الذين أيضاً كلمهم وأوحى إليهم عن طريق الإلهام^(١). ولكن قد يُقال أن ذكر الأسباط ضمن سلسلة الرسل والنبیین لا يُساعد على هذا القول، ويرجَّح أن يكونوا فعلاً من النبیین، والله أعلم بحقيقة الحال.

بعد هذا العرض للأقوال السابقة ننتقل إلى بيان ما توصَّلت إليه من نتائج تُحدِّد هوية أولئك الأسباط والعهد الذي عاشوا فيه، وماهية المهام والمسؤوليات التي نهضوا بها، وبالتالي ما رسالة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» التي ضمَّنها قوله حين اعتبر أن الإمامين الحسنين «عليه السلام» أو خصوص الإمام الحسين «عليه السلام» من الأسباط.

• سفر الأسباط:

من الواضح والبدیهی أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يُرد المعنى اللغوي لكلمة الأسباط عند إخباره بأن الحسين سبط^(٢) من الأسباط. ففي المعاجم اللغوية كما ذكر الزبيدي: (والسَّبَطُ بالكسر: وَلَدُ الْوَلَدِ، وفي المُحْكَم: وَلَدُ الْابْنِ وَالابْنَةُ. وفي الحديث: «الحسن والحسين سبطا رسول الله «صلى الله عليه وآله» و«رَضِيَ عَنْهُمَا». والسَّبَطُ: القبيلة من اليهود وهم الذين يَرْجِعُونَ إِلَى أَبِ واحد، سُمِّيَ سَبَطاً لِيُفَرَّقَ بَيْنَ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَوَلَدِ إِسْحَاقَ «عليه السلام». ج (٣) أَسْبَاطٌ. وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي: ما معنى السَّبَطِ في كلام العرب؟

١. من محاضرة لسماحة السيد منير الخباز ومنشورة على موقعه الرسمي على شبكة الإنترنت:

<http://almoneer.org/index.php?act=av&action=view&id=3029>

٢. أو (الحسن والحسين سبطان من الأسباط) كما في نص آخر.

٣. اختصار لكلمة (جمعه).

قال: السَّبَطُ والسَّبْطَانُ والأسْبَاطُ: خاصَّةُ الأولادِ والمُصَاصِ مِنْهُمْ^(١). وقالَ غَيْرُهُ: الأسْبَاطُ: أولادُ الأولادِ، وقيل: أولادُ البناتِ. قُلْتُ: وهذا القولُ الأخيرُ هو المشهورُ عندَ العامة، وبه فَرَّقُوا بَيْنَها وبين الأَحْفَادِ، ولكنَّ كلامَ الأئمَّةِ صَرِيحٌ في أَنَّهُ يَشْمَلُ وَلَدَ الابنِ والابنةَ كما صَرَّحَ به ابنُ سِيَدِهِ. وقالَ الأَزْهَرِيُّ: الأسْبَاطُ في بني إِسْحَاقَ بِمَنْزِلَةِ الْقَبَائِلِ في بني إِسْمَاعِيلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا. يُقَالُ: سُمُّوا بِذَلِكَ لِيُفْصَلَ بَيْنَ أولادِهِمَا. قال: وَمَعْنَى الْقَبِيلَةِ مَعْنَى الْجَمَاعَةِ، يُقَالُ لِكُلِّ جَمَاعَةٍ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ: قَبِيلَةٌ، وَيُقَالُ لِكُلِّ جَمْعٍ مِنْ آبَاءٍ شَتَّى: قَبِيلٌ - بِلَا هَاءٍ - وقالَ قُطْرُبٌ: واحدُ الأسْبَاطِ سَبَطٌ، يُقَالُ: هذا سَبَطٌ، وهذه سَبَطٌ، وهؤلاء سَبَطٌ، جَمْعٌ وهي الْفِرْقَةُ. وفي الْحَدِيثِ: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، حُسَيْنٌ سَبَطٌ مِنَ الأسْبَاطِ». قُلْتُ: رَوَاهُ يَعْلَى بْنُ مُرَّةٍ النَّتْقِيُّ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ ابْنِ عِيَّاشٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ بْنُ خُثَيْمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ رَاشِدٍ عَنْ يَعْلَى وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ سُلَيْمٍ وَوَهَّبٍ عَنْ ابْنِ خُثَيْمٍ وَأَخْرَجَهُ الْبَغَوِيُّ عَنْ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ عِيَّاشٍ الْحَمَصِيِّ عَنْ ابْنِ خُثَيْمٍ وَلَفْظُهُ: «حُسَيْنٌ سَبَطٌ مِنَ الأسْبَاطِ، مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبِّ حُسَيْنًا» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَيُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي الْخَيْرِ، فَهُوَ وَاقِعٌ عَلَى الْأُمَّةِ، وَالْأُمَّةُ وَاقِعَةٌ عَلَيْهِ^(٢).

فليس من المقبول أن يكون مراد النبي «صلى الله عليه وآله» بيان أن الحسين^(٣) ابنُ ابنته، كما لا معنى لأن يقول أن الحسين بمثابة قبيلة من القبائل، أو

١. مصاص: خالص كل شيء. «هو مصاص قومه»: أي أخلصهم نسباً.

٢. الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مادة سبط.

٣. أو الحسن والحسين ابنا ابنته.

كجماعة من الناس، لبيان قوّته أو همّته أو ما شابه ذلك، ولو أراد ذلك لقال مثلاً: «حسين سبط» واكتفى بذلك، إذ لا معنى بأن يقول بأن الحسين قبيلة من القبائل.. سبط من الأسباط.. فلا بد - والحال هذه - أن يكون النبي «صلى الله عليه وآله» بصدد إحالة المسلمين إلى شيء معهود قد عرفوه، وكان يتداعى إلى أذهانهم حين يسمعون كلمة الأسباط.

وبتعبير آخر فإن (ال) في كلمة الأسباط للعهد. قال السيد مرتضى العسكري: (وكذلك نرى أن قوله في حقهما أنهما سبطان من الأسباط، لا يعني أنهما حفيدان كما أن جميع البشر ما عداهما حفدة، فهذا هذر من القول حاشا رسول الله «صلى الله عليه وآله» منه، بل إن الألف واللام في الأسباط للعهد الذهني من القرآن الكريم، أي أنهما من الأسباط المذكورين في كتاب الله في قوله «عز وجل»: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١). وقوله «عز وجل»: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ...﴾^(٢). وقوله «عز وجل»: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ...﴾^(٣). وقوله «عز وجل»: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

١ سورة البقرة: ١٣٥-١٣٦.

٢ سورة البقرة: ١٤٠.

٣ سورة آل عمران: ٨٤.

وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ... ﴿١﴾. وعليه فإنَّ الألف واللام في «الأسباط» في حديث رسول الله «صلى الله عليه وآله» بحق الحسنين للعهد الذهني عند المسلمين من هذه الآيات، وأن قول رسول الله «صلى الله عليه وآله» في حقهما نظير قوله في حق أبيهما أنه منه بمنزلة هارون من موسى وقد شرح الله «عز وجل» تلك المنزلة فيما حكى عن موسى أنه قال: ﴿وَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا، قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى...﴾ ﴿٢﴾. وقوله «عز وجل»: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ...﴾ ﴿٣﴾. وقوله «عز وجل»: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٤﴾. وفيما أخبر «عز وجل» عنهما وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ ﴿٥﴾. وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ...﴾ ﴿٦﴾. في هذه الآيات جعل الله هارون رداءً لموسى ووزيراً وشريكاً في النبوة، استخلفه موسى في قومه، فلما نصَّ خاتم الأنبياء أن علياً منه بمنزلة هارون من موسى واستثنى من كل ذلك النبوة وأنه لا نبي بعده، بقي منها للإمام علي رداء ووزارة ومشاركة في التبليغ على

١. سورة النساء: ١٦٣-١٦٤.

٢. سورة طه: ٢٩-٣٦.

٣. سورة القصص: ٣٤-٣٥.

٤. سورة الأعراف: ١٤٢.

٥. سورة الفرقان: ٣٥.

٦. سورة المؤمنون: ٤٥.

عهد الرسول «صلى الله عليه وآله»، ومن بعده الخلافة في قومه وحمل أعباء التبليغ، وكذلك الأمر مع ولديه الحسين، ونستثني النبوة مما كان للأسباط، لأنه لا نبي بعد خاتم الأنبياء، ويبقى لهما حمل مسؤولية تبليغ الأحكام الإسلامية عن الله^(١).

وبالفعل، فإنَّ قول النبي: (حسين مني وأنا منه) - كما لا يخفى على عاقل - ليس لبيان الانتماء الأسري، بل جاءت هذه الكلمات لتُعبّر عن اعتزازه به، تماماً مثلما يرى الأب أحد أبنائه يتصرّف مثله أو يحمل بعض خصاله الحميدة كالشهادة أو البلاغة أو الشجاعة مثلاً، فيقول: «هذا ابني». أو يُقال للأب: «هذا الشبل من ذاك الأسد». إنَّ سَبَقَ عبارة: (حسين مني وأنا منه) لعبارة: (حسين سبط من الأسباط) يزيدنا تأكيداً من أن النبي لا يريد أن يبيّن هنا علاقة النَّسَب بينه وبين الحسين ولد ابنته.. وهل كان من المسلمين مَنْ يجهل ذلك؟! وإنما أراد «صلى الله عليه وآله» أن يشير إلى شيء عهده المسلمون وعرفوه من قبل، ولذا قلنا أنَّ الألف واللام في كلمة الأسباط للعهد الذهني، وكأنَّ أن النبي «صلى الله عليه وآله» يقول للمسلمين: «لقد علمتم أمر الأسباط.. إنَّ حال الحسين^(٢) وشأنه كشأن الأسباط».

فمن هم الأسباط في هذا الحديث النبوي؟ وماذا عرف المسلمون عنهم ليحيلهم النبي «صلى الله عليه وآله» إلى ما عرفوا؟ وما وجه الشبه بين الطرفين؟
اختلف شراح هذا الحديث في تفسير ذلك كما اختلف المفسرون في

١. العسكري: معالم المدرستين، ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٧.

٢. أو الحسن والحسين.

المراد من الأسباط في الآيات القرآنية.

فقد ذهب البعض إلى أنهم أسباط النبي إسحاق بن إبراهيم «عليه السلام»، أي أولاد النبي يعقوب «عليه السلام»، وبعبارة أخرى هم النبي يوسف «عليه السلام» وإخوته، وعددهم اثنا عشر سبطاً، وأنهم كانوا أنبياء. وهذا يعني أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أراد بيان مكانة الإمام الحسين «عليه السلام» باعتباره أحد قادة الأمة وحملة الرسالة والحماة عنها من بعده، تماماً كما قام الأنبياء بذلك، وإن كانت النبوات قد خُتِمت بنبوّة محمد، إلا أن المسؤوليات الملقاة على عاتق الأنبياء السابقين تبقى، وسيحملها الحسين كما تحملوها. وهذا يُشبه قول رسول الله «صلى الله عليه وآله» بحق الإمام علي «عليه السلام»: (أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى) ^(١) وفي رواية مسلم: (أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبيّ بعدي) ^(٢).

ومثل القول السابق ما ذهب إليه آخرون من أن المراد من الأسباط في هذا الحديث أنبياء من ذرية إسحاق ويعقوب دون تسميتهم أو تحديد هويّاتهم، وأن غرض النبي هنا هو عين الغرض في التفسير السابق. وذهب آخرون - كما مرّ بنا فيما نقله الزبيدي - إلى أن النبي «صلى الله عليه وآله» يشير إلى كون الإمام الحسين «عليه السلام» من جهة الخير والأهمية والعطاء بمثابة وبحجم أُمّة من الأمم ^(٣)، لأن كلمة الأسباط تُستعمل للدلالة على المجموعة من الكبيرة من

١. البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله [وسننه وأيامه] (صحيح البخاري)، ح ٣٥٠٢.

٢. مسلم: المسند الصحيح (صحيح مسلم)، ح ٢٤٠٤.

٣. الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مادة سبط.

الناس تماماً كما تدل كلمة القبيلة على ذلك. وفي رأي آخر - مرّ بنا أيضاً - أن الأسباط كانوا من ذرية أولاد النبي يعقوب «عليه السلام»، ولكنهم ما كانوا من النبيين، بل كانوا من الأوصياء، دون تحديد لهويّاتهم وأشخاصهم.

وبفضلِ الله «عز وجل» ومَنَّهُ، توصّلتُ إلى بعض النتائج التي أستطيع أن أقول أن بإمكانها أن تزيل الغموض عن المراد الحقيقي من هؤلاء الأسباط، بحيث ندرك على وجه التحديد والدقّة مَنْ هم المعنيّون في الآيات القرآنية النازلة في العهد المدني؟ وكم كان عددهم؟ وماذا كانت أدوارهم؟ وماذا أراد النبي من اعتبار الحسين أو الحسنين من الأسباط؟

فالقرآن الكريم في العهد المدني حيث يخاطب أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، يحيلهم إلى بعض أسفار «العهد القديم»، وما فيها من ذكرٍ لأنبياء وشخصيات عهدوها وارتبطوا بها في تاريخهم الممتد لقرون، وطالما تحدّثوا عنهم أمام أهل يثرب قبل الهجرة، ثم أمام المسلمين من المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، إلى درجة أنهم صاروا لاحقاً يتواصون فيما بينهم بالامتناع عن ذلك خوفاً من أن يستفيد المسلمون من تلك المعلومات فيزدادون إيماناً و يقيناً بالقرآن وبرسالة النبي ونبوّته، ويتوافرون على المزيد من الأدلّة والبراهين على حقّانية الإسلام: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١). وبالتالي، فإنّ القرآن حين يذكر الأسباط ضمن حديثه عن الرسل والنبيّين من قبيل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب

وموسى وغيرهم «عليهم السلام»، لابد وأنه يقصد مجموعة معيّنة لها ارتباط خاص فيما بينها، وعُرِفَتْ باسم الأسباط، وليس المراد منهم بعض أنبياء بني إسرائيل بشكل مبعثر، بل مجموعة خاصة من ذرية يعقوب، عرفهم المسلمون من خلال ما كان يحكيه لهم أهل الكتاب، وكانت هذه المجموعة تحمل هذا الاسم على وجه التحديد، وأفرادها غير أولئك النبيين من ذرية يعقوب من الذين طالما حكى القرآن قصصهم وعرفهم بأسمائهم الشخصية كداود وسليمان وزكريّا ويحيى وعيسى «عليهم السلام».

وأداة التعريف في كلمة الأسباط التي استعملها النبي «صلى الله عليه وآله» في الحديث السابق الذي ذكر فيه الحسين «عليه السلام» أو الحسنين «عليه السلام» هي للإشارة إلى تلك المجموعة المحددة على وجه الخصوص.

وهكذا فإن الأسباط في الآيات القرآنية وفي الحديث النبوي السابق ليسوا الأولاد المباشرين للنبي يعقوب «عليه السلام»، لأنهم - ما عدا يوسف - لم يكونوا بذلك المستوى اللائق الذي يؤهلهم لأن يكونوا من الرسل والنبيين وفي مصاف الخليل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وعيسى بن مريم «عليهم السلام».

وفعلًا، عندما نرجع إلى العهد القديم، سنجد بعد «سفر يشوع» مباشرة «سفر القضاة»، وفي كتاب «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس» ص ٤٨١، وجدت جدولاً يشتمل على عدد وأسماء أولئك القضاة، وهم اثنا عشر.. أحد عشر رجلاً، ومعهم امرأة! أي لو رجعنا إلى التاريخ بالترتيب، سنجد النبي موسى، فوصيه يوشع بن نون، فأحد عشر قاضياً ومعهم قاضية.. تماماً كما هو الحال مع نبينا فعلي وفاطمة الزهراء وأحد عشر إمام! فهل يمكن أن يكون

القضاة في هذا السُّفر هم الأسباط؟

وحيث أن كلمة «قضاة» في ظاهرها لا تدلُّ على الأسباط بأي نحو، فقد دفعني هذا إلى البحث عن التعبير الدقيق المستعمل في النص الأصلي للعهد القديم وباللغة العبرية؟ ومن هنا بدأت البحث.. وكانت المفاجأة! ففي المصادر التي تتحدث عن هذا السفر باللغة العبرية وجدت أن هذا السفر يحمل عنوان سفر الأسباط! كيف؟ وما الدليل؟ إليك البيان:

في كتاب «مقدمة موجزة للعهد القديم: الكتاب المقدس العبري في سياقه»^(١) لمايكل ديفيد كوغان^(٢) المحاضر في مادة العهد القديم باللغة العبرية في كلية اللاهوت بجامعة هارفارد، ومدير المنشورات للمتحف السامي بهارفارد يذكر في ضمن حديثه معرفاً بهؤلاء «القضاة»:

A Biblical judge (Hebrew: שופט šōpêṭ/shofet, pl. שופטים šōpəṭîm/shoftim) was «a ruler or a military leader as well as someone who presided over legal hearings.»^(٣)

أي أن الكلمة المستعملة بدلاً عن كلمة القاضي في النص العبري هي كلمة שופט ، وبالعودة إلى أي قاموس عربي عبري إنجليزي ستجد أن:

الحرف ש يقابل السين والشين S - Sh

والحرف ו يقابل الواو O

1. A Brief Introduction to the Old Testament: The Hebrew Bible in Its Context

2. Michael David Coogan

3. Coogan, A Brief Introduction to the Old Testament, Glossary, pg. 426

القاضي	سنوات حكمه	أهم ما يذكر عنه	الشاهد
عشئيل	٤٠	استولى على مدينة كنعانية حصينة.	١١-٧:٣
إهود	٨٠	قتل عجلون وهزم الموآبيين.	٣٠-١٢:٣
شمجر	غير معروف	قتل ٦٠٠ فلسطيني بمهماز بقر.	٣١:٣
دبورة (مع باراق)	٤٠	هزمت القائد سيسرا والكنعانيين ثم ترنمت بأنشودة النصر مع باراق.	٥، ٤
جدعون	٤٠	حطم أصنام عائلته، واستخدم جزء صوف لمعرفة إرادة الله، وجمع جيشاً من عشرة آلاف جندي وهزم مائة وخمسة وثلاثين ألف جندي من المديانيين بثلاثمائة مقاتل.	من ٦-٨
تولع	٢٣	قضى لإسرائيل ٢٣ سنة.	٢، ١:١٠
يائير	٢٢	كان له ثلاثون ابناً.	٥-٣:١٠
يفتاح	٦	نذر نذراً متسرعاً، وهزم العمونيين، ثم قاتل أفرام الذين غاروا منه.	٧:١٢-٦:١٠
إبصان	٧	كان له ثلاثون ابناً، وثلاثون بنتاً.	١٠-٨:١٢
إيلون	١٠	لم تسجل أعماله.	١٢، ١١:١٢
عبدون	٨	كان له أربعون ابناً وثلاثون حفيداً، وكان لكل منهم حماره.	١٥-١٣:١٢
شمشون	٢٠	كان نذيراً، قتل أسداً بيده بدون سلاح. أحرق حقول قمح الفلسطينيين. قتل ألف فلسطيني بفك حمار، وخلع باباً حديدياً. خانتة دليلة، وقتل آلاف الفلسطينيين في عمل أخير جبار.	١٦-١٣

والحرف □ يقابل «پ و الفاء» P - F

والحرف □ يقابل الطاء وليس له مقابل ويلفظ عندهم T

ولذا، فإن النص السابق كتب مقابل كلمة שׁוֹפֵט : shofet : šōpêṭ أي «شويط أو شوفط»، وهي تقابل كلمة «سبط» في العربية.

وللجمع في العبرية تضاف «يم» في نهاية الكلمة، ولذا نجد الكلمة تصبح كالتالي: שופטים : shoftim : šōpəṭîm أي «شوپطيم أو شوفطيم»، وهذا يقابل كلمة الأسباط في العربية. ولمزيد من التأكيد رجعت إلى كتاب «قاموس العهد القديم باللغات العبرية والإنجليزية»^(١)، وللعديد من المواقع اليهودية التي تتحدث عن أسفار الكتاب المقدس فوجدتها تُعَنِّون هذا السفر بالتالي:

Sefer Shoftim: The Book of Judges^(٢)

نعم... «سِفِرِ شوفطيم».. كتاب القضاة! وتضيف هذه المصادر بأنهم لم يكونوا قضاة وفق المعنى المعهود للكلمة، بل كانوا حُكَّاماً أو قادة عسكريين أو رؤساء جلسات المحاكمة، وبمعنى آخر أنهم كانوا ولاة أمور بني إسرائيل في عهدهم.. سادتهم.. قادتهم.. أولياءهم... فماذا كان دورهم؟

قبل أن يتوفى النبي موسى «عليه السلام» استدعى جميع بني إسرائيل وأوصاهم من جديد بالتمسك بتوحيد الله وبطاعته، والعمل بالمواثيق التي أخذها عليهم، ثم قال لهم: (أنا اليوم قد بلغت من العمر مائة وعشرين سنة، وصرتُ عاجزاً عن قيادتكم.. وسيكون يشوع قائدُكم كما وعدَ الرب.... وكان الرب قد قال لموسى: ها أنت قد أوشكتَ على الموت، وأيامُ حياتك باتت معدودة، فادعُ يشوع، وقفا كلاكما عند خيمة الاجتماع لكي أوصيه.... وقال الرب لموسى: ما إن تموت وتلحق بأبائك حتى يُسرَعَ هذا الشعب ويفجُر وراء آلهة الغرباء..... وعندما أتم موسى تدوين نصوص هذه التوراة كاملة في

1. A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament

المطبوع سنة ١٩٠٦ لعدة مؤلفين من بينهم فرانسيس براون.

2. www.chabad.org/library/article_cdo/aid/1172711/jewish/Sefer-Shoftim.htm

ה HEH = 5 "h" Behold, to show, to reveal.	ד DALETH = 4 "d" A door, a path, a way of life, movement (into or out of).	ג GIMEL = 3 "g" A camel, something lifted up (like a camel rising from its knees), self-will or pride.	ב BETH = 2 "b" Tent or house, the body, the household or family, inside, within, amid.	א ALEPH = 1 " " (silent) Ox, bull, gentle, tame, the leader, strength, what is first, Adonai, thousand, teach.
י YOD = 10 "y" A hand (closed or closing upon), to work, a deed done, a finished work.	ט TETH = 9 "t" A snake, to surround, to twist, a twisting or a coiling.	ח CHETH = 8 "ch" or "kh" A fence, inner room or chamber, to separate, to cut off from, to protect.	ז ZAYIN = 7 "z" A sword, an axe, a weapon, to cut, to pierce.	ו VAW = 6 "v" or "w" A nail, a peg, a hook, joining together, making secure, becoming bound (nailed to).
ס SAMEKH = 60 "c" or "s" sharp A prop, to support, prop, aid, assist, a slow twisting or turning aside (like a propped plant).	נ NUN = 50 "n" A fish, to sprout, to spread, offspring, descendant, action, life, heir to the Throne, faithfulness.	מ MEM = 40 "m" Water, mighty, massive, many chaos (like the deep), to come from (like water down a stream).	ל LAMEDH = 30 "l" A staff, cattle goad, rod, to control, prod, urge forward, go toward or forward, teach, learn, tongue.	כ KAPH = 20 "k" A palm of a hand, a wing, to allow, to cover, to open the hand, the power to suppress or lift up.
ר REYSH = 200 "r" A head, a person, what is the highest, most important, chief.	ק QOPH = 100 "q" or "k" The back of the head, what is behind, last, final, the least.	צ TSADHE = 90 "ts" or "s" sharp A fish hook, to pull toward, something inescapable, desire, trouble, a harvest, righteous, to hunt.	פ PHE = 80 "p" or "f" A mouth, opening, or entrance, to command, speak, open, a beginning, here, present.	ע AYIN = 70 " " (Guttural) The eye, look, appearance, to see, understand, experience, to be seen, a fountain.
ש SIN/SHIN = 300 "s" or "sh" Teeth, ivory, point of a rock, a peak, to devour, consume, destroy, something sharp, El Shaddai.	ת TAV = 400 "th" or "t" A mark, sign, "x" or cross, ownership, to seal, covenant, join two things together, the last.	ם MEM SOPHITH The letter meaning indicated.	ן NUN SOPHITH The letter meaning indicated.	ס SAMEKH The letter meaning indicated.
When parsing Hebrew texts: These 5 "Sophith" Forms are Suffixes to	indicate the end of a word if applicable.	They are decorative and do not alter at all	the letter meaning indicated.	When parsing Hebrew texts: These 5 "Sophith" Forms are Suffixes to
NUN SOPHITH	KAPH SOPHITH	PHE SOPHITH	TSADHE SOPHITH	MEM SOPHITH

Arabic Alphabet		Hebrew Alphabet	
Name	Character	Name	Character
Daad	ض		
Taa'	ط	ט	Tet
Th'aa'	ظ		
Ayn	ع	ע	Ayin
Ghayn	غ	ג	(Ghimel)
		פ	Pe
Faa'	ف	פ	(Fe)
Qaaf	ق	ק	Qof
Kaaf	ك	כ	Kaf
Laam	ل	ל	Lamed
Miim	م	מ	Mem
Nuun	ن	נ	Nun
Haa'	ه	ה	He
Waaw	و	ו	Vav (Waw)
Yaa'	ي	י	Yod

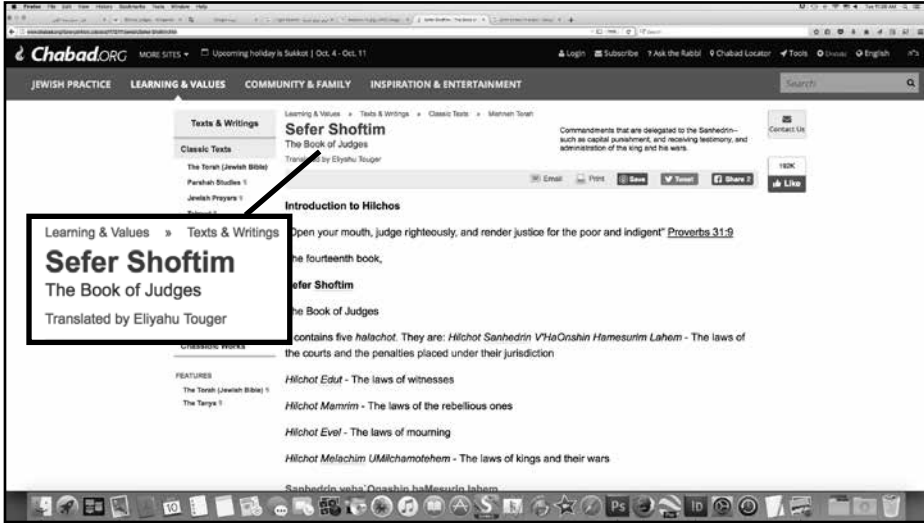
Arabic Alphabet		Hebrew Alphabet	
Name	Character	Name	Character
Alif	ا	א	Alef
Baa'	ب	ב	Bet
		ב	(Vet)
Taa'	ت	ת	Tav
Th'laa'	ث	ת	(Thav)
Jim	ج	ג	Gimel
H'aa'	ح	ח	H'et
Kha'	خ	כ	(Khaf)
Daal	د	ד	Dalet
Thaal	ذ	ד	(Thalet)
Raa'	ر	ר	Resh
Zaay	ز	ז	Zayin
		ס	Samekh
Siin	س	ש	Sin
Shiin	ش	ש	Shin
Saad	ص	צ	Tsadi

كتاب، أمر اللاويين حاملِي تابوت عهد الرب قائلاً: «خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه إلى جوار تابوت عهد الرب إلهكم، ليكون هناك شاهداً عليكم، لأنني أعرف تمردكم وقساوة قلوبكم. إذ وأنا مازلت حياً معكم اليوم أخذتم في مقاومة الرب. فكم بالأحرى تتمردون بعد موتي؟»^(١).

إنَّ النص السابق يذكّرنا بما جرى يوم الغدير حيث أوصى النبي المسلمون بالأخذ بأمرين، حيث قال لما أنهى حجة الوداع وخرج باتجاه المدينة ومعه عشرات الآلاف من المسلمين العائدين من الحج، فتوقف بالقرب من الجحفة حيث غدير خم فنزل هناك ونادى بالصلاة جامعة، فصلى الظهر ثم قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ وقال ما شاء الله أن يقول، ثم قال: (إني أوشك أن أدعى فأجيب، واني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلّغت ونصحت فجزاك الله خيراً، قال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق وأن النار حق؟ قالوا: بلى نشهد ذلك. قال: اللهم اشهد. ثم قال: ألا تسمعون؟ قالوا: نعم، قال: يا أيها الناس إني فرط وأنتم واردون عليّ الحوض وإن عرضه ما بين بصرى^(٢) إلى صنعاء، فيه عدد النجوم قدحان من فضة، وإنّي سائلكم عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما. فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: كتابُ الله، طرف بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدّلوا، وعترتي أهل بيتي، وقد نبّأني اللطيف الخبير أنّهما لن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض، سألتُ ذلك لهما ربي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تَقْصِروا

١. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح ٢١.

٢. منطقة في بلاد الشام.



عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهما فهم أعلم منكم. ثم قال: أستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أستم تعلمون أو تشهدون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى يا رسول الله. ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب بضبعيه فرفعها حتى نظر الناس إلى بياض إبطيهما، ثم قال: أيها الناس! الله مولاي وأنا مولاكم، فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبه، وابغض من أبغضه. ثم قال: اللهم اشهد^(١).

وتوفي نبي الله موسى «عليه السلام» وقاد وصيه يوشع بن نون «عليه السلام» بني إسرائيل، وحقق لهم الانتصارات على أعدائهم الوثنيين، وقبل وفاته قال لهم: (والآن اتّقوا الربّ واعبدوه بكل أمانة، وانزعوا الأوثان التي

١. العسكري: معالم المدرستين، ج ١، ص ٢٠٢-٢٠٤ نقلاً عن مصادر عديدة من كتب المسلمين.

عَبَدَهَا آبَاؤُكُمْ^(١).

وبعد زمن من وفاة الوصي يوشع بن نون، عاد بنو إسرائيل إلى الشرك وفعل الموبقات، فابتلاهم الله «عز وجل» بأعدائهم الذين استضعفوه، ووقعت مسؤولية الحفاظ على الرسالة من بعده على الأسباط «القضاة» الواحد تلو الآخر، فواجهوا الانحراف عن توحيد الله وعن طاعته فيما أمر ونهى، حتى عُبر عنهم بالأبطال، لأنهم كانوا أبطال دعوة التوحيد والحفاظ على رسالة السماء وشريعة الله «عز وجل». جاء في كتاب «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس»: (يغطي سفر القضاة ما يزيد على ٣٢٥ عاماً، مسجلاً ست فترات متعاقبة من الاضطهاد والحرية، مستعرضاً سيرة اثني عشر محرراً). (وسفر القضاة هو سفر الأبطال، إذ نجد فيه اثني عشر رجلاً وسيدة). (وعندما نقرأ سفر القضاة، علينا أن نلقي نظرة فاحصة على هؤلاء الأبطال... ملاحظين اتكأهم على الله وطاعتهم لأوامره)^(٢).

بالطبع يجب أن أنبه أن هذا السفر كباقي أسفار الكتاب المقدس قد تعرض للتحريف والتلاعب، ففي حين أن اليهود والنصارى يُقرّون الدور العظيم الذي قام به الأسباط في الدعوة إلى توحيد الله وطاعته، إذ بهم ينسبون إليهم فعل بعض الأمور الشنيعة! تماماً كما فعلوا من قبل مع إبراهيم ولوط ودأود وسليمان. وفيما يلي بعض النماذج من الافتراءات التي جاء بشأن بعض أنبياء الله ورسله المكرمين، ففي «سفر التكوين»:

١. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس: العهد القديم، سفر يشوع، الإصحاح ٢٤.

٢. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ٤٧٢.

• النبي نوح«عليه السلام»: (واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرماً، وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خيمته، فشاهد حام أبو الكنعانيين عري أبيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجاً. فأخذ سام ويافث رداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا القهقري إلى داخل الخيمة، وسترا عري أبيهما من غير أن يستديرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عريه. وعندما أفاق نوح من سكره وعلم ما فعله به ابنه الصغير قال: «ليكن كنعان ملعوناً، وليكن عبد العبيد لإخوته»^(١)).

• النبي إبراهيم«عليه السلام»: (ثم تابع أبرام ارتحاله نحو الجنوب. وعمّت تلك البلاد مجاعة، فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب فيها لأن المجاعة كانت شديدة في الأرض. وما إن اقترب من تخوم مصر حتى قال لزوجته ساراي: «أنا أعرف أنك امرأة جميلة، فما إن يراك المصريون حتى يقولوا: هذه هي زوجته فيقتلونني ويستحيونك. لذلك قلّي إنك أختي، فيحسنوا معاملتي من أجلك وتتجو حياتي بفضلك». ولما اقترب أبرام من مصر استرعى جمال ساراي أنظار المصريين، وشاهدها أيضاً رؤساء فرعون فأشادوا بها أمامه. فأخذت المرأة إلى بيت فرعون. فأحسن إلى أبرام بسببها وأجزل له العطاء من الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والأثْن والجمال. ولكن الرب ابتلى فرعون وأهله ببلايا عظيمة بسبب ساراي زوجة أبرام. فاستدعى فرعون أبرام وسأله: «ماذا فعلت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها زوجتك؟ ولماذا ادّعت أنها أختك حتى أخذتها لتكون زوجة لي؟ والآن ها هي زوجتك، خذها وامض في طريقك». وأوصى فرعون رجاله بأبرام، فشيعوه وامرأته وكل ما كان

١. العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح ٩.

يملك) (١).

• النبي لوط «عليه السلام»: (وغادر لوط وابنتاه بعد ذلك صوغر، واستقروا في الجبل لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فلجأ هو وابنتاه إلى كهف هناك. فقالت الابنة البكر لأختها الصغيرة: «إن أبانا قد شاخ وليس في الأرض حولنا رجل يتزوجنا كعادة كل الناس. فتعالى نسقيه خمرًا ونضطجع معه فلا تنقطع ذرية أبينا». فسقتا في تلك الليلة أباهما خمرًا، وأقبلت الابنة الكبرى وضاجعت أباهما فلم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وفي اليوم الثاني قالت الابنة البكر لأختها الصغيرة: «إني قد اضطجعت مع أبي ليلة أمس، فتعالى نسقيه الليلة أيضًا خمرًا ثم ادخلي واضطجعي معه فتحبي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا وأقبلت الابنة الصغيرة وضاجعت أباهما. فلم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وهكذا حملت الابنتان كلتاهما من أبيهما. فولدت الكبرى ابنا دعتة موآب «ومعناه من الأب»، وهو أبو الموابيين إلى اليوم، أما الصغرى فولدت ابنا ودعتة «بن عمي» «ومعناه ابن قومي» وهو أبو بني عمون إلى اليوم) (٢).

والذي يجعلنا مطمئنين من براءة الأسباط من تلك الاتهامات، أن الله ذكرهم في مصاف الرسل والنبیین:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

١. العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح ١٢.

٢. العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح ١٩.

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ»^(١).

بالطبع، فإن وجود التحريف في الكتاب المقدس لا يعني رفضه بأجمعه وسقوطه بتمامه عن الحُجِّيَّة، وإلا كيف أرجع الله «عز وجل» إليه في أكثر من مورد في القرآن الكريم محتجاً عليهم بما فيه؟ قال «عز وجل»: ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ..... وَلِيَحْكَمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ..... وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ..... قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُتِمُّوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ»^(٢)..... ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ»^(٣).

وهذا يعني أن في الكتب التي كانت بأيديهم شيء من المصادقية، وإلا لما أحالهم إليها للتأكد مما جاء في القرآن: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ»^(٤).

١. سورة آل عمران: ٨٤.

٢. سورة المائدة: ٤٣-٦٨.

٣. سورة يونس: ٩٤.

٤. سورة البقرة: ١١٣.

واستعمال الآية لصيغة المضارع ﴿يَتْلُونَ﴾ دليل على أن الله «عز وجل» يتحدث عن الكتب السماوية التي بين أيديهم على عهد النبي، فإنهم لورجعوا إليها - على الرغم من كونها محرّفة في بعض مواردّها - سيجدون شيئاً من تعاليم الله «عز وجل» التي لم تصل إليها يد التحريف، وفيها ما يتعارض مع تكفير بعضهم لبعض، واتّهام بعضهم لبعض.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

والأمر بأن نطلب من أهل الكتاب إحضار التوراة وتلاوتها، إن كانوا صادقين في نقل ما يخالف ذلك، دليل على وجود ما لم يُحرّف، وإلا كيف يمكن الاستشهاد به والمحاجة عن طريقه؟ ومن هنا دأب العلماء المسلمون على الاستشهاد بموارد من الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد على صدق نبوة نبينا محمد. وأنه مذكور في بشارات الأنبياء ابتداء من النبي إبراهيم الخليل «عليه السلام» ومروراً بالنبي موسى بن عمران «عليه السلام» وانتهاء بالنبي عيسى بن مريم «عليه السلام»، وقد ألفوا كتباً في هذا المضمّن، ولو كان الكتاب المقدّس بأكمله محرّفاً لما صحّ لهم ذلك، ولما كانت لنتائجهم أية مصداقية.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (٢).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَكْثَرُ عَرَفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

قال العلامة السيد محمد حسين فضل الله في تفسير الآية الأخيرة: (ويؤكد القرآن من جديد أن أهل الكتاب لا يعيشون حالة جهل للنبي ولرسالته، فقد عرفتهم التوراة صفاته جيداً، فعرفوه في وضوح من الرؤية كما عرفوا آبائهم، ولكنهم يكتُمون الحقّ وهم يعلمونه نتيجة عنادهم وتمردهم وضلالهم) (٤).

كما وقام علماؤنا بدراسة الكتاب المقدس لإثبات مصداقية القرآن الكريم في بعض موارده، ولفهم بعض ما أشار إليه القرآن من قصص الماضين، وللاستدلال على إمامة العترة من أهل البيت «عليهم السلام» وغير ذلك من قضايا متعددة تجلّعنا نصل إلى نتيجة واحدة وهي أن الكتاب المقدس يشتمل على ما لم تمتد إليه يد التحريف، وإن تشوّهت عباراته أحياناً، وتغيّرت أحياناً أخرى بعض كلماته من نسخة إلى أخرى ومن ترجمة إلى ترجمة لسبب أو لآخر.

١. سورة الأعراف: ١٥٧.

٢. سورة الصف: ٦.

٣. سورة البقرة: ١٤٦.

٤. فضل الله: من وحي القرآن، في تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة.

وممن استخدم هذا الأسلوب من العلماء:

١. الشيخ محمد بن إبراهيم النعماني «ت ٣٦٠هـ» في كتابه «الغيبة».
٢. الشيخ محمد جواد البلاغي «ت ١٣٥٢هـ» في كتابه «الرحلة المدرسية والمدرسة السيارة».
٣. السيد مرتضى العسكري «ت ١٤٢٨هـ» في كتابه «معالم المدرستين» وفي كتابه الآخر «عقائد الإسلام من القرآن الكريم».
٤. تامر مير مصطفى في كتابه «بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار».
٥. عبد الوهاب النجار «ت ١٣٦٠هـ» في كتابه «قصص الأنبياء».
٦. المهدي عبد الأحد داود «ت ١٩٤٠م» في كتابه «محمد في الكتاب المقدس». وكان اسم المؤلف ديفيد بنجامين كلداني، وكان أستاذاً في علم اللاهوت، وقسيساً لطائفة الكلدان الكاثوليك، ومطّلعاً على عدة لغات. وبعد دراسة للكتاب المقدس اعتنق الإسلام.
٧. المهدي اللبناني الشهيد الشيخ محمد جان وهبي أبو جودة، مسيحي أسلم وأتبع مدرسة أهل البيت في كتابه: «الإسلام ورسوله في التوراة والإنجيل».
٨. الحاج إبراهيم أحمد في كتبه «محمد في التوراة والإنجيل والقرآن»، «حدود الله: التوراة والإنجيل والقرآن»، «الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن»، «المسيح في التوراة والإنجيل والقرآن». والمؤلف في الأصل قسيس مصري واسمه السابق «إبراهيم فيلوبوس» وكان راعياً للكنيسة الإنجيلية، وأستاذاً للاهوت، أسلم على يديه عدد كبير من الناس.

٩. د. محمد توفيق صدقي «ت ١٩٢٠ م» في كتابه «بشائر عيسى ومحمد في العهد القديم والعهد الجديد».

١٠. الباحث المغربي المعاصر د. حفيظ اسليماني في كتابه «إثبات نبوة محمد . من خلال التوراة والإنجيل».

١١. د. أحمد السقّا في كتابه «البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل».

١٢. العميد المهندس جمال الدين شرقاوي في كتبه «المسيح والمسيّا»، و«قضايا جديدة في المسيحية والإسلام»، و«نبي أرض الجنوب»، و«لكن شُبّه لهم»، و«يحيى أم يوحنا».

وقد كان للداعية الإسلامي الراحل أحمد ديدات «ت ٢٠٠٥م» جهوداً كبيرة في هذا الإطار، وهي مسجّلة ومبثوثة من خلال قنوات الفيديو على شبكة الإنترنت.

بل إن بين أيدينا نصوصاً تبين أن بعض أئمة أهل البيت «عليهم السلام» حاجّوا أهل الكتاب بالكتاب المقدّس، ومن ذلك الخبر التالي الذي رواه الشيخ الصدوق عن بعض حوارات الإمام علي بن موسى الرضا «عليه السلام» مع بعض علماء أهل الكتاب: (.... قال الرضا «عليه السلام» لقسطاس الرومي: كيف حفظك للسفر الثالث من الإنجيل؟ قال: ما أحفظني له، ثم التفت إلى رأس الجالوت فقال له: ألسنت تقرأ الإنجيل^(١)؟ قال: بلى لعمرى. قال: فخذ على السفر الثالث، فإن كان فيه ذكر محمد وأهل بيته وأمتة فاشهدوا لي، وإن

١. من المحتمل أن يكون المراد هنا الكتاب المقدس بقسميه القديم والجديد لا خصوص الإنجيل، وأن الراوي أخطأ في نقل الرواية هنا.

لم يكن فيه ذكره فلا تشهدوا لي، ثم قرأ «عليه السلام» السفر الثالث حتى إذا بلغ ذكر النبي «صلى الله عليه وآله» وقف، ثم قال: يا نصراني إني أسألك بحق المسيح وأمه أتعلم أنني عالم بالإنجيل؟ قال: نعم. ثم تلا علينا ذكر محمد وأهل بيته وأُمَّته، ثم قال: ما تقول يا نصراني؟ هذا قول عيسى بن مريم؟ فإن كذبت ما ينطق به الإنجيل فقد كذبت عيسى و موسى «عليه السلام»، ومتى أنكرت هذا الذكر، وجَبَ عليك القتل، لأنك تكون قد كفرت بربك ونبيك وبكتابك. قال الجاثليق: لا أنكر ما قد بان لي في الإنجيل، وإني لمُقر به، قال الرضا «عليه السلام»: اشهدوا على إقراره^(١).

فكيف يتسنى للإمام الاستشهاد بما في ذلك السفر في الوقت الذي نقول فيه أن كل الكتاب المقدس محرّف وغير قابل للاعتماد عليه؟

ثم إنه لا يقول بهذا إلا مَنْ لم يطلع على نصوصه، حيث أن فيه مجموعة من مواطن اللقاء مع ما جاء في القرآن الكريم إلى درجة أنهم اتّهموا النبي بأنه أخذ ما في القرآن عن كتبهم التي كانت متداولة في ذلك العهد: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي^(٢) وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ^(٣)﴾. ووجود التشابه دليل على أن تلك المواضع لم تُحرّف: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ^(٤)﴾.

١. الصدوق: التوحيد، ص ٤٢٠-٤٢١.

٢. وهي لغات الأسفار وكانت بالعبرية والآرامية والسريانية وغيرها.

٣. سورة النحل: ١٠٣.

٤. سورة المائدة: ٤٨.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في قصة البشارة التي جاءت بها الملائكة للخليل إبراهيم «عليه السلام» بأن سارة ستحمل بإسحاق على الرغم من شيخوختها: (فرفع عينيه وإذا به يرى ثلاثة رجال ماثلين لديه. فأسرع لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض. وقال: «ياسيدي، إن كنت قد حظيت برضاك فلا تعبر عن عبدك. بل دعني أقدم لكم بعض ماء تغسلون به أرجلكم وتتكئون تحت الشجرة، ثم آتي لكم بلقمة خبز تسندون بها قلوبكم، وبعد ذلك تواصلون مسيرتكم، لأنكم قد ملتم إلى بيت عبدكم». فأجابوه: «حسناً، ليكن كما قلت». فأسرع إبراهيم إلى داخل الخيمة إلى زوجته سارة وقال: «هيا أسرعي واعجني ثلاث كيالات من أفضل الدقيق واخبزيها». ثم أسرع إبراهيم نحو قطيعه واختار عجلاً رخصاً طيباً وأعطاه لغلّام كي يجهزه. ثم أخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذي طبخه، ومدها أمامهم، وبقي واقفاً في خدمتهم تحت الشجرة وهم يأكلون. ثم سأله: «أين زوجتك؟» فأجاب: «ها هي في الخيمة». فقال: «إني أرجع إليك في مثل هذا الوقت من السنة القادمة فتكون سارة آنذا قد ولدت لك ابناً». وكانت سارة وراءه، عند باب الخيمة، فسمعت حديثه. وكان إبراهيم وسارة عجوزين طاعنين جداً في السن وقد تجاوزت سارة سن اليأس. فضحكت سارة في نفسها قائلة: «أبعد أن فني عمري وأصبح زوجي شيخاً يكون لي هذا التمتع؟». فقال الرب لإبراهيم: «لماذا ضحكت سارة قائلة: أحقاً ألد ابناً وقد بلغت سن الشيخوخة؟ أيتعذر على الرب شيء؟ سأرجع إليك في مثل هذا الوقت من السنة القادمة فتكون سارة قد أنجبت ابناً»^(١).

١. العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح ١٨.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ، فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ، وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾^(١).

بالطبع لا يخفى ما في النص السابق من تلاعب وتحريف عند المقارنة مع الآيات القرآنية، إلا أنهما يتلاقيان عموماً ويتشابهان في الجو العام للقصة. ومثل ذلك ما جاء في قصة النبي موسى «عليه السلام» مع قومه حين أمرهم بأن يدخلوا الأرض المقدسة فخافوا وامتنعوا: (فصعدوا وتجسسوا الأرض.... ثم رجعوا من تجسس الأرض بعد أربعين يوماً. فساروا حتى أتوا إلى موسى وهارون وكل جماعة بني إسرائيل، إلى برية فاران، إلى قادش، وردوا إليهما خبراً وإلى كل الجماعة وأروهم ثمر الأرض. وأخبروه وقالوا: «قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً، وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز^(٢)، والمدن حصينة عظيمة جداً. وأيضاً قد رأينا بني عناق هناك. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب، والحثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل، والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن». لكن كالب أنصت الشعب إلى موسى وقال: «إننا نصعد ونمتلكها لأننا قادرين عليها». وأما الرجال الذين صعدوا معه فقالوا: «لا نقدر أن نصعد إلى الشعب، لأنهم

١. سورة هود: ٦٩-٧١.

٢. أي يمتلك عدة وعتاداً ورجالاً أشداء.

أشد منا». فأشاعوا مذمة الأرض التي تجسسوها، في بني إسرائيل قائلين: «الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها هي أرض تأكل سكانها، وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة. وقد رأينا هناك الجبابرة، بني عناق من الجبابرة. فكنا في أعيننا كالجراد، وهكذا كنا في أعينهم». رفعت كل الجماعة صوتها وصرخت، وبكى الشعب تلك الليلة. وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل، وقال لهما كل الجماعة: «ليتنا متنا في أرض مصر، أو ليتنا متنا في هذا القفر! ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف؟ تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة. أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر؟» فقال بعضهم لبعض: «نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر». فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بني إسرائيل. ويشوع بن نون وكالب بن يفنة، من الذين تجسسوا الأرض، مَرَّقَا ثيابهما وكلَّما كل جماعة بني إسرائيل قائلين: «الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها جيدة جداً جداً. إن سَرَّ بنا الرب يدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها، أرضاً تفيض لبناً وعسلاً. إنما لا تتمردوا على الرب، ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا. قد زال عنهم ظلمهم، والرب معنا. لا تخافوهم»^(١).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ، قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن

يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قَالَ رَجُلَانِ^(١) مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾.

وهكذا نجد في إنجيل متى النص التالي: (في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر، فاجتمع إليه جموع كثيرة حتى أنه دخل السفينة وجلس. والجمع كله وقف على الشاطيء. فكلهم كثيراً بأمثال قائلاً: «هو ذا الزارع قد خرج ليزرع، وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق، فجاءت الطيور وأكلته. وسقط آخر على الأماكن المحجّرة حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض. ولكن لما أشرقت الشمس احترق وإذ لم يكن له أصل جف. وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمرًا، بعض مئة، وآخر ستين، وآخر ثلاثين. مَنْ له أذنان للسمع فليسمع». فتقدم التلاميذ وقالوا له: «لماذا تكلمهم بأمثال؟» فأجاب: «لأنه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السماوات، وأما لأولئك فلم يعط. فَإِنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى وَيَزَادُ، وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ سَيُؤْخَذُ مِنْهُ. مَنْ أَجَلَ هَذَا أَكَلَهُمْ بِأَمْثَالٍ لِأَنَّهُمْ مَبْصُرِينَ لَا يَبْصُرُونَ، وَسَامِعِينَ لَا يَسْمَعُونَ، وَلَا يَفْهَمُونَ....» فاسمعوا أنتم مثل الزارع: كل من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم فيأتي الشرير ويخطف ما قد زرع في قلبه. هذا هو المزروع على الطريق. والمزروع على الأماكن المحجّرة هو الذي يسمع الكلمة وحالاً

١. وهما كالب ويوشع المذكورين في النص التوراتي.

٢. سورة المائدة: ٢٠-٢٣.

يقبلها بفرح، ولكن ليس له أصل في ذاته، بل هو إلى حين. فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالاً يعثر. والمزروع بين الشوك هو الذي يسمع الكلمة وهم هذا العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر. وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم. وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعض مئة، وآخر ستين، وآخر ثلاثين.... قال لهم مثلاً آخر: «يشبه ملكوت السماوات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله وهي أصغر جميع البزور. ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصبح شجرة، حتى أن طيور السماء تأتي وتتاوى في أغصانها»^(١).

النص السابق يذكرنا ببعض نصوص القرآن من قبيل قوله «عز وجل»: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَاؤه فَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

١. العهد الجديد: إنجيل متى، الإصحاح ١٣.

٢. سورة الفتح: ٢٩.

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ^(١).

والتعبير بـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَوْعًا مِنَ الْإِحَالَةِ إِلَى مَصْدَرٍ مَا، وَقَدْ سَمِعَ النَّاسُ ذَلِكَ الْمَثَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَا أَقْرَبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَصْدَرُ هُوَ النَّصُّ الْإِنْجِيلِيُّ السَّابِقُ. وَمِثْلُ هَذِهِ الْمَوَارِدِ مَوَارِدُ أُخْرَى كُلُّهَا تَوْكِّدُ عَلَى وَجُودِ نصوصٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لَمْ تَصْلُحْ يَدُ التَّحْرِيفِ.

• وجاء دور الأسباط:

جاء في سفر القضاة أي الأسباط في وصف أوضاع بني إسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون: (واقترف بنو إسرائيل الشرف في عيني الرب وعبدوا البعل^(٢)، ونبدوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من ديار مصر، وغفوا وراء آلهة أخرى من أوثان الشعوب المحيطة بهم، وسجدوا لها، فأغاضوا الرب. تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروث. فاحتدم غضب الرب على إسرائيل وتركهم تحت رحمة الناهبين الغزاة. وأسلمهم إلى أعدائهم المحيطين بهم ففجزوا عن مقاومتهم. وحيثما خرجوا لخوض الحرب كان الرب ضدهم فينكسرون، تماما كما سبق وحذرهم، فاعتراهم ضيق عظيم جداً)^(٣). ثم جاء دور الأسباط: (وأقام الرب من بينهم قضاة فأنقذوهم من أيدي غزاتهم)^(٤).

وفي العبرية: (וַיָּקָם יְהוָה، שְׁפָטִים; וַיִּנְשִׁיעוּם، מִיַּד שׂוֹנֵיָהֶם)

١. سورة إبراهيم: ٢٤-٢٧.

٢. أي الإله الوثن بعل.

٣. العهد القديم: سفر القضاة، الإصحاح ٢.

٤. العهد القديم: سفر القضاة، الإصحاح ٢.

والكلمة الثالثة: שִׁבְטֵיָם وتُقرأ «شوپيطيم - شوفطيم» أي الأسباط، ويبدأ السُّفر ببيان دور كل واحد من أولئك الأسباط، ويمكن تلخيص الأدوار التي قاموا بها كالتالي:

١. أعادوا بني إسرائيل إلى توحيد الله وطاعته. فقد توالى مشهد عودة بني إسرائيل إلى الشرك مع وفاة كل واحد من أولئك الأسباط، ليأتي سبط آخر ويعيدهم إلى الجادة: (وفي كل مرة كان الرب يقيم قاضياً كان يؤيده بقوة طوال حياته فيخلص الشعب من عبودية أعدائه إذ يشفق الرب عليهم مما يسومهم مضايقتهم وظالموهم من عذاب؛ فكان الرب ينقذهم طوال حياة القاضي. ولكن ما إن يموت القاضي حتى يرتدوا عن الرب ويتفاقم فسادهم أكثر من تفاقم فساد آبائهم بالسعي وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها. لم يرتدعوا عن أفعالهم وسلوكهم العنيد)^(١).

٢. التربية الروحية والإيمانية، وقد كان للسيدة الوحيدة بين الأسباط، واسمها دُبُورَة دور في ذلك، ونقل سفر القضاة بعضاً من «أناشيدِها» أي مناجياتها وابتهالاتها وأدعيتها. وفي «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس»: (وقصتها تُثبت أنها لم تكن تسعى إلى السلطة، بل كانت تريد أن تخدم الله. وكلما مدحها الناس، كانت ترجع بالفضل إلى الله. لم تُتكر وضعها في حضارة المجتمع كامرأة وزوجة، أو تتمرد عليه، ولكنها لم تسمح مطلقاً أن يكون ذلك عائقاً أمامها... وتضع أمامنا حياة دُبُورَة تحديات في جوانب عديدة، فهي تذكرنا بالحاجة إلى أن نكون تحت تصرف الله... وتُبَيِّن لنا

١. العهد القديم: سفر القضاة، الإصحاح ٢.

بوضوح ما يستطيع شخصٌ أن يعملَه عندما يكون المسيطر هو الله^(١).

٣. خوض الحروب من أجل تحرير بني إسرائيل من العبودية والاضطهاد. فبعد أن غَضِبَ اللهُ «عز وجل» على بني إسرائيل لِشِرْكِهِمْ غَزَاهُمْ أحد الملوك فاستعبدهم ثمان سنوات وعندها: (استغاث بنو إسرائيل بالرب، فأقام لهم مخلصاً أنقذهم هو عثنيئيل بن قناز أخو كالب^(٢) الأصغر. فحل عليه روح الرب وصار قاضياً لإسرائيل). ثم يصف النص كيف حرَّرَ عَثْنِيئِيلُ بني إسرائيل من العبودية.

٤. التضحية والفداء بالمال والنفس، كل ذلك في سبيل الله «عز وجل» ومن أجل المباديء والقيم التي نهضوا من أجلها، وتحملوا مسؤوليتها بأمرٍ من الله، ولو كلفهم ذلك أن يقدموا أنفسهم قرايين في هذا الطريق. فنجد - على سبيل المثال - آخرَ الأسباط واسمه شمشون^(٣) بن منوح الدني، وهو كما في «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس»: (ممن آمنوا بالله، ونالوا ما وعدهم الله)^(٤). يُدمرُ معبد الوثنيين بتدمير العمودين الذين يرتكز عليهما السقف، فإذا بالمعبد ينهار على الأصنام وعلى الوثنيين وعلى نفسه، وهو مُكَبَّلٌ بالقيود بعد أسره، وقد اقتلعت عيناه. وبندائه في لحظة الفداء يُضرب المثل القائل: «عليّ وعلى أعدائي يا رب»، وله موقف آخر شبيهه بموقف أمير المؤمنين

١. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ٤٩٣.

٢. هو أحد الرجلين المذكورين في قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ «سورة المائدة: ٢٣».

٣. شمشون اسم عبري معناه «شمس».

٤. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ٥١٩.

علي حين قلع باب خيبر بيده: (ثم قام في نصف الليل وأخذ مصراعي باب المدينة والقائمتين وقلعهما مع العارضة، ووضعها على كتفيه وصعد بها إلى رأس الجبل الذي مقابل حبرون)^(١).

• نبوة المرأة:

ولابد أن أقول في نهاية المطاف أن قبول النتائج السابقة وتقوية احتمال كون الأسباط من الأنبياء وفق ما ذكرتُ مسبقاً، سيعني القول بوجود نبية بين مجموعة الأسباط، وهي دبورة، فهل يمكن قبول هذه النتيجة المترتبة؟ الكتاب المقدس صرح بوجود نساء كنّ نبيّات، وقد جاء في «قاموس الكتاب المقدس: دائرة المعارف الكتابية المسيحية»: (النبية، النبيّات: هن الإناث من الأنبياء. وهن في الكتاب المقدس مريم أخت موسى وهرون..... ودبورة..... وحنة أم صموئيل..... وخلدة امرأة شلوم..... وحنة بنت فتوئيل..... وبنات فيلبس الأربع..... ولم يذكر الكتاب نبية غيرهن)^(٢).

وأما عند المسلمين فالمسألة كانت مطروحة قديماً وهي خلافية، قال ابن حزم الأندلسي تحت عنوان «نبوة النساء»: (هذا فصل لا نعلمه حدث التنازع العظيم فيه إلا عندنا بقرطبة، وفي زماننا، فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة في النساء جملةً، وبدعت من قال ذلك، وذهبت طائفة إلى القول بأنه قد كانت في النساء نبوة، وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك)^(٣).

١. العهد القديم: سفر القضاة، الإصحاح ١٦.

2. https://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/25_N/N_026.html

٣. ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٥، ص ١٢.

وكتب الشيخ حسين أنصاريان مقالاً بعنوان «نبوة النساء» استعرض فيه أولاً أدلة القائلين بجواز ذلك، بل ووقوعه، ثم ردّ تلك الأدلة متمسكاً بعدم صحة القول بوجود أية نبية عبر تاريخ الرسالات، قال: (ذهب بعض العلماء إلى أن الله أنعم على بعض النساء بالنبوة، فمن هؤلاء أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم. والذين يقولون بنبوة النساء متفقون على نبوة مريم، ومنهم من ينسب النبوة إلى غيرها ويعدون من النساء النبيات: حواء وسارة وأم موسى وهاجر وآسية. وهؤلاء عندما اعترض عليهم بالآية التي تحصر الرسالة في الرجال دون النساء، قالوا: نحن لا نخالف في ذلك، فالرسالة للرجال، أمّا النبوة فلا يشملها النصُّ القرآني، وليس في نبوة النساء تلك المحذورات التي عدّدتوها فيما لو كان من النساء رسول، لأنّ النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها، يعمل بها، ولا يحتاج إلى أن يبلغها إلى الآخرين....

وحجّة هؤلاء أن القرآن أخبر بأن الله «عز وجل» أوحى إلى بعض النساء، فمن ذلك أنه أوحى إلى أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١)، وأرسل جبريل إلى مريم فخطبها ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا....﴾^(٢)، وخطبتها الملائكة قائلة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي

١. سورة القصص: ٧.

٢. سورة مريم: ١٧-١٨.

وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّائِعِينَ^(١). فأبو الحسن الأشعري يرى أَنَّ كُلَّ مَنْ جَاءَهُ الْمَلِكُ عَنْ اللَّهِ بِحُكْمٍ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَوْ بِإِعْلَامٍ فَهُوَ نَبِيٌّ، وَقَدْ تَحَقَّقَ فِي أُمِّ مُوسَى وَمَرْيَمَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا، وَفِي غَيْرِهِمَا أَيْضاً، فَقَدْ تَحَقَّقَ فِي حَوَاءَ وَسَارَةَ وَهَاجِرَ وَأَسِيَةَ بَنَصَّ الْقُرْآنِ. وَاسْتَدْلُوا أَيْضاً بِإِصْطِفَاءِ اللَّهِ لِمَرْيَمَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿وَإِصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، وَيَقُولُهُ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»: (كَمَلَّ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ)^(٢). قَالُوا: الَّذِي يَبْلُغُ مَرْتَبَةَ الْكَمَالِ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ. الرَّدُّ عَلَيْهِمْ: وَهَذَا الَّذِي ذَكَرُوهُ لَا يَنْهَضُ لِإِثْبَاتِ نُبُوَّةِ النِّسَاءِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَجْهِ: الْأَوَّلُ: أَنَّنَا لَا نُسَلِّمُ لَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ غَيْرَ مَأْمُورٍ بِالتَّبْلِيغِ وَالتَّوْجِيهِ وَمُخَالَطَةِ النَّاسِ، وَالَّذِي اخْتَرْنَاهُ أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ فِي هَذَا، وَأَنَّ الْفَرْقَ وَقَعَ فِي كَوْنِ النَّبِيِّ مَرْسَلٍ بِتَشْرِيعِ رَسُولٍ سَابِقٍ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَالْمَحْذُورَاتُ الَّتِي قِيلَتْ فِي إِرْسَالِ رَسُولٍ مِنَ النِّسَاءِ قَائِمَةٌ فِي بَعْثِ نَبِيٍّ مِنَ النِّسَاءِ، وَهِيَ مَحْذُورَاتٌ كَثِيرَةٌ تَجْعَلُ الْمَرْأَةَ لَا تَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِحَقِّ النُّبُوَّةِ. الثَّانِي: قَدْ يَكُونُ وَحْيُ اللَّهِ إِلَى هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ أَمْ مُوسَى وَأَسِيَةُ.. إِنَّمَا وَقَعَ مَنَاماً، فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مِنَ الْوَحْيِ مَا يَكُونُ مَنَاماً، وَهَذَا يَقَعُ لَغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ. الثَّلَاثُ: لَا نُسَلِّمُ لَهُمْ قَوْلَهُمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَاطَبَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَهُوَ نَبِيٌّ، فَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ مَلَكاً لِرَجُلٍ يَزُورُ أَخَاهُ فِي اللَّهِ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ زِيَارَتِهِ لَهُ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ فِي اللَّهِ، أَعْلَمَهُ أَنَّ

١. سورة آل عمران: ٤٢-٤٣.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، في تفسيره الآية ٤٢ من سورة آل عمران، ورواه بلفظ آخر كالتالي: (كَمَلَّ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ).

الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبه، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة، وقد جاء جبريل يُعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول «صلى الله عليه وآله»، والصحابة يشاهدونه ويسمعونه. الرابع: أن الرسول «صلى الله عليه وآله» توقف في نبوة ذي القرنين مع إخبار القرآن بأن الله أوحى إليه ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ تَتَّخِذُ فِيهِمْ حُسْنَ﴾^(١). الخامس: لا حجة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم، فالله قد صرح بأنه اصطفى غير الأنبياء: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾^(٢)، واصطفى آل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ومن ألهما من ليس بنبي جزماً ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣). السادس: لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به النبوة، لأنه يُطلق لتمام الشيء، وتناهيه في باب، فالمراد بلوغ النساء الكمالات النهائية في جميع الفضائل التي للنساء، وعلى ذلك فالكمال هنا كمال غير الأنبياء. السابع: ورد في بعض الأحاديث النص على أن خديجة من الكاملات، وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة. الثامن: ورد في بعض الأحاديث أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم ابنة عمران، وهذا يُبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية، لأن فاطمة ليست نبيّة جزماً؛ وقد نص الحديث على أنها أفضل من غيرها، فلو كانت أم موسى وآسية نبيّتان لكانتا أفضل من فاطمة.

١. سورة الكهف: ٨٦.

٢. سورة فاطر: ٣٢.

٣. سورة آل عمران: ٣٣.

التاسع: وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والإخبار بفضلها، قال «سبحانه وتعالى» ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾^(١)، فلو كان هناك وصف أعلى من ذلك لوصفها به، ولم يأت في نصِّ قرآني ولا في حديث نبويٍّ صحيحٍ إخبارٌ بنبوة واحدة من النساء^(٢).

والحقيقية أن الأدلة التي قدّمها الشيخ أنصاريان لا تنهض بالمطلوب وليست كافية للقطع بعدم إمكانية تكليف المرأة بالنبوة، فإننا وإن كنّا نوافقه في عدم ضرورة دلالة الوحي على النبوة، ولا دلالة الاصطفاء على ذلك أيضاً، إلا أن بعض الأدلة التي قدّمها يمكن ردّها، فأصل إمكانية التبليغ متصورٌ بحق المرأة، ولنفترض - على أسوأ تقدير - اقتصاره على الدائرة النسائية مثلاً بحيث تكون مهمتها النبوية محدودة بهذا الإطار، بالإضافة إلى قيامها بحفظ إرث بعض الأنبياء السابقين وإيصاله إلى من يأتي بعدها. وأما مسألة الكمال في حدّ ذاتها فلا يصحّ زجّها في مسألة النبوة، لا سلباً ولا إيجاباً، فقد تفرض بعض الظروف عدم نبوة إنسان يمتلك كمالات قد يتفوّق بها على نبيٍّ دون أن يكون بنفسه نبياً، ويمكن ضرب مثال العبد العالم الذي أمر الله نبيه موسى بن عمران بلقائه والاستفادة منه والتعلّم على يديه، وما جرى على يديه من أمورٍ لم يستطع نبي الله موسى فهمها ولا التعامل معها، على الرغم من أنه من أولي العزم

١ سورة المائدة: ٧٥.

الخمس، ولا يُعلم على نحو التأكيد ما إذا كان ذلك العبد العالم نبياً أصلاً. وقد حاز أئمة أهل البيت «عليهم السلام» على كمالات كثيرة، ومع هذا كان ختم النبوة بمحمد - مانعاً من نبوة أحدهم كما صرح النبي بقوله لعلي: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي).

وأما الدليل التاسع الذي جاء به الشيخ أنصاريان فليس بقوي ولا يصح التمسك به لمنع وجود امرأة في سلسلة الأنبياء. نعم لربما أمكن التمسك بقول الله في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾^(١)، وهذا ما أشار إليه الشيخ حسين الخشن في كتابه «المرأة في النص الديني»، فهو في الوقت الذي يؤكد فيه أهليتها لهذا المقام وعدم وجود المانع الذاتي لبلوغها مقام النبوة وأن لا شيء في القرآن يخالف هذه القناعة المتحصلة لديه، إلا أن الواقع الاجتماعي الذكوري كان هو المانع من تكليف المرأة بالنبوة.

وذكر الشيخ الخشن أن هذه القضية من القضايا الإشكالية المطروحة في مقام الحديث عن موقف الدين من المرأة وأنه لماذا كان اختيار الأنبياء بأجمعهم من الذكور؟ مستشهداً بالآية السابقة، ومضيفاً أن في هذه الآية ما قد يدل أو يشير إلى أن المرأة غير مؤهلة لمقام النبوة، وأن في ذلك ظلماً من قبل الدين وتهميشاً للمرأة - في رأي البعض - .

ثم علق على ما سبق معتبراً أن عدم إرسال أو بعثة نبي من بين النساء ليس مردّه إلى نقص ذاتي في المرأة يمنعها من الوصول إلى مرتبة عالية

١. سورة النحل: ٤٣.

من الكمال الروحي كالتي يتطلبها مقام النبوة، كيف وقد حدّثنا القرآن الكريم عن وصول عدد من النساء إلى مقامات روحية عالية ملازمة لمقام النبوة، حيث أُوحي إلى بعضهن كما هو الحال في السيدة أم النبي موسى بن عمران، والوحي وإن كان بمعنى الإلهام فإنه مرتبة عظيمة لا يبلغها - في أعلى مستوياتها - إلا الأنبياء والمرسلون حيث قال الله «عز وجل»: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾^(١).

كما ونجد أن بعضهن قد وصلت إلى درجة كانت الملائكة تنزل لخدمتها وتأتيها برزقها من عند الله «سبحانه وتعالى»، الأمر الذي أثار تعجب النبي زكريا «عليه السلام»: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

وهكذا فإن مريم «عليها السلام» نفسها قد وصلت إلى درجة الصديقين، قال الله «سبحانه وتعالى»: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(٣).

وهذه الدرجة من الدرجات الرفيعة جداً واللصيقة بالنبوة، قال «سبحانه»: ﴿وَإِذْ ذُكِّرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾^(٤)، وقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ

١. سورة طه: ١٢.

٢. سورة آل عمران: ٣٧.

٣. سورة المائدة: ٧٥.

٤. سورة مريم: ٤١.

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿١﴾، وقد ورد في الحديث الصحيح عن أبي الحسن موسى بن جعفر «عليه السلام» قال: (إِنَّ فَاطِمَةَ «عليها السلام» صَدِيقَةُ شَهِيدَةٍ) (٢).

ثم أضاف الشيخ الخشن أنه في ضوء ذلك يمكن القول: إنَّ عدم إرسال نبي من صنف النساء ليس مردّه إلى قصور المرأة عن بلوغ هذه الرتبة، بل مردّه إلى سبب آخر، وهو أن المجتمعات البشرية في الأزمنة الغابرة كانت مجتمعات ذكورية، ولم تكن لتتقبل أن يكون النبي من النساء، والنسوة أنفسهن كنّ مقتنعات بذلك، فقد حدّثنا القرآن الكريم أن امرأة عمران نذرت ما في بطنها محرراً لله «سبحانه وتعالى»، وكانت تقدّر أنه سيكون ذكراً، لأن المرأة لا تصلح - في نظر اليهود - لخدمة المعبد والقيام بمهمة الإرشاد الديني، ولهذا فإنّ هذه المرأة الطاهرة الجليلة لم تستوعب أن ترى مولودها أنثى! فتوجّهت إلى الله توجّهاً لا يخلو من ذهول وتحسّر قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ۖ﴾!! ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ (٣)، فكان الأنثى ليست مؤهلة للقيام بالمهام الدينية!

وأمام ذهنية ذكورية مستحكمة إلى هذا الحد كان مقتضى الحكمة الإلهية أن تتم مراعاة هذا الأمر، نزعاً للذرائع وإقامة للحجّة على العباد.

وهذا غاية ما يستفاد من الآية المتقدّمة، أعني قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ فهي لا تدلّ على نفي أهلية المرأة للوصول إلى

١. سورة النساء: ٦٩.

٢. الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٥٨.

٣. سورة آل عمران: ٣٦.

مقام النبوة، وإنما تشير إلى واقع الحال وما جرّت عليه السيرة في الأمم الماضية من إرسال رجال واختيارهم لهذا المقام، ولسان الآية وإن كان يوحي بعدم إرسال نساء لهذه المهمة، ولكنها لم تبين سبب اختيار الرجال دون النساء لذلك، وهل أن مردّه إلى عدم صلاحية النساء للنهوض بأعباء هذه المهمة، أو أن مردّه إلى عدم تقبّل المجتمع الذكوري لهذا الأمر؟

وأنه لو سلّمنا بأن السبب هو في عدم صلاحية النساء لتولّي هذه المهمة، فهل عدم الصلاحية هذا ناشيء من قصورها الذاتي المانع من بلوغها مقام النبوة أو أنه نابع من قصورها العرضي بسبب ما تعرّضت له من تهميش وإقصاء تاريخيين، الأمر الذي أفقدها الأهلية لتولّي هذه المهمة وجعلها غير قادرة على بلوغ المقامات الروحية والمعرفية التي يتطلبها موقع كموقع النبوة؟ الآية المباركة ساكتة عن كل ذلك، ولا يمكن إسقاط أحد هذه الاحتمالات عليها إلا بقريضة أو دليل، ونحن نستطيع التأكيد على أن عدم اختيارها ليس نابعاً من قصورها الذاتي عن بلوغ مقام النبوة، ودليلنا على ذلك هو ما أشرنا إليه قبل قليل من وصول بعض النسوة إلى أعلى المقامات والكمالات الروحية الملازمة لمقام النبوة^(١).

وفي هذا الإطار أيضاً قال العلامة المحسني: (البعثة خاصة بالرجال أم شملت النساء أيضاً؟) أجاب قائلاً: (أما الرسالة فالظاهر اختصاصها بالرجال لقوله «تعالى»: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ «النحل / ٤٣». وأما قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ «الأنبياء

١. الخشن: المرأة في النص الديني، قراءة نقدية في روايات ذم المرأة، ص ٧٢-٧٤.

٧/ « فلا يخلو دلالاته على المقام من نقاش لاحتمال نظارته إلى نفي كون الرسل من جنس الملائكة، لا إلى اختصاصها بالرجال، كما يشير إليه ما بعد الآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ...﴾^(١). وأما النبوة فلا أجد دليلاً على اختصاصها بالرجال، فلذا ذهب بعض النواصب^(٢) القدماء إلى نبوة أم موسى «عليه السلام» لقوله «تعالى»: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾^(٣).

وخلاصة ما يمكن أن يُقال في المقام، أننا إذا التزمنا بصحة النتيجة التي توصلنا إليها بكون الأسباط الذين تحدّث عنهم الآيات القرآنية هم «القضاة» المذكورون في سفر القضاة، وأن أحدهم دبورة، فهذا يجعلنا نحتمل أن تكون هذه السيدة من النبيين، لا سيّما وأننا حين نقرأ ذلك السّفر والجزء الخاص بقصة هذه السيدة، نجد أن بني إسرائيل ينقادون إليها ويتقبّلون إمرتها ويقولون بنبوّتها.

إلا أن يُقال أن الآية أرادت مجمل الأسباط لا كلهم فرداً فرداً، وبالتالي نستنتجها من سلسلة النبيين والرسل، أو أن نقول بأن مجرد ذكر الأسباط بين النبيين والرسل لا يعني بالضرورة أنهم كانوا منهم، بل أنهم بلغوا شأنًا رفيعاً فضرب الله بهم المثل وقدّمهم كنماذج يعرفها أهل الكتاب وفي سياق

١. سورة الأنبياء: ٨. فالآية من سورة النحل مع تشابهها بالآية من سورة الأنبياء إلا أن الثانية ذكرت مسألة عدم أكل الطعام كنوع من المقارنة مع الملائكة، ولذا كان من المحتمل أن التعبير بالرجال في آية الأنبياء لا بمعنى الذكورية بل بمعنى كونهم من البشر.

٢. تمنيت لو أن المحقق لم يستعمل هذه الكلمة، ولكن لربما صدرت عنه تحت تأثير الحرب الطاحنة التي كانت تجري في أفغانستان - وهو من أبنائها - بين الأحزاب والطوائف المختلفة والجرائم الفظيعة التي ارتكبت على يد جماعة الطالبان وأمثالها.

٣. المحسنی: مشرعة بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٤٠-٢٤١.

ما جاءت به الآيات القرآنية المختلفة من قضايا أرادت أن تُقيم بها الحجّة عليهم، والله أعلم بحقيقة الحال.

□ خلاصة وخاتمة:

بعد هذا العرض للبحث، يمكن تقديم التلخيص التالي للنتائج التي تمّ التوصل إليها بغرض معرفة دلالة كلمة الأسباط في القرآن الكريم والمستعملة أيضاً في الحديث النبوي المروي بأكثر من لفظ ومن بينها: (الحسن والحسين سبطان من الأسباط):

١. ذَكَرَ اللهُ «سبحانه وتعالى» في كتابه الكريم الأسباط في أربعة موارد، وكلها من السور المدنية، واستعمل الكلمة مرة واحدة من دون (ال) في سورة الأعراف المكية، والمعنى المراد فيها يختلف عن المراد في الآيات المدنية والتي ذكرتهم في مصاف النبيين والمرسلين والموحى إليهم من قبل الله.

٢. ومن خلال جمع مضمون الحديث السابق مع الآيات القرآنية سيكون مفاد قول النبي - للمسلمين: لقد عَلِمْتُمْ أَمْرَ الأسباط.. إِنَّ شَأْنَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ كَشَأْنَ الأسباط.

٣. بالرجوع إلى العهد القديم من الكتاب المقدس، سنجد بعد التوراة وسفر يشوع «يوشع بن نون» وصي موسى، سِيفراً بعنوان «سِيفر القضاة»، وبالعودة إلى الأصل العبري لعنوان هذا السِّفَر، تبين أنه «شوپطيم أو شوفطيم» جمع «شوپط أو شوفط»، أي سِيفر الأسباط.

٤. ونجد في «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس» جدولاً يشتمل على عدد

وأسماء هؤلاء القضاة، وهم اثنا عشر، أحد عشر رجلاً بالإضافة إلى امرأة واحدة!

٥. وكان النبي موسى «عليه السلام» قبل وفاته قد أوصى بني إسرائيل بالأخذ بالتوراة وبالانقياد لوصيه يوشع بن نون، وحذّرهم من الشرك بالله. وجاء الأسباط من بعد يوشع فتحملوا مسؤولياتهم تجاه بني إسرائيل.

٦. وهكذا، فإننا لو رجعنا إلى التاريخ بالترتيب، سنجد النبي موسى، فوصيّه يوشع بن نون، فأحد عشر سبطاً «قاضياً» ومعهم امرأة من الأسباط.. تماماً كما هو الحال مع نبينا فعلي والزهراء وأحد عشر إمام!

٧. استعمال مصطلح «القضاة» في العهد القديم بدلاً عن كلمة الأسباط «شوپطيم أو شوفطيم» المَعْنَوْنَ بها السّفر الخاص بهم بمثابة ترجمة غير دقيقة للكلمة العبرية، حيث أنهم لم يكونوا مجرد قضاة كقضاة المحاكم، بل كانت مسؤولياتهم أكبر من ذلك، ولذا فإن كلمة «قضاة» لا تُعبّر عن حقيقتهم والدور المنوط بهم، كما أن تغيير عنوان السّفر أربك شراح الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة الأسباط، وكذلك الحديث النبوي السابق وضيع المراد الحقيقي من كل ذلك.

٨. كان الأسباط أولياء بني إسرائيل من بعد موسى ووصيّه يوشع بن نون، والهداة لهم، وحملة الرسالة، وحفظة الدين، والمقاتلين في سبيل الله.. أي أنهم مع نبي الله موسى ووصيّه يوشع: أربعة عشر هادياً إلى الله وأميناً على الرسالة وقائداً وولياً.

٩- ربط النبي الأكرم - صفة الحسن والحسين بأولئك الأسباط من بني إسرائيل، وكأنّه يقول للمسلمين: إن الحسن والحسين في الولاية والهداية وحمل الرسالة والحفاظ على الدين والدفاع عنه وتقديم التضحيات في سبيل الله بمثابة أولئك الأسباط.. فهما من الأربعة عشر أنوار الولاية والهداية، رسول الله محمد «صلى الله عليه وآله»، فأمر المؤمنين علي، فالزهراء فاطمة، فالحسن والحسين فالأئمة من ذرية الحسين «عليهم السلام».

١٠- عملت ترجمة التراث العبري للكتب السماوية وغيرها إلى اللغات المختلفة، وكذلك تبديل بعض الكلمات بكلمات أخرى، على ضياع مجموعة من الحقائق والمفاهيم على مدى مئات السنين، والتي كان بإمكانها أن تُرشد إلى بعض ما يشير إليه القرآن الكريم، كما في الآيات التي تحدّثت عن الأسباط، وما أشار إليه النبي - في حديثه إذ قال: (الحسن والحسين سبطان من الأسباط)، وهذا ما يتطلّب من المحققين واللغويين أن يبذلوا المزيد من الجهود من أجل فكِّ رموز بعض القضايا التي ما زال يكتنفها الغموض، ويمكن لها أن تفتح لنا آفاقاً جديدة من المعارف الدينية التي يزخر بها كتاب الله «سبحانه وتعالى».

النبي سليمان

وتسخير الجن

النبي سليمان وتسخير الجن

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءَ وَغَوَّاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ، فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(٢).

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ﴾^(٣).

١. سورة ص : ٣٤ - ٣٩.

٢. سورة سبأ : ١٢ - ١٤.

٣. سورة النمل : ٣٨ - ٣٩.

تحدّث القرآن الكريم بكل صراحة ووضوح عن أن الله «عز وجل» سخر الجن للنبي سليمان «عليه السلام» قبل ما يقارب ٣٠٠٠ سنة، كجزء من وعده له بمُلك لا مثيل له، كما مرّ بنا في قوله «عز وجل»: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

ولم يكتفِ القرآن ببيان ذلك، بل تحدّث عن أنواع الجنّ المسخر له، وفي الأعمال التي كانوا يساهمون في إنجازها ضمن مملكته ومن بينها: الغوص، البناء، النحت وصناعة التماثيل، النقل، استخراج المعادن والتعدين.

وقد أثار البعض على القرآن إشكالية مفادها أن التَّنَخُّ على الرغم من ذكره للنبي سليمان «عليه السلام» وقصصه في أكثر من سفر، وتعظيمه وبيان امتداد مُلكه وقوّته وسلطانه وإنجازاته المدنية، إلا أنه يخلو من أي وصف أو ذكر لأحداث لها علاقة بالجن، أو لمجرد ذكر أن الله «عز وجل» سخر له الجن ليعملوا بين يديه في المشاريع التي أنجزها وأبهرت أهل زمانه. كما أثّرت على نصوص التَّنَخِّ حول مملكة سليمان إشكالية التضخيم والتهويل في شأن مُلكه، مما ينجّر إلى اتهام القرآن الكريم بمثل ذلك.

□ قصص سليمان في التَّنَخِّ:

فلنقرأ بعضاً مما جاء في التَّنَخِّ، ثم نطرح بعض الإشكالات الواردة على نصوصه وعلى القرآن الكريم حول مُلك النبي سليمان «عليه السلام». علماً بأننا لسنا بصدد الرد على ما أثّرت حول نصوص التَّنَخِّ، بل بخصوص خلوه من بعض قصص النبي سليمان في القرآن.

مما جاء في وصف مُلكه في سفر الملوك الأول: (وَعَمِلَ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ مِثْقَالَ ثَرْسٍ مِنْ ذَهَبٍ مُطَرَّقٍ، خَصَّ الثَّرْسَ الْوَاحِدَ سِتُّ مِئَةِ شَاقِلٍ^(١) مِنَ الذَّهَبِ. وَثَلَاثَ مِئَةِ مِجَنٍّ^(٢) مِنْ ذَهَبٍ مُطَرَّقٍ. خَصَّ الْمِجَنَّ ثَلَاثَةَ أَمْنَاءَ^(٣) مِنَ الذَّهَبِ. وَجَعَلَهَا سُلَيْمَانُ فِي بَيْتٍ وَعَرَّ لُبْنَانَ. وَعَمِلَ الْمَلِكُ كُرْسِيًّا عَظِيمًا مِنْ عَاجٍ وَغَشَّاهُ بِذَهَبٍ إِبْرِيْزٍ^(٤). وَلِلْكُرْسِيِّ سِتُّ دَرَجَاتٍ. وَلِلْكُرْسِيِّ رَأْسٌ مُسْتَدِيرٌ مِنْ وَرَائِهِ، وَيَدَانِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ عَلَى مَكَانِ الْجُلُوسِ، وَأَسَدَانِ وَاقِفَانِ بِجَانِبِ الْيَدَيْنِ. وَاثْنَا عَشَرَ أَسَدًا وَاقِفَةً هُنَاكَ عَلَى الدَّرَجَاتِ السَّتِّ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ. لَمْ يَعْمَلْ مِثْلَهُ فِي جَمِيعِ الْمَمَالِكِ. وَجَمِيعُ أَنْبِيَاءِ شَرْبِ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ مِنْ ذَهَبٍ، وَجَمِيعُ أَنْبِيَاءِ بَيْتٍ وَعَرَّ لُبْنَانَ مِنْ ذَهَبٍ خَالِصٍ، لَا فَضَّةَ، هِيَ لَمْ تَحْسَبْ شَيْئًا فِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ^(٥). لِأَنَّهُ كَانَ لِلْمَلِكِ فِي الْبَحْرِ سُفُنٌ تَرْشِيشُ^(٦) مَعَ سُفُنٍ حِيرَامَ^(٧).

١. شيكل وشاقل وحدة قديمة تعبر عن الوزن والعملة، وقد كان الاستخدام الأول لها في بلاد ما بين النهرين حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. عرف الموابيون والأدوميون والفينيقيون الشيكل واستخدموه. والكلمة في العبرية مشتقة من الفعل «شقل» المشابهة لكلمة «ثقل» بالعربية، وكلمة «شاقل» معناها «ثقل» أي «وزن»، وتقابل كلمة «مِثقال» في العربية. وأخذت عملة الإسرائيليّين منذ القدم هذا الاسم وحافظت عليه. وهو اسم عيار لوزن الأشياء وهو بين ١١,٥-١٣ جم. وإذا كان الترس بستمئة شاقل، فهذا يعني أن وزن الواحد أكثر من ٧,٥ كجم، ٢٠٠ ترساً = طن ونص الطن.

٢. المِجَن: نوع من التروس.

٣. «أمناء» جمع «منا» وهي وحدة موازين كانت تعادل عند الكنعانيين خمسين شاقلًا أي في حدود ٦٠٠ جراماً. وبما أن المِجَن الواحد ٣ أمناء = ١٨٠٠ جراماً.

٤. إبريز: خالص.

٥. أي في مقابل الذهب المتوفر لديه.

٦. «ترشيش» اختلف في المراد من هذه الكلمة في هذا النص، هل هي إشارة إلى بلدة على ساحل البحر، وكانت غنية بالمعادن، قيل أنها في أسبانيا أو إيطاليا أو غيرها «ولعلها في أفريقيا أو الهند بلحاظ وارداتها كما سيأتي»، أم أنها اسم لنوعية فخمة من السفن؟

٧. اسم ملك مدينة صور في جنوب لبنان حالياً.

فَكَانَتْ سُفُنٌ تَرْشِيشُ تَأْتِي مَرَّةً فِي كُلِّ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ. أَتَتْ سُفُنٌ تَرْشِيشُ حَامِلَةً ذَهَبًا وَفِضَّةً وَعَاجًا وَقُرُودًا وَطَوَاوِيسَ. فَتَعَاظَمَ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ عَلَى كُلِّ مُلُوكِ الْأَرْضِ فِي الْغِنَى وَالْحِكْمَةِ^(١).

وأثارد. سيد القمني^(٢) على سبيل المثال في كتابه «الأسطورة والتراث» في ٢٣ صفحة تحت عنوان «الملوك الأربعة: المؤمن الأول، سليمان» إشكالية تعمّد الكتاب المقدس تضخيم صورة مُلك سليمان «عليه السلام».

ثم نقل كلمة للدكتور أحمد شلبي^(٣) قال فيها: (قصة مُلك سليمان وحكمته التي أوردها الكتاب المقدس، تعرّضت لحشو وإضافات على نطاق واسع، على يد كاتب متأخر شغوف بالمبالغات، وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم

١. الكتاب المقدس: سفر الملوك الأول، ١٠ : ١٦-٢٣.

٢. سيد القمني: كاتب مصري علماني معاصر «من مواليد ١٩٤٧»، معظم أعماله الأكاديمية تناولت التاريخ والتراث الإسلامي، ويطالب بتغيير مضمون المناهج الدراسية الإسلامية. يقول أنه يتبع فكر المعتزلة. اتهم بالردة، ومن آرائه القول بأن القرآن ينقل حقائق تاريخية تارة، وأخرى رمزية واردة في قصص الأنبياء، ومن الخطأ أن تؤخذ كأحداث وقعت بالفعل. ويرى أن القرآن يجسد نصّاً تاريخيّاً، ولا ضير من وضعه موضع مساءلة إصلاحية نقدية، وإن هذا النقد الإصلاحي لا يمثل ردة أو استخفافاً بالقرآن حسب رأيه بل هو يعتبره «افتحاشاً جريئاً وفذاً لإنارة منطقة حرص من سبقوه على أن تظل معتمة، وبداية لثورة ثقافية تستلهم وتطوّر التراث العقلاني في الثقافة العربية الإسلامية ليلائم الإسلام احتياجات الثورة القادمة». هُدّد بالقتل إن لم يتب، فنُشر في وسائل الإعلام رسالة بتوبته عن أفكاره السابقة وتوقفه عن الكتابة حمايةً له ولأسرته.

٣. أحمد جَابَ الله شَلْبِي «ت ٢٠٠٠ م» دكتور في التاريخ والنُظُم «نظم الإدارة والحكم» والحضارة الإسلامية، دُرّس في مصر وجامعات الباكستان وماليزيا وأندونيسيا. كان عضواً بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضواً بالمجلس الأعلى للثقافة، وبالمركز العالمي للسيرة والسنة، وعضواً باليونيسكو. له عشرات الكتب باللغات العربية والإنجليزية والأندونيسية، أبرزها: موسوعة التاريخ الإسلامي، الفكر الإسلامي منابعه وآثاره، الإسلام والقتال: هل انتشر الإسلام بالقوة أو بالدعوة.

المسيحي، بل والإسلامي، على الاعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة، وقد أسهب سفر الملوك الأول في تصوير مجد سليمان وأبتهته وفخامته، ولكن الحق أنه إذا قيسَت منشآت سليمان، بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نبوخذ نصر، فإن منشآت سليمان تبدو من التوافه الهيئات... وكانت مملكة سليمان رهينة، تتجاذبها مصر وفينيقيًا، وترجع أهميتها في معظم أمرها إلى ضعف مصر المؤقت... فسليمان وهو في أوج مجده لم يكن إلا ملكاً صغيراً تابعاً، يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنها لم تنقض بضعة أعوام على وفاته، حتى استولى «شيشنق» أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم^(١).

وبرأي أن عظمة ملك سليمان هي من حيث النوع والكيف لا الكم والامتداد، وذلك بلحاظ ما سُخر له لتحقيق هذا الملك، ولذا فالقياس باطل.

كما وأكرر مجدداً أننا لسنا بصدد الدفاع عما ورد في التَّخ، بل نريد أن نعالج الإشكالية المثارة بخصوص ذكر القرآن الكريم لعلاقة النبي سليمان «عليه السلام» بالجن.

وممن أشار إلى ذلك أ. حلمي القمص يعقوب في كتابه «النقد الكتابي: مدارس النقد والتشكيك والرد عليها» حيث تعرّض لذكر وجود بعض الخلافات بين قصة سليمان في سفر الملوك وبين قصته في القرآن، ومن بينها أنه وردت في القرآن أمور عن سليمان لم يأت لها ذكر في الكتاب المقدس مثل:

١. سيد القمني: مقارنة الأديان، ص ٧٨-٧٩.

١. حديث النمل الذي سمعه سليمان.
٢. تهديد سليمان للهدد لأنه غاب عن مجلسه، وحديث الهدد معه، وإرساله كتاباً لأهل سبأ مع الهدد.
٣. حديث سليمان مع العفريت، إذ طلب سليمان عرش مملكة سبأ فأحضره له في الحال^(١).
٤. مجيء ملكة سبأ إلى سليمان ودخولها الصرح والكشف عن ساقها وإسلامها.
٥. تسخير الريح لسليمان.
٦. كان لسليمان جنود من الجن والإنس والطير.
٧. في سورة البقرة في قصة سليمان أن الشياطين يعلمون الناس السحر.
٨. عندما مات سليمان لم يعلم أحد بموته من الإنس والجن، حتى أكلت دابة الأرض العصاة التي يتوكأ عليها فخر ساقطاً على الأرض فعرفوا بموته^(٢).
- مما سبق يتبين صحة ما أثير حول عدم تعرّض التّخ لتسخير الجن من قبل النبي سليمان.
- ولكن ماذا قال اليهود بهذا الخصوص في سائر مصادرهم وكتبهم، مع العلم بأنهم يمثلون البيئة التي منها انطلقت النصرانية، والمسيح كان من بني إسرائيل، مما يعني أن ما سنطّلع عليه كان جزءاً من تراثهم الديني سابقاً؟

١. وهذا خطأ من الكاتب، فالذي أحضر العرش بحسب القرآن الكريم ليس العفريت.

2. [\(1\) https://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/1271.html#\(1\)](https://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/1271.html#(1))

□ المعتقد اليهودي في الشياطين:

في الموسوعة الإلكترونية اليهودية^(١) وتحت عنوان: الشياطين وعلم الشياطين^(٢) جاء ما ترجمته عن الإنجليزية: كان السحر محظوراً بين الإسرائيليين منذ العصور الأولى، لأن أقدم مجموعة من القوانين، تحتوي على التحريم: (لا يجوز أن تتسامح مع مشعوذة)^(٣). بما أن الكثير من السحر الوثني كان وقائياً^(٤) من الواضح أن دين إسرائيل يهدف إلى استئصال جذري جداً للتعامل مع الشياطين. لم تكن المصائب والأمراض من الشياطين بل من الرب. على الرغم من أن الله لا يُنجز دائماً إرادته فوراً، بل يستخدم الملائكة والأرواح كوسائل، فإنه عادة ما يكون واضحاً أن الأرواح تحت سيطرته.

لذلك، يجب على المرء ألا يبالغ في تقدير أهمية الآثار العديدة للاعتقاد في الشياطين التي تذكر في الكتاب المقدس، أو يقلل من الصعوبات التي ينطوي عليها تفسيرها. معظم الفقرات المعنية عبارة عن نصوص شعرية، وغالباً ما يكون من المستحيل التأكد مما إذا كان الشيطان المسمى جزءاً من اعتقاد ديني، أو جزءاً فقط من اللغة الأدبية التقليدية.

التصور الإسرائيلي للشياطين، كما هو موجود في العقل الشعبي أو الخيال الأدبي، يشبه بعضاً مما هو لدى غيرهم.

1. www.jewishvirtuallibrary.org

2. Demons & Demonology.

٣. في ترجمة أخرى: لا تدع ساحرة تعيش.

٤. أي يهدف إلى إبقاء الشياطين بعيداً أو طردهم.

الشياطين يعيشون في الصحارى أو الأنقاض، وهي تسبب المرض للرجال. إنهم يزعجون عقول الرجال ويخدعونهم. لقد حدث تغيير كبير في المعرفة حول الملائكة والشياطين، على الأقل في دوائر معينة داخل اليهودية في القرون الأخيرة قبل الميلاد.

في هذه الفترة، مع الحفاظ على الطابع التوحيدي العام، دخلت تصورات عديدة حول النظام المزدوج للوجود، حيث كان الله وقوى الخير والحق في السماء؛ بينما على الأرض صار التأثير لقوى الشر. يبدو أن هذا كان تحت تأثير المعتقد الفارسي الذي يقول بوجود الإله الطيب «أهورا مزدا» والإله الشرير «أهريمن». لكن في نفس الوقت اعتمدت النظرة المزدوجة اليهودية على مصادر قديمة محلية في بناء صورة حول الشياطين أكثر تفصيلاً.

ومن سمات هذه الفترة أن الأرواح الشريرة يقودها أمير، وغالباً ما تسمى «بليالس، أو «ماستماه»، أو شيطان، أو أسماء أخرى.

ثم يتعرّض المصدر إلى الحديث عن الشياطين في كتاب «التلمود البابلي»، جاء فيه: التلمود البابلي مليء بالحديث عن الشياطين، ومن الواضح أنه تحت تأثير الاعتقاد في الشياطين الذي كان منتشرًا في بابل، والذي كان يُرى فيه أنه عالم مليء بالشياطين والأرواح الحاقدة وأحياناً الخيرة، التي سكنت الهواء والأشجار والماء وسقوف المنازل والمراعي. وهي غير مرئية، ولكن إن رأتها عين فلن يمكنها تحمل ذلك. وهي تحيط بالفرد من كل جهة، وهي أكثر عدداً من البشر، كل شخص لديه ألف عن يساره، وعشرة آلاف عن يمينه. وهي مسؤولة عن مختلف المضايقات والأذى.

ومع ذلك، من خلال اتخاذ إجراءات معينة في الصباح يمكن للمرء أن يرى آثار أقدامهم في شكل أثر أرجل الديك. ولكل من ملك الشياطين وزوجته اسم في التلمود البابلي، وبيان لأنشطتهما، وأسماء أنواع الشياطين وأنشطتها، وكيف يمكن طردها، وما هي عوامل حضورها وما إلى ذلك.

ويضيف التلمود البابلي: استفاد سليمان من الشياطين الذكور والإناث لبناء الهيكل، ولجلب الماء من الهند لسقي جميع أنواع النباتات الغريبة التي جُلبت من البلاد البعيدة ولم تكن لتنمو في مملكته من قبل^(١).

وكذلك نجد في الموسوعة اليهودية الإلكترونية^(٢) تحت عنوان Solomon ما ترجمته: وصَفَ الحاخامات امتداد مُلك سليمان، وقالوا ببلوغه العالم العلوي الذي تسكنه الملائكة وعلى كامل الكرة الأرضية مع جميع سكانها، بما في ذلك كل الوحوش، والطيور، والزواحف، وكذلك الشياطين والأرواح. كان ملكه عظيماً لدرجة أن القمر على عهده بقي بديراً على الدوام! وساد الخير على الشر.

وقد أدت سيطرته على الشياطين والأرواح والحيوانات إلى تعزيز قوته، وكانت الشياطين تجلب له الأحجار الثمينة، كما تجلب المياه من البلدان البعيدة لري نباتاته الغريبة. كانت البهائم والطيور تدخل مطبخ القصر من تلقاء نفسها لتُذبح ثم تُستخدم كطعام له.

1. <https://www.jewishvirtuallibrary.org/demons-and-demonology>

2. <http://www.jewishencyclopedia.com>

يشتمل الموقع الإلكتروني على كامل محتوى ١٢ مجلداً للموسوعة اليهودية المطبوعة ورقياً والتي صدرت في الأصل بين ١٩٠١ - ١٩٠٦، وهي بدورها تشتمل على ١٥ ألف مقالة ورسمًا توضيحياً.

كانت كلُّ زوجة من زوجاته الألف تطبخ له طعاماً كل يوم، لعله يزروها في ذلك اليوم. يقال أنه كان يفهم لغات الوحوش والطيور. في كثير من الأحيان كان النسر هو الذي ينفذ أوامر سليمان. عندما مات داود أمر سليمان النسرَ حماية جسد والده بواسطة أجنحتها حتى دفنه.

اعتاد سليمان على الركوب في الهواء على نسر كبير، جلبه في يوم واحد إلى تدمر^(١) في البرية. وقد تم تطوير هذه الأسطورة بشكل كبير من قبل «القبالة»^(٢) على النحو التالي: اعتاد سليمان أن يُبحر في الهواء على عرش من الضوء موضوع على نسر، والذي جعله بالقرب من ييشيباه^(٣) السماوية وكذلك الجبال المظلمة التي خلفها الملاكين الساقطين. تم تقييد عزاء وعزائيل بالسلاسل، وكان النسر يرتكز على السلاسل، بينما سليمان، عن طريق خاتم نُقش عليه اسم الله، يُجبر الملاكين على كشف كل سر يريد معرفته.

وطبقاً لأسطورة قبالية أخرى، أمر سليمان شيطانياً أن ينقل حيرام ملك صور إلى الطبقات السبعة للجحيم، ثم نقل عند عودته إلى سليمان كل ما رآه

١. كانت تدمر من أهم الممالك القديمة في سورية والتي ازدهرت بشكل خاص في عهد ملكتها زنوبيا. تبعد ٢١٥ كم شمال مدينة دمشق. وكانت حضارتها تنافس حضارة الإمبراطورية الرومانية القديمة. اسمها الآرامي «تدمرتو» وتعني المعجزة.

٢. القبالة أو القبالية «بالعبرية كابالا □□□□□□□□» هي اتجاه باطني ظهر عند اليهود في القرن الثاني عشر الميلادي في أسبانيا وجنوب فرنسا، ويعتمد أصحابه إلى تفسير النصوص تفسيراً باطنياً. وطقوسها لا تنفي القيام بالطقوس الدينية لكن معتققيها يعتقدون أن الإرشادات والطقوس الواردة في القبالة تساعد الشخص على تطوير نفسه ليفهم بواطن الدين، وبخاصة بواطن التوراة والتقاليد اليهودية.

٣. لعل الكلمة تقابل مصطلح العرش في تراثنا الديني.

«حيرام» في العالم السفلي. بالإشارة إلى سلطان سليمان على كل مخلوقات العالم، بما في ذلك الأرواح، هناك العديد من القصص المتداولة، أشهرها هي سليمان والنمل.

روي أنه عندما عين الله الملك سليمان على كل شيء مخلوق، أعطاه سجادة كبيرة طولها ستون ميلاً وعرضها ستون ميلاً، مصنوعة من الحرير الأخضر المتشابك مع الذهب الخالص، ومزخرف بزخارف بارزة، وكان يجلس محاطاً بالأمراء الأربعة، آصف بن برخيا أمير الرجال، و«راميرات» أمير الشياطين، وأسد أمير الوحوش، ونسر، أمير الطيور. عندما جلس سليمان على السجادة حملته الرياح، وأبحر في الجو بسرعة عالية حتى أنه تناول إفطاره في دمشق، وتعيش في ميديا^(١).

امتلاً سليمان ذات يوم بالفخر لعظمته وحكمته. وكعقاب له على ذلك، هزّت الرياح السجادة، فأسقطت ٤٠,٠٠٠ رجل ممن حملهم معه. لقد وبّخ سليمانُ الرياحَ بسبب الأذى الذي تسبب فيه؛ لكن هذا الأخير ردّ عليه بأنه إنما فعل ذلك كي يعود سليمان إلى الله ويتوقف عن أن يكون فخوراً. عندئذ شعر سليمان بالخجل الشديد. ذات يوم، وبينما كان سليمان يُبحر في السماء فوق واد مليء بأسراب النمل، سمع نملةً تقول للآخرين: ادخلوا بيوتكم، وإلا فإنّ جحافل سليمان سوف تدمركم. سأله الملك: لماذا قالت ذلك؟ فأجابت أنها كانت خائفة إذا نظر النمل إلى جحافل سليمان، فربما ينصرفون عن واجبهم في الثناء على الله، الأمر الذي قد يكون ذا عواقب كارثية بالنسبة

١. اسم قديم لمنطقة كانت تقع شمال غرب إيران.

إليهم. وأضافت أنها، بصفتها ملكة النمل، كانت تملك هذا الحق في إصدار مثل ذلك الأمر.

أراد سليمان أن يسألها سؤالاً لكنها أخبرته أنه لا ينبغي أن يكون المحقق في الأعلى والمحقق معه في الأسفل. فأخرجها سليمان من الوادي، لكنها قالت بعد ذلك أنه ليس من المناسب أن يجلس على العرش بينما تبقى هي على الأرض. فوضعها سليمان على يده، وسألها عما إذا كان هناك من هو أعظم منه في العالم. أجابت النملة بأنها أعظم منه بكثير؛ وإلا لما أرسله الله ليضعها على يده! غضب سليمان كثيراً وألقى بها قائلاً: أتعرفين من أكون؟ أنا سليمان بن داود. فأجابت: أنا أعلم أنك خلقت من نطفة نتنة، فلا تفخر. امتلاً سليمان بالخجل وخرّ على وجهه.

حلق سليمان من جديد، فلاحظ قصرًا رائعاً ولكنه بلا مدخل. أمر الشياطين بالبحث عن أي كائن حي داخل المبنى، فوجدوا نسرًا، وأتوا به أمام سليمان، وحين سأله عن مدخل القصر، قال إنه يبلغ من العمر ٧٠٠ سنة، لكنه لم ير مثل هذا المدخل. ثم تم العثور على شقيق للنسر يبلغ من العمر ٩٠٠ سنة، لكنه أيضاً كان يجهل وجود مدخل للقصر. أما الشقيق الأكبر لهذين الطائرين، والذي كان يبلغ من العمر ١٣٠٠ سنة فقد روى عن والده أن الباب كان على الجانب الغربي، ولكنه أصبح تحت الرمال التي جرفتها الرياح.

بعد أن اكتشف المدخل، وجد سليمان العديد من النقوش على الأبواب، وفي الجزء الداخلي من القصر كان هناك تمثال يحمل في فمه لوحة فضية كتب عليها باليونانية: أنا شداد ابن أدو، ملك أكثر من مليون مدينة، امتطيت مليون

حصان، كان تحت يدي مليون تابع، وقتلت مليوناً من المحاربين، ومع ذلك لم أتمكن من مقاومة ملاك الموت.

كان أهم أعمال سليمان بناءه للمعبد، وساعدته الملائكة والشياطين في تنفيذه، فكانت الأحجار الكبيرة والثقيلة تُرفع وتوضع في أماكنها المخصصة لها ضمن ذلك الصرح العجيب. وقد اشتهر عن الحاخامات أن سليمان قطع الأحجار عن طريق «شامير» وهي دودة تقطع الأحجار بلمسة بسيطة منها^(١)؛ ووفقاً لـ «مدراش تهيليم»^(٢) فقد تم جلب الدودة من الجنة من قبل النسر. لكن معظم الحاخامات يذكرون أن سليمان أبلغ بشأن الدودة من خلال رئيس الشياطين، الذي تم القبض عليه من قبل رئيس وزراء سليمان، فأخبرهم بأنها في عهدة طائر، وتم التحايل لاحقاً على الطائر الذي يحمل الدودة إلى أن أسقطها فجلبت لسليمان^(٣)!

□ تهمة باطلة:

مما سبق يتضح أن اتهام القرآن باختلاق وجود علاقة بين النبي سليمان والجن من خلال تسخير الله هذه المخلوقات الغيبية لخدمة هذا النبي اعتماداً على عدم ذكر شيء من ذلك في التَّنْخِ كلام غير سليم، وأن اليهود قبل نزول القرآن بقرون مديدة تحدّثوا عن هذا الموضوع، ودوّنوه في كتبهم وشروحهم على التَّنْخِ، كما صار جزءاً من معتقدتهم العام حول علاقة الإنسان عموماً

١. في نص آخر أنها تقطع الأحجار بزحفها عليها. وفي معتقدتهم أن دودة شامير خلقت ضمن عشرة مخلوقات إعجازية مع طلوع فجر اليوم السادس للخلق.

٢. من تفاسير الزبور.

3. <http://www.jewishencyclopedia.com/articles/13842-solomon>.

بالجن والشياطين، وبما تجاوز ما ذكره القرآن. بل إن اليهود اتجهوا إلى التعامل مع السحر وما يُدعى أنه تسخير للجن من خلال ما ادّعوه في تفاصيل القصص التي توارثوها أو التي اختلقوها حول النبي سليمان «عليه السلام»، ومن ذلك قصة «خاتم سليمان» وقدراته السحرية، والمدونات السحرية التي أخذها عن شياطين الجن واحتفظ بها، فانتقلت من بعده إلى بعض الناس من أهل الفضول أو الاهتمام، وعُرفت بالسحر السليماني أو الطلاسمة السليمانية، وهي مجرد أكاذيب وتلفيقات بحقه «عليه السلام».

ولربما إلى هذا تشير الآيات من سورة البقرة وفيها: ﴿أَوَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ لا بتعلمه وتدوينه وممارسته للسحر كما يدّعون، ولا بعبادته للأصنام آخر حياته ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

من الواضح أن الزمن الذي حكم فيه النبي سليمان «عليه السلام» وطلب فيه مُلكاً لا ينبغي أن يكون لأحد من بعده، جعله مميّزاً من حيث نزول ملكين إلى

الأرض سماهما القرآن هاروت وماروت - لربما بهيئة بشرية على الأغلب كما حصل من قبل بالنسبة إلى النبي إبراهيم «عليه السلام»^(١) - واختلطا بالناس، فتعلّموا منهما الناس شيئاً من علوم «خاصة»، بالإضافة إلى تجسّد الجن أيضاً بأنواعهم وتسخيرهم لصالح النبي سليمان، مما جعلهم يختلطون بالناس أيضاً، فكانت فرصة لشياطينهم أن ينشروا بين الناس - ولاسيما بين بني إسرائيل - شيئاً من السحر، بغض النظر عن معنى السحر هنا من حيث طبيعته وآثاره، هل هو تأثير غيبي كما يُدعى، أم نفسي «بالتخويف والإيحاء والتنويم المغناطيسي» أم عقلي «عن طريق المؤثرات العقلية وعقاقير الهلوسة» أم خداع بصر، أم توظيف لخصائص المواد الكيميائية والفيزيائية، فنُسب لاحقاً لسليمان كنوع من التبشير أو الشرعنة، وهو ما بُرّيء منه بالنص القرآني.

ولعل الأرضية كانت موجودة ومهيأة مسبقاً عبر أجيالهم بلحاظ قصة موسى «عليه السلام» الذي سبق عهد سليمان «عليه السلام» بثلاثة قرون أو أكثر، وما في تلك القصة من مشهد السحرة الذين كانوا - بحسب بعض الأخبار - من قومه أساساً. ومثل هذا التميّز في ذلك العهد تميّز خاص به، ومن الخطأ الاستغراق في تصوّر تجسّد الجن والشياطين في الأزمنة التي أعقبته، لأنّ الأصل هو انفصال عالم الإنس عن عالم الجن إلا بمقدار تأثير الوسوسة وإمكانية اطلاع الجن على عالمنا دون تمكّنا من ذلك... والحضور والتجسّد

١. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ ﴿٩٦﴾ لِيَأْكُلُوا كَأَيِّ ضَيْفٍ يُفَدُّ عَلَيْهِ حَيْثُ تَصَوَّرَ أَنَّهُمْ مِنَ الْبَشَرِ لِأَنَّهُمْ تَجَسَّدُوا فَكَانُوا عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ ﴿٩٧﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ...﴾ «هود: ٩٦-٩٧».

حالة استثنائية وخلاف هذا الأصل.

أما استعانة الإنس بالجن فهي مذكورة في القرآن كالتالي: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(١). وهذا يعني وجود المحاولات من قبل الإنسان للجوء إلى الجن لتحقيق شيء ما من قبيل:

١. الحصول على معلومة من خلال الاطلاع على أمرٍ قد اطلع عليه الجن وخفي على الأشخاص المعنيين.

٢. أو الوسوسة في نفس بشرية أخرى لارتكاب فعل معين.

وأمثال ذلك، الأمر الذي يدفع الجن إلى إيذاء هؤلاء العائذين بهم، عن طريق الوسوسة لفعل القبائح، أو الكفر الصريح، أو إلقاء الأفكار والمعلومات المغلوطة أو الخبيثة المقصودة، والتي يُراد من خلالها التفرقة بين الناس وإثارة الشحناء وغير ذلك. وهذا كله يختلف عن الوضع الذي كان قائماً على عهد النبي سليمان.

كما أن كثيراً مما يتداوله الناس بهذا الشأن في زماننا هذا حول تسخير الجن عبارة عن أوهام، أو تصورات لمرضى عقليين، أو أكاذيب، أو محاولات لابتزاز الناس أموالهم، أو محاولات لكسب الشهرة، وأمثال ذلك. وأما قصص تجسد الجن للناس بصورة كائنات حيوانية أو إنسانية أو ظهورهم في هيتهم الحقيقية في غير زمن سليمان «عليه السلام» فهو محض أكاذيب أو أوهام.

وحتى ما جاء في سورتي الجن والأحقاف من قصة الجن الذين سمعوا

١. سورة الجن: ٦.

القرآن يُتلى، فليس فيه أي شيء عن لقاءهم رسول الله وإيمانهم على يديه بشكل مباشر عن طريق اللقاء، وهذا ما يفيد التمعّن في الآيات:

﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾^(١).

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

نعم الروايات التفسيرية والأحاديث الموضوعة هي التي أضافت الكثير على هذه القصة القرآنية وشوّهتها وادّعت حصول اللقاء وما إلى ذلك، على الرغم من أن الآية تصرّح بالتالي: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا...﴾. وهذا يعني أن النبي لم يكن يعلم بذلك، فكيف يكون اللقاء قد حصل بين الطرفين؟

وكانت هذه هي مجرد البداية لدخول العشرات إن لم يكن المئات من الأحاديث الموضوعة التي تتحدث عن لقاءات بين الجن وبين بعض الصحابة والأئمة «عليهم السلام»، وتصف أشكالهم وطلباتهم وتداخلهم مع الأحداث الجارية – كواقعة الطف على سبيل المثال لا الحصر – واستتبع ذلك دخول الطلاسم والتعاويذ ضمن نصوص روائية موضوعة، تماماً كما دخلت في الموروث اليهودي من قبل. بل إن نفس اليد اليهودية ليست ببعيدة عن هذا،

١. سورة الجن: ١-٢.

٢. سورة الأحقاف: ٢٩-٣٠.

كما نلاحظ في الخبر التالي الذي يرويهِ الكشي^(١) في رجاله: (عن علي بن حسان عن عمه عبد الرحمن بن كثير قال: قال أبو عبد الله «عليه السلام» يوماً لأصحابه: لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق. إنَّ المغيرة كذب على أبي «عليه السلام» فسلبه الله الإيمان، وإنَّ قوماً كذبوا عليّ، ما لهم أذاقهم الله حر الحديد؟! فوالله ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضر ولا نفع، وإن رحمتنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، والله ما لنا على الله من حجة ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون ومقبورون ومنشرون ومبعوثون وموقوفون ومسؤولون. ويلهم ما لهم لعنهم الله؟! لقد آذوا الله وآذوا رسوله «صلى الله عليه وآله» في قبره وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي «صلوات الله عليهم»، وها أنا ذا بين أظهركم لحم رسول الله وجلد رسول الله «صلى الله عليه وآله» أبيت على فراشي خائفاً وجلاً مرعوباً، يأمنون وأفزع، ينامون على فرشهم وأنا خائف ساهر وجل، أتقلقل بين الجبال والبراري، أبرأ إلى الله مما قال في الأجدع البراد عبد بني أسد أبو الخطاب^(٢) لعنه الله^(٣)).

وفي خبر آخر عن يونس بن عبد الرحمن أنه قال: (حدثني هشام بن الحكم

١. هو محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بالكشي نسبةً إلى منطقة كش القريبة من سمرقند، من أقدم وأهم علماء الشيعة في علم الرجال، وله كتاب هو أساس كتب لاحقة جاءت من بعده في هذا المجال. «ت ٢٥٠ هـ».

٢. أبو الخطاب مغالي آخر عاصر الإمام الصادق وافترى عليه.

٣. الكشي: اختيار معرفة الرجال، ص ١٤٧.

أنه سمع أبا عبد الله «عليه السلام» يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة، أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا محمد «صلى الله عليه وآله»، فإننا إذا حدثنا قلنا: قال الله «عز وجل»، وقال رسول الله (١).

فهل يُستبعد بعد الربط بين هذه الأخبار أن تكون روايات تجسد الجن ولقائهم من هذا القبيل؟

وكما أثرت اليد اليهودية في الموروث الحديثي الشيعي، أثرت من قبل في الموروث الحديثي السني وبعيد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعهد قريب جداً، من خلال مرويات كعب الأحبار وتميم الداري ووهب بن منبه وغيرهم ممن تم الحديث عنهم مراراً وتكراراً تحت عنوان تأثير الإسرائيليات والمسيحيات... وأمثلته غير خافية على أحد، وفي ذلك دراسات كثيرة ومفصلة، وسنذكر بعضاً منها في موضعه.

□ البساط السحري الطائر:

جاء النص القرآني حول قضية تسخير الريح للنبي سليمان «عليه السلام» كالتالي: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (٢).

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٠.

٢. سورة الأنبياء: ٨١.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾^(١).

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾^(٢).

وليس في الآيات السابقة أية إشارة لا من قريب ولا من بعيد لوجود سجادة أو بساط سحري، بل الذي نفهمه وجود: ريح عاصفة تجري بأمره من المناطق المختلفة إلى الأرض المباركة - حيث كان يحكم - مما كان يسهل حركة السفن والمراكب الحاملة للتجار والبضائع والجنود وما إلى ذلك.

وهي في حدّ كونها عاصفة ليست بتلك السرعة المدمّرة، بل يتحقق من خلالها الرخاء وسهولة تنقل السفن والمراكب. هذه الريح كانت دورية، تستغرق شهراً ذهاباً، فتبدأ معها حركة السفن والمراكب إلى المناطق المقصودة عبر البحار أو خصوص البحر الأبيض المتوسط.. وشهراً إياباً لعودة تلك السفن والمراكب إلى الأرض المباركة. كما كانت هذه الرياح تنقل السحب فتمطر السماء فتنعش الحياة الطبيعية في الأراضي التي كان يحكمها سليمان «عليه السلام»، ويستقي بها الناس. فأين هذا التصوير القرآني مما جاء في التصوّر الذي قدّمته بعض كتب التراث اليهودي حول السجادة السحرية وأمثال ذلك؟

وللأسف فإنّ كل التصوّرات المغلوطة والمشوّهة التي قدّمها التراث اليهودي انتقلت إلى الموروث الحديثي والتفسييري عند المسلمين، وزيد عليها الشيء الكثير. ولنلاحظ الروايات التالية:

في تفسير الطبري في تفسير الآية ٨١ من سورة الأنبياء: (عن وهب بن

١. سورة سبأ: ١٢.

٢. سورة ص: ٣٦.

منبه قال: كان سليمان إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس إلى سريره، وكان امرء غزّاء، قلّما يقعد عن الغزو، ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك إلا أتاه حتى يذّله، وكان فيما يزعمون إذا أراد الغزو، أمر بعسكره فضرب له بخشب، ثم نصب له على الخشب، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها، حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح، فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته، حتى إذا استقلت أمر الرخاء، فمدّته شهراً في روحته، وشهراً في غدوته إلى حيث أراد، يقول الله «عز وجل»: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ﴾. قال: فذكر لي أن منزلاً بناحية دجلة مكتوب فيه كتاب كتبه بعض صحابة سليمان، إما من الجن وإما من الإنس: «نحن نزلناه وما بنيناها، ومبنيّاً وجدناها، غدونا من اصطخر^(١) فقلناها^(٢) ونحن راحلون منه إن شاء الله قائلون الشام»^(٣).

في تفسير ابن كثير في تفسير نفس الآية: (قال ابن أبي حاتم) نلاحظ تكرار هذا الاسم في هذه المرويات الغريبة، وعندما نرجع إلى الأقوال فيه نجد مثلاً كلام أبي يعلى الخليلي، قال: «كان يعدّ من الأبدال وقد أثنى عليه جماعة بالزهد والورع التام والعلم والعمل». وروى الرازي عن علي بن محمد المصري - ونحن في جنازة ابن أبي حاتم - يقول: «قلنسوة عبد الرحمن من السماء! وما هو بعجب، رجل منذ ثمانين سنة على وتيرة واحدة، لم ينحرف عن الطريق».

١. مدينة كانت قريبة من مدينة شيراز.

٢. أي خرجنا من اصطخر صباحاً فوصلنا هذا المكان بناحية نهر دجلة وقت القيلولة.

٣. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ٤٨١-٤٨٢.

ونتذكر هنا قول مجموعة من علماء الجرح والتعديل حول الوضّاعين: «ومنهم متعبدون يحسبون أنهم يحسنون صنعا، يضعون أحاديث فيها ترغيب وترهيب وفي فضائل الأعمال وليعمل بها، وهؤلاء طائفة من الكرامية وغيرهم، وهم من أشر من فعل هذا؛ لما يحصل بضررهم من الغرة على كثير ممن يعتقد صلاحهم ويظن صدقهم، وهم شرُّ من كل كذاب في هذا الباب» (.... عن سعيد بن جبير قال: كان يُوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلمهم، ثم يأمر الريح فتحمله «صلى الله عليه وسلم»^(١)).

(وقال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح، فتجتمع كالطود العظيم، كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة) دخل عنصر أسطوري جديد في الوصف (فترتفع حتى تصعد على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء، وهو مطأطيء رأسه، ما يلتفت يمينا ولا شمالا تعظيماً لله «عز وجل»، وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله «تعالى» حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه)^(٢).

وقال في تفسير الآيتين ١٢ - ١٣ من سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمَنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١٧، ص ٣٥٨.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١٧، ص ٣٥٨-٣٥٩.

مَنْ مَحَارِبَ وَتَمَاتِيلَ وَجَفَانَ كَالْجَوَابِ وَقُدُورِ رَاسِيَّاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ»: (قد ذكر ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً غريباً فقال: عن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: الجن على ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطفرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون).

قال ابن كثير بعد ذلك: (رفعه غريب جداً)^(١). ونلاحظ هنا تجسيد الجن بصورة الحيوانات.

أما في تفسير السيوطي الذي تأخر عهداً عن سابقيه: (أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد قال: كان لسليمان مركب من خشب، وكان فيه ألف ركن، في كل ركن ألف بيت، يركب معه فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب، فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به وساروا معه، فلا يدري القوم^(٢) إلا قد أظلمهم معه الجيوش والجنود)^(٣).

وللأستاذ عبد الوهاب النجار^(٤) في كتابه «قصص الأنبياء» كلام لطيف في هذا الباب، قال: (ولا أدري لم ذهب سليمان إلى إصطخر ثم إلى خراسان؟

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٤٩٩. ويظعنون أي يسافرون ويرتحلون.

٢. الذين سافر إليهم.

٣. السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٤، ص ٥٨٧-٥٨٨.

٤. عبد الوهاب بن أحمد النجار «ت ١٩٤١م». كاتب مصري اشتغل بالمحاماة، وعمل أستاذاً للأدب في مدرسة البوليس بالقاهرة، فأستاذاً للتاريخ في الجامعة المصرية، واشترك في أكثر الجمعيات الإسلامية وفي مقدمتها جمعية الشبان المسلمين. له عدة مؤلفات من بينها: قصص الأنبياء، والذي منع الأزهر طباعته «لما فيه من أفكار تعارض العقيدة». لعل منها محاولاته التصحيحية للروايات.

وليستا من مُلكه؟! وإذا ذهب زائراً ملوك تلك البلاد فأى داع إلى أخذ الجند الذين لا يقل عددهم عن مليونين؟ وكيف يسمح الملوك لملك زائر بإدخال الآلاف المؤلفة من الجند إلى ممالكهم؟ وإذا كان سليمان لم يعلم بمملكة سبأ وملكتها حتى هداه الهدهد إلى ذلك، فكيف يترك اليمن التي في متناول يده ويذهب إلى إصطخر ثم إلى خراسان؟ ولم يكن ذلك إلى مصر ومصر أقرب البلاد إليه؟.... ولو أن القائلين ببساط سليمان اقتصروا به على عشرة أذرع^(١) في مثلها، أو عشرين ذراعاً في مثلها أو مائة ذراع في مثلها، لكان الأمر معقولاً مقبولاً، أما وهم يقولون إن فيه ألف ركن وفي كل ركن ألف بيت، فإنهم يجعلون له من السعة وترامي الأطراف ما لا يقبله تصور، بل لم يكن في ملك سليمان كله ما يكفي لشغله من الجند^(٢).

وقد انتقل هذه التصور حول البساط السحري إلى التراث الأدبي العربي من خلال قصص ألف ليلة وليلة، كما انتقلت قصة خاتم النبي سليمان وقدراته السحرية كذلك، وهو ما سنعالجه فيما يلي.

□ خاتم النبي سليمان:

جاء في تفسير الطبري في قوله «عز وجل»: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾^(٣): (عن مجاهد، قوله ﴿عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قال: شيطاناً يقال له آصف، فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال:

١. خمسة أمتار.

٢. النجار: قصص الأنبياء، ص ٣١٩-٣٢١.

٣. سورة ص: ٣٤.

أرني خاتمك أُخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب مُلكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان، فلم يقربهنَّ، وأنكرنه) هنا مقطع غير مذكور يُعرف من روايات أخرى وتتضمن أن آصف صار شبيهاً لسليمان، ومع هذا فإن شبهه لم يكف لإقناع جوارى وزوجات سليمان بأنه هو وكأنه تدخل غيبي لحفظهن من آصف (قال: فكان سليمان يستطعم^(١)) فيقول: أتعرفوني؟ أطعموني أنا سليمان، فيكذبونه، حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً^(٢) يُطَيَّب بطنه^(٣) فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه مُلكه، وفرَّ آصف فدخل البحر فارّاً^(٤).

ويبدو أن القصة تطوّرت لاحقاً، فقد روى الطبري عن قتادة: (أن سليمان أمر ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه ولا يُسمع فيه صوت حديد، قال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه، فقيل له: إن شيطاناً في البحر يقال له صخر شبه المارد....).

وتدخل الرواية في تفاصيل غريبة وطويلة وكيف تمّت السيطرة على هذا الشيطان ثم تقول: (فأتى به سليمان، فقال: إنا قد أمرنا ببناء هذا البيت. وقيل لنا: لا يسمع فيه صوت حديد، قال: فأتى ببيض الهدهد، فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد، فدار حولها، فجعل يرى بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس، فوضعه عليه، فقطعها به حتى أفضى إلى بيضه، فأخذ الماس،

١. يستجدي الطعام من الناس لافتقاره وذهاب ملكه.

٢. حوت: سمكة.

٣. يشق بطنه لإخراج الأحشاء.

٤. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢١، ص ١٩٧.

فجعلوا يقطعون به الحجارة، فكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخلها بخاتمته، فانطلق يوماً إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة ذنب قارف فيه بعض نساءه^(١) قال: فدخل الحمام، وأعطى الشيطان خاتمته، فألقاه في البحر، فالتقمته سمكة، ونزع ملك سليمان منه، وألقى على الشيطان شبه سليمان، قال: فجاء فقع على كرسيه وسريره، وسلط على ملك سليمان كله غير نساءه؛ قال: فجعل يقضي بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا: لقد قُتِنَ نبيُّ الله؛ وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطّاب في القوة، فقال: والله لأجربنه؛ قال: فقال له: يا نبيُّ الله، وهو يرى إلا أنه نبيُّ الله، أهدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة، فيدع الغسل عمداً حتى تطلع الشمس، أترى عليه بأساً؟ قال: لا. قال: فبينما هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبيُّ الله خاتمته في بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جنّي ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾. قال: هو الشيطان صخر^(٢).

ولم يرتح السدي لهذا المقدار فأضاف من جيبه المزيد: (الشيطان حين جلس على كرسيه أربعين يوماً، قال: كان لسليمان مائة امرأة، وكانت امرأة منهنّ يقال لها جرادة، وهي أثر نساءه عنده، وآمنهن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمته، ولم يأت من عليه أحد من الناس غيرها، فجاءته يوماً من الأيام، فقالت: إنّ أخي بينه وبين فلان خصومة، وأنا أحب أن تقضي له

١. أي مجامعتهن في الحيض.

٢. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢١، ص ١٩٧-١٩٨.

إذا جاءك، فقال لها: نعم، ولم يفعل، فابتلي وأعطاه خاتمه، ودخل المخرج، فخرج الشيطان في صورته، فقال لها: هاتي الخاتم، فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد، فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا، وخرج مكانه تائهاً، قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً. قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماءهم، فجاءوا حتى دخلوا على نساءه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان، فقد ذهب عقله، وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوه، فأحدقوا به، ثم نشروا التوراة، فقرءوا؛ قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة الخاتم معه، ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع، وقد اشتد جوعه، فاستطعمهم من صيدهم، قال: إني أنا سليمان، فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه، فقالوا: بئس ما صنعت حيث ضربته، قال: إنه زعم أنه سليمان، قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، ولم يشغله ما كان به من الضرر، حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما، فجعل يغسل... فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه فلبسه، فردّ الله عليه بهاءه ومُلْكَه، وجاءت الطير حتى حامت عليه، فعرف القوم أنه سليمان، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا، فقال: ما أحمدكم على عذرکم، ولا ألوّمکم على ما کان منکم، کان هذا الأمر لا بدّ منه، قال: فجاء حتى أتى ملكه، فأرسل إلى

الشیطان فجیء به، وسُخِّر له الريح والشیاطین یومئذ، ولم تكن سُخِّرَتْ له قبل ذلك، وهو قوله ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ قال: وبعث إلى الشیطان، فأتی به، فأمر به فجعل في صندوق من حديد، ثم أطبق علیه فأقفل علیه بقل، وختم علیه بخاتمه، ثم أمر به، فألقى في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة، وكان اسمه حقيق^(١).

وللفخر الرازي في تفسيره الكبير كلام لطيف یردّ به هذه السخافات حيث قال: (ولأهل الحشو والرواية فيه قول، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات) وذكر بعضها منها، ومن بينها أن إحدى زوجاته كانت تبكي على أبيها شوقاً فعمل لها سليمان تمثالاً يشبهه وألبسته ثم صارت هي وخدمها يسجدون له كل يوم بكرة وعشياً، فعاقب الله سليمان على ذلك، وهذا هو افتتانه بالجسد الملقى على كرسیه.

ثم قال الرازي: (واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه: الأول: أن الشیطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، ففعل هؤلاء الذين رأهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى «عليهم السلام» ما كانوا أولئك، بل كانوا شیاطین تشبّهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال، ومعلوم أن ذلك یبطل الدين بالكلية.

الثاني: أن الشیطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢١، ص ١٩٩-٢٠٠.

المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد، وحينئذٍ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يُخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى.

والثالث: كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يُسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح.

الرابع: لو قلنا: إن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة، فكيف يؤخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه؟^(١).

ثم تحوّل الاعتقاد بوجود خاتم للنبي سليمان «عليه السلام» وعن قوته وقدراته إلى عقيدة متوارثة عبر الأزمنة والثقافات، وصيغت حوله قصص كثيرة، كما استفاد الدجالون من ذلك في صياغة خواتم بادعاء أنها تحمل ختم خاتم سليمان، وأن فيها تأثيراً على الحب وجلب الثروة وما إلى ذلك.

قد يقال: لماذا نرفض شيئاً من هذه المرويات والتفسيرات في الوقت الذي تحدّث فيه القرآن الكريم عن وجود انفتاح غيبي غير مسبوق في ذلك العهد، وقصة الهدهد ونقل عرش ملكة سبأ والنملة وغير ذلك من عجائب ذكرت في قصة النبي سليمان «عليه السلام»؟

والجواب أن كلّ ما يخالف الأصل يحتاج إلى دليل، وتلك المرويات حيث أن بعضها: يتعارض مع القرآن الكريم، أو مع العقل والمنطق، أو غير مسند للنبي

١. الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٦، ص ٢٠٨-٢٠٩.

أو الإمام، أو سنده ضعيف، لذا فإننا نرفضها أو نتحفظ عليها على الأقل.

النبي يونس والحيوت

النبي يونس والحوت

تحدث القرآن الكريم - كما تحدثت مصادر أهل الكتاب - عن قصة النبي يونس «عليه السلام» ومعاناته حين ابتلعه الحوت ثم قذف به على الشاطئ لينطلق في أداء الرسالة الإلهية الموكلة إليه بعد ذلك ويدرك الخطأ الذي وقع فيه^(١)، وما كان ينبغي له أن يقع فيه.

القصة التي قُدمت في القرآن الكريم لأخذ العبرة الرسالية منها في حركة الرسالة والرساليين، أعيد تقديمها في بعض المرويات المنتشرة في كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب، بزيادات تفصيلية خلت منها القصة القرآنية كعادة تلك القصص التي لم يعتنِ القرآن بذكر تفاصيلها كثيراً بقدر عنايته بالأبعاد الرسالية والأخلاقية والروحية فيها، والعبر التي يمكن استخلاصها، اللهم إلا ما كان في قصة النبي يوسف «عليه السلام» كما لا يخفى.

وفي الوقت الذي تتفق فيه هذه المصادر في أصل القصة وحدثها، إلا أنها تختلف في التفاصيل، في تحديد العهد الذي عاش فيه، وفي المكان الذي انطلق منه ووقع له ما وقع في عرض البحر، وفي ترتيب أحداث القصة، وفي

١. لا نريد هنا الدخول في بحث حول عصمة الأنبياء ودائرة الأخطاء التي يمكن أن يقعوا فيها، سواء بعنوان ترك الأولى أو حول إمكانية صدور الذنوب الصغيرة أو الكبيرة عنهم.

السبب الذي من أجله ابتلي بابتلاع الحوت له. وسأحاول في هذا البحث أن أعالج بعض هذه التفاصيل دون الوقوع تحت تأثير ما هو متعارف ومنتدأ، بل من خلال ما يمكن الوصول إليه من نتائج عند مقارنة النصوص وتحليلها.

□ يونس في المصادر اليهودية:

يُكتب اسم يونس في العبرية: יוֹנָתָן ويلفظ «يونا»، وذكر الاسم في بعض نسخ الكتاب المقدس^(١) بصيغة «جوناس»^(٢) كما ذكر بصيغة «يوان»، ومعنى «يونا» في العبرية «حمامة»^(٣).

وبحسب الموسوعة اليهودية، فقد عاش النبي «يونا بن أميتاي»^(٤) في أيام حكم «يربعام الثاني»، والذي حكم ما بين سنة ٧٨٦-٧٤٦ ق.م. وهذا يعني أنه عاش بعد أكثر من مائتي سنة^(٥) من عهد النبي داود «عليه السلام».

وأما مسقط رأسه فمدينة «جت حافر» الكنعانية، والتي تعني «معصرة البئر» أو «الحفرة»، الواقعة حالياً بالقرب من قرية «المشهد» الفلسطينية التي تقع بدورها على بُعد خمسة كيلومترات شمال شرق مدينة «الناصر». ولم يتبق من مدينة النبي يونس هذه سوى بعض الأطلال.

يُعد النبي يونس أحد أعظم الأنبياء، وقد اكتسب سمعة طيبة في زمانه

1. <http://betterdaysarecoming.com/bible/pronunciation.html>

2. Jonas

3. https://www.chabad.org/library/article_cdo/aid/1702445/jewish/What-Does-the-Name-Jonah-Mean.htm

٤. وفي العربية يونس بن متى.

٥. سيتبين لاحقاً سبب ذكر هذه المعلومة على وجه التحديد.



موقع قرية المشهد في فلسطين



مواقع البلدات التي انتقل إليها النبي يونس

عند الملك وعند عامّة الناس باعتباره النبي الصادق الذي تحقّقت كل نبوءاته وأقواله المستقبلية، إلا أن هذه السمعة الطيبة تبدّلت تماماً حين ذهب إلى بيت المقدس ليُبلِّغ أهلها نزول العذاب عليهم وإهلاكهم بسبب معاصيهم، فإذا بهم يتوبون، ويرتفع عنهم العذاب، وليتحوّل لقبه بين الناس من النبي «الصادق» إلى النبي «الكاذب»!

وإذ أمره الله بعد هذه الحادثة بالرحيل إلى مدينة «نينوى» العظيمة ليبلغ أهلها بحلول العذاب عليهم نتيجة ما يقترفونه من معاصي، فقد قرّر يونس الهروب بعيداً عن سلطان ربه، تجنّباً لتكرار تجربته في بيت المقدس ونعته مرّة أخرى بالنبي الكاذب، لاسيما وهو يعلم مدى رحمة الله، وأن أهل نينوى لو تابوا، فإنه سيدفع عنهم العذاب، وسيظهر هو في صورة الكاذب في رسالته من جديد.

وبحسب المصدر القابالي لليهود «الزوهار»^(١)، فقد توجّه يونس إلى ميناء «يافا»، فوجد أن السفينة التي أراد أن يستقلّها إلى مدينة «ترشيش»^(٢) قد غادرت قبل يومين، إلا أن الله أرسل ريحاً فأعادت السفينة إلى الميناء، فركبها يونس، ولفرط سعادته بنجاحه بالهروب بالسفينة ولضمان سفره عليها، دفع أجرته مقدّماً على خلاف عادة المسافرين.

١. ذكرنا القباله عند الحديث عن قصة النبي سليمان وعلاقته بالجن، وقلنا هناك أنهم يهود ولكن أصحاب مذهب باطني صوفي، والزوهار من كتبهم.

٢. ذكرنا هذه المدينة أثناء حديثنا عن قصة النبي سليمان وعلاقته بالجن، وأنها كانت بلدة ساحلية غنية بالمعادن، قيل أنها في أسبانيا أو إيطاليا أو غيرها، سيأتي كلام العلامة ابن عاشور لاحقاً حول هذه المدينة.

وبعد مدة من إبحارها، أرسل الله ريحاً عاصفة هدّدت السفينة بأحمالها، فتوجّه البحارة بالدعاء والتوسّل إلى أصنامهم لينجوا من هذه المهلكة، وبدأوا يُلقون ببعض الأحمال أملاً في النجاة، إلى أن صدّقوا مقولة يونس بأنه سبب ما يجري لهم، وأنه هو المستهدف، وأنه على استعداد لأن يُلقوه في البحر لتنجو السفينة بمن فيها.

وهكذا قرّر البحارة أن يُلقوا به في الماء، إلا أنهم، ولكي لا يتحمّلوا مسؤولية موته غرقاً، أنزلوه إلى المستوى الذي بلغ فيه الماء ركبتيه، فهذأت العاصفة، وأعادوه إلى السفينة من جديد، إلا أن العاصفة هبّت مرة أخرى، فأنزلوه في الماء إلى مستوى أدنى، حتى إذا هدأت العاصفة أعادوه إلى السفينة، ليتكرّر المشهد من جديد، المرّة تلو الأخرى، وفي كل مرة كانوا يُنزلونه إلى مستوى أدنى إلى أن اقتنعوا بضرورة التخلص منه نهائياً، ليجد السمكة الكبيرة بانتظاره لتبتلعه.

يقول كتاب «الزohار» أن هذه السمكة الكبيرة التي ابتلعته قد وُجدت منذ بدء الخليقة لهذه الغاية على وجه التحديد، ولذا كانت ذات فم كبير جداً وبلعوم واسع بحيث لم يجد يونس أية صعوبة في الوصول إلى بطنها.

ويضيف كتاب «الزohار» أن روح يونس غادرت جسده بمجرد إلقائه في البحر، وذهبت إلى عرش الله، وحوكمت ثم أعيدت إلى جسده! وبمجرّد أن لمست الروح فم السمكة ماتت، ولكنها عادت إلى الحياة بعد ثلاثة أيام! أخبرت السمكة يونس بأنها مكلفة بإيصاله إلى «اللويثان»^(١) ليبتلعه.

واللويathan، أو لويatan، أو ليفياتان «وبالعبرية: לִוְיָטָן» بمعنى ملتو أو منحن» وحش بحري قريب من التصوّرات المعهودة عن التنين البحري، ذكر في التّخ في خمسة مواضع من المزامير وسفري أيوب وإشعيا. ويقال أن أصل فكرة هذا الكائن الغريب مأخوذ عن الأساطير الكنعانية والتي تذكر الصراع بين الإله «بعل» ووحش بحري سباعي الرؤوس اسمه «لوتان»، ومن هذا الاسم جاءت «لويathan» العبرية، وأصبحت مرادفة لأي وحش بحري، فيما أصبحت في العبرية الحديثة تعني الحوت.

وافق يونس على ذلك، حتى إذا التقى بالوحش، أراه «خاتم إبراهيم»، فشكر له ذلك وجال به ليريه عجائب المحيط، حيث أخذه إلى الممر البحري الذي عبر من خلاله بنو إسرائيل مع النبي موسى هرباً من فرعون، والأعمدة التي تركز عليها الأرض^(١).

بقي يونس ثلاثة أيام بليلائها في بطن اللويathan دون أن يصلّي، فشاء الله أن ينقله إلى بطن سمكة أخرى ليكون أقل راحة، فجاءت سمكة أنثى وهدّدت بافتراسهما إن لم يخرج يونس من بطن «اللويathan» الذكر، ليستقر في بطنها. وهكذا استقرّ يونس في بطنها حيث شعر بضيق كبير، فبدأ يصلّي، معترفاً بعبثية هروبه من الله منذ البداية.

ألقت السمكة يونس على اليابسة، وشاهد البحارة يونس وهو يخرج حياً،

١. جاء في سفر صموئيل الأول، ٢ / ٨: (لأنّ للرّب أعمدة الأرض، وقد وُضع عليها المسكونة) وفي سفر أيوب، ٩ / ٦: (المزعزع الأرض من مقرّها، فتزلزل أعمدتها)، وأخذ البعض العبارة بمعناها الحقيقي، بينما اعتبرها البعض مجازية المعنى.

فألقوا أصنامهم، وتوجَّهوا من فورهم إلى يافا، ثم إلى بيت المقدس وقدموا أنفسهم ليتم ختانهم معلنين إيمانهم باليهودية.

عاقب الله يونس مجدداً بواسطة حرارة الجو على اليابسة، وعن طريق مختلف أنواع الحشرات، لاسيما وأن ثيابه قد احترقت بسبب حرارة بطن السمكة، ثم عاقبه من جديد حيث سلط دودة على شجرة يقطين ضخمة احتفى بها يونس، فذبلت. ومن هنا، توجَّه يونس بالدعاء من جديد وخاطب ربه مطالباً إياه أن يكون حاكماً رحيماً، لا قاضياً شديداً^(١).

ويجب التنبيه إلى أن ما سبق لا يمثل رأي كل الطوائف والمدارس اليهودية حول تفاصيل قصة هذا النبي الكريم، وأن المقدار المتفق عليه أو المؤكَّد لديهم هو ما جاء في التَّنْخ في سفر «يونا»، وهذا الوضع مشابه لما عليه المسلمون، إذ توجد الكثير من التفاصيل التي سنعرضها لاحقاً وذكُرت في كتب التفسير والحديث والتاريخ، دون أن يكون متفقاً عليها، بل يقع أكثرها تحت طائلة النقد والتحقيق والتشكيك في صحتها ودقَّة معلوماتها وتفاصيلها، والمقدار المؤكَّد لدى المسلمين والمتفق عليه هو الذي ورد في القرآن الكريم دون سواه.

ومن هنا يلزمنا أن نعرض ما جاء في «سفر يونا» من التَّنْخ، مع لحاظ وجود بعض الاختلاف في الترجمات الخاصة به.

يبدأ السُّفَر هكذا: (وَصَارَ قَوْلُ الرَّبِّ إِلَى يُونَانَ بْنِ أَمْتَايَ قَائِلاً: «قُمْ

1. <http://www.jewishencyclopedia.com/articles/8750-jonah>.

اَذْهَبَ إِلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ وَنَادَى عَلَيْهَا، لِأَنَّهُ قَدْ صَعِدَ شَرُّهُمْ أَمَامِي». فَقَامَ يُونَانٌ لِيَهْرَبَ إِلَى تَرْشِيشَ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ، فَنَزَلَ إِلَى يَافَا وَوَجَدَ سَفِينَةً ذَاهِبَةً إِلَى تَرْشِيشَ، فَدَفَعَ أَجْرَتَهَا وَنَزَلَ فِيهَا، لِيَذْهَبَ مَعَهُمْ إِلَى تَرْشِيشَ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ. فَأَرْسَلَ الرَّبُّ رِيحًا شَدِيدَةً إِلَى الْبَحْرِ، فَحَدَثَ نَوْءٌ عَظِيمٌ فِي الْبَحْرِ حَتَّى كَادَتِ السَّفِينَةُ تَتَكَسَّرُ. فَخَافَ الْمَلَأْحُونَ وَصَرَخُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى إِلَهِهِ، وَطَرَحُوا الْأَمْتَعَةَ الَّتِي فِي السَّفِينَةِ إِلَى الْبَحْرِ لِيُخَفِّفُوا عَنْهُمْ. وَأَمَّا يُونَانُ فَكَانَ قَدْ نَزَلَ إِلَى جَوْفِ السَّفِينَةِ وَاضْطَجَعَ وَنَامَ نَوْمًا ثَقِيلًا. فَجَاءَ إِلَيْهِ رَئِيسُ النُّوتِيِّ^(١) وَقَالَ لَهُ: «مَا لَكَ نَائِمًا؟ قُمْ اصْرُخْ إِلَى إِلَهِكَ عَسَى أَنْ يَفْتَكِرَ إِلَهُهُ فِينَا فَلَا نَهْلِكَ». وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَلُمَّ نَلْقِي قُرْعًا لِنَعْرِفَ بِسَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ». فَالْقُوا قُرْعًا، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونَانَ. فَقَالُوا لَهُ: «أَخْبَرْنَا بِسَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ عَلَيْنَا؟ مَا هُوَ عَمَلُكَ؟ وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟ مَا هِيَ أَرْضُكَ؟ وَمِنْ أَيِّ شَعْبٍ أَنْتَ؟». فَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا عِبْرَانِيٌّ، وَأَنَا خَائِفٌ مِنَ الرَّبِّ إِلَهِ السَّمَاءِ الَّذِي صَنَعَ الْبَحْرَ وَالْبَرَّ». فَخَافَ الرِّجَالُ خَوْفًا عَظِيمًا، وَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا فَعَلْتَ هَذَا؟ فَإِنَّ الرِّجَالَ عَرَفُوا أَنَّهُ هَارِبٌ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ، لِأَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ. فَقَالُوا لَهُ: «مَاذَا نَصْنَعُ بِكَ لِيَسْكُنَ الْبَحْرُ عَنَّا؟» لِأَنَّ الْبَحْرَ كَانَ يَزْدَادُ اضْطِرَابًا. فَقَالَ لَهُمْ: «خُذُونِي وَاطْرَحُونِي فِي الْبَحْرِ فَيَسْكُنَ الْبَحْرُ عَنْكُمْ، لِأَنَّنِي عَالِمٌ أَنَّهُ بِسَبَبِي هَذَا النَّوْءُ الْعَظِيمُ عَلَيْكُمْ». وَلَكِنَّ الرِّجَالَ جَذَفُوا لِيَرْجِعُوا السَّفِينَةَ إِلَى الْبَرِّ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا، لِأَنَّ الْبَحْرَ كَانَ يَزْدَادُ اضْطِرَابًا عَلَيْهِمْ. فَصَرَخُوا إِلَى الرَّبِّ وَقَالُوا: «أَه يَا رَبُّ، لَا نَهْلِكَ مِنْ أَجْلِ نَفْسِ هَذَا الرَّجُلِ، وَلَا تَجْعَلْ عَلَيْنَا دَمًا بَرِيئًا، لِأَنَّكَ يَا رَبُّ فَعَلْتَ كَمَا شِئْتَ». ثُمَّ أَخَذُوا يُونَانَ وَطَرَحُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَقَفَ الْبَحْرُ عَنْ

١. النوتية: البحارة.

هَيَّجَانِهِ. فَخَافَ الرِّجَالُ مِنَ الرَّبِّ خَوْفًا عَظِيمًا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَةً لِلرَّبِّ وَنَذَرُوا نَذُورًا. وَأَمَّا الرَّبُّ فَأَعَدَّ حُوتًا عَظِيمًا لِيَبْتَلَعَ يُونَانَ. فَكَانَ يُونَانُ فِي جَوْفِ الْحُوتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ^(١).

ثم ينقل هذا السّفر كلمات النبي يونس التي قالها وهو في بطن الحوت معلناً ندمه وتوبته واعترافه بالخطأ الذي ارتكبه، والنص كما يلي: (فَصَلَّى يُونَانُ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِهِ مِنْ جَوْفِ الْحُوتِ، وَقَالَ: «دَعَوْتُ مِنْ ضِيقِي الرَّبَّ، فَاسْتَجَابَنِي. صَرَخْتُ مِنْ جَوْفِ الْهَائِيَةِ، فَسَمِعْتَ صَوْتِي. لِأَنَّكَ طَرَحْتَنِي فِي الْعُمُقِ فِي قَلْبِ الْبَحَارِ، فَأَحَاطَ بِي نَهْرٌ. جَازَتْ فَوْقِي جَمِيعُ تَيَّارَاتِكَ وَلُجَجِكَ. فَقُلْتُ: قَدْ طُرِدْتُ مِنْ أَمَامَ عَيْنَيْكَ. وَلَكِنِّي أَعُودُ أَنْظُرُ إِلَى هَيْكَلِ قُدْسِكَ. قَدْ اكْتَنَفْتَنِي مِيَاهُ إِلَى النَّفْسِ. أَحَاطَ بِي غَمْرٌ. التَّفَّ عُسْبُ الْبَحْرِ بِرَأْسِي. نَزَلْتُ إِلَى أَسَافِلِ الْجِبَالِ. مَغَالِيقُ الْأَرْضِ عَلَيَّ إِلَى الْأَبَدِ. ثُمَّ أَصْعَدْتَ مِنَ الْوَهْدَةِ حَيَاتِي أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهِي. حِينَ أَعَيْتَ فِيَّ نَفْسِي ذَكَرْتُ الرَّبَّ، فَجَاءَتْ إِلَيْكَ صَلَاتِي إِلَى هَيْكَلِ قُدْسِكَ. الَّذِينَ يِرَاعُونَ أَبَاطِيلَ كَاذِبَةٍ يَتْرَكُونَ نِعْمَتَهُمْ. أَمَّا أَنَا فَبِصَوْتِ الْحَمْدِ أَذْبَحُ لَكَ، وَأُوفِي بِمَا نَذَرْتَهُ. لِلرَّبِّ الْخَلَاصُ». وَأَمَرَ الرَّبُّ الْحُوتَ فَقَذَفَ يُونَانَ إِلَى الْبَرِّ)^(٢).

وينتقل النص لعرض توبة الله على نبيه، وتكليفه من جديد بالذهاب إلى نينوى ليبلغهم أن عذاب الله آت: (ثُمَّ صَارَ قَوْلُ الرَّبِّ إِلَى يُونَانَ ثَانِيَةً قَائِلًا: «قُمْ اذْهَبْ إِلَى نَيْنَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ، وَنَادِ لَهَا الْمُنَادَاةَ الَّتِي أَنَا مُكَلِّمُكَ بِهَا».

١. الكتاب المقدس: سفر يونس، الإصحاح ١.

٢. الكتاب المقدس: سفر يونس، الإصحاح ٢.

فَقَامَ يُونَانُ وَذَهَبَ إِلَى نِينَوَى بِحَسَبِ قَوْلِ الرَّبِّ. أَمَّا نِينَوَى فَكَانَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً لِلَّهِ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ^(١). فَابْتَدَأَ يُونَانُ يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَنَادَى وَقَالَ: «بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ نِينَوَى». فَأَمَّنَ أَهْلُ نِينَوَى بِاللَّهِ وَنَادَوْا بِصَوْمٍ وَلَبِسُوا مَسُوحًا مِنْ كِبِيرِهِمْ إِلَى صَغِيرِهِمْ. وَبَلَغَ الْأَمْرُ مَلِكَ نِينَوَى، فَقَامَ عَنْ كُرْسِيِّهِ وَخَلَعَ رِدَاءَهُ عَنْهُ، وَتَغَطَّى بِمَسْحٍ وَجَلَسَ عَلَى الرَّمَادِ. وَنُودِيَ وَقِيلَ فِي نِينَوَى عَنْ أَمْرِ الْمَلِكِ وَعُظْمَائِهِ قَائِلًا: «لَا تَذُقِ النَّاسُ وَلَا الْبَهَائِمُ وَلَا الْبَقَرُ وَلَا الْغَنَمُ شَيْئًا. لَا تَرَعُ وَلَا تَشْرَبُ مَاءً. وَلَيَتَغَطَّ بِمُسُوحِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ، وَيَصْرُخُوا إِلَى اللَّهِ بِشِدَّةٍ، وَيَرْجِعُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَنْ طَرِيقِهِ الرَّدِيئَةِ وَعَنِ الظُّلْمِ الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ، لَعَلَّ اللَّهَ يَعُودُ وَيَنْدِمُ وَيَرْجِعُ عَنْ حُمُو غَضَبِهِ فَلَا نَهْلِكَ». فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا عَنْ طَرِيقِهِمُ الرَّدِيئَةِ، نَدِمَ اللَّهُ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي تَكَلَّمَ أَنْ يَصْنَعَهُ بِهِمْ، فَلَمْ يَصْنَعْهُ^(٢).

ينقل الكتاب ردّة فعل يونس على تراجع الله عن قراره السابق القاضي بتعذيب أهل نينوى، بحيث ظهر يونس وكأنه كان كاذباً مخادعاً في الرسالة التي حملها إليهم، وكيف خرج من المدينة غضباً من القرار الإلهي، والحوار الذي جرى بينه وبين ربه بعد ذلك: (فَغَمَّ ذَلِكَ يُونَانَ غَمًّا شَدِيدًا، فَانْتَظَرَ. وَصَلَّى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «أَهْ يَا رَبُّ، أَلَيْسَ هَذَا كَلَامِي إِذْ كُنْتُ بَعْدُ فِي أَرْضِي؟

١. إذا كانت مسيرة يوم تقدر في حدود ٢٠ كم، فإن هذا يعني أن قطر المدينة أو محيطها كان يبلغ ٦٠ كم. وهذا يرتبط بمساحة غير معهودة في ذلك الزمان، وهو من المبالغات، وإذا أخذنا بعين الاعتبار رقم السكان المذكور في القرآن الكريم والمقارب للمائة ألف نسمة، فهذا يعني أن المساحة ينبغي أن تكون أقل من ذلك بكثير بحسب طبيعة بناء المدن ومساحات البيوت في ذلك الزمان. نعم، لاشك أنها كانت مدينة عظيمة بحسب مقاييس ذلك الزمان.

٢. الكتاب المقدس: سفر يونس، الإصحاح ٣.

لِذَلِكَ بَادَرْتُ إِلَى الْهَرَبِ إِلَى تَرْشِيشَ، لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّكَ إِلَهُ رَوْفٍ وَرَحِيمٌ بَطِيءُ
 الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَنَادِمٌ عَلَى الشَّرِّ. فَلَا أُنَا يَا رَبُّ، خُذْ نَفْسِي مِنِّي، لِأَنَّ
 مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي». فَقَالَ الرَّبُّ: «هَلِ اغْتَضَبْتُ بِالصَّوَابِ؟». وَخَرَجَ يُونَانُ مِنَ
 الْمَدِينَةِ وَجَلَسَ شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ، وَصَنَعَ لِنَفْسِهِ هُنَاكَ مَظَلَّةً وَجَلَسَ تَحْتَهَا فِي
 الظِّلِّ، حَتَّى يَرَى مَاذَا يَحْدُثُ فِي الْمَدِينَةِ. فَأَعَدَّ الرَّبُّ الْإِلَهَ يَقْطِينَةً فَارْتَفَعَتْ
 فَوْقَ يُونَانَ لَتَكُونَ ظِلًّا عَلَى رَأْسِهِ، لِكَيْ يُخَلِّصَهُ مِنْ غَمِّهِ. فَفَرَحَ يُونَانُ مِنْ
 أَجْلِ الْيَقْطِينَةِ فَرَحًا عَظِيمًا. ثُمَّ أَعَدَّ اللَّهُ دُودَةً عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ فِي الْغَدِ،
 فَضْرَبَتِ الْيَقْطِينَةَ فَيَبَسَتْ. وَحَدَّثَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَنَّ اللَّهَ أَعَدَّ رِيحًا شَرْقِيَّةً
 حَارَّةً، فَضْرَبَتِ الشَّمْسُ عَلَى رَأْسِ يُونَانَ فَذُبُلَ. فَطَلَبَ لِنَفْسِهِ الْمَوْتَ، وَقَالَ:
 «مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي». فَقَالَ اللَّهُ لِيُونَانَ: «هَلِ اغْتَضَبْتُ بِالصَّوَابِ مِنْ أَجْلِ
 الْيَقْطِينَةِ؟» فَقَالَ: «اغْتَضَبْتُ بِالصَّوَابِ حَتَّى الْمَوْتَ». فَقَالَ الرَّبُّ: «أَنْتَ شَفَقْتُ
 عَلَى الْيَقْطِينَةِ الَّتِي لَمْ تَتَعَبْ فِيهَا وَلَا رَبَّيْتَهَا، الَّتِي بَنَتْ لَيْلَةً وَبَنَتْ لَيْلَةً
 هَلَكَتْ. أَفَلَا أَشْفَقُ أَنَا عَلَى نِينَوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ
 اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رِبْوَةً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ يَمِينَهُمْ مِنْ شِمَالِهِمْ، وَبَهَائِمُ
 كَثِيرَةٌ؟» (١).

بهذا يُسدَل الستار على قصة النبي يونس في الكتاب المقدس، في ترتيب
 للأحداث يخالف الصورة القرآنية في بعض المشاهد، ولربما أمكننا التوفيق
 بينها في مشاهد أخرى، وهو ما سيتبين لنا لاحقاً عند عرض القصة كما
 جاءت في القرآن الكريم، وأقوال بعض المفسرين في هذا الإطار، علماً بأننا

١. الكتاب المقدس: سفر يونس، الإصحاح ٤.

سننتقل أولاً إلى ما جاء في أدبيات النصارى حول القصة، ثم إلى النصوص الإسلامية ومقولات علماء المسلمين. كما لاحظنا أيضاً كيف دخلت الكثير من التفاصيل الخرافية والمبالغ فيها من خلال كتاب الزوهار القبالي وبعض المصادر اليهودية الأخرى، وهو الداء الذي أصيبت به القصة في التراث الإسلامي أيضاً بمرور الزمان، وتدخل المخيّلة البشريّة والدوافع الساذجة والخبيثة أيضاً في بعض الأحيان بما يشوّه القصة أو يُربك معارف المسلمين نتيجة عامل الصراع الثقافي والفكري داخل المجتمع الإسلامي، وحتى بلحاظ التنافس بين بعض الشخصيات التي أرادت أن تفرض نفسها على الساحة العلمية بادّعاء امتلاكها من العلوم والمعارف ما لا يملكه الآخرون.

□ بلعوم الحوت:

وحيث ذكرت في صفحة سابقة أن كتاب «الزوهار» أشار إلى الخلقة الاستثنائية للسمة الأولى التي ابتلعت يونس، بفمها الكبير وبلعومها الواسع، فإن هذا يستدعي الحديث عن إمكانية ابتلاع الحوت لإنسان بالغ، حيث أثار بعض الملاحظة وأشباههم هذا التساؤل تشكيكاً بإمكانية حدوث ذلك اعتماداً على المعطيات العلمية الحديثة والدقيقة التي تذكر أن فتحة بلعوم الحوت لا تتجاوز العشرين سنتيمتراً، فكيف يمكن أن يبتلع الحوت إنساناً بأبعاد الجسد المعتادة؟ بالطبع، فإنّ التصور الذي قدّمه الزوهار بأن هذه «السمة» كانت مخلوقاً استثنائياً ومصمماً خصيصاً منذ بدء الخليقة لابتلاع يونس، يعطي مجالاً للمناورة والتخلص من الإشكالية، وإن واجه إشكالاً آخر يتعلق بنظرية التطور التي يتمسك بها الملاحظة وغيرهم، ويرفض فكرة خلق سمكة أو حوت بهذه

الصورة من دون المرور بمراحل التطور المعهودة، فضلاً عن أصل فكرة خلق حيوان أو سمكة خصيصاً لحدث معين.

ولسنا ملزمين بالتصديق بالتصور الذي قدّمه الزوهار، فلا دليل عليه في النص القرآني، ويبقى الإشكال - في الوهلة الأولى - قائماً عند الرجوع إلى الموسوعات العلمية الخاصة بعلوم وتشريح الكائنات البحرية، إلا أن المعطيات العلمية المتوفرة فيها أيضاً تُقرّ بوجود حالة استثنائية واحدة تتمثل في حوت من نوع خاص يُعرف باسم «حوت العنبر»^(١) وهو أحد أشهر أنواع الحيتان في العالم، وأكبر الحيتان ذوات الأسنان، فطولها قد يبلغ أكثر من عشرين متراً في بعض الأحيان.

وتعيش حيتان العنبر في كافة المناطق الممتدة من خط الاستواء حتى القطبين، وتوطن جميع المحيطات الأربعة، وكذلك البحر الأبيض المتوسط. يتمتع حوت العنبر بفتحة بلعومية واسعة قابلة لأن تبتلع الحبارات العملاقة^(٢) التي يبلغ طول الواحد منها من ١٢ إلى ١٤ متراً، ويصل وزنها إلى ٧٥٠ كجم. ووفق هذه المعطيات فإن تصور ابتلاع النبي يونس من قبل حوت العنبر أمر قابل للحدوث لاسيما وأن الميناء الذي انطلقت منه السفينة هو ميناء يافا الواقع على البحر الأبيض المتوسط والذي يمكن يتواجد فيه هذا النوع من الحيتان.

قد يقال أن هذا النوع من الحيتان يقتات على الكائنات البحرية الموجودة في أعماق سحيقة من البحار والمحيطات، ويقضي فترات زمنية طويلة

1. Sperm Whale.

2. Colossal squid.

فيها، وهذا لو حصل بوجود إنسان في جوفه، فإن الضغط الهائل سيحطّم عظام الإنسان، ليؤدّي إلى موته. إلا أن هذا الإشكال قابل للارتفاع بالقول أن المسألة برمتها تمّت وفق إرادة إلهية معيّنة، وبأن هذا الحوت كان مأموراً من قبل الله بابتلاع يونس، وبالتالي يمكن تصوّر أنه كان مأموراً أيضاً أن يبقى بعض الوقت في السطح أو في عمق لا يؤدّي إلى النتيجة السابقة.

□ يونس لدى النصارى:

يؤمن النصارى بشكل إجمالي بسفر يونان ككتاب من الكتب المقدّسة من العهد الذي سبق ولادة المسيح «عليه السلام»، ولذا فإن ما نقلناه في الصفحات السابقة من هذا السّفَر يشترك فيه اليهود والنصارى معاً، وإن اختلفت الترجمات في بعض الكلمات وفي ترقيم الآيات، بل ونجد أحياناً آية في نسخة ولا تُذكر في نسخة أخرى، ولكن لا يؤثّر ذلك عادةً في الصورة الإجمالية للنص. ولكن للخوري الدكتور بولس الفغالي^(١) في كتابه «المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم» رأي في هذا السّفَر وقصة يونس والحوت، فيبعد أن نقل كلام اليهود بأنهم يقولون إن يونان كرّز^(٢) في نينوى في أيام «هَدَد - أَدَد - نيراري الثالث» «٨٠٩-٧٨١» وهو ملك آشوري، خلف والده «شمشي أدد الخامس» على عرش الدولة الآشورية وهو لا يزال طفلاً، فتولّت

١. الأب بولس الفغالي لبناني من كفر عبيدا، وكاهن في أبرشية البترون المارونية، حائز على دكتوراه في اللاهوت من الجامعة الكاثوليكية في باريس. ودكتوراة فلسفة من السوربون، درّس في الجامعة اللبنانية حوالي عشرين سنة. يتقن أكثر من عشر لغات قديمة وحديثة. ألف أكثر من مائتي كتاب، منها: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، والمدخل الى الكتاب المقدس في ستة أجزاء.

٢. مصطلح مسيحي يراد به التبليغ والدعوة.

الوصاية عليه لمدة خمس سنوات أمه «سمو- رامات» التي عرفتها المصادر الإغريقية باسم «سميراميس»؛ أو أحد خلفائه الثلاثة، ولا سيما «تغلت فلاسر الثالث - توكولتي ايلي إشارا^(١)» «٦٤٥-٧٢٦»، وأن سفر يونان يختلف عن سائر الأسفار «النبوية» لأنه لا يحمل اسم كاتبه، بل اسم بطل الخبر.

وبالتالي فإنّ هذا السفر لم يكتبه النبي يونس، على خلاف ما عليه حال سفر عزرا و سفر نحميا وسفر إشعياء، أضاف د. الفغالي أنه لم يعد أحد يقول اليوم إن النبي يونس هو كاتب السفر، والتعبير في السفر نفسه (كَانَتْ نِينَوَى^(٢)) دليل على أنها لم تعد موجودة^(٣)، وبسبب لغة النص المتأثرة بالآرامية، حيث أن التأثير بالآرامية جاء بعد السبي البابلي المتأخر زماناً عن قصة يونس، وبسبب الفكرة الرئيسة «شمولية الخلاص» وهي من الأفكار التي دخلت في التراث اليهودي بعد السبي البابلي. لذا فقد استنتج الفغالي أن سفر يونان دُون بعد منفى بابل حوالي السنة ٤٠٠ ق.م، وفي أي حال قبل سنة ٢٠٠ ق.م. واعتبر أن اليهود وضعوا الكتاب بين كتب الأنبياء لأن صاحبه نبي، ولأن ميوله التعليمية ترتبط بشمولية الخلاص.

بعد هذا التوضيح، وفي معرض تشكيكه في قصة الحوت، اعتبر الدكتور الفغالي أن اليهود حاولوا أن يبرهنوا على إمكانية نجاح يونان في نينوى

١. ويعني بالأكادية «توكلي على ابن العشيرة»، كُتب اسمه بالنتخ تغلات بلاصر، من ملوك آشور.
٢. الكتاب المقدس: سفر يونان، الإصحاح ٣: ٢. والعبارة التي جاءت وفق النسخة التي أثبتناها في هذا الكتاب هي: (أَمَّا نِينَوَى فَكَانَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً لِلَّهِ).
٣. هذا الاستدلال ضعيف، فكلمة كانت لا تدل على عدم الوجود لاحقاً، وكان على الدكتور التحقق من المعطيات التاريخية.

وإمكانية السكن في بطن الحوت... (هناك العجائب الكثيرة في كتاب صغير وطابعها المجاني «العاصفة، القرعة، يونان في البحر، الحوت الخاص الذي أرسله الله، خروج يونان من بطن الحوت الذي لم يؤذه، طرحه على الشاطئ، النبتة التي تنمو في ليلة وتيبس»). ثم كيف يعقل أن تتوب مدينة عظيمة بهذه السرعة لدى سماع كرازة توبة بفم نبي غريب؟ وإن يسوع حين تحدّث عن آية يونان اتخذ الخبر كنمط أدبي كما فعلت الرسالة إلى العبرانيين بالنسبة إلى «ملكي صادق» حين تكلمت عن المسيح^(١).

والدكتور الفغالي هنا ذكر في خواتيم كلامه عدة أمور تحتاج إلى توضيح لفهم مراده ورفضه لواقعية قصة يونس والحوت:

١. كلام المسيح مع بعض اليهود يخبرهم فيه ضمناً ما سيكون عليه حاله بعد الصلب والموت، وأنه سيبقى في القبر ثلاثة أيام ثم يعود إلى الحياة، تماماً كما ذكر مثل ذلك في قصة النبي يونس، فإذا كنتم تصدّقون بقصته فلا غرابة في حدوث مثل ذلك للمسيح نفسه.

ولا يعني هذا - بحسب الفغالي - أن المسيح كان يعتبر أن قصة يونس حقيقية وقعت في الخارج، بل يريد مجرد التشبيه. والنص في إنجيل متى كالتالي: (أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِيسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شَرِيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلَا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلَّا آيَةُ يُونَانَ النَّبِيِّ. لِأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ، هَكَذَا يَكُونُ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الْأَرْضِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ لَيَالٍ».

١. الفغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص ١٤٤١-١٤٤٢.

رَجَالٌ نِينَوَى سَيَقُومُونَ فِي الدِّينِ مَعَ هَذَا الْجِيلِ وَيَدِينُونَهُ، لَأَنَّهُمْ تَابُوا بِمَنَادَةِ يُونَانَ، وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ يُونَانَ هَهُنَا^(١).

٢. التشبيه الذي استعمله المسيح - بحسب الفغالي - مثل للتشبيه الأدبي الذي استعمله الرسول بولس أيضاً في رسالته إلى «العبرانيين» والواردة في «العهد الجديد» بعد الأنجيل الأربعة. فبحسب التاريخ المسيحي حدث اضطهاد من قبل اليهود بحق أتباع السيد المسيح الذين كانوا من أصل يهودي، ويُعرفون بالعبرانيين، وذلك بعد رفع السيد المسيح، فُسِّلَت أموالهم، وسجن البعض منهم، وقتل آخرون، كما واجهوا اضطهاداً من الرومان أيضاً.

وواجهتهم مشكلة أخرى حيث كانوا يتوقعون عودة المسيح سريعاً، وكان هذا مصدر أمل وصبر. ولكن لما طالَّت المدة ولم يأتِ المسيح ارتبكوا وفكَّر بعضهم بالارتداد إلى اليهودية، لاسيما تحت تأثير الإغراءات التي قُدِّمَتْ لهم.

فكتب لهم بولس رسالة يصبرهم فيها ويحذّرهم من الردّة، وضمّن رسالته كلاماً عن «ملكي صادق» وصفه فيها بصفات عديدة، وجاء كالتالي: (حَيْثُ دَخَلَ يَسُوعُ كَسَابِقَ لَأَجَلِنَا، صَائِرًا عَلَى رُتَبَةِ مَلِكِي صَادَقٍ، رَئِيسَ كَهَنَةِ إِلَى الْأَبَدِ. لَأَنَّ مَلِكِي صَادَقَ هَذَا، مَلِكُ سَالِيمٍ، كَاهِنُ اللَّهِ الْعَلِيِّ، الَّذِي اسْتَقْبَلَ إِبْرَاهِيمَ رَاجِعًا مِنْ كَسْرَةِ الْمُلُوكِ وَبَارَكَهُ، الَّذِي قَسَمَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عَشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. الْمَتْرَجَمُ أَوَّلًا «مَلِكُ الْبَرِّ» ثُمَّ أَيْضًا «مَلِكُ سَالِيمٍ» أَيْ «مَلِكُ السَّلَامِ»،

١. الكتاب المقدس: العهد الجديد: إنجيل متى، الإصحاح ١٢ : ٣٨-٤١.

بَلَا أَبَ، بَلَا أُمَّ، بَلَا نَسَبَ. لَا بَدَاءَ أَيَّامَ لَهُ وَلَا نِهَآيَةَ حَيَاةٍ. بَلْ هُوَ مُشَبَّهٌ بِأَبْنِ اللَّهِ. هَذَا يَبْقَى كَاهِنًا إِلَى الْأَبَدِ^(١).

من خلال الأوصاف الواردة في النص السابق لملكي صادق فسيكون المراد منه ملك مدينة القدس «شاليم / أورشاليم»، الذي ذُكر في العهد القديم، حينما استقبل النبي إبراهيم كما في الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين واسمه كنعاني معناه «ملك البر»، وهو - بحسب النص السابق - لم يكن يهودياً وإن كان تقياً ومؤمناً بالله، بل وصفه بولس بأنه كاهن الله العلي وشبَّهه بابن الله ! ومن هنا قال الفغالي بأن رسالة بولس استعملت النمط الأدبي في تشبيه المسيح بملك صادق من هذه الجهة، وهي البنوة لله، دون أن يعني ذلك حقيقة أنه كان ابناً لله.

هذا الرأي للدكتور الفغالي لا يمثل العقيدة النصرانية، بل هو رأي شخصي قد توافقه عليه شريحة من النصارى، وتخالفه فيها الغالبية منهم.

ومثال ذلك ما جاء من تعليقات في كتاب «التفسير التطبيقي للكتاب المقدس»^(٢) على الإصحاح الأول من سفر يونا، حيث نجد الشراح يقدمون تفاسيرهم وتعليقاتهم انطلاقاً من إيمانهم بمصادقية القصة وحقيقتها.

جاء في هذا الكتاب ما نصّه^(٣): (كانت نبوته أثناء حكم يربعام الثاني الذي ملك على إسرائيل من «٧٩٣-٧٥٣ ق.م.» وربما يكون واحداً من جماعة

١. الكتاب المقدس: العهد الجديد: رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين، الإصحاح ٦-٧.

٢. وهولعدة مؤلفين.

٣. قمت بحذف الإحالات والرموز من النص.

الأنبياء الذين جاء ذكرهم مرتبطاً بإرسالية إيليا^(١)..... طلب الرب من يونان أن يبشّر نينوى، أهم مدينة في آشور التي كانت تمثل القوة العالمية العظمى في تلك الأيام. وفي خلال خمسين عاماً قُدِّرَ لنينوى أن تكون عاصمة الإمبراطورية الآشورية الممتدة. لم يذكر يونان شيئاً كثيراً عن شرّ نينوى، لكن ناحوم النبي يعطينا فكرة أوفر. يقول ناحوم إن نينوى كانت مذنبّة في تأمرها على الرب في استغلال الضعفاء في الوحشية أثناء الحرب في الزنى والسحر والاستعباد. هذه هي نينوى التي طلب الله من يونان أن يذهب إليها، وهي تقع على بعد نحو ٨٠٠ كيلومتراً شمال شرق إسرائيل. عندما يعطينا الله توجيهات من خلال كلمته، نهرب أحياناً في خوف وعناد، متعللين بأن الله يطالبنا بأكثر من اللازم. وقد يكون خوف يونان أو غضبه من اتساع رحمة الله هو ما جعله يهرب، إلا أن ذلك دفع به إلى مشكلة أصعب. ثم أدرك يونان أخيراً أن من الأفضل تنفيذ ما طلبه الله من بادية الأمر. لكن كان عليه أن يدفع ثمناً باهظاً لهذا الهروب. ما كان أجدر به أن يطيع من البداية! قبل أن يستقر بنو إسرائيل في أرض الموعد ظلّوا يهيمنون على وجوههم من موضع لآخر باحثين عن مراعي لقطعانهم. ومع أنهم لم يعملوا في البحر إلا أن تواجدهم بطول البحر المتوسط بجوار القوى البحرية، فينيقيا وفلسطين، أتاح لهم التعامل المكثف مع السفن والبحارة. وربما كانت السفينة التي استقلها يونان واحدة من تلك السفن التجارية الكبرى التي كان لها سطح متسع. تعرضت أرواح ركاب السفينة للخطر بسبب عصيان يونان.... كان يونان يغطّ في نوم عميق

١. سيأتي معنا لاحقاً كلام للمفسر القرطبي يذكر فيه ارتباط النبي يونس بالنبي إيليا، ومن الواضح أنه أخذ هذه المعلومة عن أهل الكتاب.

في بطن السفينة بينما كانت العاصفة على أشدها. ومع أنه كان هارباً من الله إلا أن ذلك لم يحرك ساكناً في ضميره... ألقى الطاقم القرعة لمعرفة المذنب معتمدين في ذلك على خرافاتهم لمعرفة الإجابة. وقد نجح أسلوبهم فقط لأن الله تدخل ليعرف يونان أن ليس بإمكانه الهرب منه... أدرك يونان أنه عصى الله وأن العاصفة حدثت بسبب ما ارتكبه من خطأ. لكنه لم ينطق بشيء حتى ألقى القرعة ووقعت عليه، وأظهر يونان استعدادَه أن يضع حياته فدية عن البحارة مع أنه رفض أن يفعل نفس الشيء مع أهل نينوى. وبدون شك فقد أثرت كراهية يونان للأشوريين على قدرته على رؤية الأمور. لقد أظهر البحارة الوثنيون تعاطفاً مع يونان بمحاولة إنقاذه أكثر مما أظهر هو حين رفض أن يحذر أهل نينوى من قصاص الله المنتظر. ينبغي أن يخجل المؤمنون حين يظهر غير المؤمنين الاهتمام والشفقة أكثر منهم. يريدنا الله أن نهتم بكل شعبه الضال والمؤمن على حد سواء. لقد عصى يونان الله. وبينما هو هارب بعيداً توقف وخضع لله ثم بدأ طاقم السفينة يسبحون الله عندما رأوا العاصفة تهدأ. فالله يستطيع أن يستخدم حتى أخطائنا ليساعد الآخرين على الرجوع إليه. إن اعترافنا بأخطائنا، وإن يكن مؤلماً، لهو أقوى مثال نقدمه لمن لا يعرفون الله^(١).

وتعليقاً على قصة الحوت كما ذكرت في سفر يونان، جاء في الكتاب ما يلي: (حاول الكثيرون أن يفسروا هذا الحدث على أنه خيال. لكن الكتاب المقدس لا يصوره على أنه حلم أو أسطورة. ليس لنا أن نفسر المعجزة

١. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ١٧٧٥-١٧٧٧.

على هوانا كما لو كنا نلتقط ونختار من معجزات الكتاب المقدس ما يروق لنا أن نؤمن به وما لا يروق. فمثل هذا الموقف إن اتخذناه يكون خليقاً بأن يجعلنا نضع الكتاب المقدس الذي هو حق الله وكلمته الحيّة موضع تساؤل وشك^(١).

وتحدّث الكتاب عن توبة يونس وصدور الأمر الإلهي له مجدّداً بالذهاب إلى نينوى: (أُعطي يونان فرصة ثانية للمشاركة في عمل الرب رغم أنه كان قد هرب من الله... لا يفرق النص العبري بين المدينة ذاتها «محيط سورها ثمانية أميال وتتسع لمئة وخمسة وسبعين ألف شخص»^(٢) وبين الحدود الإدارية لنينوى التي يبلغ عرضها ٣٠ إلى ٦٠ ميلاً. كانت زيارة نينوى «المدينة الهامة جدّاً» تقتضي ثلاثة أيام. أرسلت كلمة الله لكل الناس. وبالرغم من شر أهل نينوى كانوا منفتحين لرسالة الله وتابوا فوراً... آمن أهل نينوى الوثنيون برسالة يونان وتابوا... في رحمته ألغى الرب العقاب الذي توعدهم به.... لقد سامح الله نينوى كما سامح يونان. إذ إن هدف عقاب الله كان التقويم وليس الانتقام فهو على استعداد دائم لإظهار لطفه لكل من يطلبه من القلب)^(٣).

وعن ردّة فعل النبي يونس كما ذكرت في سفره وغضبه، قال الكتاب: (لماذا غضب يونان عندما عفا الله عن نينوى؟ لم يكن اليهود يريدون أن

١. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ١٧٧٧.

٢. سيأتي معنا في النص القرآني أنه أرسل إلى مائة ألف أو يزيدون.

٣. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ١٧٧٧.

تشاركهم الأمم رسالة الله في أيام يونان تماماً مثلما قاوموا نفس الفكرة أيام بولس^(١). لقد تناسوا دورهم الأساسي كأمة وهو أن يكونوا بركة للعالم بتوصيل رسالة الله لبقية الأمم. ظن يونان أن الله لن يمنح خلاصه بهذه السهولة لأمة وثنية شريرة، إلا أن هذا ما يفعله الله لكل من يقبل إليه اليوم بإيمان. كشف يونان صراحة عن سبب مقاومته الذهاب إلى نينوى. لقد كان يتمنى هلاك أهلها وليس حصولهم على الغفران^(٢). لم يفهم يونان أن إله إسرائيل هو إله العالم كله.... هرب يونان من مهمة توصيل رسالة الله بإهلاك نينوى، ثم إذا به يطلب الموت لأن الهلاك لم يتم. بالسرعة التي نسي بها يونان رحمة الله من نحوه عندما كان في بطن الحوت، وكان سعيداً عندما نجّاه الله، ثم غضب عند نجاة نينوى. كان عليه أن يتعلم درساً قيماً عن رحمة الله وغفرانه. غفران الله لا يقتصر على يونان أو بني إسرائيل فقط، لكنه يمتد ليشمل كل من يتوب ويؤمن. ركّز يونان اهتمامه على سمعته الشخصية أكثر من حق الله. كان يعرف أن التهديدات التي نطق بها ستتلاشى إذا تاب الشعب. وبالطبع سيشعر بالضيق مع أن هذا الأمر يمجّد الله. هل تطلب مجد الله حقاً أم تهتم بأمر نفسك؟... تعامل الله برفق مع يونان مثلما فعل مع نينوى ومع بني إسرائيل ومثلما يفعل معنا اليوم. فمع أنه كان بإمكانه أن يمحوه من الوجود لسبب غضبه الذي تجرّأ

١. الرسول بولس واسمه شاؤؤل، يعتقد النصارى أنه حمل الرسالة وبلغها بعد المسيح، ونعتقد نحن أنه كان أول من حرقها.

٢. ليس هذا من سمات الأنبياء، ونحن ننزه هذا النبي الكريم عن مثل ذلك، والقرآن لم يشر إلى هذه الحادثة.

به على الله^(١)، لكنه أعطاه درساً بطريقة رقيقة هادئة. إذا كنا سنطيع إرادة الله، فسيمنحنا الله إرشاده وقيادته. أما قصاصه القاسي فمحفوظ لأولئك الذين يصرون على العصيان^(٢).

بحسب ترتيب الأحداث في سفر يونس، فإن إنبات اليقطينة لا علاقة له مباشرة بقذف يونس من بطن الحوت واستقراره على الشاطئ كما يظهر من النص القرآني: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾^(٣).

فالقصة في سفر يونس تذكر خروج يونس من بطن الحوت ثم توجهه إلى نينوى، حيث صدقه أهلها وتابوا، فخرج غاضباً، وجلس شرقي المدينة يرقب ما سيحدث لها، فأنبت الله يقطينة نمت وارتفعت لتظلله وتقيه من شدة الحر، ففرح بها، ثم أرسل الله دودة قرضت اليقطينة فجفت، وريحاً حارة لفحت رأس يونس فتأذى منها وأصابه الإعياء وتمنى الموت لنفسه، وجاءه التوجيه الإلهي حول سبب عدم إهلاك أهل نينوى وما فيها من بهائم.

١. يصرح سفر يونس أن غضب يونس كان على الله، وأما القرآن الكريم فيذكر أنه ذهب مغاضباً، ولم يذكر ممّ، الأمر الذي فتح المجال للمفسرين كي ينقسموا في آرائهم حول سبب غضبه، ولمن وجهه. وسيأتي معنا أثناء عرض قصة يونس في المصادر الإسلامية عرض لبعض تلك الآراء، وتوجيهها.

٢. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ١٧٧٩.

٣. سورة الصافات: ١٣٩-١٤٦.

ووفق هذا الترتيب في الأحداث جاء تعليق كتاب التفسير التطبيقي على هذا المشهد كالتالي: (حزن يونان على ذبول اليقطينة ولم يحزن على المصير الذي كان ينتظر نينوى... يود بعض الناس في بعض الأحيان لو نزل القصاص والهلاك بالخطاة الذين طغى شرهم حتى استدعى عقاباً فوراً. لكن الله رحيم أكثر جداً مما نتخيل، فهو يشعر بالعطف على هؤلاء الخطاة الذين نستعجل عقابهم، ويدبر الخطط لاستعادتهم... أنقذ الله البحارة حينما طلبوا الرحمة، وأنقذ يونان أيضاً حينما صلى من جوف الحوت. ثم رحم أهل نينوى لما استجابوا لرسالته على فم يونان. فهو يستجيب صلوات الذين يدعونه. فالله سوف يجري دائماً مشيئته ويريد أن الجميع يقبلون إليه ويثقون فيه ويخلصون)^(١).

□ النبي يونس في القرآن:

بالإضافة إلى تخصيص سورة باسمه وهي السورة برقم ١٠ بترتيب المصحف الشريف وعدد آياتها ١٠٩ آية، ويُروى أنها السورة الحادية والخمسين من حيث ترتيب النزول على النبي «صلى الله عليه وآله»، فقد ذكر النبي يونس في القرآن الكريم باسمه ٤ مرات، هي كالتالي:

١. ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾^(٢).

١. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ١٧٨٠.

٢. سورة النساء: ١٦٣.

٢. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١).

٣. ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢).

٤. ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾^(٣).

وذكر بوصفه ولقبه «ذي النون»، والنون: السمك الكبير، أو خصوص حيوان الحوت الذي هو من الثدييات، علماً بأنه من الناحية اللغوية لا يتم تصنيف حيوان الحوت خارج نطاق السمك، إذ لا يتم التمييز بين الثدييات وغيرها. وذكر النبي يونس بهذا اللقب جاء مرة واحدة في قول الله «عز وجل»: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

١. سورة الأنعام: ٨٣-٨٦.

٢. سورة يونس: ٩٨.

٣. سورة الصافات: ١٣٩-١٤٤.

٤. سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨.

وذكر بوصف آخر هو «صاحب الحوت»، والحوت: السمكة، صغيرة كانت أو كبيرة، فيشمل حيوان الحوت الذي هو من الثدييات. جاء ذكره بهذا الوصف في قوله «تعالى»: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ، لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١).

ولو أردنا أن نقصر على النص القرآني في استعراض قصة هذا النبي الكريم، فلن نجد تفاصيل ترتبط بالمجتمع الذي وُلد أو ترعرع فيه، ولا دليل على أنه من بني إسرائيل أو من سواهم، ولا العصر الذي عاش فيه. كما لا نملك من خلال القرآن ترتيباً مؤكداً للأحداث، إلا أن فيها تكراراً لمحتته عند ابتلاعه من قبل الحوت، والتغير الذي جرى لقومه بعد أن نهض بمسؤوليته الرسالية فيهم. وتبدأ مشاهد قصته في القرآن الكريم دائماً من مشهد السفينة.. ففي سورة الصافات تبدأ قصته من مشهد وجوده على ظهر سفينة، ثم إجراء الاقتراع لتحديد الشخص الذي يُلقى في البحر، دون تحديد سبب هذا الاقتراع، ومن غير الواضح ما إن كان من عاداتهم فعل ذلك عند مواجهة العواصف كنوع من تقديم القرابين البشرية لتهدئة غضب إله البحر أو إله الريح مثلاً، أم أن الأمر كان لسبب آخر. علماً بأن الاقتراع لا يتوافق مع الرواية اليهودية التي قالت بأنه أدرك أن الله قد أرسل هذه العاصفة لكي يُرموا به في البحر، فصارح البحارة بأن العاصفة لن تهدأ ما لم يقوموا بالتخلص منه بإلقائه في الماء، ففعلوا ذلك على مراحل كما بينت ذلك مسبقاً.

نعم هي متطابقة مع ما جاء في «سفر يونان» في الكتاب المقدس: (وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَلُمَّ نَلْقَى قُرْعًا لِنَعْرِفَ بِسَبَبِ مَنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةُ». فَأَلْقَوْا قُرْعًا، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونَانَ. فَقَالُوا لَهُ: «أَخْبِرْنَا بِسَبَبِ مَنْ هَذِهِ الْمُصِيبَةُ عَلَيْنَا؟ مَا هُوَ عَمَلُكَ؟ وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ؟ مَا هِيَ أَرْضُكَ؟ وَمِنْ أَيِّ شَعْبٍ أَنْتَ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا عِبْرَانِيٌّ....»^(١)).

قال «عز وجل»: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾^(٢).

أما لماذا سافر راكباً السفينة، فلا نملك صورة واضحة سوى ما جاء في الآية التالية: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

ما سبب هذا الغضب؟ ومن أين خرج؟ وإلى أين كانت وجهته؟ الآيات ساكتة عن ذلك.

كما ونجد إشارة في الآيات التالية إلى عدم صبر يونس لحكم الله، فاستتبّع ذلك الابتلاء الذي جرى له مع الحوت: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ

١. الكتاب المقدس: سفر يونان، الإصحاح ١ : ٧-٩.

٢. سورة الصافات: ١٣٩-١٤٦.

٣. سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨.

الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ، لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١﴾.

إلا أن الآيات لا توضح طبيعة الأحداث والظروف التي مرَّ بها هذا النبي الكريم، فلم يصبر فيها لحكم الله، وذهب مغاضباً وهو يظن أن الله لن يقدر عليه، ثم جرى له ما جرى في السفينة.

وهكذا تنتقل الآيات بعد مشهد نجاته من بطن الحوت بسبب اعترافه بخطأه وتراجعته عن موقفه وتوجَّهه إلى الله، حيث نُبِذَ بالعراء وهو سقيم، لتتحدث عن توجهه إلى مدينة كبيرة بمقاييس ذلك الزمان، ونجاحه في مهمته الرسالية: ﴿.... وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِثَّةٍ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُونَ، فَاْمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢).

ثم تتحدث الآيات التالية عن التغير الذي طرأ على موقف أولئك القوم كشاهد آخر على نجاحه في مهمته الرسالية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٣).

من خلال ما سبق، وبالاقتصار على ظاهر الآيات القرآنية وترتيبها، لا

١. سورة القلم: ٤٨-٥٠.

٢. سورة الصافات: ١٤٧-١٤٨.

٣. سورة يونس: ٩٦-١٠٠.

نملك دليلاً على الترتيب المعهود لدينا في أحداث القصة، والذي وصلنا من خلال بعض الروايات وكتب التفسير، حيث تبدأ بمشهد الدعوة في قومه وتمردهم عليه، ثم خروجه من تلك المدينة على استعجال وقبل استنفاد كل الاحتمالات في الدعوة، ولاسيما مع ظهور علامات نزول العذاب الإلهي عليهم، ثم ابتلاعه من قبل الحوت ونبذه بالعراء، ثم عودته من جديد إلى قومه حيث يجدهم قد آمنوا وتابوا عن معاصيهم وأصلحوا أحوالهم، ليدرك في نهاية المطاف خطأ الاستعجال في القرار الذي اتّخذه، وأنه لو كان قد صبر قليلاً، لشاهد آثار دعوته، ولما جرى له ما جرى. بل إن الإنصاف أننا لو اقتصرنا على ظاهر ترتيب آيات سورة الصافات وسياقها، فسنصل إلى صورة مشابهة لما جاء في «سفر يونا» من حيث ترتيب الأحداث، حيث يهرب النبي يونس من مسؤولية الدعوة، ثم يُمتحن بابتلاعه من قبل الحوت، ثم استجابته للأمر الإلهي بالذهاب إلى تلك المدينة الكبيرة، ويحقق النجاح في دعوته، وليجد منهم استجابة وقبولاً على خلاف تصوّره الأوّلي الذي بناه على بعض المعطيات الظاهرية.

□ القصة في سائر المصادر الإسلامية:

أما لو عدنا إلى ما سوى القرآن الكريم من المصادر الإسلامية، ككتب التفسير والحديث والتاريخ، فسنجد أنها تقدّم القصّة بتفاصيل لا نستطيع أن نوّكد حدوثها، بل ولا أن نطمئن إلى كثير منها، علاوة على التضارب بين الروايات، وهي إن التقت في بعض الأحيان مع ظاهر القرآن إلا أنها تختلف معه في أحيان أخرى، كما تلّقي مع القصّة كما وردت في سفر

يونان أحياناً، ولربما خالفتها في الأثناء. ويجب كذلك أن ننتبه إلى أننا لا نعرف مصدر مجموعة يُعتدُّ بها من مرويات المفسرين والرواة من أهل السنّة، بلحاظ أنهم لم يسندوها أساساً إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، كما أن أكثر المرويات عن أهل البيت «عليهم السلام» في مصادر الشيعة لا تصمد أمام النقد السندي والمتني معاً كما سيّضح معنا لاحقاً عند عرض بعض النماذج منها.

وهذا - بالإضافة إلى شواهد سابقة مرّت بنا في بحوث هذا الكتاب - يرجّح لديّ أن جمعاً من مُسلمة أهل الكتاب تعمّدوا إيصال المعلومات الخاطئة حول قصص العهدين القديم والجديد، وقدموها مشوّهة لغرض في أنفسهم، وتلقّفها بعض الرواة والمفسرين دون الرجوع إلى المصادر الأصلية لاسيّما بلحاظ كونها مكتوبة بلغات أجنبية، وأعادوا تقديمها إلى المسلمين تحت بند الحديث والتفسير والتاريخ والأدب والتراث الإسلامي، ثقةً منهم بأولئك المحدثين من مُسلمة أهل الكتاب، وظناً منهم بأنها مطابقة لما في مصادرهم.

ولا يمكننا أن ننسى هنا دور القصّاص الذين كانوا يتكسّبون من هذه المهنة، ولا يتمتعون بشيء من التقوى التي تمنعهم من الكذب والتدليس والتحريف والوضع والدس، فانتشرت بذلك الكثير من الأخبار والقصص التي لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة لتشوّه القصة القرآنية أحياناً، ولتنسب للنبي أو الإمام أو الصحابي كلاماً أو بياناً أو قصّة لم يتفوّه بها، ولم تصدر عنه بتاتاً، ولتمتليء بها كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب، وتُقدّم وكأنها جزء من التراث العلمي والديني والمعرفي للمسلمين.

ومن أمثلة تلك المرويات وأقوال المفسرين في ما له علاقة بقصة النبي يونس والدعوة والحوت وأهل نينوى:

□ عن سعيد بن جبير قال: (لما أرسل يونس إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه. قال: فدعاهم فأبوا، فقليل له: أخبرهم أن العذاب مصبّحهم، فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذباً، فانظروا، فإن بات فيكم فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم. فلما كان في جوف الليل أخذ عُلَاقَةً فتزوّد منها شيئاً، ثم خرج، فلما أصبحوا تغشّاهم العذاب، كما يتغشّى الإنسان الثوب في القبر، ففرقوا بين الإنسان وولده، وبين البهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله فقالوا: آمنا بما جاء به يونس وصدّقنا! فكشف الله عنهم العذاب، فخرج يونس ينظر العذاب فلم ير شيئاً، قال: جَرَّبُوا عَلَيَّ كَذِبًا! فذهب مغاضباً لربه حتى أتى البحر)^(١). وفي العبارة الأخيرة أن غضبه كان على الله، لأنه أظهره بصورة الكاذب عند قومه.

□ حدثنا ابن مسعود في بيت المال، قال: (إن يونس «عليه السلام» كان قد وعد قومه العذاب، وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرّقوا بين كل والدّة وولدها، ثم خرجوا فجأروا إلى الله واستغفروه. فكف الله عنهم العذاب، وغدا يونس ينظر العذاب فلم ير شيئاً، وكان من كذب ولم تكن له بيّنة قُتِلَ، فانطلق مغاضباً)^(٢). أي أنه لم يعد لقومه خوفاً من صدور العقوبة بحقه وهي القتل، لأنه أخبرهم بحلول العذاب، وهو ما لم يقع.

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ح ١٧٩٠٥.

٢. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ح ١٧٩٠٦.

□ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله «صلى الله عليه وآله» : (لما أراد الله تعالى ذكره) حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش لحماً ، ولا تكسر عظماً ، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله «تبارك وتعالى» إليه وهو في بطن الحوت : «إن هذا تسبيح دواب البحر». قال: «فسبح وهو في بطن الحوت». قال: «فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة». قال: «ذلك عبيد يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر». قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت بقذفه في الساحل ، كما قال «تبارك وتعالى»: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾).

قال القرطبي معلقاً بعد أن نقله عن الطبري: (كان سقمه الذي وصفه به الله تعالى ذكره، أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم. وقد روي : أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر ، فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا، ذكره الزمخشري في تفسيره). وجاء في هامش الكتاب تعليقاً على الرواية السابقة: (قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩٨/٧: «فيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقية رجاله رجال الصحيح»)(^١).

□ وقد ذكر ابن عاشور في تفسيره أن قوم يونس هم أهل قرية نَيْنَوَى من بلاد العراق، وهم خليط من الأشوريين واليهود الذين كانوا في أسر

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨، ص ٩٥-٩٦.

ملوك بابل بعد بختنصر. والمرسل إليهم: اليهود القاطنون في نينوى في أسر الآشوريين. وكانت بعثة يونس إليهم في أول القرن الثامن قبل المسيح^(١)، وأنه لما دعاهم إلى الإيمان فأبوا توعدهم بخسف مدينتهم بعد أربعين يوماً، وخرج من المدينة غاضباً عليهم، وذهب إلى «يافا» فركب سفينة للفنيقيين لتذهب به إلى ترشيش، مدينة غربي فلسطين إلى غربي صور، وهي على البحر ولعلها من مراسي الوجه البحري من مصر، أو من مراسي برقة، لأنه وصف في كتب اليهود أن سليمان كان يجلب إليه الذهب والفضة والقرود والطواويس من ترشيش، فتعيّن أن تكون لترشيش تجارة مع الحبشة أو السودان، ومنها تصدر هذه المحصولات. وقيل هي طرطوشة من مراسي الأندلس، وقيل «قرطاجنة» مرسى إفريقية قرب تونس. وقد قيل في تواريخنا أن تونس كان اسمها قبل الفتح الإسلامي ترشيش، وهذا قريب لأن تجارتها مع السودان قد تكون أقرب. فهاج البحر على السفينة وثقلت وخيف غرقها، فاقترعوا فكان يونس ممن خاب في القرعة، فرمى في البحر والتقمه حوت عظيم فنادى في جوفه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فاستجاب الله له، وقذفه الحوت على الشاطئ. وأرسله الله ثانياً إلى أهل نينوى، الذين لما خرج يونس من عندهم خافوا نزول العذاب بهم، فتابوا وآمنوا بالله، فقبل الله إيمانهم ولم يعذبهم. والمذكور أنهم رأوا غيماً أسود بعد مضي خمسة وثلاثين يوماً من حين توعدهم يونس «عليه السلام» بحلول العذاب، فعلموا أنه مقدمة العذاب

١. وقع السبي في القرن السادس قبل الميلاد، فكيف يكون وجود اليهود في القرن الثامن قبل الميلاد ناشئاً عن السبي؟ أي كيف تواجدوا في نينوى كأسرى لحدث سيقع بعد قرنين من الزمان؟

فَأَمْنُوا وَخَضَعُوا لِلَّهِ «سبحانه وتعالى» فَأَمْسَكَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ^(١).

□ ونعود إلى تفسير القرطبي حيث نجد تفاصيل كثيرة تم تجميعها من مرويات عديدة في كتب المسلمين، وآثار الوضع فيها بادية، كما أن تأثرها بمرويات مُسلمة اليهود والنصارى واضحة، ونعرضها كالتالي:

يونس هو ذو النون، وهو ابن متى، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر، ويونس صبي يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسّه، ولا تدّخر عنه كرامة تقدر عليها. ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فالحق بالجبال، ومات ابن المرأة، يونس، فخرجت في أثر إلياس تطوف وراءه في الجبال حتى وجدته، فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيي لها ولدها، فجاء إلياس إلى الصبي بعد أربعة عشر يوماً من موته، فتوضّأ وصلّى ودعا الله، فأحيا الله يونس بن متى بدعوة إلياس. وأرسل الله يونس إلى أهل نينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا.

وقد تعرّض القرطبي عند الحديث عن هذه النقطة إلى السؤال الذي عرضناه من قبل حول ترتيب الأحداث، وطرح احتمالين، قال: واختلف في رسالته، هل كانت قبل التقام الحوت إياه أو بعده.

ثم عرض الاحتمال الأول كالتالي: قال الطبري عن شهر بن حوشب: إن جبريل «عليه السلام» أتى يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضّرهم. قال: ألتمس دابة. قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: ألتمس حذاء.

١. كان ما سبق تجميع لما ذكره ابن عاشور في تفسير الآيات المختلفة حول قصة النبي يونس، من سورة الأنعام ويونس والأنبياء والصفّات.

قال: الأمر أعجل من ذلك. قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينة احتبست السفينة لا تتقدم ولا تتأخر. قال: فتساهموا، قال: فسهم، فجاء الحوت يبصبص بذنبه، فنودي الحوت: أيا حوت! إنا لم نجعل لك يونس رزقاً، إنما جعلناك له حرزاً ومسجداً. قال: فالتقمه الحوت من ذلك المكان حتى مرَّ به إلى الأبله^(١)، ثم انطلق به حتى مرَّ به على دجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في نينوى.

وعرض الاحتمال الثاني ضمن تفسيرات متعدّدة وكالتالي: حدثنا الحارث قال حدثنا الحسن قال حدثنا أبو هلال قال حدثنا شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدل هؤلاء بأن الرسول لا يخرج مغاضباً لربه، فكان ما جرى منه قبل النبوة.

وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه مَنْ أُرسل إليهم إلى ما أمره الله بدعائهم إليه، وتبليغه إياهم رسالة ربه، ولكنه وعدهم نزول ما كان حذرهم من بأس الله في وقت وقته لهم، ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظلم القوم العذاب وغشيهم، كما قال الله «سبحانه وتعالى» في تنزيله، تابوا إلى الله فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذي كان وعدهموه فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعداً فكذب وعدي. فذهب مغاضباً ربّه، وكره الرجوع إليهم، وقد جربوا عليه الكذب، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقد مضى هذا في الأنبياء^(٢) وهو الصحيح.

□ ومن التفاصيل التي نقلها القرطبي أن يونس «عليه السلام» لما ركب في

١. الأبله: ميناء كان يقع بالقرب من البصرة وهي الآن جزء من مدينة البصرة.

٢. أي في تفسيره لسورة الأنبياء.

السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدكم. فقال يونس وعرف أنه هو صاحب الذنب: هذه خطيئتي فألقوني في البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فقال لهم: قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي. وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية فكان من المدحضين، وأنهم أبوا أن يلقوه في البحر حتى أعادوا سهامهم الثالثة فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت.

□ ونقل القرطبي أيضاً ما روي من أن يونس لما ركب في السفينة تقنّع و رقد، فساروا غير بعيد إذ جاءتهم ريح كادت السفينة أن تغرق، فاجتمع أهل السفينة فدعوا فقالوا: أيقظوا الرجل النائم يدعو معنا، فدعا الله معهم فرفع الله عنهم تلك الريح. ثم انطلق يونس إلى مكانه فرقد، فجاءت ريح كادت السفينة أن تغرق، فأيقظوه ودعوا الله فارتفعت الريح. قال: فبينما هم كذلك إذ رفع حوت عظيم رأسه إليهم أراد أن يبتلع السفينة، فقال لهم يونس: يا قوم هذا من أجلي، فلو طرحتُموني في البحر لسِرْتُم ولذهب الريح عنكم والروع. قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم، فمن وقعت عليه رميناه في البحر. قال: فتساهموا فوقع على يونس، فقال لهم: يا قوم اطرحوني، فمن أجلي أوتيتم، فقالوا: لا نفعل حتى نتساهم مرة أخرى. ففعلوا فوقع على يونس. فقال لهم: يا قوم اطرحوني، فمن أجلي أوتيتم، فذلك قول الله «عز وجل»: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: وقع السهم عليه، فانطلقوا به إلى صدر السفينة ليلقوه في البحر، فإذا الحوت فاتحٌ

فاه، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجعوا به إلى الجانب الآخر، فإذا بالحوت فاتح فاه، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالتقمه الحوت، فأوحى الله «تبارك وتعالى» إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقاً، ولكن جعلت بطنك له وعاء. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة^(١) فنادى في الظلمات: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ونجد في المصادر الشيعية مرويات كثيرة تحمل ذات الطابع الذي تحدّثنا عنه قبل عرض الروايات السابقة، وتواجه نفس النقد السابق وإن نُسِبت إلى الأئمة من أهل البيت «عليهم السلام»، إلا أن نسبتها إليهم غير ثابتة أو غير محرّزة. وقد قام العلامة محمد آصف المحسن في كتابه «مشركة بحار الأنوار» بالتحقيق السني في روايات موسوعة «بحار الأنوار»، ومنها الباب السادس والعشرين من كتاب النبوة، والخاص بقصص «يونس وأبيه متى»، والمشمّل على سبع عشرة رواية، فصحّح منها - وفق منهجه في التحقيق السني - روايتين فقط، قال: (أورد المؤلف العلامة «رحمه الله» فيه آيات وروايات، والمعتبر منها ما ذكر بأرقام ٤، ٥، ١٢، والأخيرة مُرسلة العياشي عن أبي عبيدة الطويلة^(٣) «١٤ : ٣٩٢»^(٤) التي رواها في قصص الأنبياء بإسناد عن الصدوق بسنده المعتبر عن أبي عبيدة «١٤

١. لاحظ المزايدة في الرقم من ثلاثة إلى أربعين!

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٨، ص ٩٦-١٠٠.

٣. أي الرواية طويلة.

٤. هذا الترقيم خاص برقم المجلد ١٤ والصفحة ٣٩٢ وفق طبعة دار إحياء التراث العربي سنة

: ٣٩٩» ولا تبعد كفاية المجموع لاعتبار الرواية، لكن يشكل بأقصارية متن القصص من متن تفسير العياشي، كما أشار إليه العلامة المجلسي. فلا وجه لاعتبار المتن الطويل، بل خصوص المتن الصغير. على أنا ذكرنا سابقاً لزوم الاحتياط في الروايات الطويلة).

أما الرواية الرابعة فهي كالتالي: (علل الشرائع: ابن الوليد، عن الصفار، عن ابن أبي الخطاب، عن الحسن بن علي بن فضال، عن أبي المغرا، عن سماعة أنه سمعه «عليه السلام» وهو يقول: ما ردَّ الله العذاب عن قوم قد أظلمهم إلا قوم يونس. فقلت: أكان قد أظلمهم؟ فقال: نعم، حتى نالوه بأكفهم. قلت: فكيف كان ذلك؟ قال: كان في العلم المُنْبَت عند الله «عز وجل» الذي لم يطلع عليه أحد أنه سيصرفه عنهم^(١)).

والرواية الخامسة: (علل الشرائع: أبي، عن الحميري، عن إبراهيم بن مهزيار، عن أخيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: مر يونس بن مَتَّى «عليه السلام» بصفائح الروحاء^(٢) وهو يقول^(٣): لبيك كشاف الكُرب العظام لبيك^(٤)).

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٨٦.

٢. الروحاء: هي محطة للقوافل، وقد ارتبطت تاريخياً بكثير من الأحداث، ووردت في كثير من الأحاديث النبوية وذُكرت في كتب السير. تقع الروحاء على بعد ٨٠ كم من المدينة المنورة، وكانت المحطة الثانية من محطات القوافل الخارجة من المدينة قديماً. أما الصفائح فحجارة عراض رفاق، ويقال: أيضاً «صفاح».

٣. بالطبع ليس المراد أنه قد قالها بالعربية.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٨٦-٣٨٧.

وكما ترى فإنه ليس في الروايتين ما يثير الريبة من حيث المضمون، أو ما يتعارض مع القرآن الكريم، وأما الرواية الثانية عشرة فقد شكك في اعتبارها العلامة المحسني من جهتين: إرسال السند، أي لم يذكر لنا صاحب الكتاب سلسلة السند بشكل تام كما سيتبين لاحقاً عند نقل الرواية، ومن جهة طول متن الرواية أيضاً، وقد بين في موضع آخر هذا المحذور معتبراً أنه يحسن الحذر والاحتياط في الروايات الطويلة متونها إذا لم تقم قرينة على كتابتها في مجلس التلقي من الإمام «عليه السلام» أو ممن كتب عند الإمام، فإن الناس وإن كانوا في قلة الحافظة وكثرتها مختلفين، لكن من حفظ الكلام بمجرد سماع مقدار ورق «صفحتين» نادر، بل ربما يوثق بعدم تيسره أو بتعسره، بل بتعذره.

وضرب مثلاً بدعاء عرفة المروي عن الإمام الحسين «عليه السلام» والمنقول عن بشر وبشير ابني الغالب الأسدي. قال:

(إذ أولاً إنهما لم يجيئاً لأخذ الحديث حتى كان معهما آله الكتابة من القلم والقرطاس والمداد، وثانياً، لا يقدر إنسان - عادةً أو غالباً - أن يكتب كلاماً طويلاً بمجرد السماع، لا سيما بتلك الآلات القديمة^(١). وإن شئت فاختر في بيتك. وخلاصة القول هو حسن الاجتناب أو لزومه من الإفراط والتفريط في كل شيء، لاسيما في الحديث، وهو المنبع الثاني للشريعة الإسلامية^(٢)).

١. أي وسائل التدوين والكتابة القديمة.

٢. المحسني: معجم الأحاديث المعتبرة، ج ١، ص ٤١.

والرواية الثانية عشرة كالتالي: (تفسير العياشي^(١)): عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: سمعته يقول: وجدنا في بعض كتب أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: حدثني رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن جبرئيل «عليه السلام» حدثه أن يونس بن متى «عليه السلام» بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلاً يعتريه الحدة، وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم، عاجزاً عما حمل من ثقل حمل أوقار النبوة وأعلامها، وأنه يفسخ تحتها كما يفسخ الجذع تحت حمل^(٢)، وأنه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله والتصديق به وأتباعه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه إلا رجلان: اسم أحدهما روبيل واسم الآخر تنوخا، وكان روبيل من أهل بيت العلم والنبوة والحكمة، وكان قديم الصحبة ليونس بن متى من قبل أن يبعثه الله بالنبوة، وكان تنوخا رجلاً مستضعفاً عابداً زاهداً منهمكاً في العبادة وليس له علم ولا حكم، وكان روبيل صاحب غنم يرعاها ويتقوت منها، وكان تنوخا رجلاً حطاباً يحتطب على رأسه ويأكل من كسبه، وكان لروبيل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا لعلم روبيل وحكمته وقديم صحبته، فلما رأى يونس «عليه السلام» أن قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون به ضجر وعرف من نفسه قلة الصبر فشكا ذلك إلى ربه، وكان فيما شكَا أن قال: يا رب إنك بعثتني إلى قومي ولي ثلاثون سنة، فلبثت فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك، والتصديق

١. العياشي هو محمد بن مسعود عيَّاش السُّلَمي السمرقندي المعروف بالعياشي «ت ٢٢٠ هـ». وبين الراوي عن الإمام الباقر، أي أبو عبيدة زياد بن عيسى الحذاء المتوفى في حياة الإمام الصادق أكثر من ١٥٠ سنة، حيث توفي الصادق سنة ١٤٨ هـ. فما هو سند العياشي إلى الحذاء؟ هذا يجعل من روايته رواية مرسلة.

٢. كناية عن ضعف العزم وعدم التحمل فيما يعرض له.

برسالاتي، وأخوِّفهم عذابك ونقمتمك ثلاثاً وثلاثين سنة، فكذبوني ولم يؤمنوا بي، وجحدوا نبؤتي واستخفّوا برسالاتي، وقد تواعدوني وخفت أن يقتلوني، فأنزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون. قال: فأوحى الله إلى يونس أن فيهم الحمل والجنين والطفل والشيخ الكبير والمرأة الضعيفة والمستضعف المَهِين، وأنا الحكم العدل، سبقت رحمتي غضبي، لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك، وهم يا يونس عبادي وخليقي وبريتي في بلادي وفي عيلتي، أحب أن أتأنّاهم وأرفق بهم وأنتظر توبتهم، وإنما بعثتك إلى قومك لتكون حيطاً عليهم، تعطف عليهم بالرحم الماسة منهم، وتأنّاهم برأفة النبوة، وتصبر معهم بأحلام الرسالة، وتكون لهم كهيئة الطبيب المداوي، العالم بمداواة الداء، فخرقت بهم^(١)، ولم تستعمل قلوبهم بالرفق، ولم تسسهم بسياسة المرسلين، ثم سألتني عن سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك، وعبدي نوح كان أصبر منك على قومه، وأحسن صحبة وأشدّ تأنيّاً في الصبر عندي، وأبلغ في العذر، فغضبت له حين غضب لي وأجبتّه حين دعاني. فقال يونس: يا رب، إنما غضبت عليهم فيك، وإنما دعوت عليهم حين عصوك، فوعزتك لا أتعطف عليهم برأفة أبداً، ولا أنظر إليهم بنصيحة شفيق بعد كفرهم وتكذيبهم إياي وجحدهم بنبؤتي، فأنزل عليهم عذابك فإنهم لا يؤمنون أبداً. فقال الله: يا يونس إنهم مائة ألف أو يزيدون من خليقي، يعمرّون بلادي، ويلدون عبادي، ومحبتّي أن أتأنّاهم للذي سبق من علمي فيهم وفيك، وتقديري وتدييري غير علمك وتقديرك، وأنت المرسل وأنا الرب الحكيم، وعلمي فيهم يا يونس باطن

١. أي لم تحسن التصرف معهم. ويمكن أن يكون مصحّف «حزقت» بالزاي من حزق الوتر أو الرباط: جذبه وشده. وحزق الشئ: عصره وضغطه فيكون كناية عن التشديد في أمرهم.

في الغيب عندي لا تعلم ما منتهاه، وعلمك فيهم ظاهر لا باطن له، يا يونس، قد أجبتك إلى ما سألت من إنزال العذاب عليهم وما ذلك يا يونس بأوفر لحظك عندي، ولا أجمل لشأنك، وسيأتيهم عذاب في شوال^(١) يوم الأربعاء وسط الشهر بعد طلوع الشمس، فأعلمهم ذلك. قال: فسرّ بذلك يونس ولم يسؤه ولم يدّر ما عاقبته، فانطلق يونس إلى تنوخا العابد فأخبره بما أوحى الله إليه من نزول العذاب على قومه في ذلك اليوم، وقال له: انطلق حتى أعلمهم بما أوحى الله إلي من نزول العذاب، فقال تنوخا: فدعهم في غمرتهم ومعصيتهم حتى يعذبهم الله، فقال له يونس: بل نلقى روبيل فتشاوره، فإنه رجل عالم حكيم من أهل بيت النبوة، فانطلقا إلى روبيل فأخبره يونس «عليه السلام» بما أوحى الله إليه من نزول العذاب على قومه في شوال يوم الأربعاء في وسط الشهر بعد طلوع الشمس، فقال له: ما ترى؟ انطلق بنا حتى أعلمهم ذلك، فقال له روبيل: ارجع إلى ربك رجعة نبي حكيم ورسول كريم، وسله أن يصرف عنهم العذاب، فإنه غني عن عذابهم، وهو يحبّ الرفق بعباده وما ذلك بأضر لك عنده، ولا أسوأ لمنزلتك لديه، ولعل قومك بعد ما سمعت ورأيت من كفرهم وجحودهم يؤمنون يوماً، فصابرهم وتأنّهم، فقال له تنوخا: ويحك يا روبيل ما أشرت على يونس وأمرته بعد كفرهم بالله، وجحدهم لنبيه، وتكذيبهم إياه وإخراجهم إياه من مساكنه، وما هموا به من رجمه؟ فقال روبيل لتنوخا: اسكت فإنك رجل عابد لا علم لك. ثم أقبل على يونس فقال: رأيت يا يونس إذا أنزل الله العذاب على قومك أنزله فيهلكهم جميعاً أو يهلك بعضاً ويبقى بعض؟ فقال له يونس: بل يهلكهم جميعاً، وكذلك سألته،

١. وهل كانوا يتعاملون بالأشهر القمرية بمسمياتها العربية؟

ما دَخَلْتَنِي لَهُمْ رَحْمَةً تَعْطَفُ فَأَرَا جَعِ اللَّهُ فِيهِمْ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ، فَقَالَ لَهُ رُوبِيلُ: أَتَدْرِي يَا يُونُسَ لَعَلَّ اللَّهَ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ فَأَحْسَنُوا بِهِ أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُوا فَيَرْحَمَهُمْ فَإِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرْتَهُمْ عَنِ اللَّهِ أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَتَكُونُ بِذَلِكَ عَنْدهُمْ كَذَابًا، فَقَالَ لَهُ تَنُوحَا: وَيْحَكَ يَا رُوبِيلُ لَقَدْ قُلْتَ عَظِيمًا، يُخْبِرُكَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فَتَرَدُّ قَوْلُ اللَّهِ وَتَشْكُ فِيهِ وَفِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ؟ اذْهَبْ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُكَ، فَقَالَ رُوبِيلُ لَتَنُوحَا: لَقَدْ فَشَلَ رَأْيُكَ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى يُونُسَ فَقَالَ: إِذَا نَزَلَ الْوَحْيُ وَالْأَمْرُ مِنَ اللَّهِ فِيهِمْ عَلَى مَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ فِيهِمْ مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَقَوْلِهِ الْحَقُّ، أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهَلَكَ قَوْمُكَ كُلُّهُمْ وَخَرِبَتْ قَرْيَتُهُمْ، أَلَيْسَ يَمْحُو اللَّهُ اسْمَكَ مِنَ النَّبُوَّةِ، وَتَبْطُلُ رِسَالَتُكَ، وَتَكُونُ كِبَعْضِ ضَعْفَاءِ النَّاسِ وَيَهْلِكُ عَلَى يَدَيْكَ مِائَةُ أَلْفٍ مِنَ النَّاسِ؟ فَأَبَى يُونُسَ أَنْ يَقْبَلَ وَصِيَّتَهُ فَانْطَلَقَ وَمَعَهُ تَنُوحَا مِنَ الْقَرْيَةِ وَتَتَحِيَّا عَنْهُمْ غَيْرَ بَعِيدٍ، وَرَجَعَ يُونُسَ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ يَنْزِلُ الْعَذَابَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فِي شَوَالٍ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ. فَردُّوا عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَكَذَّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ مِنْ قَرْيَتِهِمْ إِخْرَاجًا عَنِيفًا، فَخَرَجَ يُونُسَ «عَلَيْهِ السَّلَامُ» وَمَعَهُ تَنُوحَا مِنَ الْقَرْيَةِ وَتَتَحِيَّا عَنْهُمْ غَيْرَ بَعِيدٍ، وَأَقَامَا يَنْتَظِرَانِ الْعَذَابَ، وَأَقَامَ رُوبِيلُ مَعَ قَوْمِهِ فِي قَرْيَتِهِمْ حَتَّى إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ شَوَالٌ صَرَخَ رُوبِيلُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِي رَأْسِ الْجَبَلِ إِلَى الْقَوْمِ: أَنَا رُوبِيلُ، شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ، رَحِيمٌ بِكُمْ، هَذَا شَوَالٌ قَدْ دَخَلَ عَلَيْكُمْ، وَقَدْ أَخْبَرَكُمْ يُونُسَ نَبِيَّكُمْ وَرَسُولَ رَبِّكُمْ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ فِي شَوَالٍ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ،

ولن يخلف الله وعده رسله، فانظروا ما أنتم صانعون. فأفزعهم كلامه ووقع في قلوبهم تحقيق نزول العذاب فأجفلوا نحو روبيل وقالوا له: ماذا أنت تشير به علينا يا روبيل؟ فإنك رجل عالم حكيم، لم نزل نعرفك بالبرقة علينا والرحمة لنا، وقد بلغنا ما أشرت به على يونس فينا فمرنا بأمرك، وأشر علينا برأيك. فقال لهم روبيل: فإني أرى لكم وأشير عليكم أن تنظروا وتعمدوا إذا طلع الفجر يوم الأربعاء في وسط الشهر أن تعدلوا^(١) الأطفال عن الأمهات في أسفل الجبل في طريق الأودية، وتقفوا النساء في سفح الجبل، ويكون هذا كله قبل طلوع الشمس، فإذا رأيتم ريحاً صفراء أقبلت من المشرق فعجّوا الكبير منكم والصغير بالصراخ والبكاء، والتضرع إلى الله، والتوبة إليه والاستغفار له وارفعوا رؤوسكم إلى السماء وقولوا: ربنا ظلمنا وكذبنا نبيك، وتبنا إليك من ذنوبنا، وإن لا تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين المعذبين، فاقبل توبتنا وارحمنا يا أرحم الراحمين. ثم لا تملّوا من البكاء والصراخ والتضرع إلى الله والتوبة إليه حتى تتوارى الشمس بالحجاب، أو يكشف الله عنكم العذاب قبل ذلك. فأجمع رأي القوم جميعاً على أن يفعلوا ما أشار به عليهم روبيل. فلما كان يوم الأربعاء الذي توقعوا العذاب، تنحّى روبيل من القرية حيث يسمع صراخهم ويرى العذاب إذا نزل، فلما طلع الفجر يوم الأربعاء فعل قوم يونس ما أمرهم روبيل به، فلما بزغت الشمس أقبلت ريح صفراء مظلمة مسرعة، لها صرير وحفيف وهدير فلما رأوها عجّوا جميعاً بالصراخ والبكاء والتضرع إلى الله، وتابوا إليه واستغفروه، وصرخت الأطفال بأصواتها تطلب أمهاتها، وعجّت سخال البهائم تطلب اللبن، وعجّت الأنعام تطلب الرعي، فلم

١. لعل الصحيح: «تعزلوا».

يزالوا بذلك ويونس وتوخوا يسمعان صيحتهم وصراخهم ويدعوان الله عليهم بتغليظ العذاب عليهم^(١)، ورويبيل في موضعه يسمع صراخهم وعجيجهم ويرى ما نزل وهو يدعو الله بكشف العذاب عنهم، فلما أن زالت الشمس وفتحت أبواب السماء وسكن غضب الرب تعالى، رحمهم الرحمن، فاستجاب دعاءهم وقبل توبتهم وأقالهم عشرتهم، وأوحى إلى إسرافيل أن اهبط إلى قوم يونس فإنهم قد عَجَّوا إليّ بالبكاء والتضرّع، وتابوا إليّ واستغفروا لي فرحمتهم وتبت عليهم، وأنا الله التواب الرحيم، أسرع إلى قبول توبة عبدي التائب من الذنوب، وقد كان عبدي يونس ورسولي سألني نزول العذاب على قومه وقد أنزلته عليهم، وأنا الله أحق من وفى بعهد، وقد أنزلته عليهم، ولم يكن اشترط يونس حين سألني أن أنزل عليهم العذاب أن أهلكهم، فاهبط إليهم فاصرف عنهم ما قد نزل بهم من عذابي. فقال إسرافيل: يا رب إن عذابك قد بلغ أكتافهم وكاد أن يهلكهم وما أراه إلا وقد نزل بساحتهم، فكيف أنزل أصرفه؟ فقال الله: كلا إني قد أمرت ملائكتي أن يصرفوه، ولا ينزلوه عليهم حتى يأتيهم أمري فيهم وعزيمتي، فاهبط يا إسرافيل عليهم واصرفه عنهم، واصرف به إلى الجبال بناحية مفاوض العيون، ومجاري السيول في الجبال العادية المستطيلة على الجبال فأذلها به وليّنها حتى تصير ملينة حديداً جامداً. فهبط إسرافيل عليهم فنشر أجنحته فاستاق بها^(٢) ذلك العذاب حتى ضرب بها تلك الجبال التي أوحى الله إليه أن يصرفه إليها. قال أبو جعفر «عليه السلام»: وهي الجبال التي بناحية الموصل اليوم فصارت حديداً إلى

١. أ هكذا تكون قلوب الأنبياء قاسية ؟

٢. استاق الماشية: حثها على السير من خلف، عكس قادها.

يوم القيامة. فلما رأى قوم يونس أن العذاب قد صرف عنهم هبطوا إلى منازلهم عن رؤوس الجبال وضموا إليهم نساءهم وأولادهم وأموالهم، وحمدوا الله على ما صرف عنهم، وأصبح يونس وتتوخا يوم الخميس في موضعهما الذي كانا فيه لا يشكّان أن العذاب قد نزل بهما وأهلكهم جميعاً لما خفيت أصواتهم عندهما، فأقبلا ناحية القرية يوم الخميس مع طلوع الشمس ينظران إلى ما صار إليه القوم، فلما دنوا من القوم واستقبلتهم الحطابون والحماة^(١) والرعاة بأغنامهم ونظروا إلى أهل القرية مطمئنين، قال يونس لتتوخا: يا تتوخا كذبني الوحي^(٢)، وكذبت وعدي لقومي، ولا عزّة لي ولا يرون لي وجهها أبداً بعدما كذبني الوحي. فانطلق يونس هارباً على وجهه مغاضباً لربه ناحية البحر مستنكراً فراراً من أن يراه أحد من قومه فيقول له: يا كذاب، فلذلك قال الله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ الآية، ورجع تتوخا إلى القرية فلقى روبييل فقال له: يا تتوخا أي الرأيين كان أصوب وأحق أن يتبع؟ رأيي أو رأيك؟ فقال له تتوخا: بل رأيك كان أصوب، ولقد كنت أشرت برأي الحكماء العلماء. فقال له تتوخا: أما إنني لم أزل أرى أنني أفضل منك لزهدى وفصل عبادتي حتى استبان فضلك لفصل علمك وما أعطاك الله ربك من الحكمة مع التقوى أفضل من الزهد والعبادة بلا علم. فاصطحبا فلم يزالا مقيمين مع قومهما، ومضى يونس على وجهه مغاضباً لربه فكان من قصته ما أخبر الله به في كتابه إلى قوله: ﴿فَأَمَّنُوا فَمَرَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. قال أبو عبيدة: قلت لأبي جعفر «عليه السلام»: كم كان غاب يونس عن قومه حتى رجع

١. لعل الصحيح: «الحمارة» أي أصحاب الحمير في السفر.

٢. من القبح أن يصدر مثل هذا الكلام عن نبي.

إليهم بالنبوة والرسالة فأمنوا به وصدقوه؟ قال: أربعة أسابيع: سبعاً منها في ذهابه إلى البحر، وسبعاً منها في رجوعه إلى قومه، فقلت له: وما هذه الأسابيع شهور أو أيام أو ساعات؟ فقال: يا عبدة^(١)، إن العذاب أتاهاهم يوم الأربعاء في النصف من شوال، وصُرف عنهم من يومهم ذلك، فانطلق يونس مغاضباً فمضى يوم الخميس سبعة أيام في مسيره إلى البحر، وسبعة أيام في بطن الحوت، وسبعة أيام تحت الشجرة بالعراء، وسبعة أيام في رجوعه إلى قومه، فكان ذهابه ورجوعه مسيرة ثمان وعشرين يوماً، ثم أتاهاهم فأمنوا به وصدقوه واتبعوه، فلذلك قال الله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾^(٢).

وقد أشار العلامة المحسني في معرض تعليقه على روايات هذا الباب إلى أن الصدوق قد روى رواية مسندة ومعتبرة عن أبي عبدة وهي شبيهة بهذه الرواية ولكنها أقصر منها، كما أشار إليها المجلسي بعد الرواية الثانية عشرة بقوله: (ص^(٣)): بالاسناد إلى الصدوق، عن ابن المتوكل، عن الحميري، عن ابن عيسى، عن ابن محبوب، عن جميل بن صالح، عن أبي عبدة، عنه «عليه السلام» مثله مع اختصار^(٤)، وأن اعتبار رواية الصدوق يكفي للحكم على رواية العياشي بالاعتبار أيضاً، على اعتبار أنه أخذها عنه، ولكن المشكلة التي تواجهنا هي اختلاف المتن من جهة، ومشكلة طول المتن عموماً.

١. المفروض يا أبا عبدة.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٩٢-٣٩٩.

٣. اختصار عنوان كتاب «قصص الأنبياء» للشيخ الصدوق.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٩٩.

كما وقد أشرت أيضاً في الهامش أثناء عرض الرواية إلى بعض الملاحظات الواردة عليها، والتي تجعلنا نشكّ في مضمونها بشكل عام.

والآن ننتقل لعرض بعض الروايات غير المعتبرة سنداً والمثبتة في موسوعة «بحار الأنوار» للعلامة المجلسي وقد نقلها بدوره عن مصادر مختلفة مع الإشارة السريعة إلى بعض الملاحظات التي يمكن تسجيلها عليها:

□ فعن تفسير علي بن إبراهيم الذي لم تثبت نسبة كل الكتاب إليه، وعليه فلا نستطيع أن نتثبت من صحة أسانيد الكتاب، عن جميل قال: (قال لي أبو عبد الله «عليه السلام»: ما ردّ الله العذاب إلا عن قوم يونس، وكان يونس يدعوهم إلى الاسلام فيأبون ذلك، فهم أن يدعو عليهم وكان فيهم رجلان: عابد وعالم، وكان اسم أحدهما مليخا، والآخر اسمه روبيل، فكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم ينهاه ويقول: لا تدع عليهم فإن الله يستجيب لك، ولا يحبّ هلاك عباده، فقبل قول العابد ولم يقبل من العالم، فدعا عليهم، فأوحى الله إليه: يأتيهم العذاب في سنة كذا وكذا، في شهر كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد، وبقي العالم فيها، فلما كان في ذلك اليوم نزل العذاب، فقال العالم لهم: يا قوم افزعوا إلى الله فلعلة يرحمكم ويردّ العذاب عنكم، فقالوا: كيف نصنع؟ قال: اجتمعوا واخرجوا إلى المفازة وفرّقوا بين النساء والأولاد، وبين الإبل وأولادها، وبين البقر وأولادها، وبين الغنم وأولادها، ثم ابكوا وادعوا، فذهبوا وفعلوا ذلك وضجّوا وبكوا فرحمهم الله وصرف عنهم العذاب وفرّق العذاب على الجبال، وقد كان نزل وقرب منهم، فأقبل يونس ينظر كيف أهلكهم الله، فرأى

الزارعون يزرعون في أرضهم، قال لهم: ما فعل قوم يونس؟ فقالوا له - ولم يعرفوه -: إنَّ يونس دعا عليهم فاستجاب الله له ونزل العذاب عليهم فاجتمعوا وبكوا فدعوا فرحمهم الله وصرف ذلك عنهم وفرق العذاب على الجبال، فهم إذا يطلبون يونس ليؤمنوا به، فغضب يونس ومرت على وجهه مغاضباً به كما حكى الله، حتى انتهى إلى ساحل البحر فإذا سفينة قد شحنت وأرادوا أن يدفعوها، فسألهم يونس أن يحملوه فحملوه، فلما توسّطوا البحر بعث الله حوتاً عظيماً فحبس عليهم السفينة من قدامها، فنظر إليه يونس ففزع منه وصار إلى مؤخر السفينة، فدار إليه الحوت وفتح فاه فخرج أهل السفينة فقالوا: فينا عاص فتساهموا فخرج سهم يونس، وهو قول الله «عز وجل»: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فأخرجوه فألقوه في البحر فالتقمه الحوت ومرت به في الماء. وقد سأل بعض اليهود أمير المؤمنين «عليه السلام» عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه، فقال: يا يهودي أما السجن الذي طاف أقطار الأرض بصاحبه فإنه الحوت الذي حبس يونس في بطنه، فدخل في بحر القلزم^(١)، ثم خرج إلى بحر مصر^(٢)، ثم دخل إلى بحر طبرستان^(٣)، ثم خرج في دجلة الغوراء^(٤)، قال: ثم مرت به تحت الأرض^(٥) حتى لحقت بقارون، وكان قارون هلك في أيام موسى «عليه السلام» ووكل الله به ملكاً يدخل في الأرض كل

١. أي البحر الأحمر.

٢. هل المراد نهر النيل أم البحر الأبيض المتوسط؟

٣. أي بحر قزوين. وكيف يمكن الانتقال من النيل أو المتوسط إلى بحر قزوين؟

٤. في معجم البلدان: دجلة الغوراء: اسم لدجلة البصرة.

٥. ماذا يوجد تحت الأرض حتى يطوف به الحوت؟ أنهار ماء أو بحر تستقر فوقه الأرض؟ من

الواضح أن واضع النص كتبه على وفق تصوّر قديم لليابسة والبحر والأرض ككل.

يوم قامَ رَجُلٌ^(١)، وكان يونس في بطن الحوت يسبِّح الله ويستغفره، فسمع قارون صوته فقال للملك الموكَّل به: أنظرنِي فَإِنِّي أسمع كلام آدمي، فأوحى الله إلى الملك الموكَّل به: أنظِرْه، فأنظِرْه، ثم قال قارون: من أنت؟ قال يونس: أنا المذنب الخاطيء يونس بن متى. قال: فما فعل الشديد الغضب لله موسى بن عمران؟ قال: هيهات هلك. قال: فما فعل الرؤوف الرحيم على قومه هارون بن عمران؟ قال: هلك. قال: فما فعلت كلثم بنت عمران التي كانت سُمِّيَتْ لي^(٢)؟ قال: هيهات ما بقي من آل عمران أحد. فقال قارون: وا أسفاه على آل عمران، فشكر الله له ذلك، فأمر الله الملك الموكَّل به أن يرفع عنه العذاب أيام الدنيا، فُرفِعَ عنه^(٣)، فلما رأى يونس ذلك نادى في الظلمات: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجاب الله له، وأمر الحوت فلفظه على ساحل البحر وقد ذهب جلده ولحمه، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهي الدباء، فأظلمت من الشمس فسكن^(٤)، ثم أمر الله الشجرة فتنحَّت عنه ووقعت الشمس عليه، فجزع فأوحى الله إليه: يا يونس لمَّ ترحم مائة ألف أو يزيدون وأنت تجزع من ألم ساعة؟ فقال: يا رب عفوك عفوك، فردَّ الله بدنه، ورجع إلى قومه وآمنوا به، وهو قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ

١. لاحظ تداخل القصص والتفاصيل الخرافية التي وضعها الراوي على لسان إمام. وقامة رجل

على اعتبار أن الميت يُدفن في مثل هذا العمق أي في حدود ١,٥ م أو أكثر بقليل.

٢. أي التي كان من المقرر أن أتزوج بها.

٣. جُرأة من الراوي على الله وأحكامه بمثل هذا الدعاء الفارغ.

٤. هدأ واستراح من ألمه.

الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١﴾ فقالوا: فمكث يونس في بطن الحوت تسع ساعات، ثم قال الله لنبيه «صلى الله عليه وآله»: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١) يعني لو شاء الله أن يجبر الناس كلهم على الإيمان لفعل. وفي رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: لبث يونس في بطن الحوت ثلاثة أيام، ونادى في الظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجاب له ربه، فأخرجه الحوت إلى الساحل، ثم قذفه فألقاه بالساحل، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهو القرع، فكان يمصه ويستظل به بورقه، وكان تساقط شعره ورق جلده، وكان يونس «عليه السلام» يسبح ويذكر الله الليل والنهار، فلما أن قوي واشتد، بعث الله دودة فأكلت أسفل القرع فذبلت القرعة ثم يبست^(٢)، فشق ذلك على يونس فظل حزينا فأوحى الله إليه: مالك حزينا يا يونس؟ قال: يا رب هذه الشجرة التي تنفعني سلطت عليها دودة فيبست، قال: يا يونس أحزنت لشجرة لم تزرعها ولم تسقها ولم تعن بها إن يبست حين استغنيت عنها، ولم تحزن لأهل نينوى أكثر من مائة ألف؟ أردت أن ينزل عليهم العذاب؟ إن أهل نينوى قد آمنوا واتقوا فارجع إليهم. فانطلق يونس «عليه السلام» إلى قومه فلما دنا من نينوى استحيى أن يدخل فقال لراعه لقيه: ائت أهل نينوى فقل لهم: إن هذا يونس قد جاء، قال الراعي: أتكذب؟ أما تستحيى ويونس قد غرق في البحر وذهب؟ قال له يونس: اللهم إن هذه الشاة تشهد

١. سورة يونس: ٩٩.

٢. ورد هذا المضمون في سفر يونان من التَّخ.

لك أني يونس. فلما أتى الراعي قومه وأخبرهم أخذوه وهمّوا بضربه، فقال: إن لي بينة بما أقول^(١)، قالوا: من يشهد؟ قال: هذه الشاة تشهد، فشهدت بأنه صادق، وأن يونس قد رده الله إليهم، فخرجوا يطلبونه فوجدوه فجاءوا به وآمنوا وحسن إيمانهم فمتعهم الله إلى حين، وهو الموت، وأجارهم من ذلك العذاب^(٢).

□ وعن كتاب «مناقب آل أبي طالب» لابن شهر آشوب عن الثمالي^(٣) قال: (دخل عبد الله بن عمر على زين العابدين «عليه السلام» وقال: يا ابن الحسين أنت الذي تقول: إن يونس بن متى إنما لقي من الحوت ما لقي لأنه عرضت عليه ولاية جدي فتوقف عندها؟ قال: بلى ثكلتك أمك^(٤)، قال: فأرني آية ذلك إن كنت من الصادقين. فأمر بشدّ عينيه بعصابة وعيني بعصابة، ثم أمر بعد ساعة بفتح أعيننا، فإذا نحن على شاطئ البحر تضرب أمواجه، فقال ابن عمر: يا سيدي دمي في رقبتك، الله الله في نفسي، فقال: هيه وأريه إن كنت من الصادقين^(٥). ثم قال: يا أيها الحوت، قال: فأطلع الحوت رأسه من البحر مثل الجبل العظيم وهو يقول: لبيك لبيك يا ولي الله، فقال: من أنت؟ قال:

١. لم يرد هذا المضمون في سفر يونان من التّخ، الإضافة من صنع أحد القصّاص حيث نسب إلى الإمام الباقر مثل هذا القول.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٨٠-٣٨٤.

٣. الرواية مرسلة، فابن شهر آشوب توفي سنة ٥٨٨هـ، والثمالي من أصحاب الإمام.

٤. كان الإمام زين العابدين أشدّ أدباً من أن يتحدّث بهذا الأسلوب، كما كان ابن عمر يحترم الإمام زين العابدين.

٥. قال المجلسي: «هيه وأريه» الظاهر أن الهائين للسكت، أي هي السمكة أريتها إن كنت من الصادقين كما قلت، ويحتمل أن تكون «أن» مخففة بحذف اللام.

أنا حوت يونس يا سيدي، قال: أنبئنا بالخبر، قال^(١): يا سيدي إن الله تعالى لم يبعث نبياً من آدم إلى أن صار جدك محمد إلا وقد عرض عليه ولايتكم أهل البيت، فمن قبلها من الأنبياء سلم وتخلص، ومن توقف عنها وتمنع من حملها^(٢) لقي ما لقي آدم «عليه السلام» من المعصية، وما لقي نوح «عليه السلام» من الغرق، وما لقي إبراهيم «عليه السلام» من النار، وما لقي يوسف «عليه السلام» من الجب، وما لقي أيوب «عليه السلام» من البلاء، وما لقي داود «عليه السلام» من الخطيئة إلى أن بعث الله يونس «عليه السلام»، فأوحى الله إليه: أن يا يونس تولّ أمير المؤمنين علياً والأئمة الراشدين من صلبه في كلام له، قال: فكيف أتولّى من لم أره ولم أعرفه، وذهب مغتاضاً، فأوحى الله تعالى إليّ أن التقي يونس ولا توهني له عظماً، فمكث في بطني أربعين صباحاً يطوف معي البحار في ظلمات ثلاث، ينادي: إنه لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، قد قبلت ولاية علي بن أبي طالب والأئمة الراشدين من ولده، فلما أن آمن بولايتكم أمرني ربي فقذفته على ساحل البحر، فقال زين العابدين «عليه السلام»: ارجع أيها الحوت إلى وكرِكَ^(٣)، واستوى الماء^(٤).

□ وعن كتاب الخصال للشيخ الصدوق عن: (الفامي وابن مسرور، عن ابن

١. من أين للحوت كل هذا العلم الذي سيفوه به؟

٢. وهل يتمتع الأنبياء عن قبول مثل هذا الأمر على فرض عرضه عليهم من قبل الله؟ ولماذا يرفضون؟ حسداً؟ بغضاً؟ أم ماذا؟

٣. وهل الحوت كالسرطان أو قنفذ البحر مثلاً كي يذهب إلى وكره؟

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤٠١-٤٠٢.

بطلة، عن الصفار، عن ابن معروف، عن حماد، عن حريز، عن أخبره^(١)، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: أوَّل من سُوهِم عليه مريم بنت عمران وهو قول الله «تعالى»: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾^(٢) والسهام ستة، ثم استهموا في يونس لما ركب مع القوم فوقفت السفينة في اللجة فاستهموا فوقع السهم على يونس ثلاث مرات، قال: فمضى يونس إلى صدر السفينة فإذا الحوت فاتح فاه فرمى بنفسه^(٣).

والملاحظة التي يمكن تسجيلها هنا أن يونس «عليه السلام» عاش قبل السيدة مريم «عليها السلام» بقرون مديدة، فكيف يكون قد سوهِم فيه بعدها؟ ولعل مثل هذه الرواية هي التي جعلت العلامة المجلسي يذكر سيرة النبي يونس في موسوعته بعد سيرة النبي عيسى «عليه السلام» من حيث الترتيب، وهو غلط واضح، على الأقل بلحاظ أن كتاب سفر يونا هو من كتب العهد القديم، لا من كتب العهد الجديد الخاص بالأنجيل وما بعدها من الكتب والرسائل الملحقة بها، بالإضافة إلى استشهاد المسيح بحسب إنجيل متى بقصة يونس والحوت كما مرّ بنا، والأدلة على غلط الترتيب الوارد في الرواية والذي التزمه المجلسي أيضاً عديدة.

□ قصة النبي يونس والعصمة:

واستتماماً للبحث، لابد من التطرّق إلى مسألة أُثيرت في علم الكلام

١. بالإضافة إلى ضعف بعض رجال السند، فإن فيه إرسالاً بمجهولية الراوي عن الباقر.

٢. سورة آل عمران: ٤٤.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٩٠.

وفي كتب التفسير ولها علاقة بقصة النبي يونس ضمن التفاصيل والتعابير المستعملة في القرآن الكريم، حيث أثارت مسأله خروجه مغاضباً إشكالية التعارض مع عصمة هذا النبي في ما لو تمّ تفسيرها على أنها كانت موجهة بحقّ الله «عز وجل»، بالإضافة إلى تفسير الظن بعدم قدرة الله بمعنى عدم التمكن.

ومن هنا سعى السيد المرتضى في كتابه «تنزيه الأنبياء» للرد على الإشكال بعدّة طرق، معتبراً أن من ظنّ أن يونس «عليه السلام» خرج مغاضباً لربه من حيث لم ينزل بقومه العذاب فقد خرج في الافتراء على الأنبياء «عليهم السلام» وسوء الظنّ بهم عن الحدّ، وليس يجوز أن يغضب ربّه إلا من كان معادياً له وجاهلاً بأن الحكمة في سائر أفعاله، وهذا لا يليق بأتباع الأنبياء «عليهم السلام» من المؤمنين فضلاً عمّن عصمه الله «تبارك وتعالى» ورفع درجته، بل وصرّح بأنّ الأقبح من ذلك القول بظنّ يونس أنّ ربّه لا يقدر عليه، أي لا يتمكّن منه. أما الردود التي قدّمها السيد المرتضى فكانت كالتالي:

١. كان غضبه «عليه السلام» على قومه لاستمرارهم في تكذيبه وإصرارهم على الكفر ويأسه من إقلاهم وتوبتهم، فخرج من بينهم خوفاً من أن ينزل العذاب بهم وهو مقيم بينهم.

٢. معنى قوله «تبارك وتعالى»: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي فظنّ أن لا نضيق عليه المسلك ونشدد عليه المحنة والتكليف. ومثل هذا الظنّ يجوز بحق النبي. ولا شبهة في أن قول القائل: «قدرت وقدرت» معناه التضيق.

قال الله «تبارك وتعالى»: ﴿وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾^(١)، و قال «تبارك وتعالى»: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾^(٢) أي يوسع و يضيق و قال «تبارك وتعالى»: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾^(٣) أي ضيق، والتضييق الذي قدره الله عليه هو ما لحقه من الحصول في بطن الحوت وما ناله في ذلك من المشقة الشديدة إلى أن نجاه الله «تبارك وتعالى» منها.

٣. قوله «تبارك وتعالى»: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فهو على سبيل الانقطاع إلى الله «تبارك وتعالى» والخشوع له والخضوع بين يديه، لأنه لما دعاه كشف ما امتحنه به وسأله أن يُنجاه من الظلمات التي هي ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وظلمة الليل، فعل ما يفعله الخاضع والخاشع من الانقطاع والاعتراف بالتقصير.

٤. ثم ذكر السيد المرتضى احتمال قول البعض - كإشكال على ما جاء في النقطة الثالثة - : كيف يعترف بأنه كان من الظالمين ولم يقع منه ظلم؟ وهل هذا إلا كذب بعينه؟ وليس يجوز أن يكذب النبي في حال خضوع ولا غيره. وأجاب عن ذلك بقوله: يمكن أن يريد بقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي من الجنس الذي يقع منهم الظلم، فيكون صدقاً، وإن ورد على سبيل الخضوع والخشوع، لأنَّ جنس البشر لا يمتنع منه وقوع الظلم.

٥. وإن قيل تعقيباً على ذلك: ما الفائدة في أن يضيف نفسه إلى الجنس

١. سورة الطلاق: ٧.

٢. سورة الرعد: ٢٧.

٣. سورة الفجر: ١٦.

الذي يقع منهم الظلم إذا كان الظلم منتفياً عنه في نفسه؟

وأجاب السيد المرتضى عن هذا الإشكال بأنَّ الفائدة في ذلك هي التّخاضع لله «تبارك وتعالى» ونفي التّكبر والتّجبر، لأنَّ مَنْ كان مجتهداً في رغبة إلى ملكٍ قدير، فلا بدَّ من أن يتطأطأ له ويجتهد له في الخضوع بين يديه، ومن أكبر الخضوع أن يضيف نفسه إلى مَنْ يخطئون ويصيبون، كما يقول الإنسان إذا أراد أن يكسر نفسه وينفي عنها دواعي الكبر والخيلاء: «إنّما أنا من البشر، لست من الملائكة، وأنا ممن يخطيء ويصيب»، وهو لا يريد إضافة الخطأ إلى نفسه في الحال، بل يكون الفائدة ما ذكرناها.

وذكر السيد المرتضى وجهاً آخر في معنى كونه من الظالمين، وهو نقص الثواب، لأنّه ترك المندوب إليه الذي كان من الممكن أن ينال الثواب من خلاله، فالظلم في أصل اللغة هو النقص والثلّم. ومن المحتمل أن يكون يونس أراد هذا المعنى، لأنّه قد ترك كثيراً من النّدب، فإنّ استيفاء جميع النّدب يتعذّر.

٦. قال البعض أن يونس «عليه السلام» ثقلت عليه أعباء النبوّة لضيق خلقه، واستدلّوا على ذلك بقوله «تبارك وتعالى»: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾، وخطأهم السيّد المرتضى معتبراً أنّ الصحيح هو أن يونس لم يقوَ على الصبر على تلك المحنة التي ابتلاه الله بها، فشكا إلى الله منها وسأله الفرج والخلاص، ولو صبر لكان أفضل، وأراد الله لنبيه محمد «صلى الله عليه وآله» أفضل المنازل وأعلاها^(١).

١. المرتضى: تنزيه الأنبياء، ص ٩٩-١٠١.

وهكذا فعل كثير من المفسرين الشيعة في توجيه الآيات بصورة لا تتعارض وعقيدة العصمة، ومن بينهم العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حيث جزم في البدء بعصمة نبي الله يونس «عليه السلام» عن الخطأ، وأنه كان الأجدر به أن يتحمل آلاماً أخرى من قومه، وأن يبقى معهم حتى اللحظات الأخيرة قبل نزول العذاب، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم ويتوبوا إلى الله «سبحانه وتعالى»، وإن كان بالفعل قد دعا قومه إلى توحيد الله أربعين عاماً - وفق ما ورد في بعض الروايات - ولكن كان من الأجدر به أن يضيف عدة أيام أو عدة ساعات إلى ذلك الوقت ببقائه معهم، لذلك فعندما ترك قومه وهجرهم شبهه القرآن بالعبد الآبق.

ووفق ما ورد في الروايات، فقد صعد يونس «عليه السلام» إلى السفينة، ثم إن حوتاً ضخماً وقف أمام السفينة، فاتحاً فمه وكأنه يطلب الطعام، فقال ركاب السفينة أن هناك شخصاً مذنباً معنا يجب أن يكون طعام هذا الحوت، ولم يجدوا سبيلاً سوى الاقتراح لتحديد الشخص الذي يرمى للحوت، وعندما اقترحوا خرج اسم يونس، وطبقاً للرواية فإنهم اقترحوا ثلاث مرّات وفي كلّ مرّة كان يخرج اسم يونس «عليه السلام»، فأمسكوا بيونس وقذفوه في فم الحوت العظيم.... وقال القرآن الكريم: ﴿فَالْتَمَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي إن حوتاً عظيماً التقمه وهو مستحق للملامة.... «مليم» من مادة «لوم» وتعني التوبيخ والعتب، وعندما تأتي بصفة الفعل فإنّها تعطي معنى استحقاق الملامة. ومن المسلّم أن هذه الملامة لم تكن بسبب إرتكابه ذنباً كبيراً أو صغيراً وإنما بسبب تركه العمل بالأولى، واستعجاله في ترك قومه وهجرانهم. وبعد بلعه

من قبل الحوت، أعطى الله «سبحانه وتعالى» أمراً تكوينياً إلى الحوت بعدم إلحاق الأذى بيونس، إذ أن عليه أن يقضي فترة في السجن الذي لم يسبق له مثيل، كي يدرك تركه العمل بالأولى، ويسعى لإصلاحه. وورد في إحدى الروايات: (أوحى الله إلى الحوت: لا تكسر منه عظماً ولا تقطع له وصلاً)^(١).

أضاف العلامة الشيرازي بأن النبي يونس انتبه بسرعة لمغزي ما جرى، وتوجّه على الفور إلى الله «سبحانه وتعالى» مستغفراً تائباً من تركه العمل بالأولى، وطلباً العفو منه. واعترف يونس الخالص بالظلم، وتسبيحه الله المرافق للندم أدى مفعوله، إذ استجاب الله له وأنقذه من الغم.

ويضيف القرآن - بحسب العلامة الشيرازي - وقد ألقينا به في منطقة جرداء خالية من الأشجار والنباتات، وهو مريض، فالحوت الضخم لفّظ يونس - الذي لم يكن غذاءً صالحاً لذلك الحوت - على ساحل خال من الزرع والنبات، والواضح أن ذلك السجن العجيب أثر على سلامة وصحة جسم يونس، إذ أنه تحرّر من هذا السجن وهو منهك ومعتل.

قال العلامة الشيرازي أننا لا نعلم كم أمضى يونس من الوقت في بطن الحوت، فمن المسلم به أنه لا يمكن تجنب المؤثرات هناك مهما كانت الفترة الزمنية التي قضاها في بطن الحوت. صحيح أن الأمر الإلهي كان قد صدر في أن لا يهضم يونس داخل بطن الحوت، ولكن هذا لا يعني أن لا يتأثر بعض الشيء بمؤثرات ذلك السجن، لذا فقد كتب بعض المفسرين أن يونس خرج من بطن الحوت وكأنه فرخ دجاجة ضعيف وهزيل جداً لا يمتلك القدرة على

١. الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٦، ص ١٦٥.

الحركة. مرّة أخرى شمله اللطف الإلهي، لأنّ جسمه كان مريضاً ومتعباً، وكلّ عضو من أعضاء جسمه كان مرهقاً وعاجزاً، وكانت حرارة الشمس تؤذيه، فيحتاج إلى ظلّ لطيف يظلّل جسده. والقرآن هنا يكشف عن هذا اللطف الإلهي بالقول، إنّنا أنبتنا عليه شجرة قرع ليستظلّ بأوراقها العريضة والرطبة... وقيل: إنّ أوراق شجرة القرع، إضافةً إلى أنّها كانت كبيرة ورطبة جداً ويمكن الاستفادة منها كظلّ جيّد، فإنّ الذباب لا يتجمّع حولها، ولهذا فإنّ يونس «عليه السلام» التصق بتلك الأوراق كي يرتاح من حرقة الشمس ومن الحشرات في نفس الوقت، إذ أنّ بقاءه في داخل بطن الحوت أدّى إلى أن يصبح جلده رقيقاً جداً وحساساً، بحيث يتألّم إن استقرّت عليه حشرة.

واحتمل العلامة الشيرازي أنّ الباري «عزّ وجلّ» يريد من هذه المرحلة إكمال الدرس الذي أعطاه ليونس في بطن الحوت، إذ كان عليه أن يحسّ بتأثير حرارة الشمس على جلده الرقيق، كي يبذل جهداً وسعيّاً أكثر - عندما يتسلّم القيادة في المستقبل - لإنقاذ أمّته من نار جهنّم، وقد وردت هذا المضمون في روايات متعدّدة^(١).

عاد يونس إلى قومه ليرى ماذا صنع بهم العذاب الإلهي، ولكن ما إن عاد إلى قومه حتّى فوجيء بأمرٍ أثار عنده الدهشة والعجب، وهو أنّه ترك قومه في ذلك اليوم يعبدون الأصنام، وهم اليوم يوحدون الله «سبحانه وتعالى». كانوا قد آمنوا بالله، وأغدقت عليهم النعم الإلهية المادية والمعنوية. وبالطبع فإنّهم بعد توبتهم كانوا يتمتّعون بإيمان بسيط، وقد ازداد بعد عودة يونس إليهم،

١. الحويزي: نور الثقلين، ج ٤، ص ٤٣٦.

أي ازداد إيمانهم بالله وبرسوله يونس، وأخذوا ينفذون تعليماته وأوامره. ويتبيّن من آيات القرآن الكريم أنّ يونس «عليه السلام» بُعث من جديد إلى قومه السابقين^(١).

□ خاتمة:

وباعتقادي أن بعض المفسّرين والمتكلّمين بحاجة إلى معالجة الآيات الشريفة بعيداً عن تأثير الأفكار والمعتقدات التي يحملونها، وأن يقرأوها بتجرّد مطلق، ودون الوقوع تحت تأثير المرويّات التي تحمل في طيّاتها الكثير من علامات الاستفهام، ليخرجوا بفهم قرآني رسالي يتناسب من جهة مع السياق الذي ذُكرت فيه القصة القرآنية، ومن جهة أخرى مع الرسالة التي تريد الآيات إيصالها إلى النبي «صلى الله عليه وآله» الذي كان يعيش صراعاً رسالياً عنيفاً مع أطراف متعدّدة، لتكون تلك القصة محفّزاً باتجاه خطوة محدّدة، أو علامة على الطريق، أو سبباً لتسليّة الخواطر وتثبيت العزائم ورفع الهمم.

ومن يقرأ قصص الأنبياء ضمن رؤية إنسانية متوافقة مع الطبيعة البشرية لشخصهم، سيخرج حتماً بنتائج تختلف عمّن يضعهم في قوالب ما فوق بشرية، أو في قوالب مجهزة سلفاً وضمن حدود وأبعاد معيّنة، يحتاج معها إلى أن يبرّر ويؤوّل كل موقف أو كلمة صادرة عنهم ليتوافق ذلك مع القالب المعدّ سلفاً، والحدود التي تمّ تعيينها من قبل.

ما الضير في أن يشعر النبي يونس بعظم الخطأ الذي ارتكبه واستحقّ معه

١. الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ٤٠٤-٤١٠.

أن يمرّ في تلك التجربة القاسية في بطن الحوت، وأن يعبر عن ذلك بصدور الظلم عنه، بعيداً عن تأويلات الظلم يكون المراد من تلك الكلمة ترك الأولى أو المعصية؟

بل هل عبّر النبي يونس في بطن الحوت بكلمة «الظالمين» بلحاظ التفسير «الكلامي» لها، وكأنه يقول: «اغفر لي - يا رب - تركي للأولى»، كي ندخلها في مثل هذا البحث، أم أنه أطلقها كوصف تلقائي خرج من أعماق وجدانه الإنساني الذي شعر معه بأنه قد ارتكب أمراً فظيماً في حقّ خالقه وصاحب النعمة عليه، لينطلق بعد ذلك بنداء إيماني في جوّ من الصفاء الروحي والندم الشديد والتوجّه التام بالاستغفار والتسبيح والندم والتهليل والتعظيم، أملاً في أن ينال عفو الله ورضوانه؟

وما المانع في أن يتوقّف رسول الله محمد «صلى الله عليه وآله» في زحمة الأحداث ليراجع خطواته الرسالية، وليفكر في محاولة هنا، أو مناورة هناك، أملاً في أن يفتح ثغرة في جدار التعصّب والعناد والاستكبار الذي كان يواجهه من قبل قريش ومن والاه، أو أن يتمهّل قليلاً كي يلتقط أنفاسه، أو ليبحث عن محيط جديد قد يجد أملاً في اختراقه وتحقيق بعض النتائج الإيجابية لتكون بدورها باعثاً للأمل في نفوس المؤمنين، ونقلةً نوعية في حركة الرسالة؟ فتأتي الآيات القرآنية لتنبّهه وتوجّهه إلى ضرورة الاستمرار - ضمن هذه الظروف والمعطيات - في الدعوة في ذات المحيط الذي لم يستنفد فيه كل الآمال والاحتمالات، ولتقدّم له نموذج قصة يونس في منعطفاتها ونتائجها غير المتوقّعة والتي جاءت في نهاية المطاف لصالح حركة الرسالة، ولتبيّن

له مخاطر وسلبيات الاستعجال في اتخاذ بعض القرارات التي لا تصبّ في صالح الدعوة.

إن استعراض وتتبع مسار كتب التفسير في التعامل مع قصص الأنبياء في القرآن الكريم سيقودنا إلى نتائج مؤلمة في هذا الإطار، إذ سيقّت الآيات إلى أجواءٍ من البحث والتفكيك والتحليل والقليل والقال دون أن تكون هذه الأجواء والبحوث والمقالات والمقولات هي الغاية من ذكرها في المقام الأول.. ولربما لم تُورَد لتُبَحِّث في هذه الأطر من الأساس.. ولم يحدث أن عالجه أحد من المفسرين على مرّ القرون المتمادية وحتى وقت قريب في إطارها الرسالي وهي الغاية الأصلية التي من أجلها ذُكرت وعُرضت في سياق الأحداث الكثيرة والعاصفة التي عانى في أجوائها رسول الله والمؤمنون بشكل كبير، وكانوا دائماً بحاجة إلى السند السماوي والمدد الإلهي الذي يقوّي عزائمهم، ويرسم لهم معالم طريقهم، ويضيء لهم دربهم، ليخوضوا التجربة بثبات، وعن بصيرة ووعي وعلوّ همّة.

وإذ شهدنا في القرن الأخير جهوداً مباركة في هذا المسار «التصحيحي» للتعامل مع القصص القرآنية، إلا أننا ما زلنا في أوّل الطريق، ونأمل أن نشهد المزيد من العناية والاهتمام بهذا المسار العلمي والتربوي والأخلاقي والروحي الهام والحساس بلحاظ حملته لرسالة السماء إلى حملة الرسالة من المؤمنين في كل زمان ومكان.

٨

يأجوج و مأجوج

يأجوج ومأجوج

تحدّثت نصوص الكتاب المقدّس في العهدين القديم والجديد - كما تحدّث القرآن الكريم - عن يأجوج ومأجوج، وكثرت التحليلات والآراء والروايات التي حاولت أن تبين حقيقة هؤلاء القوم، وما سبب تكرّر ذكرهم في هذه المصادر، وأين يعيشون، وما هي صفاتهم، وما علاقتهم بالآخرة، وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي فرضها أحياناً الغموض الذي يكتنف النصوص في الكتب المقدّسة. ولنبدأ بعرض الموارد القرآنية، ثم ما جاء في الكتاب المقدس.

□ في القرآن الكريم:

قال الله «عز وجل» في ضمن تفاصيل قصة ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾^(١).

وقال الله «عز وجل» في ضمن الحديث عن الرسالات السماوية والآخرة ومصير الأمم والأفراد: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، حَتَّىٰ

إِذَا فَتَحَتْ يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١﴾.

□ في التَّتَخ:

ورد ذكر يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم في الموردين السابقين فقط، بينما ذكر «ماجوج» في التَّتَخ في أكثر من مورد، ومن بينها ما جاء عند بيان أسماء ذرية يافث بن نوح: (وَهَذِهِ مَوَالِيدُ بَنِي نُوحٍ: سَامٌ وَحَامٌ وَيَافَثُ. وَوُلِدَ لَهُمْ بَنُونَ بَعْدَ الطُّوفَانِ. بَنُو يَافَثٍ: جُومَرُ وَمَاجُوجُ وَمَادَايَ وَيَاوَانَ وَتُوبَالَ وَمَاشِكُ وَتِيرَاسُ) ^(٢). ولم يذكر «يأجوج» بهذا اللفظ في التَّتَخ، بل نجد في بعض الموارد «جوج ماجوج» من دون واو العطف، علماً بأن «جوج» بحسب هذا النص اسم رئيس القبيلة، بينما «ماجوج» اسم القبيلة المنتسبة إلى الجد الأكبر، ماجوج بن يافث بن نوح.

ففي سفر «حزقيال» الذي يعود إلى أيام السبي البابلي قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة وكجزء من الرؤيا التي رآها هذا النبي ضمن البشارة بالخلاص من السبي ومآل الأمور في المستقبل: (وَكَانَ إِلَيَّ كَلَامُ الرَّبِّ قَائِلاً: يَا ابْنَ آدَمَ، اجْعَلْ وَجْهَكَ عَلَى جُوجَ، أَرْضَ مَاجُوجَ رَئِيسِ رُوشَ مَاشِكَ وَتُوبَالَ، وَتَنَبَّأَ عَلَيْهِ، وَقُلْ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَآنَذَا عَلَيْكَ يَا جُوجُ رَئِيسُ رُوشَ مَاشِكَ وَتُوبَالَ) ^(٣).

١. سورة الأنبياء: ٩٥-٩٧.

٢. الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح ١٠: ١-٢.

٣. الكتاب المقدس، سفر حزقيال، الإصحاح ٣٨: ١-٣.

وقد ورد الاسمان «ماشك، توبال» كأخوين لماجوج كما في نص سفر التكوين، مما يدل على أن ذرية الإخوة الثلاث عاشت مع بعضها البعض، وتحت قيادة عليا موكولة إلى سليل من فرع ماجوج، بينما اختلف مفسرو النص السابق في تحديد المراد من «روش»، هل هو اسم لفرع آخر من فروع ذرية يافث بن نوح، أم أنها صفة للرئيس، وبمعنى «رئيس أمراء» القبائل الثلاث، ماجوج وماشك وتوبال، لاسيما بلحاظ عدم وجود حرف العطف «واو» بين كلمتي «روش» و «ماشك»، ووجوده بين «ماشك» و «توبال».

بالإضافة إلى ذلك، فقد ذكر التتخ «روش» بعنوان أنه من ذرية بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: (وَبَنُو بَنِيَامِينَ: بَالَعُ وَبَاكِرُ وَأَشْبِيلُ وَجِيرَا وَنَعْمَانُ وَإِيحْيَى وَرُوشُ وَمُفْيِمٌ وَحَفِيمٌ وَأَرْدُ)^(١)، وليس من ذرية يافث.

ونجد في بعض الترجمات الإنجليزية ما يدل على هذا الاختلاف في فهم العبارة، ففي نسخة الترجمة العالمية The New International Version جاءت العبارة كالتالي:

The word of the Lord came to me: "Son of man, set your face against Gog, of the land of Magog, the chief prince (Or the prince of Rosh,) of Meshek and Tubal; prophesy against him and say: 'This is what the Sovereign Lord says: I am against you, Gog, chief prince of (Or the prince of Rosh,) Meshek and Tubal.'^(٢)

١. الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح ٤٦: ٢١.

2. <https://www.biblegateway.com/passage/?search=Ezekiel+38&version=NIV>

وفي النسخة اليهودية الأرثوذكسية Orthodox Jewish Bible جاءت العبارة مُفهِمة أن كلمة رُوش صفة وهي نفس كلمة «رأس» في العربية:

And the Devar Hashem came unto me, saying, Ben adam, set thy face against Gog, Eretz HaMagog, the nasi rosh Meshech and Tuval, and prophesy against him.^(١)

وفي التعريف بكلمة nasi الواردة في النص اليهودي الأرثوذكسي السابق نجد أنها تعني الأمير أو الرئيس:

Nāśī' (נָשִׂיא) is a Hebrew title meaning "prince" in Biblical Hebrew, "Prince of the Sanhedrin]" in Mishnaic Hebrew, or "president" in Modern Hebrew^(٢).

وبينما غالبية علماء الكتاب المقدس يعتبرون أن Rosh صفة بمعنى الرأس، وأن بعض المفسرين وقعوا في خطأ حين اعتبروا الكلمة علماً لشخص أو قبيلة:

Rosh: Hebrew: ראש rosh «Head». Rosh is the seventh of the ten sons of Benjamin named in Genesis 46:21. A nation named Rosh is also possibly mentioned in Ezekiel 38:2–3, 39:1 «Son of man, set your face toward Gog, the land of Magog, the prince of Rosh, Meshech, and Tubal; and prophesy concerning him.» This translation «Rosh» is found in NASB

1. <https://www.biblegateway.com/passage/?search=Ezekiel+38&version=OJB>

2. https://en.wikipedia.org/wiki/Nasi_Hebrew_title

but not in KJV and most modern versions. Also in a variant reading of Isaiah 66:19 (MT) and the Septuagint Jeremiah 32:23.[citation needed] Most scholars see this as a mistranslation of נְשִׂיא רֹאשׁ, nesi ro'sh («chief prince»), rather than a toponym[citation needed].⁽¹⁾

وبالعودة إلى نص سفر حزقيال نجد أن الرؤيا تتحدث عن هجوم ذلك التجمع البشري المكوّن من القبائل الثلاث المتحدة وذلك من أقاصي الشمال (في السنين الأخيرة)^(٢) ومعها حلفاؤها من بعض أنحاء آسيا وأفريقيا على إسرائيل، وهلاك المهاجمين بأمر الله.. فهل المراد من هذه العبارة «آخر الزمان» أم السنين الأخيرة من وجود بني إسرائيل في السبي البابلي؟

وهذا الهجوم يتم من (على جبال إسرائيل)^(٣). وتكون نهايتهم على تلك الجبال: (وَأَعَاقِبُهُ بِالْوَبَاءِ وَبِالدَّمِّ، وَأَمْطُرُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَيْشِهِ وَعَلَى الشُّعُوبِ الْكَثِيرَةِ الَّذِينَ مَعَهُ مَطَرًا جَارِفًا وَحَجَارَةً بَرْدٍ عَظِيمَةً وَنَارًا وَكِبَرِيَّتًا.... فَتَسْقُطُ عَلَى جِبَالِ إِسْرَائِيلَ أَنْتَ وَكُلُّ جَيْشِكَ وَالشُّعُوبُ الَّذِينَ مَعَكَ. أَبْذَلِكُ مَأْكَلًا لِلطُّيُورِ الْكَاسِرَةِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَلِلْوَحُوشِ الْحَقْلِ... وَأَرْسَلُ نَارًا عَلَى مَاجُوجَ)^(٤).

وينتهي هذا المقطع من الرؤيا بإعلان توبة الله على بني إسرائيل

1.en.wikipedia.org/wiki/List_of_minor_Old_Testament_figures,_L%E2%80%93Rosh

٢. الكتاب المقدس، سفر حزقيال، الإصحاح ٣٨: ٨.

٣. الكتاب المقدس، سفر حزقيال، الإصحاح ٣٨: ٨. و ٣٩: ٢ ، ٤.

٤. الكتاب المقدس، سفر حزقيال، الإصحاح ٣٨: ٢٢ إلى ٣٩: ٤-٦.

لشركهم السابق ومعاصيهم، وإعادتهم إلى الأرض التي نفوا منها، ليعيشوا فيها مطمئنين ويعودوا إلى عبادة الله الواحد.

وهذا قد يجعلنا نفهم أن المراد من عبارة (فِي السَّنِينَ الْأَخِيرَةِ) الإشارة إلى السنين الأخيرة من وجودهم في بابل في حالة السبي، وكأنَّ الرؤيا رمزية وتقدّم لهم الوعد بعودتهم إلى ديارهم وخلصهم من الوضع الذي كانوا فيه... وإن فُسِّر هذا - من قبل البعض - بأنه من أحداث آخر الزمان، وهو ما سيؤثر على بعض الروايات الإسلامية وآراء المفسرين أيضاً، وبالتالي فهمنا للنص القرآني الوارد في سورة الأنبياء وتأويله.

□ في العهد الجديد:

ورد ذكر يأجوج ومأجوج في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي^(١) بمراعاة وجود حرف العطف بين الكلمتين ولكن بصيغة «جُوجَ وَمَأْجُوجَ» الخالية من «يا» في بدايتها. والنص يرتبط بنبوءة عودة السيد المسيح «عليه السلام» إلى الدنيا ليحكم ألف سنة: (ثُمَّ مَتَى تَمَّتِ الْأَلْفُ السَّنَةُ يُحَلُّ الشَّيْطَانُ مِنْ سِجْنِهِ، وَيَخْرُجُ لِيُضِلَّ الْأُمَمَ الَّذِينَ فِي أَرْبَعِ زَوَايَا الْأَرْضِ: جُوجَ وَمَأْجُوجَ، لِيَجْمَعَهُمْ لِلْحَرْبِ، الَّذِينَ عَدَدُهُمْ مِثْلُ رَمْلِ الْبَحْرِ. فَصَعِدُوا عَلَى عَرْضِ الْأَرْضِ، وَأَحَاطُوا بِمَعْسَكَرِ الْقَدِيسِينَ وَبِالْمَدِينَةِ الْمَحْبُوبَةِ، فَنَزَلَتْ نَارٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ السَّمَاءِ وَأَكَلَتْهُمْ. وَابْلَيْسُ الَّذِي كَانَ يُضِلُّهُمْ طُرِحَ فِي بُحِيرَةِ النَّارِ وَالْكِبْرِيتِ، حَيْثُ

١. القديس يوحنا الإنجيلي واسمه باليونانية يوانس، ويعرف أيضاً بيوحنا الرائي والحبیب، هو ابن زبدي وسالومة، وشقيق يعقوب الكبير، وكان الشقيقان من تلاميذ المسيح الإثني عشر وحوارييه، وبحسب التقليد المسيحي فإنه كاتب إنجيل يوحنا، ولذلك يلقب بالإنجيلي، وهو كاتب الرسائل الثلاث التي تنسب إليه في العهد الجديد، علاوة على سفر الرؤيا.

الْوَحْشُ وَالنَّبِيُّ الْكَذَّابُ. وَسَيُعَذِّبُونَ نَهَارًا وَلَيْلًا إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ^(١) ثم تحل القيامة وفق التصوّر في المعتقد المسيحي.

والصورة قريبة من صورة ما في سفر حزقيال من اتحاد الأمم بقيادة قوم مأجوج، والهجوم من الجبال وإهلاكهم بالنار. وهذا النص أيضاً سيؤثر على بعض الروايات الإسلامية وآراء مفسري القرآن الكريم، وبالتالي على فهمنا للنص القرآني الوارد في سورة الأنبياء وتأويله.

□ تأويل الآيات:

في ما يأتي مجموعة من المرويات في كتب المسلمين والتي نجد فيها كما هائلاً من الخرافات والأساطير والتأويلات السقيمة المتعلقة بيأجوج ومأجوج، مع بعض التعليقات، وأعرضها كالتالي:

١. ذكر الطبري في تأويل قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾^(٢) رواية مشحونة بالأساطير، رواها بسنده عن رُبَيْعِ بْنِ حَرَّاشٍ، قال: (سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: «أَوَّلُ الْآيَاتِ: الدَّجَالُ، وَنَزُولُ عِيسَى، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ أَبْيَنَ، تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ، تُقِيلُ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَالِدُّخَانُ، وَالِدَّابَّةُ، ثُمَّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ. قال حذيفة: قلت: يا رسول الله، وما يأجوج ومأجوج؟ قال: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أُمَّمٌ كُلُّ أُمَّةٍ أَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفٍ، لَا يَمُوتُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ حَتَّىٰ يَرَى أَلْفَ عَيْنٍ تَطْرِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ صُلْبِهِ) وفي هذا إشارة إلى طول عمر أحدهم وكثرة

١. الكتاب المقدس، سفر يوحنا اللاهوتي، الإصحاح ٢٠: ٧-١٠.

٢. سورة الأنبياء: ٩٦.

تناسلهم في نفس الوقت (وَهُمْ وَلَدُ آدَمَ، فَيَسِيرُونَ إِلَى خَرَابِ الدُّنْيَا، يَكُونُ مُقَدِّمَتُهُمْ بِالشَّامِ وَسَاقَتُهُمْ بِالْعِرَاقِ) أي أن امتداد رجالهم المقاتلين يبلغ مدى هذه المسافة المقدرة بمئات الكيلومترات (فَيَمُرُونَ بِأَنْهَارِ الدُّنْيَا، فَيَشْرَبُونَ الْفُرَاتَ وَالذَّجْلَةَ وَبَحِيرَةَ الطَّبْرِيةِ حَتَّى يَأْتُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَيَقُولُونَ قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ الدُّنْيَا فَقَاتِلُوا مَنْ فِي السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بِالنَّشَابِ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ نَشَابُهُمْ مُخَضَّبَةً بِالدَّمِ، فَيَقُولُونَ قَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي السَّمَاءِ، وَعَيْسَى وَالْمُسْلِمُونَ بِجَبَلِ طُورِ سَيْنِينَ، فَيُوحِي اللَّهُ «جَلْ جَلَالَهُ» إِلَى عَيْسَى: أَنْ أَحْرِزْ عِبَادِي بِالطُّورِ وَمَا يَلِي أَيْلَةَ، ثُمَّ إِنَّ عَيْسَى يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيُؤْمِنُ الْمُسْلِمُونَ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَابَّةً يَقَالُ لَهَا النَّغْفُ، تَدْخُلُ مِنْ مَنَاخِرِهِمْ فَيَصْبِحُونَ مَوْتَى مِنْ حَاقِ الشَّامِ إِلَى حَاقِ الْعِرَاقِ، حَتَّى تَنْتِنَ الْأَرْضُ مِنْ جِيفِهِمْ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فَتَمْطِرُ كَأَفْوَاهِ الْقَرْبِ، فَتَغْسِلُ الْأَرْضُ مِنْ جِيفِهِمْ وَنَتْنِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا^(١).

وقد علّق محمد أبو شُهبة في كتابه «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» على رواية أخرى رواها الطبري بنفس السند فقال: (ولو أن هذه الإسرائيليات والأباطيل وقف بها عند رواتها من أهل الكتاب الذين أسلموا، أو عند من رواها عنهم من الصحابة والتابعين لهان الأمر، ولكن عظم الإثم أن تنسب هذه الإسرائيليات إلى المعصوم «صلى الله عليه وسلم» ولا أشك أن هذا الدس من عمل زنادقة اليهود أو الفرس. روى ابن جرير في تفسيره، قال: حدثنا عصام بن داود بن الجراح، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا سفيان بن سعيد

١. الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ٥٢٦-٥٢٧.

الثوري قال: حدثنا منصور بن المعتمر، عن ربي بن حراش، قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: «إن بني إسرائيل لما اعتدوا، وعلوا، وقتلوا الأنبياء، بعث الله عليهم ملك فارس: بختنصر، وكان الله ملكه سبعمئة سنة، فصار إليهم، حتى دخل بيت المقدس، فحاصرها، وفتح، وقتل على دم زكريا سبعين ألفاً، ثم سبي أهلها، وبني الأنبياء، وسلب حلي بيت المقدس، واستخرج منها سبعين ألفاً، ومائة ألف عجلة من حلي، حتى أورها بابل»، قال حذيفة: فقلت يا رسول الله لقد كان بيت المقدس عظيماً عند الله، قال: «أجل، بناه سليمان بن داود من ذهب، ودر، وياقوت، وزبرجد وكان بلاطة من ذهب، وبلاطة من فضة، وعمده ذهباً، أعطاه الله ذلك، وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين، فصار بختنصر بهذه الأشياء، حتى دخل بها بابل، فأقام بنو إسرائيل في يديه مائة سنة، تعذبهم المجوس، وأبناء المجوس، فيهم الأنبياء، وأبناء الأنبياء ثم إن الله رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس، يقال له: كورش وكان مؤمناً، أن سر إلى بقايا بني إسرائيل حتى تستنقذهم، فصار كورش ببني إسرائيل، وحلي المقدس حتى رده إليه. فأقام بنو إسرائيل مطيعين الله مائة سنة، ثم إنهم عادوا في المعاصي، فسلط الله عليهم بطيانموس، فغزا بأبناء من غزا مع بختنصر، فغزا بني إسرائيل، حتى أتاها بيت المقدس، فسبى أهلها، وأحرق بيت المقدس، وقال لهم: يا بني إسرائيل، إن عدتم في المعاصي عدنا عليكم بالسبأ، فعادوا في المعاصي، فسير الله عليهم السبأ الثالث، ملك رومية، يقال له: فاقس بن أسبايوس، فغزاهم في البر والبحر فسباهم، وسبى حلي بيت المقدس،

وأحرق بيت المقدس بالنيران، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: هذا من صنعة حلي بيت المقدس، ويردّه المهدي إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة، وسبعمائة سفينة، يرسى بها على على يافا حتى تنقل إلى بيت المقدس، وبها يجمع الله الأولين، والآخرين».

وعفا الله عن ابن جرير، كيف استجاز أن يذكر هذا الهراء، وهذه التخريفات عن المعصوم «صلى الله عليه وسلم» وكان عليه أن يصون كتابه عن أن يسوده بأمثال هذه المرويات الباطلة. ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد ابن كثير، حيث قال في تفسيره: «وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك مَنْ عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب، كيف راجَ عليه مع جلالة قدره، وإمامته، وقد صرّح شيخنا: أبو الحجاج المزي «رحمه الله» بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب يعني كتاب تفسير ابن جرير وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها: ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم، ومنها: ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غُنية عنها ولله الحمد، وفيما قص الله علينا في كتابه غُنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله، ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا، وبغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم، وقهرهم جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً كثيراً من الأنبياء والعلماء»^(١).

١. أبو شهبه: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ج ١، ص ٢٢٧-٢٢٩.

٢. وروى الطبري أيضاً بسنده عن عبد الله بن عمرو أنه قال: (إن يأجوج ومأجوج يمرّ أولهم بنهر مثل دجلة، ويمرّ آخرهم فيقول: قد كان في هذا مرة ماء) أي يشربون ماء النهر فيجف تماماً لكثرة عددهم، وكأن الأنهر عبارة عن أحواض من الماء بلا مادة تمدّها باستمرار (لا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وقال: من بعدهم ثلاث أمم لا يعلم عددهم إلا الله: تأويل، وتاريس، وناسك أو منسك) (١).

ثم علق الطبري بأن مصدر التردد في الأسماء الأخيرة من عند الراوي «شعبة» لا عبد الله بن عمرو بن العاص، ويبدو أن عبد الله قد أخذ من العهد القديم عبارة (رُوش مَاشِك وتوبال) من خلال تلقّيه من كعب الأحبار، وذكرها في نهاية كلامه بهذه الصورة المحوَّرة التي بدلاً من أن يذكر أنها من مكونات قوم مأجوج بحسب العهد القديم، ذكرها على أنها أسماء أقوام يأتون من بعد يأجوج ومأجوج. وفي رواية أخرى للطبري بسنده عن وهب بن جابر الخيواني، قال: (سألت عبد الله بن عمرو، عن يأجوج ومأجوج، أ من بني آدم هم؟ قال: نعم، ومن بعدهم ثلاث أمم لا يعلم عددهم إلا الله، تاريس، وتأويل، ومنسك) (٢).

٣. وahan دور كعب الأحبار ليدلو بدلوه ويتحفنا بإسرائيلية من خيالاته وبما كان يخدع به المسلمين على أنها من التَّخ وتراث بني إسرائيل، ليقوم بعض من أخذ عنه كعب الله بن عمرو ليعيد تسويق أجزاء من هذه الأساطير الكعبية ولكن باختصار وبعبارات مختلفة.

١. الطبري: جامع البيان في تأويل أي القرآن، ج ١٨، ص ٥٢٧.

٢. الطبري: جامع البيان في تأويل أي القرآن، ج ١٨، ص ٥٢٧.

فقد روى الطبري بسنده عن أبي الصيف، قال: قال كعب: (إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حضروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فتؤسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجى غداً فتخرج) أي من السد الذي بناه ذو القرنين (فيعيدها الله كما كانت، فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحضرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فتؤسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجى غداً فتخرج إن شاء الله) يبدو أن كعباً نسي أن يأجوج ومأجوج من الكفار الأشقياء ونسب إليهم تعليق أمرهم على المشيئة الإلهية كما يفعل المتدينون، نعم سيأتي معنا في رواية أخرى له ادّعاؤه أن الله ألهمهم قول ذلك، وهذا أسخف (فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحضرون ثم يخرجون، فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها) يبدو أن عبد الله بن عمرو في الرواية السابقة خلط بين النهر والبحيرة فادّعى أن النهر يجف عند شربهم منه لكثرة عددهم، وأما كعب الأحبار فكان أدق منه في هذه الجزئية الأسطورية حين ذكر أن الماء بحيرة، ويحتمل في البحيرة أن تكون بلا مادة وأنها تجمّع مائي لموسم الأمطار (ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون: قد كان ههنا مرة ماء، وتفرّ الناس منهم، فلا يقوم لهم شيء، يرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء، فیدعو عليهم عيسى ابن مريم، فيقول: اللهم لا طاقة ولا يدین) قوة (لنا بهم، فاكفناهم بما شئت، فيسلط الله عليهم دوداً يقال له النغف، فتفرس رقابهم، ويبعث الله عليهم طيراً فتأخذهم بمنقرها فتلقيهم في البحر، ويبعث الله

عيناً يقال لها الحياة تطهر الأرض منهم وتثبتها، حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن، قيل: وما السكن يا كعب؟ قال: أهل البيت، قال: فبيننا الناس كذلك، إذ أتاهم الصريخ أن ذا السويقتين يريده، فيبعث عيسى طليعة سبع مائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحاً يمانية طيبة، فيقبض الله فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عجاج من الناس يتسافدون) السفاد يعني الجماع (كما تتسافد البهائم، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع) والطريف أن كعباً لا يكتفي بضخ تلك الأساطير بل ويختتم كلامه بالتحذير ممن يضيف شيئاً حول هذا الأمر، فالعلم كل العلم عنده هو، فهو كعب ورئيس الأخبار، قال: (فمن تكلف بعد قولي هذا شيئاً أو على هذا شيئاً فهو المتكلف) (١).

٤. روى السيوطي: (أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عدي، وابن عساكر، وابن النجار عن حذيفة قال: سألت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عن يأجوج، ومأجوج، فقال: «يأجوج ومأجوج أمة، كل أمة أربعمائة ألف أمة، لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف رجل من صلبه، كل حمل السلاح». قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: «هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز». قلت: وما الأرز؟ قال: «شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع في السماء» أي ٦٠ متراً تقريباً (قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: «هؤلاء الذين لا يقوم لهم جبل، ولا حديد، وصنف منهم، يفترش إحدى أذنيه، ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل، ولا وحش، ولا جمل، ولا خنزير إلا أكلوه، ومن مات

١. الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج ١٨، ص ٥٢٩.

منهم أكلوه، مقدّماتهم بالشام وساقّتهم يشربون أنهار المشرق، وبحيرة طبرية»^(١).

قال ومحمد أبو شُهبة في كتابه «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»: (وقد ذكر ابن جرير في تفسيره هذه الرواية وغيرها من الروايات الموقوفة، وكذلك صنع القرطبي في تفسيره، وإذا كان بعض الزنادقة استباحوا لأنفسهم نسبة هذا إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فكيف استباح هؤلاء الأئمة ذكر هذه المرويات المختلقة المكذوبة على رسول الله في كتبهم؟! وهذا الحديث المرفوع نصّ الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في موضوعاته وغيره على أنه موضوع، ووافقه السيوطي في اللآليء، فكيف يذكره في تفسيره ولا يُعقّب عليه؟! وحقّ له أن يكون موضوعاً؛ فالمعصوم «صلى الله عليه وسلم» أجلّ من أن يروى عنه مثل هذه الخرافات، وفي كتب التفسير من هذا الخلط وأحاديث الخرافة شيء كثير، ورووا في هذا عن عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وعن كعب الأحبار، ولكي تتأكد أن ما رُفِعَ إلى رسول الله إنما هي إسرائيليات نُسبت إلى النبي زوراً وكذباً: نذكر لك ما روي عن كعب، قال: «خلق يأجوج ومأجوج، ثلاثة أصناف، صنف كالأرز، وصنف: أربعة أذرع طول، وأربعة أذرع عرض، وصنف يفترشون آذانهم، ويلتحفون بالأخرى، يأكلون مشائم) جمع مشيمة (نسائهم). وعلى حين نراهم يذكرون من هول وعظم خلقهم ما سمعت، إذ هم يروون عن ابن عباس «رضي الله عنهما» أنه قال: «إن يأجوج ومأجوج شبر، وشبران، وأطولهم ثلاثة أشبار، وهم من

١. السيوطي: الدر المنثور، ج ٥، ص ٢٥٠، ٢٥١.

ولد آدم». بل رووا عنه أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»: بعثني الله ليلة أسرى بي إلى يأجوج، ومأجوج، فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا أن يجيبوني، فهم في النار، مع من عصى من ولد آدم وإبليس». والعجب أن السيوطي قال عن هذا الحديث: إن سنده واهٍ، ولا أدري لم ذكره مع وهاء سنده؟!

قال صاحب الدر: وهو السيوطي (وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر والطبراني والبيهقي في البعث، وابن مردويه، وابن عساكر عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم) قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم، ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تاويل، وتاريس، ونسك».

قال: وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وصححه، والبيهقي في البعث، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ يأجوج ومأجوج يحفرون السد كل يوم، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا، فستفتحونه غداً، ولا يستثني، فإذا أصبحوا وجدوه قد رجع كما كان، فإذا أراد الله بخروجهم على الناس: قال الذي عليهم: ارجعوا، فستفتحونه إن شاء الله ويستثني، فيعودون إليه، وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه، ويخرجون على الناس، فيستقون المياه) ولنتذكر كلام كعب الذي نقلناه في الصفحات السابقة كيف يتطابق مع ادعاء أبي هريرة أنها رواية نبوية، علماً بأن أبي هريرة تتلمذ أيضاً على يد كعب الأحبار، وهو ما التفت إليه أبو شهبه وسينبّه عليه بعد قليل (ويتحصن الناس منهم في

حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: قهرنا من في الأرض، وعلونا من في السماء، قسوا، وعلوا، فيبعث الله عليهم نغماً في أعناقهم فيهلكون»، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «فوالذي نفس محمد بيده: إن دواب الأرض لتسمن، وتبطر، وتشكر شكراً من لحومهم».

ومهما كان سند مثل هذا؛ فهو من الإسرائيليات عن كعب وأمثاله، وقد يكون رفعها) أي أبوهريرة (إلى النبي غلطاً وخطأً من بعض الرواة أو كيداً يكيده الزنادقة اليهود للإسلام، وإظهار رسوله بمظهر من يروي ما يخالف القرآن، فالقرآن قد نص بما لا يحتمل الشك على أنهم لم يستطيعوا أن يعلوا السد، ولا أن ينقبوه، قال «تعالى»: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾. وإليك ما ذكره في هذا الإمام الحافظ، الناقد، البصير ابن كثير في تفسيره، قال بعد أن ذكر من رواه: «وأخرجه الترمذي من حديث أبي عوانة، عن قتادة، ثم قال: غريب لا يُعرف إلا من هذا الوجه، وإسناده جيد قوي، ولكن متنه في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية: يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه، ولا من نقبه؛ لإحكام بنائه وصلابته وشدته، ولكن هذا قد رُوي عن كعب الأحبار، أنهم قبل خروجهم يأتونه، فيلحسونه، حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون: غداً نفتحه، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون كذلك، فيصبحون وهو كما كان، فيلحسونه، ويقولون: غداً نفتحه، ويُلهمون أن يقولوا: إن شاء الله) الآن نفهم لماذا جاءت عبارة إن شاء الله في رواية كعب السابقة (فيصبحون وهو كما فارقه، فيفتحونه. وهذا متجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب، فإنه كان كثيراً ما كان يجالسه،

ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، والله أعلم. ومن الإسرائيليات المستتكرة في هذا ما روي: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مَنِيٍّ خرج من آدم، فاختلط بالتراب، وزعموا: أن آدم كان نائماً فاحتلم، فمن ثم اختلط منيّه بالتراب، ومعلوم أن الأنبياء لا يحتملون؛ لأن الاحتلام من الشيطان. قال ابن كثير: «وهذا قول غريب جداً، لا دليل عليه، لا من عقل ولا من نقل، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة. والله أعلم»^(١).

□ في الشعر الجاهلي:

ليس من المستبعد في حد ذاته أن يكون أمر ذي القرنين ويأجوج ومأجوج والسدّ خافياً على العرب الجاهليين، وأنهم تناقلوا القصة في حكاياتهم وأشعارهم، وقد استدلل البعض على ذلك بقصيدة منقولة عن الشاعر الجاهلي المعروف امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي «ت: ٨٠ قبل الهجرة» معاتباً الدهر يقول فيها^(٢):

ألم أخبرك أن الدهر غول	ختور العهد يلتهم الرجالا
أزال من المصانع ذا رياش	وقد ملك السهولة والجبالا
همام طحطح الآفاق وحيا	وساق إلى مشارقها الرعالا
وسدّ بحيث ترقى الشمس سدا	ليأجوج ومأجوج الجبالا
فإن تهلك شئوء أو تبدل	فسيري إن في غسان خلا

١. أبو شهبه: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٨.

٢. ديوان امرئ القيس، ج ١، ص ١٤٧.

بعضهم عززت فإن يذلوا فذلکم أنالك ما أنالا

فلو صحّت نسبة القصيدة إليه ولم تكن من مخترعات القصّاصين في العهد الإسلامي، فإنّ هذا يدلّ على ما ذكرناه من علم العرب بوجود قوم يأجوج ومأجوج. قال العلامة الطباطبائي: (يُنسَب إلى بعض ملوك حمير من اليمنيين أشعار في المباهاة يذكر فيها ذا القرنين وأنه من أسلافه التبابعة، وفيها ذكر سيره إلى المغرب والمشرق، وسد يأجوج ومأجوج)^(١).

والحقيقة أننا إذا رجعنا إلى ديوان امرئ القيس طبعة دار الكتاب لسنة ٢٠٠٦ وبشرح كل من د. محمد الاسكندراني ود. نهاد رزوق سنجد القصيدة برقم ٧٥ ومعنونة كالتالي: «قال امرؤ القيس، يروي حكاية حبيبته «ابنة البكري» عنه، ويردّ عليها ذاكراً خواطره حيال الدهر، معتمداً الحُجج والبيّنات»^(٢):

تقول لي ابنة البكري لَمّا	عزفت من الصبا واللهو بالا
أرى الملك الذي قد كان فينا	يُفِيدُ رَغائِباً وَيُفِيْتُ مالا
ويعطى القينة الحسناء تُروى	نداماه ويضطلع الثقالا
ويُنْضِي العِرمس الوجناء حتّى	تشكى بعد كُدَيْتِها الكلالا
ويُصبحهم مللمة رداحاً	مع الإشراف أحياء حلالا
ويغدو في البطالة مسبكراً	تخال به إذا وافى هلالا
تبدّل بعد جدّته شُحوباً	وأصبح حبله خُلقاً مُذالاً
فقلت لها وقول الحقّ ممّا	يميل ولو عدلت به الجبالا

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٧٩.

٢. دار الكتاب العربي: ديوان امرئ القيس، ص ٣٢٥-٣٢٨.

ألم يحزنك أن الدهر غول	ختور العهد يلتهم الرجالا
أزال من المصانع ذا نواس	وقد ملك الحُزونة والرمالا
وأنشب في المخالب ذا خليل	وللزّاد قد نصب الجبالا
وفجّع كندة الأخيار طُراً	بعمرو واصطفى حُجراً فزالا
وبينا كان في الأحياء طوراً	رماه الدهر من كتب فمالا
أبعد شنوءة الأبطال أرجو	ليان العيش أو أبغي احتيالا
فإن تلك دار آل الأزد زالت	فكل الناس ينتظر الزوالا
وإن تهلك شنوءة أو تبدّل	فسيري إنّ غسان خلا
بِعِزِّهم عَزَزْتَ وأن يذلّوا	فذلّهم أنالك ما أنالا

ففي القصيدة بيت مطلعها: «ألم يحزنك أن الدهر غول...» ثم البيت التالي: «أزال من المصانع...» وليس بعد ذلك حديث عن السد ولا يأجوج ومأجوج وما له علاقة بذلك. نعم في الطبعة الخامسة للديوان طبعة «دار المعارف» تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، سنجد أنه يذكر في القصيدة برقم ٧٥ أنها القصيدة الثانية والعشرون في ملحق الطوسي والثالثة والخمسون في أبي سهل، ثم قال «..... في زيادات العقد الثمين ٢٠٤ بعد هذا البيت» أي البيت الذي أوّله: «أزال من المصانع ذا نواس....»^(١):

همام طحطح الآفاق وحيّاً	وساق إلى مشارقها الرّعالا
وسدّ بحيث ترقى الشمس سدا	ليأجوجٍ ومأجوج الجبالا

فهل هذه القصيدة برمتها صحيحة النسبة إلى امرئ القيس؟ وما مدى

١. دار المعارف: ديوان امرئ القيس، ص ٤٥٠.

صحّة زيادة كتاب «العقد الثمين في الشعراء الستة الجاهليين للمستشرق «أهلوارد»» والتي نشر ضمّنه ديوان امريء القيس على نسخة «السكري»؟

وحول قيمة هذه النسخ والزيادات قال الدكتور شوقي ضيف في كتابه «تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي»: (في سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف في القاهرة، واعتمد في نشرته على طائفة من المخطوطات، استطاع من خلالها أن يوزّعه على رواياته. بدأ برواية الأصمعي نقلاً عن نسخة الشنتمري التي تضم الدواوين الستة كما قدّمنا، والتي تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشنتمري والأصمعي، فهي رواية موثقة، وهي تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة بشرح الشنتمري، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسي، وهي رواية كوفية، يلي ذلك زيادات من هذه الرواية نصّ الطوسي على انتحالها، وتقع في ٣٢ قصيدة ومقطوعة، ثم زيادات من نسخ السكري وابن النحاس المصري وأبي سهل عن بعض الكوفيين. وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة. وقد ألحق بها أبو الفضل تخريجاً دقيقاً. وإذا أخذنا نبحت في هذه الروايات لاحظنا تواتراً أن أعلاها في الثقة رواية الشنتمري عن الأصمعي، فهي موصولة السند، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية، وبمجرد النظر في تخريجها نجد كثيراً منها شك فيه الرواة، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتماد عليه، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكري وابن النحاس وأبي سهل^(١).

١. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، ج ١، ص ٢٤٣-٢٤٤.

وقال محقق الديوان في المقدمة حول بعض هذه النسخ والزيادات: (٢-
نسخة الطوسي: وهي نسخة لم يُعرف جامعها ولا شارحها، كما لم يُعرف
ناسخها أيضاً.... وجاء في صفحة العنوان: «ديوان امرئ القيس بن حجر
بن عمرو الكندي، رواية أبي الحسن الطوسي وأبي نصر أحمد بن حاتم عن
الأصمعي عبد الملك بن قريب عن أبي عمرو الشيباني، وكتب فيه أنها بخط
التبريزي»، وهو عنوان يشيع فيه الخطأ والتخليط، فليس لأحمد بن حاتم من
رواية في هذه النسخة إلا ما ذكر من أوجه الخلاف في شروح بعض القصائد،
كما أنه ليس للأصمعي رواية عن أبي عمرو الشيباني إطلاقاً. وأما ما جاء في
هذه الصفحة من أن هذه النسخة بخط التبريزي، وما جاء في آخرها أيضاً
بخط مخالف من أنها كُتبت بخطه سنة ٤٠٩، فهو خطأ آخر، إذ أن الخطيب
التبريزي ولد سنة ٤٢١، كما أنني عارضت خط هذه النسخة بخط التبريزي
الثابت له في كتابه: «شرح اختيارات المفضل الضبي» المحفوظ بمكتبة
«العطارين» بتونس، والمصوّر منه نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم
١٩٨٧٦ز - لاحتمال أن يكون الخطأ في سنة النسخ فقط - فوجدته مخالفاً
لخط التبريزي تماماً^(١).

وحول نسخة أبي سهل قال المحقق: (٦- نسخة أبي سهل: وتشتمل على
تسع وخمسين قصيدة ومقطوعة، جاء في أولها: «قال أبوسهل خرابنداد بن
ماخراشيد: قرأت على أبي جعفر أحمد بن الحسن الكوفي المعروف بدندان
بشيراز، شعر امرئ القيس بن حجر. ثم قرأته بفسا^(٢) على أبي عمرو حفص

١. دار المعارف: ديوان امرئ القيس، ص ١٢-١٣.

٢. اسم بلدة قريبة من شیراز في بلاد فارس.

بن عمر العبدِيّ الإصطخري». ولم أعر على ذكر لهؤلاء جميعاً فيما وقع لي من كتب التراجم... وتبدو قيمة هذه النسخة فيما انفردت به من قصائد لم تُذكر في النسخ السابقة جميعاً^(١).

فأية قيمة تبقى لهذه القصيدة وزياداتها بعد الشك في نسبتها لامريء القيس ونسبة البيتين المضافين في نسخة أبي سهل؟ علماً بأن بعض المشككين في القرآن الكريم قد اتخذوا من البيتين طعنًا في سماوية القرآن الكريم، معتبرين أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أخذ من أشعار العرب، وقدمها في صورة آيات قرآنية نسبها إلى الله «عز وجل»، وقد تبين لنا ضعف نسبة أبيات امريء القيس إليه، وأن يد القصّاصين وأمثالهم تدخلت في نسبة ما لم ينشده إليه، وللكوفيين في هذا الباب براعة معروفة، لم تقتصر على الأدب، بل امتدت لتتال من الروايات والنصوص الدينية كما تبين لنا من قبل حين تناولنا في بحث سابق من هذا الكتاب حول النبي سليمان «عليه السلام» دور المغيرة بن سعيد وآخرين في الدسّ والوضع والتحريف.

على أن ما سبق لا يعني أن قصة ذي القرنين كانت مجهولة تماماً، وأن القرآن هو من سلط الضوء عليها، كيف والله يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾^(٢)، فالسؤال عن الشخصية فرع عن المعرفة بها، وإن لم نتأكد من هوية السائل، وما غرضه من السؤال، هل كان من أهل الكتاب وبغرض التحدي، أم من المشركين أو المسلمين بغرض

١. دار المعارف: ديوان امريء القيس، ص ١٦-١٧

٢. سورة الكهف: ٨٣.

المعرفة أو الفضول أو تصحيح المعلومات؟ وهذا شيء وأن يكون بعض من جوانب وتفاصيل قصته قد ذُكرت في الأشعار الجاهلية، وأنه «صلى الله عليه وآله» أخذها عنها وأعاد صياغتها في صورة آيات قرآنية شيء آخر.

ومما له علاقة بذلك ما ذُكر أيضاً من أن العرب كانوا يَكْنُونُ بيأجوج ومأجوج للدلالة على كثرة قوم ما، فيقال: «هؤلاء يأجوج ومأجوج» أي مثل يأجوج ومأجوج، كناية عن كثرة عددهم.

قال ابن عاشور في تفسيره للآية ٩٦ من سورة الأنبياء وعلى وجه الاحتمال: (... ويكون اسم يأجوج ومأجوج تشبيهاً بليغاً. وتخصيصهما بالذكر لشهرة كثرة عددهما عند العرب من خبر ذي القرنين. ويدل لهذا حديث أبي سعيد الخدري أن النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: «يقول الله لآدم» يوم القيامة «أخرج بعث النار فيقول: يارب وما بعث النار؟ فيقول الله: من كل ألف تسعمائة وتسعه وتسعون. قالوا: يا رسول الله: وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً، ومن يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين». أو يكون اسم يأجوج ومأجوج استعمل مثلاً للكثرة كما في قول ذي الرمة:

لو أن ياجوج ومأجوج معاً وعاد عاد واستجاشوا تبعاً

أي حتى إذا أُخرجت الأموات كيأجوج ومأجوج، على نحو قوله «تعالى»: ﴿يَخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾^(١) فيكون تشبيهاً بليغاً من تشبيه المعقول بالمعقول^(٢).

١. سورة القمر: ٧.

٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٧، ص ١٤٨-١٤٩.

ولو صحّ ذلك - ولم يثبت لديّ من مصدر مستقل، كما لم يذكر ابن عاشور مستنده، فيمكن أن يفيد في إعادة فهم الآية، كما بيّن ابن عاشور ذلك، بل وردّ كثير مما تناولته روايات منسوبة للنبي وغيره حول علامات يوم القيامة مما له علاقة بالسد ويأجوج ومأجوج.

□ المغول أم الروس؟

تعدّدت الآراء في تحديد مَنْ هم يأجوج ومأجوج فعلياً، ومن بينها قول مَنْ ذكر أنهم المغول، وقيل بل هم الروس. فقد نقل العلامة الطباطبائي في بحثه حول قصة ذي القرنين عدة أقوال، من بينها رأي الباحث الهندي أبو الكلام آزاد «ت ١٩٥٨م» الذي اعتبر فيه أن يأجوج ومأجوج ليسوا سوى المغول، قال العلامة: (وقيل: إن ذا القرنين هو كورش، أحد ملوك الفرس الهخامنشيين «٥٣٩ - ٥٦٠ ق. م.» وهو الذي أسس الإمبراطورية الإيرانية، وجمع بين مملكتي الفارس وماد، وسخّر بابل، وأذن في رجوع اليهود من بابل إلى أورشليم وساعد في بناء الهيكل، وسخّر مصر ثم اجتاز إلى يونان فغلبهم، وبلغ المغرب ثم سار إلى أقاصي المعمورة في المشرق. ذكره بعض مَنْ قارب عصرنا) السير أحمد خان الهندي «ت ١٨٩٨م» (ثم بذل الجهد في إيضاحه وتقريبه بعض محققي الهند في هذه الأواخر) وهو أبو الكلام آزاد (بيان ذلك إجمالاً أن الذي ذكره القرآن من وصف ذي القرنين منطبق على هذا الملك العظيم فقد كان مؤمناً بالله بدين التوحيد، عادلاً في رعيته، سائراً بالرفقة والرفق والإحسان، سائساً لأهل الظلم والعدوان، وقد آتاه الله من كل شيء سبباً، فجمع بين الدين والعقل وفضائل الأخلاق والعدة والقوة

والثروة والشوكة ومطاوعة الأسباب. وقد سار كما ذكره الله في كتابه، مرة نحو المغرب حتى استولى على «ليديا» جزء من تركيا حالياً (وحواليها، ثم سار ثانياً نحو المشرق حتى بلغ مطلع الشمس ووجد عنده قوماً بدويين همجيين يسكنون في البراري، ثم بنى السد، وهو على ما يدل عليه الشواهد السد المعمول في مضيق «داريال» بين جبال قفقاز بقرب «مدينة تفليس») عاصمة جورجيا (.....). وأما يأجوج ومأجوج فالبحت عن التطورات الحاكمة على اللغات يهديننا إلى أنهم المغول، فإن الكلمة بالتكلم الصيني «منكوك» أو «منجوك» ولفظتا يأجوج ومأجوج كأنهما نقلٌ عبراني، وهما في التراجم اليونانية وغيرها للعهد العتيق «كوك» و«مأكوك»، والشبه الكامل بين «ماكوك» و«منكوك» يقضي بأن الكلمة متطورة من التلفظ الصيني «منكوك» كما اشتق منه «منغول» و«مغول» ولذلك في باب تطورات الألفاظ نظائر لا تحصى. فيأجوج ومأجوج هما المغول، وكانت هذه الأمة القاطنة بالشمال الشرقي من آسيا من أقدم الاغصار أمة كبيرة مهاجمة، تهجم برهة إلى الصين، وبرهة من طريق داريال قفقاز إلى أرمينستان وشمال إيران وغيرها، وبرهة - وهي بعد بناء السد - إلى شمال أوروبا، وتسمى عندهم بسيت، ومنهم الأمة الهاجمة على الروم، وقد سقطت في هذه الكرّة دولة رومان، وقد تقدم أيضاً أن المستفاد من كتب العهد العتيق أن هذه الأمة المفسدة من سكنة أقاصى الشمال^(١).

ثم علّق العلامة الطباطبائي على كلام آزاد قائلاً: (هذه جملة ما لخصناه

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٩١-٣٩٦.

من كلامه، وهو وإن لم يخلُ عن اعتراض ما في بعض أطرافه لكنه أوضح انطباقاً على الآيات وأقرب إلى القبول من غيره^(١). وقد سبقه إلى القول بأن المراد بيأجوج ومأجوج هم المغول، المؤرخ ابن كثير الدمشقي «٧٠١-٧٧٨هـ» الذي وُلد بعد الغزو المغولي لبلاد المسلمين بفترة قصيرة، حيث بدأت غزواتهم أوائل القرن الهجري السابع ثم سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية بأيديهم سنة ٦٥٦ هـ.

قال ابن كثير في موسوعته التاريخية «البدية والنهاية»: (ذكر أمّتي يأجوج ومأجوج وصفاتهم: وتقدم في الحديث المروي في المسند والسنن: أن نوحاً وُلد له ثلاثة، وهم: سام، وحام، ويافث، فسام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك؛ فيأجوج ومأجوج طائفة من التُّرك، وهم مغل المغول، وهم أشدّ بأساً وأكثر فساداً من هؤلاء، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم. وقد قيل: إن التُّرك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم، فتركوا من ورائه، فلهذا قيل لهم: التُّرك)^(٢).

وتبعه على هذا الرأي آخرون، فقال - على سبيل المثال - ابن عاشور وهو يتحدث عن سدّ ذي القرنين: (إن موضع السدّين) أي الجبلين (هو الشمال الغربي لصحراء «قوبي» الفاصلة بين الصين وبلاد المغول شمال الصين وجنوب منغوليا. وقد وُجد السدّ هنالك ولم تزل آثاره إلى اليوم شاهداها

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٩٦.

٢. ابن كثير: البدية والنهاية، ج ٢، ص ٥٥٢.

الجغرافيون والسائحون وصُوِّرت صوراً شمسية في كتب الجغرافيا وكتب التاريخ العصرية)^(١).

وابن عاشور هنا يشير إلى «قوبي» أو «جوبي» أو «غوبي» والتي تُعتبر منطقة صحراوية كبيرة في آسيا، وتغطي أجزاء من شمال وشمال غرب الصين، وجنوب منغوليا. ذُكرت في التاريخ كجزء من الإمبراطورية المغولية العظمى، وتخرقها أجزاء من سور الصين العظيم. ففي عام ٢٢١ ق.م. وحد الإمبراطور الصيني «شي هوانغ دي» ما يُعرف في التاريخ الصيني بالممالك المتحاربة، مؤسساً أول دولة موحدة ذات سلطة مركزية في تاريخ الصين. وكانت تلك الممالك قد وضعت أسواراً لحماية أراضيها، فقام الإمبراطور «شي هوانغ دي» بربط تلك الأسوار التي بنتها تلك الممالك المتحاربة صدّاً لهجمات القبائل المغولية والتركية القادمة من الشمال. وقد بلغ السور حينها ٥٠٠٠ كم. ثم واصلت الأسر الملكية المتعاقبة في الصين بناء السور وزيادته باطراد. ويُعدّ كلٌّ من «قبلاي خان» و«جنكيز خان» من كبار قادة هذه الأرض، واستطاع جنكيز خان اقتحام سور الصين العظيم في القرن الثالث عشر الميلادي، واحتل بذلك جزءاً كبيراً من الصين.

ثم أضاف ابن عاشور قائلاً حول المغول والتتار: (وقد قال بعض العلماء: إن المغول هم مأجوج، بالميم، اسم جدّ لهم يقال أيضاً سكيثوس)^(٢). وكان الاسم العام الذي يجمع القبيلتين مأجوج، ثم انقسمت الأمة فسُميت فروعها

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٧، ص ٣١.

٢. سيأتي معنا عند شرح كلام القس أنطونيوس من هم هؤلاء.

بأسماء خاصة، فمنها مأجوج ويأجوج، وتتر، ثم التركمان، ثم الترك. ويحتمل أن الواو المذكورة ليست عاطفة ولكنها جاءت في صورة العاطفة فيكون اللفظ كلمة واحدة مركبة تركيباً مزجياً، فتكون اسماً لأمة، وهم المغول. والذي يجب اعتماده أن يأجوج ومأجوج هم المغول والتتر. وقد ذكر أبو الفداء^(١) أن مأجوج هم المغول، فيكون يأجوج هم التتر. وقد كثرت التتر على المغول فاندمج المغول في التتر وغلب اسم التتر على القبيلتين. وأوضح شاهد على ذلك ما ورد في حديث أم حبيبة عن زينب بنت جحش أن النبي «صلى الله عليه وسلم» دخل عليها فزِعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرِّ قد اقترب. فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلَّق^(٢) بأصبعيه الإبهام والتي تليها -»^(٣)... ولا يُعرف بالضبط وقت انطلاقهم من بلادهم ولا سبب ذلك. ويُقدَّر أن انطلاقهم كان أواخر القرن السادس الهجري. وتشتَّت مَلِك العرب بأيدي المغول والتتر من خروج جنكيز خان المغولي واستيلائه على بُخَارَى سنة ست عشرة وستمائة من الهجرة، ووصلوا ديار بكر^(٤) سنة ٦٢٨ هجرية، ثم ما كان من تخريب هولاكو بغداد عاصمة مَلِك العرب سنة ٦٦٠ هجرية^(٥).

ثم أراد ابن عاشور أن يبرهن على رأيه في دمج الاسمين للدلالة على

١. أي المؤرخ ابن كثير الدمشقي.

٢. أي جعلهما مثل الحلقة.

٣. البخاري: صحيح البخاري، ح ٦٧١٦.

٤. تقع في تركيا حالياً.

٥. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٧، ص ٣٢-٣٤.

شيء واحد فقال: (ونظير إطلاق اسمين على حيٍّ مؤتلفٍ من قبيلتين، إطلاق «طسم وجديس» على أمة من العرب البائدة. وإطلاق «السكاسك والسكرن» في القبائل اليمنية، وإطلاق «هلال وزغبة» على أعراب إفريقية الواردين من صعيد مصر . وإطلاق «أولاد يحيى» على حي بتونس بالجنوب الغربي، و«مرادة وفرجان» على حي من وطن نابل بتونس... واختلف المفسرون في أنه اسم عربي أو معرَّب. وغالب ظني أنه اسم وضعه القرآن، حاكي به معناه في لغة تلك الأمة المناسب لحال مجتمعهم، فاشتقَّ لهما من مادة «الأج» وهو الخَلَط. إذ قد علمت أن تلك الأمة كانت أخلاطاً من أصناف^(١)).

وهكذا قال القس أنطونيوس فكري في تفسير الإصحاح ١٠ من سفر التكوين: (ماجوج: كلمة عبرية تعني أرض جوج. واقترن الاسمان معاً وصارا رمزاً لمقاومة الإيمان المسيحي. ومنهم التتار) التَّار أو التَّتر كلمة أطلقها العرب على مجموعة القبائل المغولية التي اجتاحت بلاد المسلمين (والسكيثيين) السكوثيون أو الإصقوث أو كما ذكرهم ابن عاشور باسم سكيثوس هم شعب بدوي متنقل، ويقال أن البشتون الأفغان ينحدرون منهم، جاءوا بدءاً من إيران الحالية، ثم نزحوا قديماً من سهول أوراسيا إلى جنوبي روسيا في القرن ٨ ق.م، واستقروا بغربي نهر الفولجا شمال البحر الأسود حيث كانوا على صلة بالمستعمرات الإغريقية حول البحر الأسود والتي تُعرف اليوم بشبه جزيرة القرم. تمكَّن السكوثيون من تأسيس إمبراطورية غنية وقوية استمرت لقرون عديدة. كتب عنهم أيضاً المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس ووصفهم بأنهم

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٧، ص ٣٤.

شعب ماجوج (ومكانهم بين بحر قزوين والبحر الأسود)^(١). وفي المقابل فقد احتل بعض شراح الكتاب المقدس أن المراد بيأجوج ومأجوج روسيا.. قال القس أنطونيوس فكري في تفسير الإصحاح ٣٨ من سفر حزقيال: (جوج: هو اسم لملك بربري متوحش ودموي في حروبه ويقول البعض أنه رئيس روسيا، حيث أنه مذكور هنا أنه رئيس روش ماشك وتوبال. فيفسرون روش على أنها روسيا، وماشك على أنها موسكو، وتوبال على أنها توبولسك) مدينة روسية تقع في منتصف روسيا تقريباً (وكل هذا في روسيا. ولكن الأقرب للصحة أن روش وماشك وتوبال هي قبائل كانت تقطن في مناطق البحر الأسود وبحر قزوين. جوج أرض ماجوج. ماجوج هو ابن يافث، وغالباً فماجوج هي الأرض التي يسكنها جوج، كما نقول فرعون والمصريين أو فرعون وأرض مصر)^(٢).

وتداخلت الصراعات السياسية في تحديد يأجوج ومأجوج، فكتب وتحدث بعض المتعاطفين مع الكيان الصهيوني عن حتمية كون المراد منهما خصوص روسيا، وبعضهم ضم إليها إيران أيضاً، وذلك بلحاظ بعض المواقف السياسية الراهنة، ومجريات الأحداث على الأرض، لاسيما بلحاظ المشهد السوري وتدخلاته منذ عام ٢٠١١، حتى كتب الدكتور الأمريكي «مارك هيتشكوك» - صاحب الثلاثين مؤلفاً إلى حد الآن حول نبوءات الكتاب المقدس عن نهاية العالم - كتاباً بعنوان «صعود روسيا» Russia Rising تساءل فيه ما إذا

1. <https://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/showVerses.php?book=1&chapter=10&vmin=2&vmax=2>

2. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/31-Sefer-Hazkyal/Tafseer-Sefer-Hazkial_01-Chapter-38.html#1

كان الرئيس الروسي الحالي هو يأجوج، الرجل الذي سيقود مملكة الشمال للعدوان الكبير على إسرائيل. هيتشكوك، وإن لم يحسم الإجابة على السؤال في كتابه هذا، لكنه يعتقد أن ذلك أمر محتمل، وأن الموقف العدواني لروسيا تجاه إسرائيل - بحسب تعبيره - يمكن أن يؤدي في المستقبل القريب إلى غزوة «الفجر الأحمر» لإسرائيل المتنبأ بها في سفر حزقيال، وأضاف: «يبدو أن نبوءة حزقيال تتحرك إلى مكانها الصحيح». والأهم من ذلك، أن التحالف الكبير الذي تنبأ به حزقيال يبدو أنه قد اقترب من التحقق، والدليل على ذلك التقارير التي تتحدث عن انتشار النفوذ الروسي في ليبيا مما يُظهر كيف أن هذا البلد يتجه نحو عضوية الائتلاف، مذكراً بالنص الوارد في سفر حزقيال: (يَا ابْنَ آدَمَ، اجْعَلْ وَجْهَكَ عَلَى جُوجَ، أَرْضِ مَا جُوجَ رَئِيسَ رُوشَ مَا شَكَ وَتُوبَالَ، وَتَنَبَّأَ عَلَيْهِ... جَمَاعَةٌ عَظِيمَةٌ مَعَ أَتْرَاسٍ وَمَجَانٍّ، كُلَّهُمْ مُمَسِّكِينَ السُّيُوفِ. فَارِسَ وَكُوشَ وَقُوطَ مَعَهُمْ...) (١) ومن المعلوم أن فوط هي ليبيا الحالية.

ويرى الدكتور هيتشكوك أن الحرب في سوريا قد أدت إلى إنشاء تحالف روسي - تركي - إيراني، وهو ما أشار إليه النص السابق، ويقول: «يمكن لمحور روسيا وإيران وتركيا المؤلف من ثلاث دول أن يتحول بسرعة إلى التحالف الكامل الذي تنبأ به النبي حزقيال».

هذا النموذج من التحليل ومحاولة إسقاط الواقع على النص لتحديد يأجوج ومأجوج مارسه ويمارسه كثيرون في الوسط الإسلامي تأثراً بالأحداث، كما جاء في كلام ابن كثير مثلاً، ومارسه ويمارسه آخرون أيضاً من خارج الدائرة

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر حزقيال، الإصحاح ٣٨ : ٢-٥.

الإسلامية، وهي لا تعدو أن تكون محاولات دون أن تحمل في طياتها نتائج صارمة يمكن الوثوق بها بشكل كامل وأكد.

□ النسل البشري:

لابد - قبل الاسترسال في البحث حول تحديد يأجوج ومأجوج - من التوقف عند مسألة مهمة جداً، ترتبط بالنسل البشري بعد طوفان النبي نوح «عليه السلام». فالرأي المعروف والمتداول على الألسن وفي كثير من الكتابات أن البشرية بعد الطوفان تنحدر من ثلاثة أولاد من ذرية هذا النبي الكريم، وهم سام وحام ويافت، إلا أن عدة أدلة تؤكد بطلان هذا القول، والأساس في هذا الخطأ الفادح هو النص التوراتي الوارد في الإصحاحين التاسع والعاشر من سفر التكوين: (وَبَارَكَ اللَّهُ نُوحًا وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَكَثُرُوا وَامْلَأُوا الْأَرْضَ.... وَكَانَ بَنُو نُوحَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفُلِّ سَامًا وَحَامًا وَيَافَثَ. وَحَامٌ هُوَ أَبُو كَنْعَانَ. هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمْ بَنُو نُوحَ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الْأَرْضِ»^(١)).

قال القس أنطونيوس فكري في تفسير الآية الأولى من هذا النص: (وأولاد نوح تفرعت منهم كل شعوب العالم. وكلمات البركة تشبه هذه التي قيلت لآدم وحواء)^(٢).

ثم يفصل الإصحاح العاشر ما جاء في النص السابق إذ يقول: (وهذه مواليد بني نوح: سَامٌ وَحَامٌ وَيَافَثُ. وَوُلِدَ لَهُمْ بَنُونَ بَعْدَ الطُّوفَانِ).

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٩: ١-١٩.

2. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/01-Sefer-El-Takween/Tafseer-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-09.html#1

بَنُو يَافَثَ: جُومَرُ وَمَآجُوجُ وَمَادَايَ وَيَاوَانُ وَتُوبَالُ وَمَاشِكُ وَتِيرَاسُ. وَبَنُو جُومَرَ: أَشْكَنَازُ وَرِيفَاثُ وَتُوجَرَمَةُ. وَبَنُو يَاوَانَ: أَلِيشَةُ وَتَرَشِيشُ وَكَتِيمُ وَدُودَانِيمُ. مِنْ هَؤُلَاءِ تَفَرَّقَتْ جَزَائِرُ الْأُمَمِ بِأَرَاضِيهِمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ كَلِسَانِهِ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ بِأُمَمِهِمْ.

وَبَنُو حَامَ: كُوشُ وَمِصْرَايِمُ وَفُوطُ وَكَنْعَانُ. وَبَنُو كُوشَ: سَبَا وَحَوِيلَةُ وَسَبْتَةُ وَرَعْمَةُ وَسَبْتَكَا. وَبَنُو رَعْمَةَ: شَبَا وَدَدَانُ. وَكُوشُ وَلَدَ نَمْرُودَ الَّذِي أَبْتَدَأَ يَكُونُ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ، الَّذِي كَانَ جَبَّارَ صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ. لَذَلِكَ يُقَالُ: «كُنْمَرُودَ جَبَّارُ صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ». وَكَانَ أَبْتَدَأُ مَمْلَكَتَهُ بَابِلَ وَأَرَاكَ وَأَكَّدَ وَكَلْنَةَ، فِي أَرْضِ شَنْعَارَ. مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ خَرَجَ أَشُورُ وَبَنَى نَيْنَوَى وَرَحُوبُوتَ عَيْرَ وَكَالْحَ وَرَسَنَ، بَيْنَ نَيْنَوَى وَكَالْحَ، هِيَ الْمَدِينَةُ الْكَبِيرَةُ. وَمِصْرَايِمُ وَلَدَ: لُودِيمَ وَعَنَامِيمَ وَلَهَايِمَ وَنَفْتُوحِيمَ وَفَتْرُوسِيمَ وَكَسْلُوحِيمَ الَّذِينَ خَرَجَ مِنْهُمْ فِلِسْتِيمُ وَكَفْتُورِيمُ. وَكَنْعَانُ وَلَدَ: صِيدُونَ بَكْرَهُ، وَحِثًّا. وَالْيَبُوسِيِّ وَالْأَمُورِيِّ وَالْجَرْجَاشِيِّ. وَالْحَوِيِّ وَالْعَرَقِيِّ وَالسَّيْنِيِّ. وَالْأَرَوَادِيِّ وَالصَّمَارِيِّ وَالْحَمَاتِيِّ. وَبَعْدَ ذَلِكَ تَفَرَّقَتْ قَبَائِلُ الْكَنْعَانِيِّ. وَكَانَتْ تُخَوِّمُ الْكَنْعَانِيَّ مِنْ صِيدُونَ، حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ جَرَارَ إِلَى غَزَّةَ، وَحِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَأَدَمَةَ وَصَبُوبِيمَ إِلَى لَاشَعِ. هَؤُلَاءِ بَنُو حَامَ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ كَأَسِنَّتِهِمْ بِأَرَاضِيهِمْ وَأُمَمِهِمْ.

وَسَامُ أَبُو كُلِّ بَنِي عَابَرَ، أَخُو يَافَثَ الْكَبِيرِ، وَلَدَ لَهُ أَيْضًا بَنُونَ. بَنُو سَامَ: عِيلَامُ وَأَشُورُ وَأَرْفَكَشَادُ وَلُودُ وَأَرَامُ. وَبَنُو أَرَامَ: عُوْصُ وَحُولُ وَجَاثَرُ وَمَاشُ. وَأَرْفَكَشَادُ وَلَدَ شَالِحَ، وَشَالِحُ وَلَدَ عَابَرَ. وَلِعَابِرُ وَلَدَ ابْنَانَ: اسْمُ الْوَاحِدِ فَالْجُ لَأَنَّ فِي أَيَّامِهِ قُسِمَتِ الْأَرْضُ. وَاسْمُ أَخِيهِ يَقْطَانُ. وَيَقْطَانُ وَلَدَ: الْمُودَادَ وَشَالَفَ

وَحَضَرَمَوْتَ وَيَارَحَ وَهَدُورَامَ وَأَوْزَالَ وَدِقْلَةَ وَعُوبَالَ وَأَبِيمَايِلَ وَشَبَا وَأُوفِيرَ وَحَوِيلَةَ وَيُوبَابَ. جَمِيعُ هَؤُلَاءِ بَنُو يَقْطَانَ. وَكَانَ مَسْكَنُهُمْ مِنْ مِيشَا حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ سَفَارِ جَبَلِ الْمَشْرِقِ. هَؤُلَاءِ بَنُو سَامَ حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ كَالسِّنْتِهِمْ بِأَرْضِيهِمْ حَسَبَ أُمَمِهِمْ. هَؤُلَاءِ قَبَائِلُ بَنِي نُوحَ حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ بِأُمَمِهِمْ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ تَفَرَّقَتِ الْأُمَمُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ الطُوفَانِ^(١).

هذا النص له تأثير بالغ في التصور الديني عند اليهود والنصارى وحتى عند المسلمين، قال الطبري: (وقوله ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾^(٢) يقول: وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد مهلك قومه، وذلك أن الناس كلهم من بعد مهلك نوح إلى اليوم إنما هم ذرية نوح، فالعجم والعرب أولاد سام بن نوح، والترك والصقالبة^(٣) والخزر^(٤) أولاد يافث بن نوح، والسودان أولاد حام بن نوح، وبذلك جاءت الآثار، وقالت العلماء. حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا ابن عَشْمَةَ، قال: ثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَةَ، عن النبي «صلى الله عليه وسلم» في قوله ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: «سام وحام ويافث». حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: «فالناس كلهم من ذرية نوح». حدثنا علي، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ١٠: ١-٣٢.

٢. سورة الصافات: ٧٧.

٣. أطلق العرب هذا المصطلح على الروس ومن يشبههم في بياض بشرتهم المائل إلى الحمرة، واللكمة تحوير لكلمة السلاف التي تطلق على القاطنين بين القسطنطينية وأرض البلغار.

٤. أطلق العرب هذا المصطلح على إحدى القبائل التي تنتمي إلى العرق التركي والتي هاجرت في القرن السادس الميلادي إلى منطقة القفقاز تاركة موطنها الأصلي في منطقة وسط آسيا.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ يقول: «لم يبق إلا ذرية نوح»^(١).

والحال أن القرآن الكريم لم يتحدث عن قصر النسل البشري من بعد نوح على ذريته فقط، بل لربما نستطيع القول بوجود إشارة تدلّ على خلاف ذلك، حيث قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا، ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(٢). فعلى الأقل هناك جزء من النسل البشري لا ينتمي إلى خصوص نوح، بل إلى مَنْ حُمِلُوا معه في السفينة، والذين لم يقتصروا على أولاده، إلا أن يُقال بفناء كل مَنْ كانوا على السفينة من المؤمنين إلا نوح وأبنائه، أو أن المؤمنين لم يكونوا إلا الأجيال المتعاقبة من ذريته.

وقد أثبتت الدراسات العلمية الجينية والأركيولوجية والأنثروبولوجية خطأ هذا التصور، حيث تؤكد هذه الدراسات التي بلغ بعضها حدّ العلم والنتيجة الأكيدة بأن الكثير من الأجناس البشرية تنحدر من سلالات باقية عبر عشرات الآلاف من السنين، واستمرّت تتناسل ولا تلتقي عند جد واحد - هو النبي نوح - والذي عاش قبل ٨٠٠٠ - ٧٠٠٠ سنة أو أقل أو أكثر من ذلك بقليل.

وقد كتب د. عبد السميع بهبهاني مقالاً يحدد فيه العمر التقريبي للطوفان وذلك تحت عنوان: «طوفان نوح يتحدى الجيولوجيين»، جاء فيه: (لا تزال

١. الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج ٢١، ص ٥٩.

٢. سورة الإسراء: ١-٣.

الأحداث الجيولوجية ذات العمر القصير تشكل تحدياً للجيولوجيين لاكتشافها ومن ثم تفسيرها، ومن هذه الأحداث المهمة عند جميع الأديان السماوية طوفان نوح «عليه السلام». وعندما نقارن أحداث القصة في السرد الوارد عند هذه الأديان، نجد أنها تتشابه من حيث عدم التفصيل في ذكر الأحداث، فما يمكن أن نفهمه من القصة هو أن الطوفان حدث فجأة قبل حوالي سبعة آلاف سنة، وظل لمدة وجيزة تتراوح بين ٧ إلى ٤٠ يوماً، وقد غلب فيه الماء العذب - من أمطار ومياه جوفية - على الماء المالح، وحمل نوح «عليه السلام» معه في السفينة من كل زوجين اثنين وإلى غير ذلك من المتشابهات في العناوين المهمة للحدث، ومن جهة أخرى نجدها تتشابه في الاختلافات التي ولّدتها عند أتباع كل دين، فقد ناقش علماء الأديان واختلفوا في سعة الطوفان فمنهم من قال أنه شمل الأرض كلها، ومنهم من قال أنه محدود بمن شملهم العذاب. ممن شغلتهم هذه القصة عالما الرسوبيات «بتمان وريان» كما جاء في بحثهما في «المستكشف» التابع لاتحاد جيولوجيي البترول الأمريكي، فبدءاً بجمع المعلومات التي يمكنها أن تدل على ذلك الطوفان الذي حدث قبل سبعة آلاف سنة ولمدة تتراوح من ٧ إلى ٤٠ يوماً، وتركز البحث في المنطقة التي تشابهت الأديان في كون رسالة نوح «عليه السلام» فيها... أي الخليج العربي، حيث أن مهد الحادثة كان في الكوفة، ثم البحر الأحمر والبحر الأسود. لقد وقعت في أيدي العالمين دراسة صخور كانت قد استُخرجت على هيئة لُبَاب، عندما كان فريق هندسي روسي يعمد إلى حفر نفق عبر مضيق «بوسبورس» بين البحر المتوسط والبحر الأسود. الدراسة

تحتوي على ٣٠ متراً من رسوبيات صخرية من مياه عذبة، وعلى عمق ١٠٠ متر من قاع المضيق في البحر الأسود، وقُدِّرَ عمر الصخور بحوالي ٧٠٠٠ سنة. وقد لوحظ في مضاهاة هذا الصخر عبر مناطق مختلفة، أنه متكون بتغيير مفاجيء على طبقات من الرسوبيات البحرية العميقة في مضيق «أزوف» وفي مناطق أخرى متكون على صخور صلبة قديمة بلغ عمرها ملايين السنين، كما في منطقة «كرميان» الروسية، وقد قيس العمر الافتراضي لهذه الطبقات بواسطة الأحافير التي يعلوها وبواسطة نظائر كربون ١٣ فوجد أن عمرها حوالي ٧٠٠٠ سنة. وهذا يعني أن حدثاً مفاجئاً وقع في ذلك التاريخ جعل تركيبة الطبقات تختل بشكل مفاجيء، إذ أن الوضع الطبيعي يستدعي وجود تلك الصخور على طبقة الصخور الصلبة القديمة، بينما وجدت متكونة على الطبقة الرسوبية الحديثة.. إذن فالقضية ترتبط بالماء.. أي بالطوفان!! ولتحديد مساحة الطوفان أشرك العالمان الجيولوجيان علماء الآثار في أوروبا وروسيا، فوجدوا أن في أوروبا وعلى مساحة ١٤٠٠٠ كيلومتر مربع تطوراً زراعياً ملحوظاً لم يكن له أثر قبل ٥٥٠٠ سنة قبل الميلاد، أي قبل ٧٥٠٠ عام، ولاحظوا أيضاً أن هناك شبكات ريّ قد تكونت في نفس الفترة في شرق آسيا - هضبة الأناضول على سبيل المثال - بينما كانت قبل التاريخ مجرد صحراء، خالية من آثار الزراعة. بل وقد امتدت هذه الظاهرة من التطور الزراعي المفاجئ في منطقة دلتا النيل أيضاً، وهذا دفعهم لكي يستنتجوا أن هذه المناطق كانت مهمة لعدم أهميتها زراعياً قبل الطوفان^(١).

ويؤكد ما سبق من التحديد التاريخي ما نشرته مجلة «الغارديان» الإلكترونية تحت عنوان «الحصول على إثبات لوجود ضحايا لطوفان نوح» (لقد وجد علماء الآثار البحريين أول دليل على وجود أشخاص لقوا حتفهم في فيضان كبير من البحر الأسود كان مرتبطاً بقصة سفينة نوح. فباستخدام روبوت متحرك تحت الماء ولأكثر من ٣٠٠ قدم تحت سطح البحر، عثر العلماء على أرضية متعرجة، تغطي بيوتاً أغرقت قبل أكثر من ٧٠٠٠ سنة. وتم الإعلان عن هذا الاكتشاف من قبل «روبرت بالارد»، العالم الذي اكتشف حطام سفينة «تيتانيك». كان البحر الأسود يوماً بحيرة مياه عذبة، أقل بكثير من مستوى سطح البحر. منذ حوالي ٧٠٠٠ سنة، وفقاً للأدلة الجيولوجية، دفع البحر المتوسط المتصاعد بقناة عبر مضيق البوسفور، ومن ثم تدفقت مياه البحر إلى حوالي ٢٠٠ ضعف حجم شلالات نياغرا. كان من الممكن أن يتسع البحر الأسود بمعدل ميل في اليوم، ويفرق الخط الساحلي الأصلي تحت مئات الأقدام من المياه المالحة. ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ ميل مربع كانت مغمورة. قواقع البحر على شواطئ البحر الأسود الحديثة هي من أصل بحري، ولكن تحت أعماق السطح توجد طبقات من قشور المياه العذبة الرخوية، بما يشهد على شاطئ البحيرة القديمة. هنا العديد من الأساطير المتعلقة بفيضان كبير في المنطقة)^(١).

ويصف المقال بعد ذلك كيفية العثور على بيوت ومنشآت بشرية تؤكد غرقها في ذلك التاريخ نتيجة غمرها بمياه مفاجئة، ويضيف: (وقال «فريد

1. <https://www.theguardian.com/science/2000/sep/14/internationalnews.archaeology>

هيبييرت» عالم الآثار في جامعة بنسلفانيا، والذي كان على متن السفينة أيضاً: «ما ننظر إليه هو ثقافة تعود بالتأكيد إلى آلاف السنين. الفيضان هو حدث معروف جيولوجياً، وبالنسبة لنا، يمكننا إيجاد هيكل في ١٥٠ متراً من المياه، يعني أن هؤلاء الأشخاص كانوا يعيشون هناك بالتأكيد قبل أن تغمرهم مياه الفيضان، لذا فهو ما قبل اليونان. إنه عالم مختلف ويستحقه قدراً كبيراً من الاهتمام وسنوات الدراسة لمساعدتنا على تحديد هوية هؤلاء الأشخاص حقاً»^(١). كما أن الدراسات الجيولوجية لم تؤكد أن الطوفان شمل كل الكرة الأرضية، بل ما توصل إليه الجيولوجيون إلى الآن هو أن الطوفان كان محلياً شمل موطن النبي نوح في العراق ودائرة قريبة منها فقط، وتوسّع البعض فقالوا أنه شمل آسيا وأوروبا فقط دون سائر القارات، وهو - بنظري - الأقرب إلى الصحة.

ولو جمعنا هذه الدراسات الحديثة بعضها ببعض فسنخرج بنتيجة مفادها عدم الموافقة على انحدار الجنس المغولي أو الروسي - على فرض أنهم هم يأجوج ومأجوج - من النبي نوح «عليه السلام».

فبحسب تصنيف السلالات البشرية حول العالم وفق جينات الـ Y-DNA فإن كل السلالات ترجع إلى جد واحد وُلد في أفريقيا قبل ما يقارب ٢٧٥,٠٠٠ سنة - مع احتمال زيادة أو نقصان - ومن أشقَى وُلدت في أفريقيا قبل ١٥٠,٠٠٠ سنة تقريباً. ومن هذين وُجدت كل السلالات البشرية المعاصرة التي تُوزَّع على أقسام، ولكل قسم رمز.

١. <https://www.theguardian.com/science/2000/sep/14/internationalnews.archaeology>.

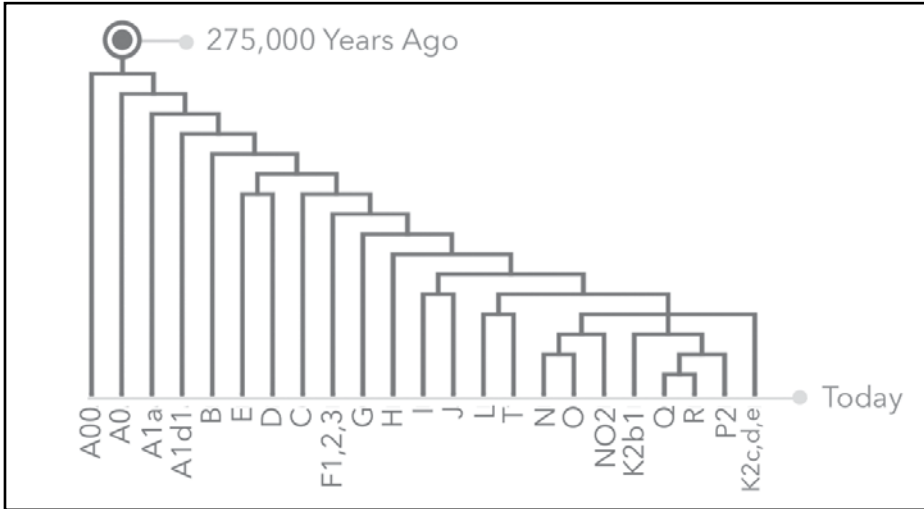
فالمغول ينحدرون من السلالة C-M217، وأحفاد جنكيز خان ينتمون إلى هذه السلالة^(١). ويُعتقد أن هذه السلالة الجينية قد نشأت قبل ما بين ١٦,٧٠٠ إلى ٧,١٠٠ سنة وذلك في شرق آسيا أو وسطها، وهي بدورها تنحدر عن السلالة C التي نشأت بين بحر قزوين وبحيرة بايكال منذ حوالي ٢٤,٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهي بدورها تنحدر من السلالة CZ التي نشأت قبل ٤٥,٠٠٠ سنة تقريباً. أما الروس فقد أظهرت النتائج أن نصفهم تقريباً ينحدرون من السلالة R1a وقرابة الربع من السلالة I وآخرين من السلالتين N و R1b ونشأت بين ٢٢,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ سنة، ثم تنوعت في السهول الأوروبية الآسيوية أو منطقة الشرق الأوسط والقوقاز، ومن الواضح أنها سلالة مختلفة تماماً عن سلالة المغول.

أما بالنسبة إلى العرب وبني إسرائيل فهما ينحدران من السلالة L التي ظهرت كطفرة جينية في الشرق الأدنى أو القوقاز قبل حوالي ٤٥,٠٠٠ سنة. (وقد تبين إلى الآن من نتائج الذين فحصوا من القبائل العربية أنهم من أصل واحد أطلقوا عليه الرمز «L» وهذا الجين قديم يرمز للقبائل السامية القديمة - بما فيها اليهود^(٢) والعرب - حتى حدث التحور الجيني أو ما يسمى بالطفرة، وهي عبارة عن تغير في المعلومات الوراثية كمّاً ونوعاً وعدداً والذي يحدث مرة كل ٢١٠ سنوات تقريباً، وهو ما يسمى بالتحور السريع، أو يحدث مرة كل ٤٥٤٥ سنة تقريباً، ويطلق عليه التحور البطيء^(٣)).

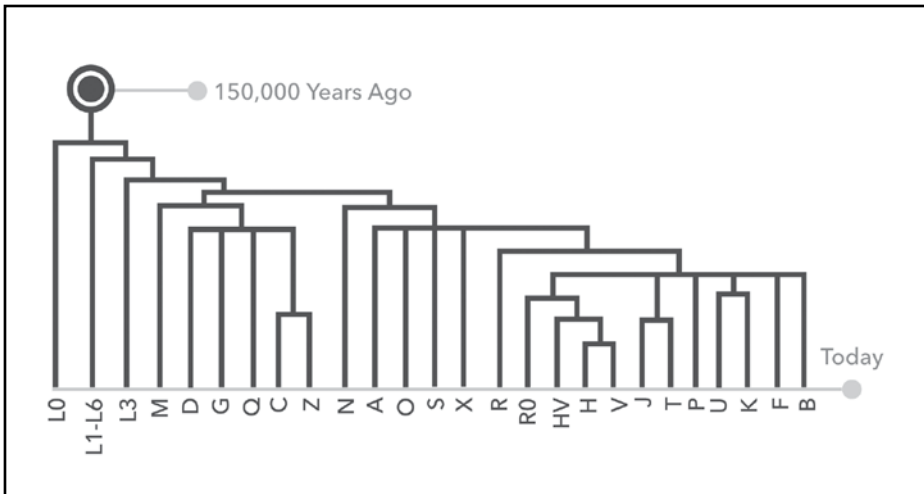
1. <https://azamil.com/?p=32222>

٢. الأصح أن نقول من بني إسرائيل، فعنوان اليهود أشمل.

3. <http://dnaj2.com/vb/showthread.php?t=159>



السلالات الجينية الذكورية



السلالات الجينية الأنثوية

فهل يمكن الموافقة بعد هذا على أن كل النسل البشري الحالي ينحدرون من الأبناء الثلاثة للنبي نوح «عليه السلامس الذي عاش قبل أقل من عشرة آلاف سنة؟

□ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَالْآخِرَةُ:

ارتبط ذكر يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ بِالْآخِرَةِ كعلامة من العلامات الدالة على قرب قيام الساعة، وذلك بلحاظ قوله «عز وجل»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(١).

فاقترب الحق يعني بحسب كثير من المفسرين قيام الساعة، حيث يقوم هؤلاء المتوحشون بالهجوم من الأراضي الغليظة المرتفعة والهضاب ﴿حَدَبٍ﴾ بسرعة واندفاع وبأعداد ضخمة، ثم تعقبها مجموعة من الأحداث الرهيبة والغريبة.

أما على مَنْ يهجمون؟ وما علاقة هذا باكتشاف الذين كفروا أنهم كانوا في غفلة عن يوم القيامة، ولماذا بدأت الآية بالتأنيث ﴿فُتِحَتْ﴾ ثم بجمع المذكر السالم ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، فأمر غير واضحة.

ولربما لو عدنا إلى السياق لتوصلنا إلى نتيجة مخالفة للتفسير أو التأويل الدارج، حيث يقول «عز وجل»: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ، وَحَرَامٌ عَلَىٰ

قَرِيَّةً أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ، إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ، لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾.

فالذي يبدو لي من السياق أن الآيات بصدد بيان أن الناس قد تقطعوا أمرهم بينهم واختلفوا في مسألة التوحيد والآخرة وما إلى ذلك مما جاءت به رسالهم، وتحزب أتباع كل رسالة ضد الآخرين، وأن الله قد وضع قانوناً وسنة جارية في الأمم حين تُعطى الفرصة لاتخاذ الموقف الصحيح من المرسلين إليها، وتتمثل في أنها إذا كذبت واستكبرت وتحدت المرسلين والرسالة، ووقع عليهم القول بالهلكة، فإنهم لن يعودوا من جديد إلى هذه الحياة ليعطوا فرصة أخرى، فالفرصة لا تتكرر، وعليهم الاستفادة منها، والحذر من الموقف السلبي الذي سيجرّ إليهم الغضب الإلهي في الدنيا ثم في الآخرة.. هذه هي القاعدة العامة التي تحكم الموقف من الأمم كلها.

وحين تقوم الساعة الموعودة في آخر الزمان، وتقبها القيامة، ويقترب موعد الحساب، وهو ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾، يُخرج الله الناس من قبورهم، بما في ذلك يأجوج ومأجوج الذين يمثلون نموذجاً من الكافرين العدوانيين الذين كانوا يعيشون في الأرض فساداً من الأمم التي عاشت قبل قرون مديدة ﴿وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ وهو تعبير مشابه لقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم

مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ»^(١)، حينذاك تشخص أبصار الذين كفروا، أي تكون أبصارهم حادة باتجاه معين دون أن تتحرك، تماماً كما يقع للمبهوتين، وذلك إدراكاً منهم للحقيقة القطعية التي لا شك فيها ولا نزاع، والتي كان النبيون والمرسلون والصالحون يحذرونهم منه، فها هم يشاهدون أمة من الأمم الغابرة الطاغية والدموية المتوحشة التي عرفوا عنها شيئاً من الأخبار التي تحكي عن كثرتهم وقوتهم، قد انضمت إليهم في المحشر للحساب، ففي ذلك اليوم لا يُستثنى أحد، ولن يستثنى الله أمة، ولا غالب له «عز وجل».

ولو أولنا القول المحكي عن الكافرين: ﴿يَا وَيَلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بأنه من قولهم في الدنيا حين يُهدم ردم ذي القرنين ويخرج قوم يأجوج ومأجوج بكل وحشيتهم ليعيثوا في الأرض فساداً، فلن يكون هذا مفهوماً ولا صحيحاً، فالكلام - بحسب هذا التأويل - سيكون عن كافرين لم تنزل الآيات في عهدهم، ولربما لم يعرفوا بها أصلاً لأنهم من الذين سيولدون في مستقبل الزمان، كما وأن كونهم من الكافرين يعني أنهم لا يؤمنون أصلاً بما جاء في القرآن الكريم وبالارتباط المفروض بين خروج يأجوج ومأجوج وبين الآخرة وأن ما جاء في الآيات كلامُ الله، فعن أية غفلة يتحدثون؟ ولماذا - على هذا الفرض - لا يُصلحون أحوالهم فيؤمنون ما داموا قد اكتشفوا الحقيقة وعرفوا صدق القرآن وصدق نبوءته؟ فالفرصة ما زالت مواتية، والقيامة لم تقم بعد، والحال أن الآية تبين أن لا مجال لذلك، وما ذلك إلا لأنها تحكي عن حدث يرتبط بما بعد موت كل الناس في آخر

الزمان ثم قيامتهم من قبورهم، لا عن علامة من علامات يوم القيامة. لذا فالتأويل الأنسب بالسياق أن نقول أن الكافرين حين يواجهون حقيقة البعث من القبور في يوم القيامة وقرب الحساب سيقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فالمسألة في الواقع ليست مسألة غفلة، هذا مجرد تبرير تندفع إليه النفس وقد اعتادت علي ذلك، بينما الحقيقة أنهم قد ظلموا أنفسهم بالعناد والجحود والاستكبار، وسيواجهون مصيرهم المظلم هذا في حسرة وندامة وأمل كاذب بأن تُعطى لهم فرصة أخرى لتصحيح مواقفهم، ولكن هيهات أن يكون لهم ذلك.

ولو عدنا إلى سورة الكهف نجد أن الله «عز وجل» يقول في تتمة قصة ذي القرنين بعد الحديث عن بناء السدِّ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا، قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ ﴿سَوَاهٍ بِالْأَرْضِ فَأَلْزَقَهُ بِهَا﴾ ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا، وَتَرَكَنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا، وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾^(١). فهل الحديث عن تدمير السدِّ الذي صنعه يرتبط بحدث سابق ليوم الساعة التي أخبر عنها القرآن - مثلاً - بالوصف التالي: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾^(٢) أم بحدث سابق على ذلك اليوم، فيكون من علاماته؟

١. سورة الكهف: ٩٧-١٠١.

٢. سورة الانفطار: ١-٤.

عبارة ﴿وَعَدُ رَبِّي﴾ الواردة كتحديد زمني للحدث ليس فيها دلالة واضحة وأكيدة على أيٍّ منهما، وإن كان التعبير بـ ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ الوارد في سورة الأنبياء في ما له علاقة بمسألة يأجوج ومأجوج أيضاً في قول الله «عز وجل»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(١) يشير بحسب ما ذكرت مسبقاً إلى يوم الحساب الآخروي، وهذا يجعلنا نستقرب أن المراد من مجيء وَعْدُ اللَّهِ، مجيء يوم الساعة والآخرة والقيامة، حينها يتم تدمير الجبال وتصبح قاعاً صفصفاً، ويصيب هذا السد ما يصيب تلك الجبال من تدمير.

وهذا التعبير إما حقيقي بحيث يبقى السد قائماً إلى يوم الساعة ثم يتدمر، وإما للدلالة على إحكام صناعته، بمعنى أن لديه القابلية للبقاء والاستمرار عبر الزمن، وسيؤدّي دوره بمنعهم من العبور والصعود والاختراق، ولكنه أمام إرادة الله لن يصمد لو شاء «عز وجل» أن يدمره، وحينئذ يمكننا أن نفترض أنه استمر في بقائه إلى مدة من الزمن واستوفى غرضه ثم شاء الله أن يدمره فتدمر وأصبح شيئاً من التاريخ، ولذا فإننا لا نستطيع أن نجده في كل المواقع الجغرافية التي تم استكشافها وتغطيتها من خلال الوسائل العلمية في البحث ورسم الخرائط والطرق والطبوغرافيا.

وعلى هذا، فإنَّ يأجوج ومأجوج سيُبعَثون ويخرجون من قبورهم كما هو حال سائر الناس، وعندها يُموج بعضهم في بعض ويختلطون، ثم يُنفخ في

الصور نفخة الجمع بعد نفخة الإحياء والبعث من القبور، فيجمعهم الله جميعاً للحساب.

وأما عن حال يأجوج ومأجوج بعد بناء السد، وماذا جرى لهم، هل اندثروا كما اندثرت أمم أخرى؟ فكان بناء السد إهلاكاً لهم، فلم ينهضوا من جديد، وسيبعثهم الله في الآخرة؟ أم عادوا إلى ديارهم، ولم يعودوا يغزون تلك الديار تصوراً منهم بأن منفذهم الوحيد إليها كان منحصراً بما بين الجبلين، وذلك بسبب جهلهم بخغرافيا الأرض.. حتى مر الزمان، وتعاقبت أجيالهم، فاكتشفوا أن بإمكانهم أن يسلكوا سبلاً أخرى للوصول إلى تلك المناطق، بل وإلى عالم أرحب من المنطقة التي كانوا يعرفونها جغرافياً، فلم يعد للسد معنى وتأثير على حركتهم في الغزو والإفساد في الأرض، بل ولربما تحضروا وتسامت عندهم القيم فتخلوا عن مسلكهم السابق؟

كل هذه الفرضيات ممكنة وتحتمل أن تنطبق حينئذ على المغول أو الروس أو غيرهم من الأمم التي مارست مثل هذا الدور، ثم ضعفت ثم عادت للظهور بصورة أخرى.. وتبقى المسألة غير محسومة بشكل أكيد في هذه الاتجاهات وفي غيرها، والله «عز وجل» أعلم بحقيقة الحال.

مُحْزِر ابْنِ اللَّهِ

عُزَيْر ابن الله

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(١).

كان - ولا زال - توحيد الله «عز وجل» هو العنوان الرئيس في الرسائل السماوية، وهو محور حركة الأنبياء والعمود الفقري للأسس الفكرية والإيمانية التي طرحوها حول المبدأ والمعاد، وحول الهدف من وجود الإنسان ومآلات حياته الأخروية. ومن هنا كانت قضية التوحيد حاضرة في السور القرآنية المختلفة التي تناولتها بالإثبات وردّ الشبهات وعرض التجارب التاريخية للأمم السالفة سلباً وإيجاباً.. بين مؤمن مصدّق، ومشككٍ معاندٍ، وجاحدٍ مكابرٍ.

وفي هذه الآية من سورة التوبة - التي نزلت في أجواء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، وقبل وفاة النبي الأكرم محمد «صلى الله عليه وآله» بسنة تقريباً، عرض لنموذجين من تجارب الانحراف عن جادة التوحيد في ضمن أجواء أتباع الرسائل السماوية، وبما يقتربون من خلاله في تصوّراتهم من تصوّرات المشركين حول تعدّد الآلهة بين الأبوة والبنوة، وهو الأمر الذي، وإن جاء لبيان موطن من مواطن انحرافهم وتوبيخهم على ذلك وكشفاً لعدم مصداقيّتهم في

ادّعاء الاتباع التام والكامل للرسالات السماوية، إلا أنه يتضمّن أيضاً تحذيراً للمؤمنين بالرسالة المحمّدية من المرور في ذات التجربة الانحرافية والوقوع في فخّ شيطاني يُبعدهم عن حقيقة التوحيد في بعده العقدي والفلسفي والتطبيقي المرتبط بالعمل بالشرعية التي أنزلت على رسول الله محمد «صلى الله عليه وآله»، ولو من خلال تسويلات وتحريفات بعض أدعياء العلم وحملة الدين ممّن اتّبَعوا شهواتهم وأقبلوا على دنياهم ونسوا آخرتهم، تماماً كما جرى لأهل الكتاب من قبل، وهو ما تعرّضت لبيانها الآية اللاحقة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

وقد أثارت هذه الآية الشريفة تساؤلات عدة:

من هو عُزَيْر المذكور فيها ؟

هل كان من الأنبياء كعيسى «عليه السلام» ؟

هل يعتقد اليهود فعلاً بأنه ابن الله «عز وجل» ؟

أم أن القرآن قد أخطأ في هذا الادّعاء كما يدّعي البعض ؟

• تحديد هويّة عُزَيْر:

اختلفت الآراء في تحديد هذه الشخصية، وعلى أساس ذلك اختلف في تفسير المراد من مقولة أنه ابن الله.

ولنستعرض فيما يلي عدداً من هذه الأقوال:

• الاحتمال الأول، عزرا الكاتب **עֶזְרָא הַסּוֹפֵר**:

عزرا «بالعبرية: **עֶזְרָא**: عَزَّرَا» يعرف أيضاً باسم عزرا الكاتب «بالعبرية: **עֶזְרָא הַסּוֹפֵר**: عَزَّرَا هَسَّ وَفَر». اسمه كما في الكتاب المقدس: (عَزَّرَا بْنُ سَرَايَا بْنِ عَزَرِيَّا بْنِ حَلَقِيَّا بْنِ شَلُومَ بْنِ صَادُوقَ بْنِ هَارُونَ)^(١) النبي.

معنى اسمه «عون» وتلتقي الكلمة مع العربية لفظاً ومعنى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

تبني البعض مقولة أنه ذاته الذي يُطلق عليه «ملاخي: ملاكي» أحد أنبياء بني إسرائيل، وهناك سفر باسمه في التَّنَخ. فإن صحَّ هذا فإن عزرا الكاتب يُعتبر - بحسبهم - من الأنبياء. وفي التَّنَخ سفر خاص باسم عزرا يشرح خدماته لبني إسرائيل ولا سيما إعادة كتابة عدد من أسفار العهد القديم.

ففي سنة ٦٨٥ ق.م. وقع الغزو البابلي لليهود على يد الحاكم البابلي نبوخذنصر، وتم تدمير المعبد «الهيكل» الذي بناه النبي سليمان «عليه السلام» وأحرقت كتبهم وأتلفت بصور مختلفة، وقتل كثيرون وسُبي آخرون واقتيدوا إلى بابل، ولذا عُرف هذا الحدث باسم «السبي البابلي».

وبعد سقوط الدولة البابلية على يدي القائد الفارسي كوروش الكبير وقيام الدولة الأخمينية الفارسية، صدر في سنة ٥٣٨ ق.م. الأمر بعودة اليهود

١. سفر عزرا، الإصحاح ٧: ١-٥.

٢. سورة الأعراف: ١٥٧.

إلى بيت المقدس وما جاورها، فعاد كثيرٌ منهم، وبقيت مجموعة إلى سنة ٤٥٨ ق.م. حيث قرّر عزرا الكاتب العودة بمعية مجموعة أخرى من بني قومه، وبذا تكون عودته إلى القدس بعد ثمانين سنة من عودة أول جماعة من المسبيين وذرائعهم إليها.

وقد تسيّد عزرا هذا المشهد لسبيين، الأول أن أباه كان من قبل رئيس الكهنة في بابل، والثاني أنه خلف أباه في هذا المنصب، وكان شخصية يهودية مهمة في بابل، ومستشاراً للملك الأخميني أرتخششتا^(١).

ولكي نتعرّف على أهمية هذه الشخصية بالنسبة إلى اليهود حتى شبّه دوره بدور النبي موسى «عليه السلام» واعتبر زعيماً لهم، وبما يجعله الاحتمال الأول والأكثر شهرة بين المفسرين والمؤرخين في كونه «عزير» المذكور في الآية القرآنية، لابد لذلك من العودة إلى «سفر عزرا» حيث جاء فيه: (فِي أَثْنَاءِ حُكْمِ أَرْتَحْشَشْتَا مَلِكِ فَارِسَ، رَجَعَ مِنْ بَابِلَ رَجُلٌ اسْمُهُ عَزْرَا بْنُ سَرَايَا وَكَانَ عَزْرَا كَاتِباً مَاهِراً فِي شَرِيعَةِ مُوسَى الَّتِي أَعْلَنَهَا الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ؛ وَقَدْ مَنَحَهُ الْمَلِكُ كُلَّ سُؤْلِهِ بِفَضْلِ الرَّبِّ إِلَهِهِ)^(٢).

وحين وصل بيت المقدس، تفاجأ عزرا بالوضع، حيث جاءه: (رُؤْسَاءُ

١. هو الملك الأخميني السادس «وفي الفارسية يُطلق على هذه السلالة عنوان الهخامنشيان وأول حكامهم هو كوروش الكبير» ويُعرف هذا الملك أيضاً باسم أردشير الأول. واسم هذا الملك في لفظ الفارسية القديمة «أَرْتَخْشَا» أي صاحب الملك العادل. ومنه قيل في العربية تحويراً: أرتخششتا. كان يُلقب بالملك العظيم، شاهنشاه، فرعون مصر، لأن حكمه امتد إلى مصر فصار أحد فراعنتها.

٢. سفر عزرا، الإصحاح ٧: ١-٦.

الْيَهُودِ قَائِلِينَ: «إِنَّ شَعْبَ إِسْرَائِيلَ وَالْكَهَنَةَ وَاللَّاهُوتِيِّينَ^(١) مَا بَرَحُوا مُنْغَمِسِينَ فِي رَجَاسَاتِ أُمَمِ الْأَرْضِ كَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ^(٢) لِأَنَّهُمْ تَزَوَّجُوا هُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ مِنْ بَنَاتِهِمْ، فَاخْتَلَطَ النَّسْلُ الْمُقَدَّسُ بِأُمَمِ الْأَرَاضِي، وَقَدْ كَانَ الرُّؤَسَاءُ وَالْوُلَاةُ أَوَّلَ مَنْ ارْتَكَبَ هَذِهِ الْخِيَانَةَ»^(٣).

ثم وصف النص ردّة فعله إزاء ما سمع وما بدا له من مخالفات «شرعية» وتجاوزات ومخالفات جسيمة لتعاليم الشريعة الموسوية وما توارثه اليهود من تعاليم دينية أخذوها عن حاخاماتهم: (قُمْتُ مِنْ تَذَلُّلِي، وَأَنَا مَا زِلْتُ مُرْتَدِيًّا رَدَائِي وَثِيَابِي الْمُمَرَّقَةَ، وَجَثَوْتُ عَلَى رُكْبَتِي وَبَسَطْتُ يَدَيَّ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِي، قَائِلًا: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَخْجَلُ وَأَخْزَى مِنْ أَنْ أَرْفَعَ وَجْهِي نَحْوَكَ، لِأَنَّ أَثَامَنَا قَدْ تَكَاثَرَتْ فَوْقَ رُؤُوسِنَا، وَمَعَاصِينَا قَدْ تَعَاظَمَتْ فَبَلَغَتْ عَنَانَ السَّمَاءِ وَفِيمَا

١. اللاويون هم المنتسبون إلى «لاوي» ابن النبي يعقوب، وحيث كان النبيان موسى وهارون من ذريته، ولأن اللاويين هم الذين استجابوا لأمر الله بالتوبة بعد عبادة بني إسرائيل العجل بقتل أنفسهم كما تقول التوراة الحاضرة، فتاب الله على الجميع، وهي الحادثة التي ذكرت في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ «البقرة: ٥٤»، لذا فقد كان لهم امتياز واحترام خاص بين بني إسرائيل، وجعلوا حفظة لنايوت العهد الذي وصفه القرآن الكريم كالتالي: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ «سورة البقرة: ٢٤٨».

٢. الكنعانيون هم أصحاب الأرض الأصليين قبل قدوم بني إسرائيل إليها، وكانوا من العرب الوثنيين. وأما الحثيون فكانوا يسكنون جزء من تركيا الحالية، وكانوا أيضاً من الوثنيين، ولذا نسب إليهم «الرجاسات» في النص أعلاه.

٣. سفر عزرا، الإصحاح ٩: ١.

كَانَ عِزْرًا يُصَلِّي وَيَعْتَرِفُ بِأَكْيَا وَمُنْطَرِحاً أَمَامَ هَيْكَلِ اللَّهِ، اجْتَمَعَ إِلَيْهِ حَشْدٌ غَفِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ^(١).

ومن هنا، أطلق عزرا النداء العام لحشد واجتماع كل العائدين من السبي في الرحلة الأولى، وذلك في غضون ثلاثة أيام، فوبّخهم وطالبهم بالتوبة وبطرد النساء من غير بني إسرائيل مع أبنائهن^(٢)، فاعترفوا أمامه بالذنب، وعاهدوه على الاستجابة.

قام عزرا بعد ذلك باتخاذ سلسلة إجراءات حاسمة استناداً على التفويض المقدم له من قِبَل الحاكم الفارسي «أَرْتَحَشْتَا»، وعلى رأسها إعادة تدوين أسفار الكتاب المقدس والتي ضاعت خلال السبي البابلي، ثم قام هو^(٣) بتلاوة شريعة موسى على الملأ.

ثم قام بتدوين وتحديد ٢٤ كتاباً - والتي تمثل الجزء الأكبر من أسفار التَّخَّ حالياً - لتكون لعامة الناس، و٧٠ كتاباً آخر لتكون خاصة بالحاخامات. كما وأصدر مجموعة من القرارات التنظيمية للشأن الديني والمدني، وأسّس التقويم اليهودي، وأجرى تغييرات في الخط العبري القديم، بإدخال الخط الآرامي المربع الشكل والمتأثر بالخط الآشوري، الأمر الذي مهّد لنشوء الكتابة العبرانية الحديثة.

١. سفر عزرا، الإصحاح ٩: ٥-٦، والإصحاح ١٠: ١.

٢. بحسب شريعتهم، فإن اليهودي هو المتولّد من امرأة يهودية، وأما أبناء غير اليهوديات فلا ينتمون إليهم.

٣. أو نعمياً: من أعيان بني إسرائيل.

Letter ^[7]	Name	Scripts										Related			
		Hebrew			Ancestral				Aramaic						
		Cursive	Rashi	Braille ^[8]	Hieroglyphic base of Proto-Sinaitic (assumed)	Proto-Sinaitic (reconstructed) [citation needed]	Phoenician	Paleo-Hebrew	Aramaic	Greek	Latin	Cyrillic	Arabic		
א	Alef	א	א			𐤀	𐤀	𐤁	𐤁	Αα	Aa	Аа	ا		
ב	Bet, Vet	ב	ב			𐤁	𐤁	𐤂	𐤂	Ββ	Bb	Бб	ب		
ג	Gimel	ג	ג			𐤂	𐤂	𐤃	𐤃	Γγ	J or Cc Gg	Гг	ج		
ד	Dalet	ד	ד			𐤃	𐤃	𐤄	𐤄	Δδ	Dd	Дд	د		
ה	Hei	ה	ה			𐤄	𐤄	𐤅	𐤅	Εε	Ee	Ее	ه		
ו	Vav	ו	ו			𐤅	𐤅	𐤆	𐤆	Υυ Ϝϝ	FiUuVv WwYy	Уу Ϝϝ	و		
ז	Zayin	ז	ז			𐤆	𐤆	𐤇	𐤇	Ζζ	Zz	Зз	ز		
ח	Het	ח	ח			𐤇	𐤇	𐤈	𐤈	Ηη	Hh	Ии	ح		
ט	Tet	ט	ט			𐤈	𐤈	𐤉	𐤉	Θθ	T heavy	Өө	ط		

تطور كتابة بعض الحروف الأبجدية العبرية التي أخذت أولاً عن الهيروغليفية فالفينيقية فالآرامية

وهكذا تسيد عزرا المشهد في تلك الفترة من تاريخ بني إسرائيل، وكأنه أعاد الحياة إلى قومه، تماماً كما أعاد النبي موسى «عليه السلام» الحياة إليهم بإخراجهم من سُلطة فرعون، وأوجد لهم كيانه خاصاً بهم، ومهد لهم الدخول إلى الأرض المباركة، وقدم لهم التوراة والشرعة. وتذكر الموسوعة اليهودية أن عزرا يمثل الربيع في التاريخ الوطني لليهودية، وأنه لو لم تنزل الشريعة على موسى لكان جديراً بأن تنزل عليه، فهو المذكر بها بعد أن نسيت وأُهلكت.

وتقول بعض كتابات اليهود أن عزرا أُصعد بعد ذلك إلى الجنة، كما أُصعد النبي «إيليا» من قبل^(١)، بينما تذكر مصادر أخرى أنه مات كأَي إنسان آخر، فدفن وصار مرقده مزاراً مقدساً. ومن خلال العرض السابق ندرك أهمية هذه الشخصية في التراث اليهودي، واحتمال أن تكون فعلاً هي المعنى في ادعائهم بأن عزيراً ابن الله.

• مرقد عزرا:

تذكر الموسوعة اليهودية أن عزرا توفى عن عمر ١٢٠ سنة في العراق عند الشط بالقرب من ملتقى دجلة بالفرات «القرنة»، وهناك قول آخر بأنه مات في القدس. ويبدو أن القول الأول هو الأقوى عندهم والأشهر.

١. بحسب نص التَّخ، فقد جاءت مركبة وفرسان نارية وحملت إيليا التشبي «النبي إلياس» إلى السماء، وسيرسل الله إيليا قبل يوم الدين. ويترك بعض اليهود مقعداً خالياً على مائدة عيد الفصح لإيليا، وكذلك في حفل ختان أطفالهم، وينشدون له ليحضر: (إيليا النبي، إيليا التشبي، إيليا الجلعادي، هلم إلينا وأقبل بمعية المسيح ابن داود). ويقوم اليهود الإيرانيون بوضع عصا بجانب كرسي الختان أو كرسي إيليا، لتمكين هذا النبي الغائب الحاضر من الاتكاء عليها عندما يريد الجلوس من أجل الراحة من رحلاته الكثيرة. علماً بأنه بحسب التراث المسيحي، فإن يوم ختان السيد المسيح هو نفس اليوم الذي صعد فيه النبي إيليا التشبي إلى السماء حياً.

وفي العراق توجد «بلدة العزير» وفي فلسطين بلدة باسم «العيزرية»، وفي كل منهما مرقد منسوب إلى عزرا، أما الذي في العراق فينسب إليه كل من اليهود والمسلمين، أما الذي بفلسطين فإن المسلمين هم من ادّعوا أنه مرقد عزرا الكاتب كما سنبين سبب ذلك بعد قليل.

كما ويدّعي بعض المسلمين أن المرقد الذي في العراق يعود للمذكور في قول الله «عز وجل»: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) وذلك على فرض أنه «عزير» أيضاً، وهو ما سنناقشه لاحقاً بإذن الله «سبحانه وتعالى».

كانت سدانة المرقد «العراقي» بيد اليهود إلى بداية الخمسينيات من القرن العشرين، وكان مقصداً للزائرين من أوروبا وغيرها. وذكر أن المراكب المحملة بالمسافرين عبر النهر كانت ترسو قرب المرقد للزيارة والاستراحة، وما زال إلى اليوم مقصداً للزائرين الميلمين.

أما مقام عزير في العيزرية^(٢) بفلسطين فقد شُيّد بصورته الإسلامية من قبل صلاح الدين الأيوبي على أنه للعزير الذي أحياه الله بعد موته؛ أما

١. سورة البقرة: ٢٥٩.

٢. تقع البلدة على بعد ٢ كم شرق القدس، واسمها القديم «بيت عينيا» أي بيت العناء أو بيت التمر، وتغيّر الاسم بناء على اسم صاحب المقام.



موقع بلدة العزير في العراق



موقع بلدة العيزرية في فلسطين

عند المسيحيين فَإِنَّ المَقَامَ يُنسَبُ إلى «اليعازر» شقيق مريم ومارثا كما ورد في الإنجيل، وهو الذي أحياه السيد المسيح من بين الأموات، ومما أخبر به القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١).

والقول الذي عليه النصارى هو الصحيح، وقد حصل خلط بين الشخصيتين «عزير واليعازر» بسبب تشابه الأسماء وارتباط الشخصية بالإحياء بعد الموت؛ كما حصل مثل هذا الخلط في موارد كثيرة ترتبط بمقامات الخضر الذي اختلطت شخصيته بالقدیس جرجس^(٢)، علماً بأن المرقد يقع بين كنيسةتين ومسجد، والكنيسة شيدتا تخليداً لذكرى المعجزة، حيث يقام بهذه المناسبة احتفال سنوي من قبل النصارى.

• من أقوال المفسرين:

بعد استعراض جوانب من شخصية عزرا الكاتب، نبدأ باستعراض أقوال بعض المفسرين المسلمين الذين قالوا بأنه هو المراد في الآية الشريفة.

ففي تفسير الطبري عن ابن عباس: (قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، وإنما قالوا: هو ابن الله من أجل أن عُزَيْرًا كان في أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير

١. سورة آل عمران: ٤٩.

٢. ولي كتاب مطبوع بهذا الشأن تحت عنوان «ميثولوجيا الخضر».

الحق، وكان التَّابُوتُ فيهم. فلما رأى الله أنهم قد أضعوا التوراة وعملوا بالأهواء، رفع الله عنهم التابوت، وأنساهم التوراة، ونسخها من صدورهم، وأرسل الله عليهم مرضاً... أي أن المسألة لم تكن ذات علاقة بالسبي البابلي كما يقول التَّنَخ (وكان عُزَيْرُ قَبْلُ من علمائهم، فدعا عُزَيْرُ الله، وابتهل إليه أن يردَّ إليه الذي نُسخَ من صدره من التوراة. فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله، نزل نورٌ من الله فدخل جَوْفَهُ، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن في قومه فقال: يا قوم، قد آتاني الله التوراة وردَّها إليّ! فعلق بهم يعلمهم، فمكتثوا ما شاء الله وهو يعلمهم) وبحسب ادِّعاء صاحب هذه الرواية فإن لعزرا «عزير» مكانة عظيمة عند الله (ثم إنَّ التابوت نزل بعد ذلك وبعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرَّضوا ما كان فيه على الذي كان عُزَيْرُ يعلمهم، فوجدوه مثله، فقالوا: والله ما أوتي عُزَيْرُ هذا إلا أنه ابن الله)^(١).

وفي تفسير ابن عاشور بيان أصح مما جاء في رواية ابن عباس التي رواها الطبري في توضيح علاقة عزرا الكاتب بإعادة تدوين التوراة، وإن وقع ابن عاشور أيضاً في خطأ تاريخي كما سيأتي، قال: (وعزير: اسم حَبْرٍ كبير من أبحار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي، واسمه في العبرانية «عِزْرَا» بكسر العين المهملة ابن «سرايا» من سبط اللاويين، كان حافظاً للتوراة. وقد تفضَّل عليه «كورش» ملك فارس فأطلقه من الأسر، وأطلق معه بني إسرائيل من الأسر الذي كان عليهم في بابل، وأذنهم بالرجوع إلى أورشليم وبناء هيكلهم

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٤، ص ٢٠٢-٢٠٣.

فيه ، وذلك في سنة ٤٥١ قبل المسيح) وقع ابن عاشور هنا في خطأ تاريخي فادح، إذ كان كوروش قد مات قبل هذا التاريخ وهذا الحدث بعشرات السنين، وقد خلط بين العودتين، الأولى التي وقعت بأمره، والثانية التي جاءت في عهد أرتخششتا الأخميني، وهي التي ترأسها عزرا الكاتب (فكان عزرا زعيم أخبار اليهود الذين رجعوا بقومهم إلى أورشليم وجدّدوا الهيكل وأعاد شريعة التوراة من حفظه، فكان اليهود يعظمون عزرا إلى حدّ أن ادّعى عامّتهم أنّ عزرا ابن الله، غُلِّوا منهم في تقدّيسه)^(١).

وقال العلامة الطباطبائي مؤكّداً اتّحاد عزير بعزرا الكاتب، وأنه هو المقصود في الآية الشريفة: (عُزَيْر هذا هو الذي يسميه اليهود عزرا، غُيِّرَت اللفظة عند التعريب كما غير لفظ «يسوع» فصار بالتعريب «عيسى»، ولفظ «يوحنا» فصار كما قيل «يحيى». وعزرا هذا هو الذي جدّد دين اليهود، وجمع أسفار التوراة وكتبها بعد ما افتُتحت في غائلة بخت نصر ملك بابل.... ولمّا نالهم من خدمته عظموا قدره واحترموا أمره وسَمَّوه ابن الله)^(٢).

• تساؤل مهم:

ولو وافقنا على هذا الاحتمال القائل بأن عزيراً المذكور في الآية هو عزرا الكاتب، فمن البديهي حينئذ أن تكون مقالة اليهود هذه صادرة في حياته أو بعده، لا قبله. أي أن هذه المقولة لم تكن عند اليهود الذين سبقوا عصره..

١. ابن عاشور: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ج ١١،

ص ١٦٨.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير الميزان، ج ٩، ٢٤٢.

ولكن هل تبني كل اليهود هذه المقولة منذ إطلاقها فما بعد؟

إن كانت الإجابة مُثَبَّتة، فلماذا لا نجد أية إشارة لهذا الادّعاء في كتبهم ومقولاتهم، كما أثبت ذلك عدد من أصحاب الاختصاص، وكما بحثت بنفسني في ما توفّر لي من مصادر اليهود وموسوعاتهم، وكما طُرِحَ في الأساس كإشكال على القرآن الكريم واتّهامه بعدم الدقّة والوقوع في خطأ تأريخي؟

حاول أهل الاختصاص والبحث الإجابة على هذا التساؤل والإشكال بطرق مختلفة، ومن أهمها:

١. القائل رجل واحد معاصر للنبي «صلى الله عليه وآله» قال الطبري: (واختلف أهل التأويل في القائل: ﴿عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾. فقال بعضهم: كان ذلك رجلاً واحداً، هو فتّاح^(١).

٢. عدة أشخاص معاصرون للنبي. قال الطبري: (وقال آخرون: بل كان ذلك قول جماعة منهم... عن ابن عباس قال: أتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» سَلامُ بن مشكم، ونعمانُ بن أوفى، وشأسُ بن قيس، ومالك بن الصّيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبيلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ فأنزل في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ...﴾^(٢). واكتفى العلامة الطباطبائي بنسبة هذا القول إلى بعض المفسرين.

٣. يهود معاصرون لعزير. روى الطبري الرواية التي روينها عن ابن

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٤، ص ٢٠١.

٢. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٤، ص ٢٠٢.

عباس والتي آخرها: (فقالوا: والله ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله) ^(١).

٤. جماعة من أحبار اليهود في المدينة وتبعهم عوام اليهود. قال ابن عاشور في محاولة شخصية منه للبحث عن إجابة على الإشكال: (فكان اليهود يعظمون عزرا إلى حدٍّ أن ادَّعى عامَّتْهم أنَّ عزرا ابن الله، غُلُوًّا منهم في تقدِّسه. والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة، وتبعهم كثير من عامَّتْهم. وأحسب أنَّ الداعي لهم إلى هذا القول أن لا يكونوا أخصياء من نسبة أحد عظمائهم إلى بنوة الله «تبارك وتعالى» مثل قول النصارى في المسيح كما قال متقدموهم ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ^(٢). قال بهذا القول فرقة من اليهود فألصق القول بهم جميعاً لأنَّ سكوت الباقيين عليه وعدم تغييره يلزمهم الموافقة عليه والرضا به) ^(٣).

٥. بعض يهود اليمن. ونُسب هذا القول في الموسوعة اليهودية ^(٤) لابن حزم الأندلسي، ولا أعرف المصدر ولا دقة النقل.

٦. جماعة من اليهود انقَضُوا، دون تحديد لهم. وهو قول نقله القرطبي في تفسيره.

٧. اليهود في الجزيرة العربية، كاحتمال طرحه بعض الباحثين ومن

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٤، ص ٢٠٣.

٢. سورة الأعراف: ١٢٨.

٣. ابن عاشور: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ج ١١، ص ١٦٨.

4. The Jewish Encyclopedia.

بينهم جوردون دارنيل نيوباي^(١) أستاذ الدين المقارن والدراسات الإسلامية واليهودية بجامعة إيموري بالولايات المتحدة الذي قال في كتابه «تاريخ يهود بلاد العرب»^(٢) ما ترجمته: (.... المصطلح «ابن الله» يمكن إطلاقه على المسيح ولكن في الأغلب يُطلق على الرجال الصالحين، وطبقاً للتقليد اليهودي لا يوجد أكثر صلاحاً ممن اختارهم الله ليرفعهم إلى السماء أحياء. ومن ثمّ فإنه سهل أن نتخيل أنه كان من يهود الحجاز من يشترك في ممارسات فيها غلو مرتبطة بمركابا^(٣) وعزرا. وبسبب تقاليد ترجمته وخاصة لأنه تمت مساواته بأخنوخ^(٤) ككاتب لله فإنه من الممكن أن يكون قد لُقّب بأحد بني إلهيم).

٨. اليهود عموماً، وذلك بقولهم أن عزرا ملاك الله. ففي بحث للدكتور

1. Gordon Darnell Newby: A History of the Jews of Arabia: From Ancient Times to Their Eclipse under Islam. Studies in Comparative Religion

٢. ص ٥٩.

٣. Merkabah هي المركبة السماوية النارية التي أرسلها الله لإيليا لحمله إلى السماء، وذكرت في التَّخ في مناسبات أخرى أيضاً ونُسبت إلى الله، وقد أطلق الصهاينة ذات الاسم على الدبابة التي صنعوها.

٤. أخنوخ «أنوش، أنوك، أنوخ، حانوق» شخصية ورد ذكرها في سفر التكوين على أنه الجد الأكبر للنبي نوح. وتذكر التوراة أنه مشى مع الله ولم يعد. ومن هنا قيل أنه النبي إدريس، وأن القرآن أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ «مريم: ٥٦-٥٧». هناك بعض الكتابات في نسخ من العهد القديم التي تنسب إليه وتعترف بها الكنيسة الأرمنية والأثيوبية والمورمونية إلا أن اليهود والكنائس الأخرى مثل الكاثوليكية والأرثوذكسية والإنجيلية لا تعترف بهذه الكتب مع أنها تعتبره من الأقدمين الأتقياء. في الترجوم الغربي، يظهر أخنوخ كشخص ورع زار الجنة وسمي بالكاتب العظيم، ومن هنا شُبّه به عزرا. وفي روايات إسلامية أنه أول من كتب.

سامي عامري أستاذ العقيدة والفرق والأديان بثه على شبكة الإنترنت على موقع «اليوتيوب» كمحاضرة مسجلة بالفيديو، اعتبر أن القول بأن عزرا هو «ملاخي» في التَّنَخُّ قولٌ صحيح، وجاء ببعض الأدلة على ذلك. وأضاف أن ملاخي تعني ملاكي، وليست اسم علم، فعُزَيْر هو ملاك الله، ويؤكد ذلك ما في الترجمة الآرامية لسفر ملاخي: (ملاكي الذي يدعى اسمه عزرا الكاتب). وحيث اعتبر اليهود أن الملائكة أبناء الله، كما قال لويس شيفر^(١) في كتابه «اللاهوت النظامي»^(٢)، إذاً فعُزَيْر – بحسب اليهود – ابن الله^(٣).

• الاحتمال الثاني، أوزيريس إله الموتى:

بعد الانتهاء من عرض الأقوال والملاحظات المتعلقة باحتمال كون عزرا الكاتب هو عُزَيْر المذكور في الآية، ننتقل هنا إلى الاحتمال الثاني والذي يذهب قائله إلى أن المراد بعُزَيْر هو إله المصريين القدماء «أوزيريس».

فأوزيريس عند قدماء المصريين هو إله البعث والحساب، وهو رئيس محكمة الموتى، وطبقاً للأسطورة كان أخاً لإيزيس ونيفتيس وست، وتزوج من أخته إيزيس. ولما دبّر الأخ الشرير «ست» مكيده لأخيه أوزيريس وقتله، بعثر أشلاءه.. إلا أن الأخت/ الزوجة الصالحة ظلت تبحث عن بقاياها حتى جمعت عظامه ولحمه، واستعملت السَّحَر لبعثه من جديد. وبذا عاد أوزيريس إلى

1. Lewis Sperry Chafer.

2. Systematic Theology.

٣. يؤكد المقالة الأخيرة للباحث د. سامي عامري ما جاء في موقع bible.org تحت عنوان: Angelology: Unfallen angels are called: Sons of God أي: يُطلق على الملائكة غير المنبذين إلى الأرض بأنهم أبناء الله.

الحياة وعاش لفترة من الزمن، ثم مات وتحول إلى شجرة للخير والعطاء. وللكاتب محمود فيصل توجيه لكون الإله أوزيريس – الذي عرفه بنو إسرائيل خلال فترة وجودهم في مصر وعبدوه – هو المراد بعُزَيْر في الآية القرآنية. قال حول كتابة الاسم في الإنجليزية: Osiris - Usiris - Asar - Asari Aser Ausar - Ausir - Wesir - Usir - Usire - Ausare (وأفصح نطق للأوزير في العربية العُزَيْر بضم العين وفتح الزاي وهو نفسه أوزيريس). وأضاف بعد أن جاء بنصوص من التَّخ تدل على تكرار عبادتهم لبعض الآلهة: (يقول ول ديورانت: إنَّ اليهود لم يتخلَّوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل). ثم تحدَّث عن تطوُّر العقيدة المصرية بهذا الإله: (أصبحت روح الإله أوزيريس تتجسد في العجل إيبس، والناس يعبدون إيبس نظراً لحلول روح الإله أوزير به، وفي عصور متأخرة عبروا عن تلك العقيدة بتمثال له وجهان أحدهما للعُزَيْر والآخر للعجل).

وبعد أن ذكر بعض الشواهد قال: (احتفظ اليهود بطقوس الوثنية، خاصة التي تتعلق بالعُزَيْر الذي سكن في جوارحهم وعشش في عقائدهم، فصارت الأجيال وراء الأجيال تتسمى باسمه مثل عازر، عزرا أو عيزرا، أليعازر، ليعازر، عزرين، عزران، عازور)^(١).

ثم استشهد بمقال تحت عنوان: «ما سر وجود معبد مصري في القدس؟»^(٢) نُشر بمجلة الآثار التوراتية لجبرائيل بركاي وفيه: (ظهر اسم أوزيريس في

1.. <http://islammarvel.blogspot.com/2011/02/blog-post.html>

2. What's an Egyptian Temple Doing in Jerusalem?

شمال «إسرائيل» على بقايا لوح من الحجر الرملي الأحمر، وكذلك على مسلة وجدت في دير البلح وكلاهما للاله الباطل أوزوريس. ومعابد أوزوريس في فلسطين كثيرة ويبدو انها استخدمها اليهود وإن كانت سابقاً للكنعانيين واستمرت حتى عهود قريية من ظهور المسيحية).

كما ربط الكاتب بين قصة الرجل الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها فأماته الله ثم أعاده إلى الحياة، والتي يُدعى أنها نزلت في عُزَيْر أيضاً، مع قصة موت أوزيريس وعودته إلى الحياة من جديد. قال: (انتشرت سيرته بين الناس، ولما مات وذهب جيل بعد جيل وتباعد الزمان وعمَّ الجهل، جاء إبليس ليُلبس على الناس المعجزة ويجعلها أسطورة لإله مزعوم، وتطورت الأسطورة حتى عبدها الناس، ومعجزة إحياء الموتى ران عليها غبار الأيام فاستحالت إلى عبادة إله الموتى العُزَيْر).

وختم بقوله: (إن عقيدة أوزوريس وإيزيس لم تقاومها حضارات عريقة وديانات عتيقة... واليهود عبدوا كغيرهم العزير في هيئة العجل، وكانت ذروة العبادة أثناء تواجدهم في مصر، وتضاءلت عبادة العُزَيْر لما وجدت منافسين في الأرض المقدسة، كبعل وعشتار ثم تلاشت مع الزمن وإن بقي بعض الطقوس والرموز)^(١).

• الاحتمال الثالث، النبوة المجازية:

بعد عرض الاحتمالين الأول والثاني، تنتقل إلى القول بأن نسبة نبوة عَزِير لله «عز وجل» هي مجرد نبوة مجازية، لا كمثل التعبير الخاص بكون المسيح

1. <http://islammarvel.blogspot.com/2011/02/blog-post.html>

ابن الله. وقد استعمل التَّنَخ - والقرآن الكريم كذلك - هذا التعبير في المعنى المجازي، حيث نجد العبارات التالية:

قول داود «عليه السلام» بحسب ما جاء في كتاب «المزامير»: (قَدِّمُوا لِلرَّبِّ يَا أَبْنَاءَ اللَّهِ، قَدِّمُوا لِلرَّبِّ مَجْدًا وَعِزًّا)^(١).

في سفر هوشع (عِوَضاً عَنْ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: لَسْتُ شَعْبِي، يُقَالَ لَهُمْ: أَبْنَاءُ اللَّهِ الْحَيِّ)^(٢).

في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾^(٣).

فإذا قلنا بأن مراد الله «عز وجل» من قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ المعنى المجازي لا الحقيقي سنتخلص من الإشكال التاريخي القاضي بعدم وجود ما يدل على مقولة اليهود بأن عزيراً ابن الله على النحو الحقيقي. وأما نسبة البنوة المجازية فتأتي لخدماته الجليلة بالنسبة إلى اليهود، ولعظمته، ومكانته عندهم. ومثل هذا الاستعمال متحقق لدى اليهود والنصارى.

فبحسب التفسير اليهودي يُطلق - مجازاً - مصطلح «بني إله»^(٤) والذي يُترجم عادة إلى «أبناء الله» على عدة فئات:

١. الملائكة والبشر ذوي القوى الخارقة، كما جاء في سفر التكوين من

٢/٦ إلى ٤/٦ وسفر أيوب ١/٦.

١. الكتاب المقدس، العهد القديم، المزمور ٢٩ / ١.

٢. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر هوشع ١ / ١٠.

٣. سورة المائدة: ١٨.

٤. □□□□□□ □□□□.

٢. القاضي أو الحاكم البشري «الحاخام» كما جاء في سفر المزامير ٨٢/٦، وذلك بصيغة: «بنو العلي».

٣. ملك إسرائيل الحقيقي، كما في سفر صموئيل الثاني ١٤/٧ بالنسبة إلى النبي داود «عليه السلام» ومن خلفوه، وكذلك في سفر المزامير ٢٧/٨٩-٢٨.

٤. عموم بني إسرائيل، ويُطلق عليهم «ابن الله» - بصيغة المفرد - كما في سفر الخروج ٢٢/٤ وسفر هوشع ١/١١.

وبحسب التفسير الكنسي: (بنوة البشر هي بالإيمان، أو المحبة، أو التبني:

١. أما عن البنوة بالإيمان: فقال الكتاب عن السيد المسيح «وأما كل الذين قبلوه، فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه» «يوحنا ١٢/١». فكلمة أبناء هنا تعنى المؤمنين.

٢. وأما عن بنوة المحبة: فيقول القديس يوحنا في رسالته الأولى: «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى ندعى أولاد الله». «يوحنا ١/٣». إذن هو عمل محبة من الله أن يدعونا أولاده.

٣. أما عبارة التبني فقد وردت في «روعات ٨/٢٣». ومعروف أن الذي يدعى ابناً، وهوليس ابناً حقيقياً، إنما يكون بالتبني أو بمفهوم روعي^(١).

ورأيي أن القول بمجازية البنوة في الآية الشريفة لا يستقيم، لأن الآية تشبه قولهم هذا بقول النصارى من جهة، ثم بمضاهاة قول المشركين من جهة

1. <https://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/His-Holiness-Pope-Shenouda-III-Books-Online/13-Lahout-El-Masi7/Divinity-of-Christ-03-CH01-02-We-Sons-of-God.html>

ثانية: ﴿يُضَاهِوُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، ومن المعلوم أن المعنى الذي يقصده المشركون ليس المعنى المجازي بل الحقيقي للبنوة والأبوة. ثم إذا كان كلُّ المؤمنين أبناء الله بالمعنى المجازي، والعزير ابن الله بالمعنى المجازي أيضاً، فما خصوصية هذا العنوان ليُطلق عليه من قِبَل اليهود؟

• الخاتمة:

أصل الفكرة بأن اليهود ادَّعوا في زمن ما أو بقعة جغرافية ما بأن عزيراً ابن الله على نحو الحقيقة أمرٌ غير مستبعد نهائياً، بدليل تكرار صور الشرك التي قام بها اليهود على عهد موسى «عليه السلام» وما بعده. وفيما يلي بعض النصوص الدالة على ذلك:

(وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمْ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لِأَنَّ هَذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ»)(١).

(وَعَبَدَ الشَّعْبُ الرَّبَّ كُلَّ أَيَّامِ يَشُوعَ، وَكُلَّ أَيَّامِ الشُّيُوخِ الَّذِينَ طَالَتْ أَيَّامُهُمْ بَعْدَ يَشُوعَ... وَمَاتَ يَشُوعُ بْنُ نُونٍ عَبْدُ الرَّبِّ ابْنَ مِئَةِ وَعِشْرَةِ سِنِينَ.. وَقَامَ بَعْدَهُمْ جِيلٌ آخَرٌ لَمْ يَعْرِفِ الرَّبَّ، وَلَا الْعَمَلَ الَّذِي عَمِلَ لِإِسْرَائِيلَ. وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ. وَتَرَكُوا الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِهِمُ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ، وَسَجَدُوا لَهَا وَأَغَاطُوا الرَّبَّ. تَرَكُوا الرَّبَّ وَعَبَدُوا الْبَعْلَ وَعَشْتَارُوثَ. فَحَمَى غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ، فَدَفَعَهُمْ بِأَيْدِي نَاهِبِينَ نَهَبُوهُمْ، وَبَاعَهُمْ

بِيَدِ أَعْدَائِهِمْ حَوْلَهُمْ... وَأَقَامَ الرَّبُّ قُضَاةً فَخَلَّصُوهُمْ مِنْ يَدِ نَاهِبِيهِمْ... وَعِنْدَ مَوْتِ الْقَاضِي كَانُوا يَرَجِعُونَ وَيَفْسُدُونَ أَكْثَرُ مِنْ آبَائِهِمْ، بِالذَّهَابِ وَرَاءَ إِلَهَةٍ أُخْرَى لِيَعْبُدُوهَا وَيَسْجُدُوا لَهَا^(١).

وفي سفر صموئيل^(٢) الأول حديث آخر عن انحراف بني إسرائيل عن التوحيد، فعاقبهم الله بأن خسروا المعركة التي خاضوها ضد الفلسطينيين الوثنيين، فغلبوا وانتهبوا وقتلوا، وأخذ الوثنيون تابوت العهد إلى ديارهم. وإذا صار تابوت العهد منهوباً، عاقب الله الوثنيين بالموت بالطاعون: (وَالنَّاسُ الَّذِينَ لَمْ يَمُوتُوا ضُرِبُوا بِالْبُيُوسِيرِ، فَصَعِدَ صُرَاخُ الْمَدِينَةِ إِلَى السَّمَاءِ)^(٣).

وقرر الوثنيون إعادة التابوت بعد أن بقي عندهم سبعة أشهر، وصنعوا بعض التحف الذهبية ليهدوها إلى بني إسرائيل مع التابوت، كنوع من التكفير عن ذنبهم، وجعلوا هذه التحف على هيئة سببي الموت والمعاناة التي قاسوا منها الأمرين: خمسة فئران وخمسة حبات من البواسير! وبعد إعادة تابوت

١. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر القضاة ٢: ٧-١٩.

٢. صموئيل من أنبياء بني إسرائيل، توفي سنة ١٠١٠ ق.م. أي بعد النبي موسى بحدود ٣٠٠ سنة. وهو النبي المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لِهْمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ أَلا تَقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. «البقرة: ٢٤٦-٢٤٧».

٣. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر صموئيل الأول، ٥: ١٢.

العهد: (كَلَّمَ صَمُوئِيلُ كُلَّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: «إِنْ كُنْتُمْ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ رَاجِعِينَ إِلَى الرَّبِّ، فَانْزِعُوا الْأَلْهَةَ الْغَرِيبَةَ وَالْعَشْتَارُوتَ مِنْ وَسْطِكُمْ، وَأَعِدُّوا قُلُوبَكُمْ لِلرَّبِّ وَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، فَيُنْقِذَكُمْ مِنْ يَدِ الْفَلَسْطِينِيِّينَ». فَنَزَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَعْلِيمَ وَالْعَشْتَارُوتَ وَعَبَدُوا الرَّبَّ وَحْدَهُ»^(١)).

وفي سفر الملوك الأول حديث عن «يربعام بن نباط» الذي تمرّد على الملك «رحبعام» ابن النبي سليمان «عليه السلام» وكوّن لنفسه مملكة أسماها مملكة إسرائيل الشمالية، وصنع عجّلين من ذهب وقال لبني إسرائيل: (كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَصْعَدُوكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ)^(٢).

وفي مقال نشر في صحيفة الديلي ميل^(٣) البريطانية ما ترجمته: (كيف استمرت الوثنية في مملكة يهوذا: العثور على معبد وأوثان تعود إلى حقبة العهد القديم. كشف علماء الآثار الإسرائيليين عن معبد وثني وتماثيل دينية يعود تاريخها إلى قرابة ٣٠٠٠ عاماً على عهد مملكة يهوذا. ويقولون إن هذه الاكتشافات تقدّم شهادة نادرة على الطقوس الدينية في منطقة القدس في بداية فترة الحكم الملكي لداود. كانت عبادة الأوثان هذه موضوعاً رئيساً في فصول العهد القديم المتعلقة بذلك العصر، وهي تقدّم في الكتاب المقدس كسبب لسقوط المملكة اليهودية. وقعت الاكتشافات في تل موتزا، خارج

١. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر صموئيل الأول، ٧: ٣-٤.

٢. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر الملوك الأول، ١٢: ٢٨.

القدس، خلال أعمال تنقيب أثرية تجري قبل بناء الطرق السريعة الجديدة في المنطقة^(١).

وفي سفر إرميا^(٢) حيث عاصر هذا النبي الوضع البائس لبني إسرائيل وغزوهم المتكرر على يد البابليين ثم السبي البابلي ودمار الهيكل أن الله قال له مبيناً سبب ما وقع على بني إسرائيل من مصائب: (عَلَى تَرْكِهِمْ شَرِيعَتِي الَّتِي جَعَلْتُهَا أَمَامَهُمْ، وَلَمْ يَسْمَعُوا لَصَوْتِي وَلَمْ يَسْلُكُوا بِهَا. بَلْ سَلَكُوا وَرَاءَ عِنَادِ قُلُوبِهِمْ وَوَرَاءَ الْبَعْلِيمِ الَّتِي عَلَّمَهُمْ إِيَّاهَا آبَاؤُهُمْ)^(٣).

وسواء قبلنا برأي الأكثرية المطبق على أن المراد بعزير هو ذات عزرا الكاتب، أم بالقول بأن المراد به أوزيريس، فإن ماضي تكرار مظاهر الشرك وعبادة الأصنام عند بني إسرائيل منذ عهد النبي موسى «عليه السلام» فما بعد كفيلاً بأن يجعل احتمال قولهم بأن عزيراً ابن الله غير مستبعد، على الأقل لمن لا يؤمن بسماوية النص القرآني. أما نحن إذ نؤمن بذلك فنقول أن الله «عز وجل»

1. How idolatry continued in the Kingdom of Judah: Israeli dig uncovers temple and icons dating back to Old Testament era Israeli archaeologists have uncovered a rare temple and religious figurines which date back nearly 3,000 years to the time of the Kingdom of Judah. They say the finds provide rare testimony of a ritual cult in the Jerusalem region at the beginning of the period of the royal House of David. Such idol worship was a major theme in the chapters of the Old Testament relating to the era, and is given in the holy book as a cause for the downfall of the Jewish kingdom. The discoveries were made at Tel Motza, outside Jerusalem, during archaeological work taking place ahead of new high-way construction in the area.

٢. إرميا من أنبياء بني إسرائيل. عاش نحو ٦٥٠ إلى ٥٨٥ ق.م، أي بعد النبي موسى بأكثر من ٦٠٠ سنة، وعاصر الغزو البابلي المتكرر على القدس ثم السبي البابلي.

٣. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر سفر إرميا ٩: ١٣-١٤.

هو الشهيد على أفعالهم وأقوالهم وهو الأعلم بهم. وقد أخبرنا «عزوجل» أن من شأن اليهود إخفاء بعض الحقائق الواردة في التوراة: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(١). فهل يصعب عليهم إخفاء بعض الحقائق في مصادرهم الأخرى كقضية قولهم أن عزيراً ابن الله بحيث تضيع مع الزمن؟

ثم إن الذين يدّعون أن النبي «صلى الله عليه وآله» هو كاتب القرآن وأنه أخطأ في قوله هذا، يقولون في نفس الوقت أنه صاغ القرآن وتعاليم الإسلام من اليهود والنصارى، أما كان جديراً به أن يعرف أن اليهود لا يقولون بأن عزيراً ابن الله؟ وكيف يتورّط مع أهل المدينة - على الأقل - وهم الذين عايشوا اليهود لقرون متمادية وعرفوا معتقداتهم، ليقول ما يمكن أن يخطئونه فيه؟ كل ما سبق يدعونا لأن نقول للمشكّكين كونوا عقلانيين وادرسوا الأمور بروح علمية وبعيداً عن التعصب، وحينها ستجدون أن هذه المعلومة القرآنية لا تبعد عن الحقيقة، بل تُقدّم لنا إضافة أخرى لواحدة من المفردات السلبية لبني إسرائيل عبر التاريخ، مما شهد بها الكتاب المقدس والقرآن الكريم.

عاد إلى الحياة

بعد مائة عام

عاد إلى الحياة بعد مائة عام

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

بعد توحيد الله «عز وجل»، تأتي مسألة الإيمان بالمعاد والبعث بعد الممات والحساب والثواب والعقاب في الآخرة لتمثل محورا مهما آخر عرضته الرسالات السماوية كأساس من الأسس الفكرية الإيمانية، وبيّنت أدلته، وناقشت المنكرين في حُجَجهم، وأسهب القرآن الكريم في الحديث عنه في السور المكيّة والمدنيّة، وجاء بنماذج لعودة الإنسان إلى الحياة بعد الممات ضمن أحداث شهدا التاريخ، وعرفتها بعض المجتمعات البشرية.

والإيمان بالمعاد ليس مسألة فكرية تجريدية نظرية، بل معتقد إيماني له علاقة مباشرة بضبط السلوك البشري وتقويمه، وبالتالي في تحقيق الغاية من خلق الإنسان ووجوده في هذه الحياة الدنيا.

والآية القرآنية السابقة تتحدّث عن واحدة من تلك النماذج التي أريد لها أن تكون مثلاً حياً للدلالة على إمكانية المعاد، وعلى قدرة الله «عز وجل» لإعادة الإنسان الميّت بجسده وروحه ليعيش من جديد، ولو لفترة معيّنة بعد الموت، وهي الحادثة التي وقعت في زمن ما، دون تحديد للشخصية نفسها ولا للزمن الذي وقع فيه الحدث، وهو ما أثار التكهّنات، ودفع المفسّرين والمهتمين للبحث في القرآن الكريم ومصادر الحديث ومصنّفات أهل الكتاب عمّا يمكن أن يكون معيناً في تحديد الشخصية وطبيعة الحدث ومكان وزمان وقوعه والظروف المحيطة به.

□ نقد روايات أسباب النزول:

على أن المشهور في كتب التفسير والحديث والتأريخ، بالإضافة إلى كونه المتبادر إلى الأذهان، هو أنّ الآية السابقة إنما تتحدّث عن عُزير/عزرا الكاتب الذي قالت اليهود أنه ابن الله كما جاء في الآية ٣٠ من سورة التوبة، والذي كان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد في بابل ثم عاد إلى القدس، والمدفون - على الأغلب - في بلدة العزير بالقرب من بلدة القرنة جنوب العراق.. فما مدى صحة هذا الرأي، خصوصاً وأن الآية لم تذكر اسمه، ولم تربطه بأي حدث آخر؟

قد يقال أنّ هذه الشهرة في كتب التفسير والحديث تُغنيينا عن البحث، لأنّ الأمر يصبح كالمسلّمات. ولكن يجب أن ندرك أن غالبية روايات أسباب نزول الآيات وتعيين الشخصيات المرادة فيها روايات لا تصمد أمام النقد السني، أو ليست بروايات بل هي من آراء المفسّرين الشخصية، كما أنّ مضمونها

أحياناً يتعارض مع دلالة الآية نفسها، أو مع القرائن المحيطة بها، وهو ما يستدعي منا التثبت والحذر عند التعامل معها.

قال الواحدي^(١) في مقدمة كتابه «أسباب نزول القرآن» بعد ذكره كلام عبدة السلماني^(٢) لما سُئِلَ عن آية من القرآن فقال: (اتَّقِ اللَّهَ وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن) قال الواحدي: (أما اليوم فكلُّ أحدٍ يخترع شيئاً ويخلق إفكاً وكذباً، مُلقياً زمامه إلى الجهالة، غير مفكرٍ في الوعيد للجاهل بسبب الآية، وذلك الذي حدا بي إلى إملاء هذا الكتاب الجامع للأسباب، لينتهي إليه طالبو هذا الشأن والمتكلمون في نزول القرآن، فيعرفوا الصدق ويستغنوا عن التمويه والكذب، ويجدوا في تحفظه بعد السماع والطلب)^(٣).

وقال السيوطي^(٤) في كتابه «الإتقان في علوم القرآن»: (ثم أُلِّفَ في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كلٌّ مَنْ يسنح له قول يورده، ومَنْ يخطر

١. أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي «ت ٤٦٨ هـ». عالم بالتفسير وأسباب النزول والعربية والتاريخ، وله شعر وصف بأنه رائق. أشهر آثاره: «أسباب نزول القرآن»، وله تقاسير الثلاثة: «البسيط»، «الوسيط»، «الوجيز».

٢. عبدة بن عمرو السلماني المرادي الكوفي أحد فقهاء التابعين بالكوفة، وجده «سلمان» هو ابن ناجية بن مراد. أسلم عبدة في عام فتح مكة بأرض اليمن ولا صحبة له، وأخذ عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وغيرهما.

٣. الواحدي: أسباب نزول القرآن، ص ٩٧-٩٨.

٤. عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد الخضير السيوطي المشهور باسم جلال الدين السيوطي، «ت ٩١١ هـ» من علماء أهل السنة المشهورين والمكثرين في التأليف.

ببالة شيء يعتمد، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده، ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير، حتى رأيت من حكى في تفسير قوله «تبارك وتعالى»: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ نحو عشرة أقوال^(١).

ولنلاحظ المثال التالي من تفسير «من وحي القرآن» للعلامة فضل الله في قوله «تبارك وتعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٢) حيث يناقش من خلاله روايات أسباب النزول من حيث المضمون والتعارض فيما بينها، ومن حيث التحريف فيها لتوظيفها أحياناً في الصراعات السياسية والمذهبية بما يخدم هذه الجهة أو تلك.

فقد نقل أولاً ما جاء في أسباب نزولها من كتاب «أسباب نزول القرآن»: (مناسبة النزول: جاء في أسباب النزول - للواحدي - بإسناده عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، قال: «أتيت على نفر من المهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمرًا، وذلك قبل أن يحرم الخمر، فأتيتهم في حش^(٣) وإذا

١. السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٥٠٠.

٢. سورة المائدة: ٩٠-٩٢.

٣. حش: بستان.

رأس جزور مشويّاً عندهم و دن^(١) من خمر، فأكلت وشربت معهم وذكرت الأنصار والمهاجرين، فقلت: المهاجرون خيرٌ من الأنصار، فأخذ رجلٌ لحي الرأس، فجذع أنفي بذلك، فأتيت رسول الله «صلى الله عليه وآله» فأخبرته، فأنزل الله في شأن الخمر: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾).

ثم نقل رواية أخرى تختلف في تفاصيلها عن هذه، وفيها ذكر لأسماء عدد من صحابة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وبينهم الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام»، حيث يدّعي الراوي فيها أن علياً شرب الخمر - والعياذ بالله - ثم قرأ في الصلاة: (قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون) فأنزل الله الآية. وأعقبها برواية ثالثة رواها عكرمة، ادّعى فيها أن الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي وعبد الرحمن، وأن علياً - والعياذ بالله - قرأ في نهاية الكافرون: (ليس لي دين وليس لكم دين) فنزلت الآية.

وبعد نقل هذه المرويّات علّق العلامة فضل الله قائلاً: (والتأمل المتدبّر في هاتين الروايتين وأمثالهما لا يسعه إلا أن يخلص إلى كونهما مختلفتين موضوعتين، وذلك لجملة أسباب تأخذ بعنق بعضها البعض)^(٢) وذكر عدة ملاحظات، نلخصها كالتالي:

١. التضارب بين عناصر الروايتين من حيث:

أ. في الرواية الأولى صانع الطعام عبد الرحمن والمصلي فيهم هو الإمام علي، وفي الرواية الثانية صانع الطعام والمصلي فيهم هو الإمام علي.

١. دن: وعاء ضخم للخمر والخل ونحوهما.

٢. فضل الله: تفسير من وحي القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٣-٢٢٤.

ب. في الرواية الأولى أن علياً «عليه السلام» أخطأ في وسط السورة فقراً: (ونحن نعبد ما تعبدون)، وفي الثانية أنه أخطأ في نهاية السورة فقراً: (ليس لي دين وليس لكم دين).

٢. الروايتان متعارضتان مع رواية أخرى رواها الحسن البصري قال فيها: (اجتمع علي وعثمان بن مظعون وأبو طلحة وأبو عبيدة ومعاذ بن جبل وصهل بن بيضاء وأبو دجانة الأنصاري في منزل سعد بن أبي وقاص، فأكلوا شيئاً ثم قدّم إليهم شيئاً من الفضيخ^(١)، فقام علي وخرج من بينهم قائلاً: لعن الله الخمر، والله لا أشرب شيئاً يذهب عقلي، ويضحك بي من رأني، وأزوج كريمتي من لا أريد. وخرج من بينهم فأتى المسجد، وهبط جبرئيل بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني هؤلاء الذين اجتمعوا في منزل سعد، ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾... الآية، فقال علي «عليه السلام»: يا رسول الله لقد كان بصري فيها نافذاً منذ كنت صغيراً، قال الحسن البصري: والله الذي لا إله إلا هو ما شربها قبل تحريمها ولا ساعة قط^(٢)).

قال العلامة فضل الله: (وهذه الرواية أوشج ارتباطاً وتعلقاً بواقع شخصية علي «عليه السلام» من الروايتين السابقتين، وذلك لأنه «عليه السلام» تربى في أحضان رسول الله «صلى الله عليه وآله» وتخلق بأخلاقه، وأخذ بعاداته حتى كان صورةً منه في خلقه وهديه وعقله والتزامه السلوك المستقيم. ومن الطبيعي جداً أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان بعيداً عن الخمر التي تسيء إلى العقل والروح والالتزان

١. الفضيخ: نوع من الخمر يصنع من البلح.

٢. فضل الله: تفسير من وحي القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٤.

مما لا يمكن للإنسان الذي يتميز بالسمو الروحي والصفاء العقلي والطهارة السلوكية أن يمارسه، ولم يُعهد منه ذلك حتى في حديث أعدائه، فكيف يمكن لعلي «عليه السلام» الذي كان يقول: «كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه»، أن يشرب الخمر فتغلبه على صلاته؟ هذا وينقل التاريخ عن أخيه جعفر بن أبي طالب أنه كان لا يعاقر الخمرة لأنها تُفقد الإنسان عقله، وعلي كما هو معروف أفضل من جعفر للسبب الأنف ولغيره من الأسباب، فكيف يمكن لجعفر أن يترك شرب الخمر بعيداً عن مسألة تحريمها، ويمارسها علي «عليه السلام» بهذه الطريقة؟^(١).

٣. هناك روايات أخرى ورد فيها أن علياً وعثمان بن مظعون كانا قد حرّما الخمر على أنفسهما قبل نزول التحريم، وليس هذا بغريب، فقد ذكر الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» رجالاً من العرب حرّموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية، منهم عامر بن الظرب العدواني، ومنهم قيس بن عامر التميمي، ومنهم صفوان بن أمية بن محرث الكناني، وعفيف بن معدي كرب الكندي، والأسلوم اليامي، قد حرّم الزنى والخمر معاً.

وأضاف فضل الله: (من هنا، وبناءً على ما تقدّم، نستطيع الجزم بأن الروايتين مدار البحث، هما من الأحاديث الموضوعة للنيل من علي «عليه السلام» ومنزلته ومقامه من رسول الله «صلى الله عليه وآله» خاصة، والمسلمين عامة. ويمكن تفسير وضعهما بالصراعات الشديدة التي تمحورت حول قضية الخلافة، وما تناسل عنها من مشاكل وأوضاع وعصبيات وأحقاد. ولولا أننا رأينا مثل هذه

١. فضل الله: تفسير من وحي القرآن، ج ٨، ص: ٢٢٤-٢٢٥.

الرّواية متداولة في بعض كتب المتأخرين، كسيد قطب في «ظلال القرآن»، لما تحدّثنا عنها، لأنّها أسخف من أن تقع مجالاً للنقاش^(١).

ما سبق يجعلنا ندرك ضرورة دراسة روايات أسباب النزول وأقوال المفسّرين - التي تحوّلت بدورها إلى روايات في تصوّر البعض - وعدم الاتكال على الشهرة لأنّها قد تكون ناتجة عن عوامل معيّنة لا دخل لها بالبحث العلمي في نتائجها، وهذا ما يدفعنا إلى مناقشة ما جاء من أقوال ومرويات حول شخصية الرجل الذي مات فأحياه الله بعد مائة عام.

□ تحديد الشخصية في كتب التفسير:

يمكننا هنا أن نقدّم ما جاء في تفسير الطبري كنموذج لما جاء في كثير من كتب التفسير عند محاولة أصحابها تحديد شخصية المذكور في الآية الشريفة. فقد قال الطبري:

عن قتادة^(٢) قال: (ذكر لنا أنه عزير).

قال الربيع^(٣): (ذكر لنا والله أعلم أن الذي أتى على القرية هو عزير).

عن عكرمة^(٤) قال: (عزير).

١. فضل الله: تفسير من وحي القرآن، ج ٨، ص: ٣٢٥-٣٢٦.

٢. أبو الخطاب قتادة بن دعامة السّدوسي «ت ١١٨ هـ». تابعي وعالم في العربية واللغة وأيام العرب والنسب، محدث، مفسر. كان ضريباً أكّمه.

٣. الربيع بن أنس البكري الخراساني، كان عالم مرو في زمانه، «ت ١٣٩ هـ». ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: (الناس يتقون من حديثه ما كان من رواية أبي جعفر عنه، لأن في أحاديثه عنه اضطراباً كثيراً).

٤. عكرمة بن عبد الله البربري المدني مولى ابن عباس «ت ١٠٥ هـ». كان يجوب البلدان يتعرض للأعطيات، قال أبو الأسود: (كان عكرمة قليل العقل خفيفاً..... كانوا يقولون: ما أكذبه).

عن السدي^(١) قال: (عزير).

كان ابن عباس يقول: (هو عزير).

وقال آخرون: (هو إرميا بن حلقيا).

وزعم محمد بن إسحاق أن إرميا هو الخضر. عن ابن إسحاق قال: (اسم الخضر - فيما كان وهب بن منبه يزعم عن بني إسرائيل - إرميا بن حلقيا، وكان من سبط هارون بن عمران).

عن عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهب بن منبه^(٢) يقول: (إن إرميا لما حُرِبَ بيت المقدس وحُرقت الكتب، وقف في ناحية الجبل فقال: ﴿أَنْتَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾).

عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: (كان نبياً وكان اسمه إرميا).

عن بكر بن مضر قال: (يقولون والله أعلم إنه إرميا).

١. السدي أبي محمد إسماعيل بن عبد الرحمن. «ت ١٢٧ هـ». قال الطبري: (لا يُحتج بحديثه). وعن عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت قال: سمعت الشعبي وقيل له: (إن إسماعيل السدي قد أعطي حظاً من علم القرآن) قال: (إن إسماعيل قد أعطي حظاً من جهل بالقرآن). وعن صالح بن مسلم قال: (مررت مع الشعبي على السدي، وحواله شباب يفسر لهم القرآن فقام عليه الشعبي فقال: ويحك، لو كنت نشوان يضرب على أستاذك بالطبل، كان خيراً لك مما أنت فيه).

٢. وهب بن منبه بن كامل الأبنواوي اليماني الذماري الصنعاني «ت ١١٤ هـ». قال الحافظ ابن كثير في تفسيره، في كعب الأخبار وفي وهب بن منبه: «سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن، ومما حُرِفَ وبُدِّل ونسخ». وروى عنه الطبري أنواعاً من الإسرائيليات تكفي للتدليل على أن ثقافة وهب يهودية تلمودية.

ثم علق الطبري على ما سبق بقوله: (ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصح من قبله البيان على اسم قائل ذلك^(١) وجائز أن يكون ذلك عزيزاً، وجائز أن يكون إرميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت من قريش، ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب، وتثبت الحجة بذلك على من كان بين ظهرائي مهاجر رسول الله «صلى الله عليه وآله» من يهود بني إسرائيل بإطلاعه نبيه محمد «صلى الله عليه وآله» على ما يزيل شكهم في نبوته، ويقطع عذرهم في رسالته، إذ كانت هذه الأنبياء التي أوحاها إلى نبيه محمد «صلى الله عليه وآله» في كتابه من الأنبياء التي لم يكن يعلمها محمد «صلى الله عليه وآله» وقومه، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد «صلى الله عليه وآله» وقومه منهم، بل كان أمياً وقومه أميون، فكان معلوماً بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهرائي مهاجرة أن محمداً «صلى الله عليه وسلم» لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله إليه. ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك لكانت الدلالة منصوبة عليه نصباً يقطع العذر ويزيل الشك، ولكن القصد كان إلى ذم قبيله^(٢)).

وإذا علمنا أن المكثرين في النقل عن الإسرائيليات على مراتب هي:

المرتبة الأولى: المكثرون جداً وهم: كعب الأحبار، ثم وهب بن منبه، وابن

١. أي قول: ﴿أَنْتَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ...﴾.

٢. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٥، ص ٤٤١-٤٤٢.

جريج، وابن إسحاق، والسدي الكبير، والأخير أكثرهم رواية للإسرائيليات. المرتبة الثانية: دونهم في النقل وهم: قتادة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي.

المرتبة الثالثة: المقلون نسبياً في النقل عنهم وهم: مجاهد، وابن عباس.

يتّضح لنا حينئذ أن الطبري لم ينقل ولا رواية واحدة عن النبي «صلى الله عليه وآله» في هذا المجال، ولم يقتنع هو بأقوال المفسرين والرواة السابقين له، بل إن بعضها يحمل في نفسه تشكيكاً بالقول «ذكر لنا، يقولون، زعم»، ثم تحولت تدريجياً إلى معلومة حتمية ومؤكدة، ورويت باسمه قصص تفصيلية انتشرت في كتب الحديث وقصص الأنبياء، بحيث أنك لو سألت اليوم أي شخص عن اسم هذا الرجل لأخبرك دون تردد أنه عذير.

□ هل يحيلنا القرآن على الكتاب المقدس؟

يطرح القرآن أحياناً من قصص الأنبياء والأمم الماضية ما كان متداولاً على الألسن أو مما كان يُخبر به بعض اليهود أو النصارى أصدقاءهم من أهل مكة أو المدينة. واحتكاك أهل يثرب - ومن ثم المهاجرين - باليهود جعل عندهم مخزوناً معرفياً ببعض ما في كتبهم من قصص. ولعل القرآن الكريم في الآية السابقة كما في موارد أخرى عديدة يستحث هذا المخزون المعرفي الذي تختلط فيه الحقائق بشيء من الوضع والتحريف ليقدمه:

١. خالصاً منها تصحيحاً لها: ففي سورة البقرة بعد عرض مجموعة من

القصص يقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١). وهكذا نجد في سورة المائدة تؤكد صحيح قصة ابني آدم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، وتصحیح قصة موسى «عليه السلام»: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

٢. وليشير من خلاله مفهوماً حياتياً عملياً.

٣. وليرشد النبي «صلى الله عليه وآله» ويثبتته في حركته الرسالية، ومعه المؤمنون به وبرسالته: ﴿كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

٤. وليهدي أهل الكتاب لما اختلفوا فيه من قصص أنبيائهم بحسب تفاسيرهم المختلفة لنصوص كتبهم المقدسة ومروياتهم في مصادرهم الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

وحيث ذكرنا مسبقاً أنَّ الادِّعاء قائم على أنَّ الشخص المذكور في الآية مردّد بين كونه عزير وإرميا، أي من شخصيات بني إسرائيل، فلنرجع إلى التَّخ والتراث المدوّن لليهود، فلربما نجد شيئاً موافقاً أو قريباً من القصة

١. سورة البقرة: ٢٥٢.

٢. سورة المائدة: ٢٤.

٣. سورة القصص: ٣.

٤. سورة هود: ١٢٠.

٥. سورة النمل: ٧٦-٧٧.

القرآنية وانطلق من خلاله أصحاب الإسرائيليات في ادّعاءاتهم. وعند مراجعة التَّنَخْ لن نجد شيئاً يخص موت عزرا الكاتب وعودته إلى الحياة، على اعتبار أن العزير هو عزرا ذاته. وكذلك لا نجد شيئاً من ذلك عند العودة إلى الموسوعة اليهودية مثلاً وغيرها من المصادر اليهودية والنصرانية أيضاً. نعم، هي تنقل مرويات المسلمين بهذا الخصوص ثم تنكر وجود شيء في مصادرها يتوافق مع هذا القول. وإذا انتقلنا إلى القول الثاني الذي يعتبر أن المقصود هو النبي إرميا، فلا بد أولاً أن نتعرّف على هذه الشخصية كما جاء ذكرها في مصادر أهل الكتاب ومن ثمّ نبحث في إمكانية كونه هو المعني في الآية.

هو إرميا بن حلقيا، عاصر فترة السبي البابلي من قبل نبوخذ نصر، وكان يحذّر قومه قبلها مما سيحلّ بهم إن هم لم يتوبوا إلى من المعاصي والجرائم التي يرتكبونها، وواجهه ملوك اليهود والأخبار وعامة الناس بالضرب والسجن والإنكار عليه وحرّق كتاباته، ثم رموه في جُب ليموت، حتى توسّط له أحدهم فأخرج إلى السجن. بقي «النبي» إرميا مسجوناً إلى سقوط بيت المقدس بيد نبوخذ نصر، الذي أمر بإحضار السجناء بين يديه، فعلم بأمره، ومنحه حق الاختيار في أن يذهب إلى بابل أو أن يبقى في وطنه، فأثر الاختيار الثاني.

بعد رحيل نبوخذ نصر عن بيت المقدس اجتمع إليه من بقي من ضعفاء بني إسرائيل، واعترفوا بذنبهم، وأعلنوا توبتهم، وطلبوا منه أن يدعو الله ليقبل توبتهم. وبحسب هذه القصة فإنّ الله أخبر نبيّه أن يختبرهم، بأن يعرض عليهم البقاء في بيت المقدس وهي خربة، فرفضوا وأصرّوا على الهروب إلى مصر، وعبثاً حاول أن يثيهم عن عزمهم دون جدوى، فرافقهم إليها، ولا

يُعرَف شيء عن موته ولا كيف كان ولا متى حدث ذلك. ولا يوجد شيء في التَّخ أو في المصادر اليهودية ولا النصرانية ما يشير إلى أنه مات ثم أعيد إلى الحياة. وحيث كانت قضية البعث من الموت في الحياة الدنيا من القضايا ذات الأهمية العظمى لدى النصارى لارتباطها بقيامة السيد المسيح «عليه السلام» من الموت بعد موته لثلاثة أيام، وإنكار اليهود ذلك، لذا فإننا نجد اهتماماً خاصاً منهم باتباع كل الموارد الواردة في الكتاب المقدس حول من ماتوا ثم أحياهم الله مرة أخرى، ليكون دليلاً على إمكانية قيام السيد المسيح من الموت. وفيما يلي ما ذكره بهذا الخصوص كما جاء في موقع bible.org ومواقع أخرى تحت عنوان: «أعداد الذين قاموا من الموت»^(١):

١. النبي إيليا أحيى طفلاً كما في سفر الملوك الأول/١٧.
٢. النبي أليشع أحيى طفلاً كما في سفر الملوك الثاني/٤.
٣. عظام أليشع أحييت ميتاً حين طُرح في قبره فلامس عظامه كما في سفر الملوك الثاني/١٣.
٤. عدة من القديسين قاموا من الموت مع قيامة السيد المسيح كما في إنجيل متى/٢٧.
٥. قيامة السيد المسيح نفسه كما في إنجيل متى/٢٨ وإنجيل مرقس/١٦، وإنجيل لوقا/٢٤.
٦. المسيح يحيي فتاة هي ابنة رئيس المجمع كما في إنجيل لوقا/٨.

٧. المسيح يحيي القديس لعازر كما في إنجيل يوحنا/ ١١.

٨. المسيح يحيي صبيًا كما في إنجيل لوقا/ ٧.

٩. الحواري بطرس أحيا امرأة اسمها دوركاس كما في سفر الأعمال/ ٩.

١٠. الرسول بولس أحيا شاباً اسمه أفتيخوس كما في سفر الأعمال/ ٢٠.

كانت هذه هي كل الموارد المذكورة حول إحياء الموتى في الكتاب المقدس، ويبقى في البين مورد واحد لم يُذكر ويرتبط بقصة «النبي» حزقيال في ودائي العظام، فمن هو؟ وما هي القصة؟ ولماذا لم تُضف إلى الموارد السابقة؟

كان حزقيال - بحسب مصادر أهل الكتاب - معاصراً للنبي إرميا، وأُخذ مع السبي إلى بابل، فقام بدوره في الدعوة في تلك الأجواء مستفيداً من كلمات النبي إرميا وتعاليمه، ولكن قومه لم يتبعوا دعوته كما ينبغي على الرغم من المحنة التي كانوا يعيشونها. امتد نشاط حزقيال النبوي بحسب بعض المصادر فترة تزيد عن ٢٢ سنة على الأقل، ولا يُعرف وقت موته ولا الطريقة التي مات بها.. فهل يمكن أن يكون هو صاحب القصة القرآنية؟

بحسب ما ورد في سفر حزقيال في التَّنَخ، دار حوار في «رؤيا وحيانية»^(١) بين الله وبين هذا النبي الذي كان يدعو ربه كي يخلص بني إسرائيل من أوضاعهم المزرية.

وحيث أن ما رآه حزقيال عبارة عن رؤيا في المنام، لذا لم يُضف إلى قائمة الموارد السابقة لمن ماتوا ثم عادوا إلى الحياة. جاء في الحوار الوحياني:

١. أي كان عبارة عن وحي ورؤى تمت في المنام وليس في عالم الواقع.

(هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: فِي يَوْمٍ تَطْهِيرِي إِيَّاكُمْ مِنْ كُلِّ آثَامِكُمْ، أَسْكِنُكُمْ فِي الْمَدِينِ، فَتَبْنِي الْخَرْبُ. وَتَفْلَحُ الْأَرْضُ الْخَرْبَةُ عَوْضًا عَنْ كَوْنِهَا خَرْبَةً أَمَامَ عَيْنَي كُلِّ عَابِرٍ. فَيَقُولُونَ: هَذِهِ الْأَرْضُ الْخَرْبَةُ صَارَتْ كَجَنَّةٍ عَدْنٍ، وَالْمَدِينُ الْخَرْبَةُ وَالْمَقْفَرَةُ وَالْمُنْهَدِمَةُ مُحَصَّنَةً مَعْمُورَةً)^(١).

ومن أجل إثبات إمكانية تحقق ذلك: (كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ، فَأَخْرَجَنِي بِرُوحِ الرَّبِّ وَأَنْزَلَنِي فِي وَسْطِ الْبُقْعَةِ وَهِيَ مَلَانَةٌ عِظَامًا، وَأَمَرَنِي عَلَيْهَا مِنْ حَوْلِهَا وَإِذَا هِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا عَلَى وَجْهِ الْبُقْعَةِ، وَإِذَا هِيَ يَابِسَةٌ جِدًّا. فَقَالَ لِي: «يَا ابْنَ آدَمَ، أَتَحْيَا هَذِهِ الْعِظَامُ؟» فَقُلْتُ: «يَا سَيِّدُ الرَّبِّ أَنْتَ تَعْلَمُ». فَقَالَ لِي: «تَبَّأً عَلَى هَذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ، اسْمَعِي كَلِمَةَ الرَّبِّ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِهَذِهِ الْعِظَامِ: هَآنَذَا أُدْخِلُ فِيكُمْ رُوحًا فَتَحْيَوْنَ. وَأَضَعُ عَلَيْكُمْ عَصَبًا وَأَكْسِيكُمْ لَحْمًا وَأَبْسُطُ عَلَيْكُمْ جِلْدًا وَأَجْعَلُ فِيكُمْ رُوحًا فَتَحْيَوْنَ وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ». فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أُمِرْتُ. وَبَيْنَمَا أَنَا أَتَبَّأُ كَانَ صَوْتُ، وَإِذَا رَعَشُ، فَتَقَارَبَتِ الْعِظَامُ كُلُّ عَظْمٍ إِلَى عَظْمِهِ. وَنَظَرْتُ وَإِذَا بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ كَسَاهَا، وَبُسِطَ الْجِلْدُ عَلَيْهَا مِنْ فَوْقُ، وَلَيْسَ فِيهَا رُوحٌ. فَقَالَ لِي: «تَبَّأً لِلرُّوحِ، تَبَّأً يَا ابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لِلرُّوحِ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَلُمَّ يَا رُوحُ مِنَ الرِّيَّاحِ الْأَرْبَعِ وَهَبْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَتْلَى لِيَحْيُوا». فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أُمِرْتُ، فَدَخَلَ فِيهِمُ الرُّوحُ، فَحْيُوا وَقَامُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ جَيْشٌ عَظِيمٌ جِدًّا جِدًّا)^(٢).

ثم يبين النص فلسفة المشهد السابق ووجه الشبه بينه وبين أوضاع بني

١. الكتاب المقدس: سفر حزقيال، الإصحاح ٣٦ : ٣٢-٣٥.

٢. الكتاب المقدس: سفر حزقيال، الإصحاح ٣٧ : ١-١٠.

إسرائيل بلحاظ حالة السبي والتشرذم وتكالب الأمم عليهم وضعفهم الذي جعلهم يعيشون حالة من اليأس في الخلاص مما هم فيه، جاء التأكيد الإلهي أن الجماعة الميتة معنويًا يمكنها أن تعود إلى الحياة من جديد تمامًا كما عادت تلك العظام: (ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا ابْنَ آدَمَ، هَذِهِ الْعِظَامُ هِيَ كُلُّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ. هَا هُمْ يَقُولُونَ: يَبَسَتْ عِظَامُنَا وَهَلَكَ رَجَاؤُنَا. قَدْ انْقَطَعْنَا. لَذَلِكَ تَتَبَّأُ وَقُلْ لَهُمْ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَانَذَا أَفْتَحُ قُبُورَكُمْ وَأُصْعِدُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي، وَآتِي بِكُمْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ عِنْدَ فَتْحِي قُبُورَكُمْ وَأُصْعِدُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي. وَأَجْعَلُ رُوحِي فِيكُمْ فَتَحْيَوْنَ، وَأَجْعَلُكُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَأَفْعَلُ، يَقُولُ الرَّبُّ»^(١)).

وبعد ذلك يأمر الله حزقيال بالذهاب إلى بني إسرائيل ليبشرهم بما رأى وبما قيل له وأن يذكر لهم ملك النبي داود «عليه السلام»: (وَدَاوُدُ عَبْدِي يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْهِمْ). عهد النبي داود كان قبل هذا بأكثر من خمسمائة سنة، ولكنه رمز للملك القوي من بني إسرائيل ولدولتهم الموحدة والموحدة والصالحة: (وَيَكُونُ لَجَمِيعِهِمْ رَاعٍ وَاحِدٌ، فَيَسْلُكُونَ فِي أَحْكَامِي وَيَحْفَظُونَ فَرَائِضِي وَيَعْمَلُونَ بِهَا)^(٢).

وهذه القصة نجدها مذكورة في القرآن الكريم دون ذكر لاسم النبي حزقيال، ولكنها تذكر قصة النبي داود «عليه السلام» بعده مباشرة تمامًا كما في النص السابق! قال «عز وجل»: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ

١. الكتاب المقدس: سفر حزقيال، الإصحاح ٣٧ : ١١-١٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر حزقيال، الإصحاح ٣٧ : ٢٤.

أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ أَلْبَسْ لَنَا لِبَاسَ مَلَائِكَةٍ لِنَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا... فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ... فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ... ﴿١﴾.

وبالعودة إلى الآيات من سورة البقرة سنجد أنها مترابطة بالصلة ذاتها في ما جاء في سفر حزقيال، فالمسلمون كانوا أيضاً يعيشون حالة من الضعف المعنوي بعد هجرتهم من مكة، وشعورهم بتكالب المشركين عليهم، وحصارهم اقتصادياً واجتماعياً من خلال تحركات قريش ضدهم في تحالفاتها مع القبائل المحيطة بالمدينة وبالطرق التجارية، فجاءت الآيات لتثير ذلك المخزون المعرفي حول قصة حزقيال النبي، لتقول لهم: تذكروا تلك القصة التي تعرفونها ودلالاتها في الإحياء المعنوي للمجتمع اليأس أو الضعيف، فهي تنطبق عليكم أنتم أيضاً، ولذا جاء الأمر بالقتال وعدم التردد فيه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وضرورة تقديم التضحيات: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾، ثم ذكرتهم الآيات بقصة طالوت وجالوت والنبي داود

في صورتها الحقيقية كما أمر الله حزقيال بأن يذكر قومه بها، ليكون مثلاً عملياً من التاريخ على الأمة التي تعيش الضعف، فتنتشل نفسها باللجوء إلى الله «عز وجل» واستمداد القوة منه، ومن ثم الأخذ بأسباب القوة ومواجهة الظلم وتقديم التضحيات في هذا الطريق لتحقيق النصر في نهاية الطريق.. إنها سنة الله في الأمم وقوانينه التي لا تتغير، بل تنتظر من يحقق الشروط والمقدمات، لتقدم له النتائج التي ينتظرها ويأمل تحقيقها. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾^(١).

وبالتالي من الواضح أن هذه القصة لا علاقة لها بالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، مما يجعلنا نرفض فكرة أن المذكور فيها هو النبي حزقيال، كما رفضنا من قبل كونه العزيز أو إرميا.

□ محاولة ابن عاشور:

إلا أن للمفسر ابن عاشور رأياً آخر في المقام، يربط فيه بين القصتين.. قصة الرجل الذي أحياه الله بعد مائة عام، وقصة وادي العظام.. قال: (والذي مرّ على قرية، قيل هو أَرَمِيَا بن حلقيا، وقيل هو عَزِير بن شرخيا «عزرا بن سَرِيًّا». والقرية بيت المقدس في أكثر الأقوال، والذي يظهر لي أنه حزقيال ابن بوزي نبي إسرائيل، كان معاصراً لأرميا ودانيال، وكان من جملة الذين أسرهم بختنصر إلى بابل في أوائل القرن السادس قبل المسيح... فلما أخرج إلى بابل بقي هنالك وكتب كتاباً في مَرَاء رَأَاهَا وَحَيًّا تدل على مصائب اليهود وما يُرجى لهم من الخلاص، وكان آخر ما كتبه في السنة الخامسة والعشرين

١. سورة المعارج: ٦-٧.

بعد سبي اليهود، ولم يُعرف له خبر بعدُ كما ورد في تاريخهم، ويُظن أنه مات أو قُتل. ومن جملة ما كتبه: أَخْرَجَنِي رُوحُ الرَّبِّ وَأَنْزَلَنِي فِي وَسْطِ الْبُقْعَةِ وَهِيَ مَلَأَةٌ عِظَامًا كَثِيرَةً.....^(١).

وبعد أن ذكر ابن عاشور النص الذي عرضناه مسبقاً قال: (ولما كانت رؤيا الأنبياء وحياً، فلا شك أن الله لما أعاد عمران أورشليم في عهد عزرا النبي في حدود سنة ٤٥٠ قبل المسيح، أحيا النبي حزقيال «عليه السلام» ليرى مصداق نبوته، وأراه إحياء العظام، وأراه آية في طعامه وشرابه وحماره، وهذه مخاطبة بين الخالق وبعض أصفياه على طريق المعجزة، وجعل خبره آية للناس من أهل الإيمان الذين يوقنون بما أخبرهم الله «تبارك وتعالى»، أو لقوم أطلعهم الله على ذلك من أصفياه، أو لأهل القرية التي كان فيها وفقد من بينهم، فجاءهم بعد مائة سنة وتحقق من يعرفه بصفاته، فيكون قوله «تبارك وتعالى»: ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ إشارة إلى قوله: «أخرجني روح الرب وأمرني عليها». فقوله: ﴿قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ﴾ إشارة إلى قوله أتحى هذه العظام؟ فقلت: يا سيدي أنت تعلم. لأن كلامه هذا ينبىء باستبعاد إحيائها، ويكون قوله «تبارك وتعالى»: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ﴾ إلخ مما زاده القرآن من البيان على ما في كتب اليهود، لأنهم كتبوها بعد مرور أزمنة، ويُظن من هنا أنه مات في حدود سنة ٥٦٠ قبل المسيح، وكان تجديد أورشليم في حدود ٤٥٨ فتلك مائة سنة تقريباً، ويكون قوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ تذكرة له بتلك النبوة وهي تجديد مدينة

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٥٠٨.

إسرائيل^(١).

والذي يجعلنا نضع هذا التوجيه عدة أمور، من بينها: هل مات وعاد للحياة بعد مشاهدة عودة ألوف الأموات إلى الحياة في رؤياه الصادقة التي كانت نوعاً من الوحي؟ هذا يعني أنه شك في الرؤيا لأنه ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ونحن إنما نقلنا جزءاً قليلاً من النص فقط، وإلا ففيه تفاصيل كثيرة عن إعادة إعمار الهيكل وبيت المقدس إلخ... فما فائدة الرؤيا كي يميتة الله مائة عام ثم يبعثه ليثبت له من جديد إمكانية البعث؟

النص في التَّخ يقول أن الله أمره بالذهاب إلى قومه ليبشّرهم، فهل بشّرهم وكتب لهم الرؤيا؟ هذا هو المفترض حيث وصلهم ووصلنا الكتاب.. فكيف يتم ذلك من قبل شخص شك في الرؤيا كلها واحتاج إلى إماتته بنفسه وحماره ثم عودته إلى الحياة بعد مائة عام ليتأكد؟ وإن لم يفعل ذلك بل مات في مكانه، فهذا يعني أنه لم يوصل مضمون الرؤيا والكتاب إلا بعد مائة عام، فما فائدة الرؤيا التي كان يفترض بها أن تثبت إمكانية عودة الأوضاع الخاصة ببني إسرائيل إلى سابق عهدها القوي بينما خلال تلك الفترة عاد بنو إسرائيل فعلاً إلى بيت المقدس وبدأت حركتهم التجديدية والعمرانية بعد انتصار كوروش على البابليين وتغير الأوضاع لصالح بني إسرائيل بشكل كبير؟

□ نتيجة البحث:

مما سبق يتبيّن لنا أننا لا نملك دليلاً واضحاً لتحديد شخصية الرجل

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٥٠٨-٥٠٩.

الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، وأن تحديده بأنه العزيز أو إرميا أو حزقيال لا يقوم على أدلة قوية يمكن الركون إليها، والله العالم بحقائق الأمور.

حقّ اليهود في أرض فلسطين

حقّ اليهود في أرض فلسطين

هل لليهود حق تاريخي في الأراضي الفلسطينية؟ ألم يكونوا هم أصحاب هذه الأرض وحكامها قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة؟ ألا يتحدث القرآن الكريم عن الأرض المقدسة وحكم داود وسليمان «عليهما السلام» وغير ذلك من القصص المرتبطة بتاريخ بني إسرائيل فيها؟ فلماذا إذاً يتخذ المسلمون اليوم هذا الموقف المتشدد من دعوى «حق اليهود في الأرض» على الرغم من أننا ننادي دائماً بضرورة أن نكون منصفين وأن نعدل ولو مع أعدائنا؟

سيكون الردّ على التساؤلات السابقة وفق قراءتين، الأولى منهما تاريخية، وإن صحّ بحسب تعبير البعض وفق القراءة العلمانية البحتة التي لا علاقة لها بالدين، ولا بعنوان النبوات والرسالات ولا غيرها من العناوين الدينية، والثانية وفق القراءة الدينية.

هذا كلّه بعد غضّ الطرف عن أن مصطلح اليهود لا يساوي مصطلح بني إسرائيل، فهناك الكثير من اليهود الذين لا ينحدرون في أصولهم من النبي يعقوب «إسرائيل»، والتحاليل الجينية تثبت ذلك بكل وضوح، وفي قراءتنا التاريخية والدينية سنتنازل ونعتبر أن مصطلح «اليهود» يقابل مصطلح «بني إسرائيل»، حيث أن البحث سينصبّ على حق بني إسرائيل في هذه الأرض.

□ القراءة التاريخية:

بحسب هذه القراءة، لم تكن هذه الأراضي عندما حكمها بنو إسرائيل في الأساس صحاري أو أحراش وأراضي جرداء مهملة، بلا شعب وبلا حكم وبلا حضارة.. ولتوضيح ذلك نقول:

بحسب ما هو متفق عليه عند اليهود وغيرهم، فإن إبراهيم «عليه السلام» كان يعيش قبل قرابة ٤٠٠٠ سنة، وكان في الأصل من أبناء جنوب بلاد الرافدين - العراق حالياً - وهاجر إلى أرض كنعان - وهي جزء من فلسطين الحالية - وتوفي فيها، وله قبر معروف في مدينة الخليل جنوب مدينة القدس.

في تلك الأرض - كنعان - كان يعيش «الكنعانيون» العرب الذين أقاموا فيها عدّة مدن وبلدات، وحين نعود إلى سفر التكوين من التوراة باعتبارها نصّاً تاريخياً وليس بلحاظ بُعدها الديني، فإننا سنجدها تقول عن ذلك: (وَقَالَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ: «أَذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمَنْ بَيْتَ أَبِيكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ...». فَاتَّوَا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ... وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينْتِذَ فِي الْأَرْضِ)^(١).

بكل وضوح تنص التوراة على أن إبراهيم «عليه السلام» ومَن معه وفدوا على أرض عامرة يسكنها الكنعانيون، وعلم التاريخ والآثار يُظهر أنهم استوطنوها قبل هذا الحدث بقرابة ١٥٠٠ سنة على الأقل.

ثم رزق الله إبراهيم «عليه السلام» ولدين، الأول إسماعيل، وعاش في مكة، والآخر إسحاق الذي رُزق بدوره بيعقوب، الملقّب بإسرائيل، وقد عاش هو

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ١٢: ٦-١.

وأبناءؤه في الأرض الكنعانية معيشةً بدويّة، إلى أن نقلهم ابنه يوسف بعد ذلك إلى أرض مصر ضمن القصة المعروفة الواردة في التوراة وفي القرآن.

أما القرآن الكريم فقد لخص المشهد كالتالي: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

بينما نجد في التوراة من الكتاب المقدس الكثير من التفاصيل التي تتحد في النهاية مع هذا المضمون بشكل إجمالي: (فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «قُلْ لِإِخْوَتِكَ: افْعَلُوا هَذَا: حَمَلُوا دَوَابَّكُمْ وَأَنْطَلِقُوا، اذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. وَخُذُوا آبَاكُمْ وَبِئُوتَكُمْ وَتَعَالَوْا إِلَيَّ، فَأُعْطِيَكُمْ خَيْرَاتِ أَرْضِ مِصْرَ وَتَأْكُلُوا دَسَمَ الْأَرْضِ. فَإِنَّتِ قَدْ أَمَرْتُ، افْعَلُوا هَذَا: خُذُوا لَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ عَجَلَاتٍ لِأَوْلَادِكُمْ وَنِسَائِكُمْ، وَاحْمِلُوا آبَاكُمْ وَتَعَالَوْا. وَلَا تَحْزَنْ عَيْنُكُمْ عَلَى اثْنَاتِكُمْ، لِأَنَّ خَيْرَاتِ جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَكُمْ». ففعل بنو إسرائيل هكذا.... فصعدوا مِنْ مِصْرَ وَجَاءُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ. وَأَخْبَرُوهُ قَائِلِينَ: «يُوسُفُ حَيٌّ بَعْدُ، وَهُوَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». فَجَمَدَ قَلْبُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ. ثُمَّ كَلَّمُوهُ بِكُلِّ كَلَامِ يُوسُفَ الَّذِي كَلَّمَهُمْ بِهِ، وَأَبْصَرَ الْعَجَلَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا يُوسُفُ لَتَحْمِلَهُ. فَعَاشَتْ رُوحُ يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ. فَقَالَ إِسْرَائِيلُ: «كَفَى! يُوسُفُ ابْنِي حَيٌّ بَعْدُ. أَذْهَبُ وَأَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ». فَارْتَحَلَ إِسْرَائِيلُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ.....

فَشَدَّ يُوسُفُ مَرَكَبَتَهُ وَصَعِدَ لاسْتِقْبَالَ إِسْرَائِيلَ أَبِيهِ إِلَى جَاسَانَ. وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا. فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «أَمُوتُ الْآنَ بَعْدَ مَا رَأَيْتُ وَجْهَكَ أَنْتَ حَيًّا بَعْدَ». ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ وَلِبَيْتِ أَبِيهِ: «أَصْعِدْ وَأَخْبِرْ فِرْعَوْنَ وَأَقُولُ لَهُ: إِخْوَتِي وَبَيْتُ أَبِي الَّذِينَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ جَاءُوا إِلَيَّ. وَالرِّجَالُ رِعَاةُ غَنَمٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ مَوَاشٍ، وَقَدْ جَاءُوا بِنِجْمَتِهِمْ وَبِقَرِهِمْ وَكُلِّ مَا لَهُمْ. فَيَكُونُ إِذَا دَعَاكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَالَ: مَا صَنَعْتُمْ؟ أَنْ تَقُولُوا: عِبِيدُكَ أَهْلُ مَوَاشٍ مُنْذُ صِبَانَا إِلَى الْآنَ، نَحْنُ وَآبَاؤُنَا جَمِيعًا. لِكَيْ تَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. لِأَنَّ كُلَّ رَاعِي غَنَمٍ رَجَسٌ لِلْمِصْرِيِّينَ»^(١). فَكَلَّمَ فِرْعَوْنَ يُوسُفَ قَائِلًا: «أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ جَاءُوا إِلَيْكَ. أَرْضُ مِصْرَ قَدَامَكَ. فِي أَفْضَلِ الْأَرْضِ أَسْكُنْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ، لِيَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يَجُودُ بَيْنَهُمْ ذَوْوُ قُدْرَةٍ، فَاجْعَلْهُمْ رُؤَسَاءَ مَوَاشٍ عَلَى النَّاسِ»^(٢). فَاسْكَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَعْطَاهُمْ مَلَكًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فِي أَفْضَلِ الْأَرْضِ، فِي أَرْضِ رَعْمِيسَ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ. وَعَاشَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ مِصْرَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً. فَكَانَتْ أَيَّامُ يَعْقُوبَ، سِنُو حَيَاتِهِ مِئَةً وَسَبْعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. وَلَمَّا قَرُبَتْ أَيَّامُ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَمُوتَ دَعَا ابْنَهُ يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي وَاصْنَعْ مَعِيَ مَعْرُوفًا وَأَمَانَةً: لَا تَدْفِنِي فِي مِصْرَ، بَلْ أَضْطَجِعْ مَعَ آبَائِي، فَتَحْمِلْنِي مِنْ مِصْرَ وَتَدْفِنْنِي فِي مَقْبَرَتِهِمْ». فَقَالَ: «أَنَا أَفْعَلُ بِحَسَبِ قَوْلِكَ». فَقَالَ: «احْلَفْ لِي». فَحَلَفَ لَهُ. فَسَجَدَ إِسْرَائِيلُ عَلَى رَأْسِ السَّرِيرِ. فَوَقَعَ يُوسُفُ عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ وَبَكَى عَلَيْهِ وَقَبَّلَهُ. وَأَمَرَ يُوسُفُ عِبِيدَهُ الْأَطِبَّاءَ أَنْ

١. بحسب هذا النص، فإن يوسف خاف عليهم من الاختلاط برعاة الغنم المشركين، فيتأثرون بشركهم.

يُحْنَطُوا أَبَاهُ. فَحْنَطَ الْأَطْبَاءُ إِسْرَائِيلَ. وَكَمَلَ لَهُ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، لِأَنَّهُ هَكَذَا تَكْمَلُ أَيَّامُ الْمُحْنَطِينَ. وَبَكَى عَلَيْهِ الْمَصْرِيُّونَ سَبْعِينَ يَوْمًا... فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «أَصْعَدْ وَادْفِنْ أَبَاكَ كَمَا اسْتَحْلَفْتُكَ». فَصَعِدَ يُوسُفُ لِيَدْفِنَ أَبَاهُ، وَصَعِدَ مَعَهُ جَمِيعُ عِبِيدِ فِرْعَوْنَ، شُيُوخُ بَيْتِهِ وَجَمِيعُ شُيُوخِ أَرْضِ مِصْرَ، وَكُلُّ بَيْتِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَبَيْتِ أَبِيهِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا أَوْلَادَهُمْ وَغَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَصَعِدَ مَعَهُ مَرْكَبَاتُ وَفَرَسَانُ، فَكَانَ الْجَيْشُ كَثِيرًا جَدًّا... ثُمَّ رَجَعَ يُوسُفُ إِلَى مِصْرَ هُوَ وَإِخْوَتُهُ وَجَمِيعُ الَّذِينَ صَعِدُوا مَعَهُ لِيَدْفِنَ أَبِيهِ بَعْدَ مَا دَفَنَ أَبَاهُ.... وَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: «أَنَا أَمُوتُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَيَفْتَقِدُكُمْ وَيُصْعِدُكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ». وَاسْتَحْلَفَ يُوسُفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: «اللَّهُ سَيَفْتَقِدُكُمْ فَتُصْعَدُونَ عِظَامِي مِنْ هُنَا». ثُمَّ مَاتَ يُوسُفُ وَهُوَ ابْنُ مِئَةِ وَعَشْرِ سِنِينَ، فَحْنَطُوهُ وَوَضَعَهُ فِي تَابُوتٍ فِي مِصْرَ^(١).

وهكذا تناسل بنو يعقوب «إسرائيل» في مصر حكّاماً ومعزّزين، إلى أن تحوّلوا من موقع الحكم والملك إلى موقع العبودية فيها، ثم خرجوا منها بعد عدة قرون بقيادة النبي موسى «عليه السلام».

لا نجد في القرآن الكريم عرضاً للتحوّل الذي حدث من بعد وفاة النبي يوسف، والملك الذي كان يحكم في زمانه، وكل ما ذكر هو الإشارة إلى التبدّل الذي حصل في موقف بني إسرائيل من الرسالة السماوية: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٤٤-٥٠.

لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿١﴾.

وكذلك الإشارة إلى أنهم حكموا في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، دون أن تبين الآية المدة التي استمر فيها حكمهم، ولا عدد حكامهم، وأين حكموا، وهل كان منصب النبي يوسف الذي حاز عليه من قبل ذلك الملك مقدمة لجعلهم حكاماً من خلال التزاوج مع الأسرة الحاكمة فعلاً، أو بالانقلاب عليها، أو بانتقال السلطة إليهم بطريقة سلمية لما تركه يوسف من انطباع إيجابي في الوسط الحاكم، أم تم ذلك لحدوث فراغ في السلطة بموت أحد الملوك مما أدى إلى وصول بعض بني إسرائيل إلى سدة الحكم، أم أن المراد من عنوان «الملوك» الوارد في الآية مطلق الحكم ولو بكونهم ولاة أو حكاماً لأقاليم ضمن الدولة المصرية القديمة، أم أنه يريد بذلك قوة النفوذ والسلطة التي تمتعوا بها من خلاله فكانوا كالملوك بهذا

للحافظ؟

الصورة غير واضحة، ولا نملك نصوصاً تاريخية أو وثائق يمكن الركون إليها لتقديم إجابة أكيدة في هذا الإطار.

نعم، نجد في القرآن وصفاً لما آلت إليه أوضاع بني إسرائيل في فترة لاحقة اتسمت بالاضطهاد الشديد: ﴿طَسَمَ، تَلَكَّ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتَلَوُ عَلَيْكَ مِّنْ نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ

١. سورة غافر: ٢٤.

٢. سورة غافر: ٣٤.

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾.

ما الذي أدّى إلى تبدّل أوضاعهم؟ القرآن الكريم ساكت عن هذا الأمر، واستنتج البعض من اختلاف عنوان «الملك» المستعمل في قصة يوسف عن «فرعون» في قصة موسى إلى تبدّل طبيعة الحكم في مصر، فقد عاصر يوسف عهد احتلال «الهكسوس» لمصر، فصار بنو إسرائيل حلفاء للمحتلين، ولمّا طرد المصريّون الهكسوس، وعاد الحكم ليصبح بأيديهم، وهو ما يشير إليه عنوان «فرعون»، اضطهدوا بني إسرائيل بلحاظ أنهم كانوا - يوماً ما - حلفاء المحتلين، ولربّما الحكّام من بعدهم كما بيّنت قبل أسطر.

هذا بخصوص القرآن الكريم، وأما في التوراة الحاضرة، فإن لقب «فرعون» حاضر في مورد قصة يوسف وموسى «عليهما السلام» معاً، بل يتم استعماله على التبادل مع لقب «ملك» كما سيتبيّن معنا في النص التالي الذي يحكي عن موت الحاكم الذي قرّب يوسف وبني إسرائيل، ثم مجيء حاكم آخر بسياسة مختلفة تجاههم: (وَمَاتَ يُوسُفُ وَكُلُّ إِخْوَتِهِ وَجَمِيعُ ذَلِكَ الْجِيلِ. وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَأَنْثَرُوا وَتَوَالَدُوا وَنَمَوْا وَكَثُرُوا كَثِيرًا جَدًّا، وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ. ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. فَقَالَ لَشُعْبِهِ: «هُؤَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. هَلُمَّ نَحْتَالْ لَهُمْ لَثَلًا يَنْمُوا، فَيَكُونُوا إِذَا حَدَّثْتَ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيَحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الْأَرْضِ». فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤُسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ، فَبَنَوْا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ:

فِيثُومَ، وَرَعْمَسِيَسَ. وَلَكِنْ بِحَسَبِ مَا أَذْلُوهُمْ هَكَذَا نَمَوْا وَامْتَدُّوا. فَاحْتَشَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَاسْتَعْبَدَ الْمَصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْنَفٍ، وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللَّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ. كُلُّ عَمَلِهِمُ الَّذِي عَمِلُوهُ بِوِاسْطَتِهِمْ عُنْفًا. وَكَلَّمَ مَلِكُ مِصْرَ قَابِلَتَيِ الْعِبْرَانِيَّاتِ اللَّتَيْنِ اسْمُ إِحْدَاهُمَا شَفْرَةَ وَاسْمُ الْأُخْرَى فُوعَةُ، وَقَالَ: «حِينَمَا تُولَدَانِ الْعِبْرَانِيَّاتِ وَتَنْظُرَانِهِنَّ عَلَى الْكَرَاسِيِّ، إِنْ كَانَ ابْنًا فَاقْتُلَاهُ، وَإِنْ كَانَ بِنْتًا فَتَحْيَاهُ». وَلَكِنَّ الْقَابِلَتَيْنِ خَافَتَا اللَّهَ وَلَمْ تَفْعَلَا كَمَا كَلَّمَهُمَا مَلِكُ مِصْرَ، بَلْ اسْتَحْيَتَا الْأَوْلَادَ. فَدَعَا مَلِكُ مِصْرَ الْقَابِلَتَيْنِ وَقَالَ لَهُمَا: «لِمَاذَا فَعَلْتُمَا هَذَا الْأَمْرَ وَاسْتَحْيَيْتُمَا الْأَوْلَادَ؟». فَقَالَتِ الْقَابِلَتَانِ لِفِرْعَوْنَ: «إِنَّ النِّسَاءَ الْعِبْرَانِيَّاتِ لَسْنَ كَالْمِصْرِيَّاتِ، فَإِنَّهُنَّ قَوِيَّاتٌ يَلِدْنَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَهُنَّ الْقَابِلَةُ». فَأَحْسَنَ اللَّهُ إِلَى الْقَابِلَتَيْنِ، وَنَمَا الشَّعْبُ وَكَثُرَ جَدًّا^(١).

وعلى كل حال، فإن بني إسرائيل خرجوا مع النبي موسى «عليه السلام» من أرض مصر، واستقروا في صحراء سيناء أربعين سنة، وبعد وفاة موسى قادهم يوشع بن نون «عليه السلام» فسيطروا على بعض المدن والبلدات العربية من قبيل أريحا وعاي وغزة والقدس.

ولنحلل النص التالي الموجود في سفر يشوع من الكتاب المقدس: (وَلَمَّا سَمِعَ جَمِيعُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ فِي عَبْرِ الْأُرْدُنِّ فِي الْجَبَلِ وَفِي السَّهْلِ وَفِي كُلِّ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْكَبِيرِ إِلَى جَهَةِ لُبْنَانَ، الْحِثِّيُّونَ وَالْأَمُورِيُّونَ وَالْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفِرِزِّيُّونَ وَالْحَوِيِّونَ وَالْيَبُوسِيُّونَ، اجْتَمَعُوا مَعًا لِمُحَارَبَةِ يَشُوعَ وَإِسْرَائِيلَ) أي بني إسرائيل

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر الخروج: ٦-٢٠.

(بَصَوْتٍ وَاحِدٍ)^(١). فقد ذُكر في النص السابق كل من:

١. الْحِثِّيُّونَ: غزاة كانوا قد احتلوا جزءاً من تلك الأراضي قادمين من بلاد الأناضول «تركيا».

٢. الْأَمُورِيُّونَ عرب من بادية سوريا.

٣. الْكَنْعَانِيُّونَ عرب وسكان المنطقة.

٤. الْفَرِزِّيُّونَ اسم كنعاني معناه أهل الريف، وهم فرع من الكنعانيين القرويين.

٥. الْحَوِيُّونَ من القبائل العربية التي عاشت في نابلس وجبعون، ثم انتشروا في شمال فلسطين وشمال القدس، وهم بحسب التوراة فرع أيضاً من الكنعانيين.

٦. الْيَبُوسِيُّونَ، عرب، أسسوا مدينة القدس.

وفي الإصحاح ١١ من سفر يشوع: (فَأَخَذَ يَشُوعُ كُلَّ مَدِينٍ أُولَئِكَ الْمُلُوكِ وَجَمِيعَ مُلُوكِهَا وَضَرَبَهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ)^(٢). أي كانت هناك مدن، وكان هناك ملوك، وأخذها منهم يوشع بن نون ومعه بنو إسرائيل. وفي القرآن الكريم أيضاً ما يؤكد ما ذكرته في القراءة التاريخية حيث يقول «عز وجل»: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُودِلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾^(٣). فهم لم يؤسسوا دولة في أرض جرداء.

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر يشوع ٩: ١-٢.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر يشوع ١١: ١٦.

٣. سورة المائدة: ٢٢.

هذه المعطيات كما نجدها في «العهد القديم» وفي القرآن، نجدها أيضاً في أي كتاب تاريخي أو موسوعي يستعرض تاريخ تلك المنطقة، ولنأخذ ما جاء في الموسوعة البريطانية حول «كنعان»^(١): (كنعان، منطقة تُعرّف وتُحدّد بصور مختلفة في الأدب التاريخي والكتاب المقدس، ولكن المراد يتركّز دائماً على فلسطين. كان سكانها الأصليون قبل إسرائيل يُدعون الكنعانيين. ظهر عنوان كنعان والكنعانية في الكتابات المسمارية والمصرية والفينيقية من حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وكذلك في العهد القديم. في هذه المصادر، تشير كلمة «كنعان» - في بعض الأحيان - إلى منطقة تشمل كل فلسطين وسوريا، وأحياناً إلى الأرض الواقعة غرب نهر الأردن فقط، وأحياناً إلى الشريط الساحلي المتجه من عكا «أكو» إلى الشمال. غزا بنو إسرائيل فلسطين - أو كنعان - واحتلّوها بدءاً من أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد، أو ربما قبل ذلك).

Canaan, area variously defined in historical and biblical literature, but always centred on Palestine. Its original pre-Israelite inhabitants were called Canaanites. The names Canaan and Canaanite occur in cuneiform, Egyptian, and Phoenician writings from about the 15th century bc as well as in the Old Testament. In these sources, "Canaan" refers sometimes to an area encompassing all of Palestine and Syria, sometimes only to the land west of the Jordan River, and sometimes just

1. <https://www.britannica.com/place/Canaan-historical-region-Middle-East>

to a strip of coastal land from Acre (‘Akko) northward. The Israelites occupied and conquered Palestine, or Canaan, beginning in the late 2nd millennium bc, or perhaps earlier.

وبالتالي فإنَّ الحديث عن المُلْكِيَّة التَّارِيخِيَّة لِهَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ قَبْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيَهُودِ بِاعْتِبَارِهِمُ الْمُؤَسِّسِينَ لَهَا كَلَامٌ عَارٍ عَنِ الصَّحَّةِ.

كانت هذه هي القراءة التَّارِيخِيَّة المجرَّدة والمختصرة، مع الاستشهاد ببعض النصوص في المصادر اليهودية والإسلامية وغيرهما، للتأكيد على هذا البُعد التَّارِيخِي.

□ القراءة الدينية:

أما القراءة الثانية فهي القراءة الدينية، فقد يُقال بأن القرآن الكريم في قوله «عز وجل» على لسان موسى «عليه السلام»: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(١) يذكر أن الله قد وهب هذه الأرض لبني إسرائيل وكتبها لهم، فمن المفترض أن نلتزم بالإرادة الإلهية لتكون هذه الأرض لبني إسرائيل.. أي اليهود تنزلاً.

والتوراة تقول مثل ذلك، ففي سفر اللاويين مثلاً: (وَقُلْتُ لَكُمْ: تَرْتُونِ أَنْتُمْ أَرْضَهُمْ، وَأَنَا أُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا لِتَرْتُوهَا، أَرْضًا تَقِيضُ لَبْنًا وَعَسَلًا)^(٢). وهناك عدة نصوص في التوراة تدل على هذا المعنى.

ومن هنا قال رئيس الوزراء الصهيوني الأسبق «مناحيم بيغن» معقِّباً على

١. سورة المائدة: ٢١.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر اللاويين ٢٠: ٢٤.

خطاب الرئيس المصري «محمد أنور السادات» وأمام الكنيسة الإسرائيلية: (إن حق إسرائيل في فلسطين حقٌّ أبديّ تاريخي تشهد له الكتب، ومنها القرآن نفسه) واستدل بالآية السابقة ثم قال: (إن الله فرض لنا الأرض المقدسة دون سائر الخلق فلا يجوز لأحد دينياً أن ينازعنا فيها).

ولنا أن نسأل: هل كُتبت لهم هذه الأرض لأنهم بنو إسرائيل؟

الجواب بالنفي، فهذا العطاء ليس بعنوان الذرية، ليكون مُلكاً عائلياً يُتوارث عبر الزمن، بل هو عطاء بعنوان أنهم أتباع الرُّسل والرسالات السماوية، ليُقيموا دين الله. ومتى ما تخلّوا عن النهوض بمسئولياتهم، لم يستحقّوا هذه الوراثة على الأرض. في سفر التثنية من التوراة الإصحاح ٤: (إِذَا وَلَدْتُمْ أَوْلَادًا وَأَوْلَادَ أَوْلَادٍ، وَأَطَلْتُمْ الزَّمَانَ فِي الْأَرْضِ، وَفَسَدْتُمْ وَصَنَعْتُمْ تَمَنًّا مَنَحُوتًا صُورَةَ شَيْءٍ مَا، وَفَعَلْتُمْ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ إِلَهُكُمْ لِإِغَاظَتِهِ، أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ أَنَّكُمْ تَبِيدُونَ سَرِيعًا عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ الْأَرْضَ إِلَىهَا لَتَمَتِّكُوهَا. لَا تُطِيلُونَ الْأَيَّامَ عَلَيْهَا، بَلْ تَهْلِكُونَ لَا مَحَالَةَ. وَيَبِيدُكُمْ الرَّبُّ فِي الشُّعُوبِ، فَتَبْقَوْنَ عَدَدًا قَلِيلًا بَيْنَ الْأُمَمِ الَّتِي يَسُوقُكُمْ الرَّبُّ إِلَيْهَا) (١).

لذا فإننا نجد في تاريخ بني إسرائيل أن الله قد أجلاهم أكثر من مرة عن تلك الأرض التي كتبها لهم عندما عصوا وتمردوا وطغوا. ويؤكد هذا المبدأ قوله «عز وجل»: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التثنية ٤: ٢٥-٢٧.

لَهُمْ وَلْيَبَدِّلْهُمْ مَنْ بَعْدَ حَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»^(١). فالله «عز وجل» لا يستخلف أحداً على أرضٍ ما لأنهم من الجنس الفلاني أو من الذرية الفلانية، بل بالاستحقاق لإيمانهم وعملهم الصالح. ولنلاحظ القاعدة القرآنية التي جاءت على لسان موسى «عليه السلام»: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

فالمتقون هم الأحق بها، لا خصوص بني إسرائيل، وهذا ما يؤكده النص التالي في سفر اللاويين من التوراة: (وَالْأَرْضُ لَا تَبَاعُ بَتَّةً، لَأَنَّ لِي الْأَرْضَ، وَأَنْتُمْ غُرَبَاءُ وَنَزَلَاءُ عِنْدِي)^(٣).

ووفق هذا المبدأ الإلهي، فإن الله «عز وجل» فتح لأتباع رسول الله محمد «صلى الله عليه وآله» الأرض المقدسة حين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، واستخلفهم عليها، وجعلهم الوارثين لها والأحق بها من سواهم، لأنهم أتباع آخر رسالة سماوية، ولا رسالة سماوية بعدها.

وبذا تبطل حجج الصهاينة في ادعاء ملكيتهم للأراضي الفلسطينية سواء وفق القراءة التاريخية البحتة أو القراءة الدينية، وقد غزوا أهل فلسطين الآمنين، فارتكبوا المجازر، واستباحوا الحُرُمات، واغتصبوا الأرض، وانتهبوا الممتلكات والخيرات، وهجّروا أصحاب الأرض في جريمة تعد واحدة من أكبر جرائم العصر، ووصمة عارٍ وخزيٍ في جبين العالم الذي إن لم يُساند

١. سورة النور: ٥٥.

٢. سورة الأعراف: ١٢٨.

٣. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر اللاويين ٢٥: ٢٣.

العدوان فقد صَمَتَ عن الحق، واعترفَ بكيانٍ غاصِب، ونبَتَ خبيثة، ودولة
لقيطة، أو تحت عنوانِ الأمرِ الواقعِ الذي لا مَفَرَّ منه.. وهل يَسْقُطُ مثْلُ هذا
الحق بتقادمِ الزمان، ليُصْبِحَ الباطلُ حقاً والحقُّ باطلاً؟

التقويم اليهودي

العبري

التقويم اليهودي «العبري»

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

هذه الآية الشريفة في معرض الحديث عن مسؤولية المسلمين تجاه الزمن، حيث أن الله «عز وجل» قد ربط بالزمن حكماً تكليفاً يتعلق بتحريم القتال في أربعة أشهر قمرية من كل سنة، هي محرم، ورجب، وذو القعدة وذو الحجة.

وقد عرف العرب - قبل الإسلام - حرمة الأشهر الحرم وعظموها التزاماً منهم بالشريعة الإبراهيمية التي تعود إلى ما قبل عشرات القرون من بعثة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، ولما تلمسوه من نتائج عملية ترتبط بهذا التشريع الذي يريد أن يخفف من الروحية الجاهلية الباعثة على الغزو والاقتتال والنهب وسلب الأمن عن طرق السفر، ولاسيما في موسم الحج ذهاباً وإياباً: «ذو القعدة، ذو الحجة، محرم»؛ وموسم العمرة «رجب».

فالتشريعات في نهاية المطاف إنما جعلت لصالح الإنسان: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمْ

الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١﴾.

وواحدة من المؤثرات السلبية في حياة الإنسان انفلات غرائزه عن السيطرة لأسباب مختلفة. ومن أمثلة تلك الغرائز: حب الذات، والتملك، وما له علاقة بالبطن، والفرج، والقوة الغضبية.

وقد برزت الأخيرة منها بوضوح منذ بداية وجوده على الأرض: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.. فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢).

ولهذا الانفلات تبعات عديدة أبرزها فقدان الإحساس بالأمن والسلام، وهو من أشد ما يربك حياة الإنسان، ويجعله يعيش حياة غير سوية، مليئة بالقلق، وسوء الظن، والانفعال السريع، وغير ذلك من التأثيرات النفسية والجسدية.

ومن هنا نجد أن أهم صفة في جنة الآخرة هي التمتع بالأمن والسلام، حتى أسماها الله دار السلام: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣). فلا خوف من عدو، ولا من حسود، ولا من مرض، ولا من حوادث سماوية، ولا من وسوسة شيطان، ولا من فقر، ولا من جوع، ولا غير

١. سورة الأعراف: ١٥٧.

٢. سورة المائدة: ٢٧-٣٠.

٣. سورة الأنعام: ١٢٧.

ذلك من أسباب عدم الإحساس بالأمن.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾^(١).

لذا أراد الله «عز وجل» من خلال تشريعين، الأول منهما: تحديد الزمن الحرام ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾.. والثاني: تحديد الأرض الحرام ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾^(٢) أن يجعل الإنسان في تجربة عملية للسلام في العلاقات البينية، ولو كانت تلك التجربة محدودة زمنياً ومكانياً.. تجربة يتذوق فيها طعم هذه النعمة، ولعله يسعى لتعميمها في حياته كلها.

وقد أشار د. جواد علي في موسوعته «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» إلى تعظيم العرب الجاهليين لحرمة تلك الأشهر حيث قال: (وكان الجاهليون يعظمونها، ولا يستباحون القتال فيها، حتى إن الرجل يلقي فيها قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه)^(٣).

ولكن بعضهم - بشكل تدريجي - لجأ إلى التحايل على التشريع الزمني طمعاً واستجابةً للأهواء، فسوّلت لهم أنفسهم ابتداء فكرة النسيء، التي تعني تبديل بعض الأشهر الحُرُم بأخرى، وذلك لمفاجأة العدو أو الخصم بالغزو أو العدوان، أو رغبة في الإسراع في الأخذ بالثأر.

هذا التلاعب في التشريع ذمّه الله بشدة واعتبره نوعاً من الكفر بنعم الله

١. سورة الواقعة: ٢٥-٢٦.

٢. سورة العنكبوت: ٦٧.

٣. علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٥٠٦٥.

وتشريعاته: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِّوُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

وجاء الإسلام فأكد حرمة تلك الأشهر وحرمة الحرم المكي، كما أعطاهما أبعاداً أخرى كما عن زرارة عن الإمام الباقر «عليه السلام»: (قال: سألته عن رجل قتل رجلاً خطأ في الشهر الحرام؟ قال: تغلظ عليه الدية، وعليه عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين من أشهر الحرم)^(٢).

هذه التشريعات التي جاءت لمصلحة المسلمين ما رعوها حق رعايتها، وكانت البداية المشؤومة على يد بني أمية حين كسروا حرمة الشهر الحرام فسفكوا دم الحسين «عليه السلام» وأنصاره في محرم.. ثم كسروا حرمة الأرض الحرام، حين نصبوا المنجنيق ورموا الكعبة المشرفة مرتين على عهد يزيد وعبد الملك بن مروان، ثم هاجموا المتحصنين في البيت الحرام وقتلوا عبدالله بن الزبير وأنصاره.

وهكذا بدأت هذه المفاهيم تغيب وتختفي تدريجياً.. حروب، وعدوان، وعدم احترام الأشهر، والأرض الحرام.. إلخ. والمسلمون هم المتضررون في نهاية المطاف، كما قالت الآية: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾.

ولاشك أن المسؤولية اليوم تقع على عاتق علماء الإسلام، الأمانة على

١. سورة التوبة: ٣٧.

٢. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢، ١٣٦٤.

الدين، وورثة الأنبياء، بما استُحفظوا من كتاب الله، بأن يُعيدوا الحياة إلى المفاهيم والتطبيقات المتعلقة بالأشهر الحُرُم والأرض الحرام لاسيما وقد ضجَّ الناس من هذا الكمِّ الهائل من سفك الدماء، والعدوان على الأبرياء، وتدمير ما تبقى من مقدّرات الأمة، كل ذلك باسم الإسلام، والإسلام من جرائمهم بريء. كما وأن الأشهر الحُرُم تمثل الفرصة لأن يُعوّد المسلمون أنفسهم كأفراد على اقتلاع كل الأحقاد التي تُرهق قلوبهم، وكل التوتّرات التي تُربك حياتهم، وأن يستبدلوها بلغة التّواصل والمحبة، وسيكتشفون من خلال ذلك، أن الحياة ستكون أفضل وأجمل وأكثر سعادة، وسيكون ذلك هو السبيل لبلوغ رضوان الله، لأنّ الحقد حائلة للدين والدنيا.

□ التلاعب في التقويم اليهودي:

والأمر الآخر الذي ذكر في الآية أنّ ﴿عِدَّة الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، والذي قد يحمل في طياته تعريضاً للتغييرات التي قام بها بعض الحاخامات في التقويم اليهودي قبل ميلاد السيد المسيح «عليه السلام» بقرون، واستمرّ إلى هذا اليوم.

فإن صحَّ هذا الاحتمال، فهو طعن ضمني وتشكيك في نوايا أولئك الحاخامات بما خالفوا من خلاله ما عهدوه عن أنبيائهم - وفي المقام الأول التشريعات التي جاء بها إليهم النبي موسى «عليه السلام» - في مراعاة بدايات الأشهر والعبادات المتعلقة بها وأيام الأعياد وغير ذلك.

ولكي تتضح المسألة أكثر، لابد من مقدّمة حول أنواع التقاويم وكيف أجري

التغيير في التقويم اليهودي وأسبابه المعلنة.

التقويم قد يكون قمرياً، كالتقويم الإسلامي العربي، وقد يكون شمسياً، كالتقويم الجريجوري الميلادي، وقد يكون مزيجاً من الاثنين، أي قمرياً شمسياً، كالتقويم اليهودي العبري «□□□□□□□□ □□□□□□□□».

التقويم العبري في أصله كان قمرياً كالتقويم الهجري الذي نعتمده، وإن كانت للشهور عندهم أسماء مختلفة، وهي اليوم كالتالي:

تَشْرِيه «وبالعربية تشرين»، حِشْقَان أو خِشْقَان «الاسم المعاصر اختصار لمرَحْشَوَان»، كِسْلِف، طيْقِيت «وبالعربية طَيْبِيت»، شَقَاط «وبالعربية شَبَاط»، أَدَار «آذار»، نِيسَان، إِيَّار، سِيقَان، تَمُوز، آف «وبالعربية آب»، أَيْلُول.

وهذه الأسماء ليست الأسماء الأصلية عندهم، بل تم تغييرها في القرن السادس قبل الميلاد ضمن فترة السبي وتأثراً بالتقويم البابلي.

وهي أسماء «أكادية»^(١) الأصل، وتشير إلى أعمال زراعية أو إلى الإله الذي كان يحتفل البابليون بعيده في الشهر المعين، حيث اشتق اسم «تشري» - على سبيل المثال - من كلمة «تشريتو» الأكادية بمعنى «بداية أو شروع»^(٢).

واشتق اسم «مرحشوان» من كلمتي «وَرَحْ شَمْن»^(٣) أي «الشهر الثامن»، أي ثامن شهر بعد «نيسان».

واشتق اسم «تموز» من اسم الإله «تموز» أو «دُمُوزي»، ومعنى اسمه: الابن

١. أكادية نسبة إلى الأكاديين، وهم من حكموا العراق في بعض فترات ما قبل ميلاد السيد المسيح.

٢. وهي لفظة قريبة من «تشرع» العربية وبنفس المعنى.

٣. وهي لفظة قريبة من «ثامن» العربية وبنفس المعنى.

المخلص، وهو إله النمو والخصوبة البابلي.

أما «أيلول» فهو اسم مشتق من الكلمة الأكادية «ألولو» بمعنى «حصاد». وقد نُقلت هذه الأسماء كذلك إلى اللغة الآرامية، وبعضها ما زالت مستعملة في بلاد الشام كأسماء للأشهر الميلادية.

يتم حساب السنين في التقويم اليهودي التقليدي من بداية الخليقة - حسب التصور المقدم في التَّنَخ ووفق ما حدده التقسيم الزمني فيه - وذلك بإضافة أعمار كل الشخصيات المذكورة في سلسلة الأنساب إلى آدم. وبالطبع فإن الرقم الذي تمّ التوصل إليه لعمر الوجود ككل أقل بكثير من الرقم الذي قدّمه العلم الحديث والذي يبلغ ١٣ مليار و ٨٠٠ مليون سنة، إذ يبلغ العمر المقدّر في التَّنَخ قرابة ٦٠٠٠ سنة فقط، وسنتنا هذه ٢٠١٩م وفق التقويم اليهودي هي سنة ٥٧٧٩.

وإلى القرن الرابع للميلاد كانت بدايات الأشهر - وتُعرف باسم «راش خودش □□□□ □□□□» - تُقرّر حسب رؤية الهلال، من خلال شهادة رجلين اثنين على الأقل بأنهما شاهدا الهلال، على أن يكونا من اليهود الموثوقين وأن يتمّ ذلك أمام «بيت دين» - أو كما عُرف لاحقاً باسم «السندرين» وهي كلمة عبرية منقولة عن كلمة «سندريون» في اللغة اليونانية والتي تعني الجالسون معاً - وهو المجلس الأعلى للحاخامات، ليتم بعد ذلك إشعال النيران بطريقة معيّنة لإعلام الناس وسائر المدن والقرى والبلدات بثبوت الهلال وبداية الشهر.

وكان عدد الشهور عندهم للسنة الواحدة ١٢ شهراً، ولكن بعد الغزو

البابلي وآثاره العديدة، ومن بينها انتشار اليهود في مناطق مختلفة يصعب من خلالها التواصل فيما بينهم والتنسيق حول بدايات الأشهر وما إلى ذلك من شؤون دينية وحياتية مرتبطة بتحديد ما، حتى أنهم اضطروا لجعل الأعياد مستمرة لمدة يومين لضمان أن أحدهما هو اليوم الدقيق المطلوب وفق التشريع، هذا علاوة على تدخل البابليين بعد السبي - كما تقول النصوص التلمودية - عن طريق خداع اليهود القاطنين في المناطق الأخرى بإشعال النيران إيهاماً ببداية الشهر القمري، لذا فقد أمر رئيس «بيت دين» في وقته الحاخام «هيليل ناسي»^(١) باعتماد تقويم جديد يكون مزيحاً من الدورة القمرية والشمسية.. على الأقل هذا هو الهدف المعلن من التغيير في التقويم، وقد يكون غير ذلك بحسب الاحتمال الذي سبق وذكرته في بداية الكلام عن التلاعب في التقويم اليهودي لغرض الحفاظ على مواسم مناسبة للحج والصيام أو لغيرهما من العبادات والمناسبات الموسمية وعدم تنقلها ما بين الصيف والشتاء والربيع والخريف.

فقد اعتمد في التقويم الجديد أن تتم إضافة ٧ أشهر كل ١٩ سنة، بواقع شهر كل سنتين أو ثلاث، وبذا تبقى الأشهر التي يُراد لها أن تكون في موسم الخريف ضمن ذلك الموسم، وما أريد لها أن تكون في الشتاء ستبقى في الشتاء.. وهكذا.. أي لن تعود السنة أحياناً مكونة من ١٢ شهراً.

فالسنة القمرية تقصر ١١ يوماً عن السنة الشمسية، وهذا يعني أن تختلف مواسم وفصول الأشهر تدريجياً وتُزاح، ففي كل ٣ سنوات تقريباً تتقدم بداية

١. هيليل الثاني (بالعبرية: הלל השני)، تراس السنهدين ما بين ٢٢٠ و ٢٨٥ م.

السنة القمرية على الشمسية بشهر، ولذا نجد أن التقويم الهجري القمري عند المسلمين يدور فيه شهر رمضان مثلاً، فيكون تارة في الشتاء وتارة في الربيع وتارة في الصيف وأخرى في الخريف، وبذا يختلف طول وقصر وقت الصيام بهذا اللحاظ. ومن هنا أيضاً نجد أن بداية التقويم الهجري كان في عام ٦٢٢م، وإذا أنقصنا ٢٠١٩ - وهو هذا العام - من هذا الرقم فالناتج ١٣٩٧، أي من المفترض أن تكون سنتنا الهجرية الآن سنة ١٣٩٧، بينما نحن في سنة ١٤٤٠ هـ، والسبب يعود لما ذكرناه.

وقبل تغيير التقويم العبري، كان الأمر بالنسبة إلى اليهود مشابهاً لما عليه وضع المسلمين اليوم بالنسبة إلى عباداتهم وأعيادهم وسائر أمورهم.

أما هذا الشهر الذي تقرّر إضافته كل سنتين أو ثلاث سنوات، فيأتي قبل شهر «أدار» الذي صار يُسمّى أيضاً «أدار بت» أو «أدار شاني»^(١)، لأن الشهر المضاف أحياناً والذي يسبقه أخذ اسم «أدار ألف».

الإجراء الآخر الذي جاء بالتدريج لتنظيم هذا التقويم يتمثل في تحديد عدد أيام غالبية الأشهر لتكون ثابتة على الدوام، دون الحاجة إلى رصد الهلال لهذا الغرض، بحيث أصبحت كالتالي:

أشهر تشريه، شفاط، أدار ألف، نيسان، سيفان، آب: ٣٠ يوماً على الدوام.

أشهر طيفيت، أدار، إيّار، تموز، أيلول: ٢٩ يوماً على الدوام.

شهر حشوان، كسليف: مرددان بين ٢٩ و ٣٠ يوماً

١. بت يعني باء، وشاني يعني ثاني. أما الشهر المضاف فيأخذ اسم «أدار ألف» أي آذار الأول.

وتدرجياً مع إدخال الحسابات الخوارزمية والتعديلات أصبحت قواعد التقويم العبري اليهودي كالتالي:

١. يبلغ طول الشهر القمري الفلكي ٢٩ يوماً و ١٢ ساعة و ٧٩٣ جزءاً.

٢. الشهر قد يكون ٢٩ أو ٣٠ يوماً.

٣. الأول من تشري هو بداية السنة، وهو يوم اقتران القمر بالشمس «ولادة الهلال وبداية الشهر الجديد»، ويسمى الاقتران بالعبرية «مولد»، باستثناء الحالات التالية:

(أ) عندما يقع الاقتران ظهراً، أو في وقت بعد الظهر.

(ب) عندما يقع الاقتران في يوم الأحد، أو الأربعاء، أو الجمعة.

(ج) عندما يقع الاقتران يوم الثلاثاء في سنة غير كبيسة، وبعد الساعة الثالثة صباحاً بقليل.

(د) عندما يقع الاقتران يوم الاثنين، بعد الساعة ٩ صباحاً، في السنة اللاحقة للسنة الكبيسة.

وتأتي الاستثناءات أو عملية ترحيل يوم بداية السنة - وبما يشبه النسيء المذموم في القرآن - بلحاظات معينة، فلو كان الاقتران في يوم الأحد، فهذا يعني أن يسبقه السبت، وهو يوم لا يعمل فيه اليهود، وبداية السنة يوم عيد، ولذا فلا تنهياً لهم الظروف للاستعداد للعيد؛ وهكذا فإن اليوم الذي يلي يوم الجمعة هو السبت وهو يوم عبادة، فتعارض احتفالاتهم بالعيد مع التعبّد وتحريم العمل فيه. كما أن عيد «المظلة - المظال - العُرش» عيد

العُرش وبالعبرية □□□□ وتُلفظ «سوكوت» يبدأ في الخامس عشر من شهر تشرى حسب التقويم العبري و يستمر سبعة أيام، وهو إحياء لذكرى خيمة السعف التي آوت اليهود في العراء أثناء خروجهم من مصر. وبمناسبة هذا العيد يتوقف العمل في اليوم الأول والذي يُعتبر عطلة رسمية وكذلك في اليوم الأخير من العيد حيث تبدأ صلوات طلب المطر، ولذا فإن اليوم السابع من هذا العيد لا ينبغي أن يكون يوم السبت.

٤. السنة غير الكبيسة تتكون من اثني عشر شهراً، وتتألف من ٣٥٣ أو ٣٥٤ أو ٣٥٥ يوماً؛ أما السنة الكبيسة والتي تأتي مرة بعد كل سنتين أو ثلاث سنوات فتتكون من ثلاثة عشر شهراً، وتتألف من ٣٨٣ أو ٣٨٤ أو ٣٨٥ يوماً.

٥. في كل ١٩ سنة، فإن السنة الثالثة والسادسة والثامنة والحادية عشرة والرابعة عشر والسابعة عشر والتاسعة عشر هي سنوات كبيسة.

هذه التغييرات والتبديلات والتقديم والتأخير المشابه للنسيء بنحو ما، وإن اختلف من حيث الغايات والدوافع والتراتبية، تثير الاحتمال الذي قدّمته في بداية الموضوع، ويتلخص في تعريض آية سورة التوبة السابقة لآية النسيء بهذا الإجراء الذي قام به اليهود في مقطع من تاريخهم، وبالتالي حَسَم المسألة من خلال نصّ قرآني يحمل في طيّاته تحذيراً للمسلمين من مغبة تكرار ذات الأمر بهدف جعل شهر رمضان في الشتاء على الدوام مثلاً، وذلك لقصر النهار فيه، والحج في الربيع مثلاً للطافة الجو فيه، وأمثال ذلك من تغيير لموعد الأعياد وليلة القدر وغير ذلك.. إلخ.

وقد شهد القرن الهجري الثاني محاولة قريبة لما قام به اليهود بالنسبة

إلى تقويمهم، حيث ادّعى بعضهم أن شهر رمضان لا يمكن أن ينقص.. فهو ٣٠ يوماً على الدوام، دون مراعاة لمسألة الاقتران ورؤية الهلال أو الحسابات الفلكية الدقيقة.. فهل للتأثر باليهود مدخلة في ذلك؟

لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال، وقد تحدثت في بعض فصول هذا الكتاب عن اليد اليهودية الضالعة في نشر بعض الأفكار وتحريف بعض الأمور في الوسط الإسلامي، وكان للكوفة نصيب من ذلك، ولعل مسألتنا هذه واحدة من تلك المسائل بلحاظ أنها انطلقت من البيئة الكوفية، ونُسبت إلى الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» زوراً كما سيّضح من خلال الروايات.

كما عمل على تحقيق ذلك بعض الزنادقة، ففي تاريخ الطبري أنه تمّ اعتقال عبد الكريم بن أبي العوجاء الزنديق، فكثرت الوساطات لدى أبي جعفر المنصور لإطلاق سراحه، فكفّ عنه، ثم قرّر والي الكوفة محمد بن سليمان أن يضرب عنقه، فلما أيقن ابن أبي العوجاء أنه مقتول قال: (أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال، وأحلّ فيها الحرام. والله لقد فطرتكم في يوم صومكم، وصومتمكم في يوم فطركم! فُضِرَبَتْ عَنْقُهُ)^(١).

□ إدعاء ثبات شهر رمضان:

ويُعدّ الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان «ت١٣٤هـ» من العلماء الذين انبروا لردّ هذا الافتراء وواجهوا محاولة التلاعب في التقويم الإسلامي الهجري وصيام الناس وفطرتهم، وألّف كتاباً في هذا الموضوع، قال: (وقد عملت فيه

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٥٠٨.

كتاباً سميته بـ «مصباح النور» يكون في أرباع المنصوري^(١) بخط متوسط، في نحو الخمسين ومائة ورقة، فإن ظفرت به أغناك عما سواه في معناه إن شاء الله^(٢)، وللأسف فإن الكتاب لم يصلنا، إلا أنه قدّم إجابةً مختصرة في رسالة حملت عنوان «جوابات أهل الموصل في العدد والرؤية» أشار في بدايتها إلى أن أحد أهل الموصل وجه إليه سؤالاً حول هذا الموضوع: (عن شهر رمضان، هل يكون تسعة وعشرين يوماً كما يكون ثلاثين يوماً؟ وهل إذا كان تسعة وعشرين يوماً يكون شهراً كاملاً؟ أم لا يطلق عليه الكمال؟)^(٣) وأن السائل استشهد بقول بعض علماء الإمامية بتمامية شهر رمضان دائماً اعتماداً على ما روي عن الإمام الصادق «عليه السلام» وتفسير بعض الآيات القرآنية؛ علماً بأن من بين أولئك العلماء الذين تأثروا بتلك الروايات بناءً على منهجهم في الحديث واستنباط الأحكام الشرعية: الشيخ الصدوق «ت ٣٨١هـ»، الذي قال بعد نقله بعض الروايات في كتابه «الخصال»: (مذهب خواص الشيعة وأهل الاستبصار منهم في شهر رمضان، أنه لا ينقص عن ثلاثين يوماً أبداً، والأخبار في ذلك موافقة للكتاب، ومخالفة للعامة، فمن ذهب من ضَعْفَةِ الشيعة إلى الأخبار التي وردت للتقية، في أنه ينقص ويصيبه ما يصيب الشهور من النقصان والتمام، اتقى كما تتقى العامة)^(٤) أي يُسكت عنه ولا يُردّ عليه، لتموت «البدعة» بذلك، حيث اعتبر في كتابه الآخر «من لا يحضره الفقيه» أن القول

١. من المقاسات القديمة للكتب. والاسم الكامل للكتاب: مصباح النور في علامات أوائل الشهور.

٢. المفيد: جوابات أهل الموصل، ص ١٥.

٣. المفيد: جوابات أهل الموصل، ص ١٢.

٤. الصدوق: الخصال، ج ٢ ص ٥٣١.

بخلاف ذلك من البدع: (مَن خالف هذه الأخبار وذهب إلى الأخبار الموافقة للعامة في ضدها، اتقى كما يعتقد العامة، ولا يُكَلِّم إلا بالتقية، كائناً من كان، إلا أن يكون مسترشداً فيُرشد، ويُبَيِّن له، فإن البدعة إنما تُمات وتبطل بترك ذكرها)^(١).

وبدأ الشيخ المفيد رده على سؤال ذلك الرجل من أهل الموصل بقوله: (القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم، قال الله «عز اسمه»: ﴿بَلِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٢) وقال «تعالى»: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾^(٣) وقال «تعالى»: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعَجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾^(٤). فإذا ثبت أن القرآن نزل بلغة العرب، وخوِطب المكلفون في معانيه على اللسان، وجب العمل بما تضمنه على مفهوم كلام العرب دون غيرهم)^(٥).

ثم انطلق من هذه الفكرة لبيان أن قول الله «عز اسمه»: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٦) تضمن استعمال كلمة «شهر» بما وضعت لها العرب هذه التسمية، وأنها وضعتها للشهر من حيث اشتهر بالهلال، وكان الهلال علامته ودليله، وبذا يكون الهلال وحده هو علامة بداية الشهر من الناحية الشرعية دون ما

١. الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ١٧١.

٢. سورة الشعراء: ١٩٥.

٣. سورة الزمر: ٢٨.

٤. سورة فصلت: ٤٤.

٥. المفيد: جوابات أهل الموصل، ص ١٥.

٦. سورة التوبة: ٣٦.

سواه، معتبراً أن القائلين بالاعتماد على العدد بتمامية شهر رمضان كل سنة قد خالفوا نص القرآن ولغة العرب، وفارقوا بمذهبهم فيه كافة علماء الإسلام، وباينوا أصحاب علم النجوم، فلم يصيروا إلى قول المسلمين في ذلك، وأنهم أحدثوا مذهباً غير معقول.

وتحدّث الشيخ المفيد كذلك عن اختراعهم جدولاً نسبوه زوراً للإمام الصادق «عليه السلام»، وأنه لم يجد أحداً من علماء الشيعة وفقهائها وأصحاب الحديث منها، على اختلاف فتاواهم في العدد والرؤية إلا وهو طاعن فيه، ومُكذَّبٌ لرأويه.

ثم أكّد المفيد أنّ شهر رمضان من جملة الشهور التي ذكرها الله «عز وجل» في الآية السابقة، والشهر قد يكون تسعة وعشرين يوماً، وهو في الحقيقة شهر، كما يكون شهراً حينما يُتمّ ثلاثين يوماً، وليس يُخرجه نقصانه من استحقاقه التسمية بأنه شهر. وكيف لا يعتبر شهراً إن كان تسعة وعشرين يوماً، والقرآن ناطق بأن الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، وأصحاب العدد معترفون بأنّ منها ستة، كل واحد منها تسعة وعشرون يوماً؟

واستمرّ الشيخ المفيد في استعراض الأدلّة على بطلان قولهم، ثم عرّج لبيان بطلان الروايات الدالّة على ذلك، قال: (وأما ما تعلق به أصحاب العدد في أن شهر رمضان لا يكون أقل من ثلاثين يوماً، فهي أحاديث شاذّة قد طعن نقّاد الآثار من الشيعة في سندها، وهي مُثبّنة في كتب الصيام، في

أبواب النوادر^(١)، والنوادر هي التي لا عمل عليها. وأنا أذكر جملة ما جاءت به الأحاديث الشاذة، وأبين عن خللها، وفساد التعلق بها^(٢).

الرواية الأولى: عن محمد بن سنان، عن حذيفة بن منصور، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (شهر رمضان ثلاثون يوماً لا ينقص أبداً)^(٣). قال المفيد: (وهذا الحديث شاذ، نادر، غير معتمد عليه، طريقه محمد بن سنان، وهو مطعون فيه، لا تختلف العصابة في تهمة وضعفه، وما كان هذا سبيله لم يعمل عليه في الدين)^(٤).

الرواية الثانية: عن سهل بن زياد الأدمي عن محمد بن إسماعيل، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن الله «عز وجل» خلق الدنيا في ستة أيام، ثم اختزلها من أيام السنة، فالسنة ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً، شعبان لا يتم، وشهر رمضان لا ينقص أبداً، ولا تكون فريضة ناقصة، إن الله «تعالى» يقول: ﴿وَلِتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ﴾^(٥). قال المفيد: (وهذا الحديث شاذ مجهول الإسناد، لو جاء بفضل صدقة، أو صيام، أو عمل برٍّ لوجب التوقف

١. تستمل بعض الكتب على أبواب تأخذ عنوان «باب نادر في» وتتضمن روايات غريبة أو لا يعمل بها وتكون على مخالفة لبعض القواعد والأصول.

٢. المفيد: جوابات أهل الموصل، ص ١٩.

٣. الكليني: الكافي، ج ٤، ص ٧٩، باب النوادر، ح ٣.

٤. المفيد: جوابات أهل الموصل، ص ٢٠.

٥. الطوسي: التهذيب، ج ٤، ص ١٧٢. والآية من سورة البقرة: ١٨٥ وتماهما: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فيه، فكيف إذا جاء بشيء يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة؟ ولا يصح على حساب مَلِّي ولا ذَمِّي، ولا مسلم، ولا منجَّم، ومَنْ عَوَّل على مثل هذا الحديث في فرائض الله «تعالى»، فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً^(١).

الرواية الثالثة: عن محمد بن يعقوب بن شعيب، عن أبيه، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (قلت له: إن الناس يروون أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» صام شهر رمضان تسعة وعشرين يوماً أكثر مما صام ثلاثين يوماً، فقال: كذبوا، ما صام إلا تاماً، ولا تكون الفرائض ناقصة)^(٢). قال المفيد: (وهذا الحديث من جنس الأول وطريقه، وهو حديث شاذ لا يثبت عند أصحاب الآثار، وقد طعن فيه فقهاء الشيعة، بأن قالوا: محمد بن يعقوب بن شعيب لم يرو عن أبيه حديثاً واحداً غير هذا الحديث، ولو كانت له رواية عن أبيه لروى عنه أمثال هذا الحديث، ولم يقتصر على حديث واحد لم يشركه فيه غيره. مع أن ليعقوب بن شعيب «رحمه الله» أصلاً قد جمع فيه كافة ما رواه عن أبي عبد الله «عليه السلام»، ليس هذا الحديث منه، ولو كان مما رواه يعقوب بن شعيب لأورده في أصله الذي جمع فيه حديثه عن أبي عبد الله «عليه السلام»، وخلقوا أصله منه، دليل على أنه موضوع، مع أن في الحديث ما قد بينا بعده في قول الأئمة «عليهم السلام»، وهو الطعن في قول مَنْ قال: إن شهر رمضان تسعة وعشرون يوماً، لأن الفريضة لا تكون ناقصة، والشهر إذا كان تسعة وعشرين يوماً، ما كانت فريضة الصوم فيه ناقصة، كما أنه إذا كان فرض السفر لصلاة الظهر

١. المفيد: جوابات أهل الموصل، ص ٢٢.

٢. الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ١١٠. باب النوادر، ح: ٤٧٢.

ركعتين لم يكن الفرض ناقصاً، وإن كان على الشطر من صلاة الحضر، وكما أن صلاة العليل جالساً لا يكون فرضها ناقصاً، كما إذا صام الكفارة فصام شهرين ناقصين^(١) لا تكون الكفارة ناقصة. وهذا يدلُّك على أن واضع الحديث عامِّي عقل، بعيد من العلماء، وحاشا أئمة الهدى «عليهم السلام» مما أضافه إليهم الجاهلون، وعزاه إليهم المفترون، والله المستعان. فهذه الأحاديث الثلاثة مع شذوذها، واضطراب سندها، وطعن العلماء في رواتها، هي التي يعتمد عليها أصحاب العدد، المتعلقون بالنقل، وقد بيّنا ضعف التعلق بها بما فيه كفاية والحمد لله^(٢).

ثم أضاف الشيخ المفيد بأن رواة الحديث بأن شهر رمضان شهر من شهور السنة، يكون تسعة وعشرين يوماً، ويكون ثلاثين يوماً هم فقهاء أصحاب الأئمة الباقر والصادق والكاظم والرضا والجواد والهادي والعسكري «عليهم السلام»، وكانوا الأعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام، والفتيا والأحكام، الذين لا يُطعن عليهم، ولا طريق إلى ذم واحد منهم، وهم أصحاب الأصول المدونة، والمصنّفات المشهورة، وكلُّهم قد أجمعوا نقلاً وعملاً على أن شهر رمضان يكون تسعة وعشرين يوماً، نقلوا ذلك عن أئمة الهدى «عليهم السلام» وعرفوه في عقيدتهم، واعتمدوه في ديانتهم.

ثم ذكر في جوابه روايات كثيرة من بينها رواية محمد بن مسلم عن عن أحدهما، يعني أبا جعفر وأبا عبد الله، «عليهما السلام» قال: (شهر رمضان

١. لو صام شهرين متتابعين ككفارة وكاننا ٢٩ يوماً بحسب الاستهلال.

٢. المفيد: جوابات أهل الموصل، ص ٢٤.

يُصيبه ما يصيب الشهور من النقصان، فإذا صمّت تسعة وعشرين يوماً ثم تغيّمت السماء، فأتمّ العدة ثلاثين^(١). ورواية سماعة بن مهران، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (صيام شهر رمضان بالرؤية وليس بالظن، وقد يكون شهر رمضان تسعة وعشرين يوماً، ويكون ثلاثين يوماً، يصيبه ما يصيب الشهور من النقصان والتمام)^(٢). ورواية حماد بن عثمان عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (شهر رمضان شهر من الشهور، يصيبه ما يصيب الشهور من النقصان)^(٣).

ومضمون بعض هذه الروايات يبيّن أن المسألة كانت مثارة على عهد الإمام الصادق ولربما الباقر أيضاً، ومن جرأة الوضّاعين أنهم نسبوا للإمام الصادق ما يؤيّد قولهم على الرغم من أنه صرّح في أكثر من مناسبة ببطلان القول بتمامية شهر رمضان على الدوام.

ثم ختم الشيخ المفيد جوابه بقوله: (وأخبار الرؤية والعمل بها، وجواز نقصان شهر رمضان قد رواه جمهور علماء الإمامية، وعمل به كافة فقهاءهم، فاستودعته الأئمة «عليهم السلام» خاصّتهم، فدلّ ذلك على أنه محض الحق، وليس من باب التقيّة في شيء)^(٤).

وضمّن تلميذه السيد المرتضى علم الهدى «ت٤٣٦هـ» كتابه «الرسائل» رسالة في الرد على أصحاب العدد، مما يبيّن أنّ المسألة كانت رائجة ومعروفة

١. الطوسي: التهذيب، ج ٤، ص ١٥٥.

٢. الطوسي: التهذيب، ج ٤، ص ١٥٦.

٣. الطوسي: التهذيب، ج ٤، ص ١٦٠.

٤. المفيد: جوابات أهل الموصل، ص ٤٨.

في ذلك الوقت، وأن لفتوى الشيخ الصدوق على الأقل دوراً في ذلك.

قال السيد المرتضى في بداية رسالته: (وقفت - أحسن الله توفيقك - على ما أنفذته من الكلام المجموع في نصرة العدد في الشهور، والطعن على من ذهب إلى الرؤية، واعتمدها ولم يلتفت إلى ما سواها. وأنا أجيب مسألتك وأسعفك بطلبك) (١).

وبعد أن ذكر رواية للقائلين بتمامية شهر رمضان قال في الرد على المستمسكين بها: (يُقال له: أما هذا الخبر فكأنه موضوع ومُرتّب على مذهب أصحاب العدد، لأنه على ترتيب مذهبهم، وقد احتسب فيه من المطاعن واستعمل من الألفاظ ما لا يدخله الاحتمال والتأويل، ولا حجة في هذا الخبر ولا في أمثاله على كل حال) (٢).

واسترسل السيد المرتضى في بيان الأدلة نقضاً وإثباتاً، بما يخرج عن هدف كتابنا هذا.

ومن المتأخرين من الفقهاء النافين لثبات عدد أيام شهر رمضان: الميرزا القمي «ت ١٢٣١هـ»، قال: (والمشهور عدم اعتباره، بل ادّعى عليه الإجماع في المسائل الناصرية) (٣) قال: «وإليه يذهب جميع أصحابنا». وهو مذهب جميع الفقهاء من أهل السنة، وهو الظاهر من كلام ابن زهرة (٤) المتقدم ذكره.

١. المرتضى: الرسائل، ج ٢، ص ١٧.

٢. المرتضى: الرسائل، ج ٢، ص ٣٠.

٣. كتاب السيد المرتضى.

٤. ابن زهرة الحلبي، من فقهاء الإمامية «ت ٥٨٥هـ».

والقول به نقله في «المعتبر»^(١) عن قوم من الحشوية^(٢)، والمرتضى^(٣) عن شذاذ من أصحابنا لا اعتبار بقولهم^(٤).

□ نتيجة الموضوع:

وهكذا يتّضح لنا كيف جرت محاولة التلاعب في التقويم الهجري ولا سيما في ما يخص شهر رمضان، بل وفي رواية في ما يخص شهر ذي القعدة أيضاً، وهو من الأشهر الحرم وأشهر الحج، ومن خلاله سيتأثر تحديد يوم الموقف بعرفات ويوم عيد الأضحى، والأسلوب الماكر الذي اتّبع بوضع الحديث على لسان الإمام الصادق «عليه السلام» الذي كان يواجه بنفسه هذه المحاولة ويبين بما يتوافق مع القرآن الكريم أن شهر رمضان كسائر الشهور قد يتم فيكون ٣٠ يوماً، وقد ينقص فيكون ٢٩ يوماً، وأن ارتباطه بتشريع الصيام لا يغير من الحقيقة الكونية الفلكية المرتبطة بحركة القمر حول الأرض، وحركتهما حول الشمس.

١. كتاب المحقق الحلي «ت٦٧٦هـ».

٢. لقب يُطلق على الذين يقبلون بالروايات دون عرض على القواعد المقررة في نقد الحديث.

٣. أي: ونقله المرتضى عن

٤. الميرزا القمي: غنائم الأيام، ج ٥، ص ٢١٨.

السُّعَاة لخراب المساجد

السُّعَاةُ لخراب المساجد

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

□ مقدمة حول التأويل والتفسير:

دراسة هذه الآية الشريفة من خلال أقوال المفسرين ستكشف لنا الأخطاء التاريخية الكبيرة التي كانوا يقعون بها أحياناً تفسيراً وتأويلاً نتيجة عدم الاطلاع الدقيق على معطيات التاريخ وأحداثه، أو الوقوع في فخ أقوال مُسلمة اليهود والنصارى ممن كانوا يتعمدون التحريف والوضع لأغراض في نفوسهم؛ الأمر الذي يجعل الآية التالية تنطبق عليهم:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢).

١. سورة البقرة: ١١٤.

٢. سورة آل عمران : ٧.

والفرق بين التفسير والتأويل، أن التفسير يعني شرح معنى الآية، أما التأويل فيعني:

١. تحديد الشخصيات أو الأحداث التي وردت في الآية.

٢. أو تطبيق الآية على شخصيات أو أحداث لم تكن هي المقصودة بشكل مباشرة في الآية.

فعندما يقول المفسر: إنَّ من أبشع أنواع الظلم هو الاعتداء على مساجد الله وعلى حرية المؤمنين فيها، وذلك بمنعهم من الصلاة والدعاء وذكر اسم الله، وسعى في خرابها مادياً بتهديمها أو معنوياً بالمنع من عمارتها بالعبادة.. فهذا كله من التفسير.

وأما عندما يبحث في الأمور التالية فهو يتحدث عن التأويل:

١. في من نزلت الآية الشريفة وعمّن تحدثت على وجه التحديد؟

٢. وكيف لا يكون دخولهم تلك المساجد إلا خائفين؟

٣. وكيف يكون لهم الخزي في الحياة الدنيا، وما صور هذا الخزي؟

٤. وبعدها نعرف في من نزلت وعمّن تحدثت على وجه التحديد نأتي ونقول أن هذا المضمون انطبق - أو سينطبق - على الجهة الفلانية أو الشخص الفلاني.

والآيات التالية تؤكد أن القرآن الكريم استعمل كلمة التأويل في هذا المعنى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ

رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ^(١). أي لماذا لا يؤمن هؤلاء ؟ هل ينتظرون تحقق ما أخبرنا به - أي يوم القيامة - ؟! فليعلموا أنه إذا جاء ذلك اليوم وتحقق ما أخبرناهم به فسيندمون ويخسرون، لأنهم لن يعطوا تجربة جديدة أو مجالاً لتصحيح أوضاعهم.

فالتأويل هنا بمعنى التحقق الخارجي للمُخْبِر به، كما جاء أيضاً في قول الله «عز وجل»: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ... وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾^(٢).

فالرجلان أرادا معرفة ماذا سيحدث على أرض الواقع من خلال المنامين. وكذلك فإن الذي نجا منهما قال: أنا سأخبركم بتأويل منام الملك ومعرفة ماذا سيحدث على أرض الواقع طبقاً لرؤيا الملك. ومن هنا كان التعبير الدقيق - لغوياً - تأويل الرؤيا أو المنام وليس تفسيره.

□ استعراض أقوال المفسرين:

فلنطلع الآن على أقوال المفسرين حول تأويل آية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ

١. سورة الأعراف : ٥٢-٥٣.

٢. سورة يوسف : ٣٦ - ٤٥.

مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾
والتي يمكن أن نلخصها كالتالي:

١. نازلة في مشركي العرب كما في رواية عطاء عن ابن عباس، وهو الذي يقتضيه قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المؤمنين الممنوعين ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ وهي تشير إلى منع أهل مكة النبي والمسلمين من الدخول لمكة كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية وقال له أبو جهل: (ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد أويتم الصباء)، وتكرر ذلك في عام الحديبية^(١).

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس: (أَنَّ قَرِيشًا مَنَعُوا النَّبِيَّ «صلى الله عليه وآله» الصلاةَ عند الكعبة في المسجد الحرام، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾)^(٢).

وعن ابن زيد في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ قال: (هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذي طوى وهادنهم وقال لهم: ما كان أحد يُصدّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصدّه. فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آبائنا يوم بدر وفينا باق)^(٣).

١. ابن عاشور: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ج ١، ص ٦٧٨-٦٧٩.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٢١٥.

٣. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٢١٦.

ولكن حادثة الحديبية وقعت في السنة السادسة للهجرة، وسورة البقرة من أول ما نزل بالمدينة المنورة، أي قبل الحديبية بأربع أو خمس سنوات تقريباً، كما أن الآية وردت في سياق الحديث عن تبديل القبلة وكان ذلك في السنة الهجرية الثانية، فكيف تنزل الآية قبل الحدث بسنوات؟

ولكي نعرف قيمة رأي ابن زيد فلنتعرف على شخصيته، فهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي «ت ١٨٢هـ»، مفسر من تابعي التابعين. أورد له الطبري ١٨٠٠ رواية في كتابه. جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ. عن الشافعي: (ذكر رجل لمالك حديثاً فقال: من حدثك؟ فذكر إسناداً له منقطعاً، فقال: اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد، يحدثك عن أبيه، عن نوح!)^(١) أي أنه كان يختلق الأسانيد أو يغلط فيها، ولربما أن مالكا يشير أيضاً إلى الرواية التالية التي رواها ابن زيد هذا، قال الساجي: (حدثنا الربيع، حدثنا الشافعي قال: قيل لعبد الرحمن بن زيد: حدثك أبوك عن جدك: أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: إن سفينة نوح طافت بالبيت، وصلت خلف المقام ركعتين؟ قال: نعم!)^(٢).

وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب: (وقال ابن حبان: كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم، حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل، وإسناد الموقوف، فاستحق الترك)^(٣).

١. ابن حجر، تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج ٥، ص ٤١٢.

٢. هامش تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ٣٢١.

٣. ابن حجر، تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج ٥، ص ٤١٢.

وللأسف فقد دخلت مثل هذه الرواية إلى التراث الشيعي، ففي الكافي عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (سمعت أبا جعفر «عليه السلام» يحدث عطاء قال: كان طول سفينة نوح ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ثمانمائة ذراع، وطولها في السماء مائتي ذراع^(١) وطافت بالبيت وسعت بين الصفا والمروة سبعة أشواط ثم استوت على الجودي)^(٢) علماً بأن المسافة بين الصفا والمروة أقل من ٤٠٠ م!

وعلى كل حال فقد أيد العلامة الطباطبائي القول بأن المراد بهم مشركومكة، وقال باقتضاب شديد: (ظاهر السياق أن هؤلاء كفار مكة قبل الهجرة، فإن هذه الآيات نزلت في أوائل ورود رسول الله «صلى الله عليه وآله» المدينة)^(٣).

٢. نازلة في نبوخذ نصر ملك الإمبراطورية البابلية. غزا بيت المقدس عدة مرات ابتداء من سنة ٦٠٥ ق.م. واستمر إلى ٥٨٦، وخلال تلك الغزوات سبى ملك اليهود وكثيراً من بني إسرائيل كما قتل كثيراً منهم، ونهب مسجد بيت المقدس «هيكل/معبد سليمان» من جميع نفائسه وكنوزه ودمّره، وقد تحدثت عن هذا الموضوع ضمن هذا الكتاب.

٣. نازلة في الإمبراطور الروماني طيطس «تيتوس»^(٤) الذي حاصر مدينة بيت المقدس «القدس» سنة ٧٠ م قبل توليه العرش حيث كان قائداً عسكرياً،

١. أي ٦٠٠ X ٤٠٠ X ١٠٠ م.

٢. الكليني: الكافي، ج ٤، ص ٢١٢.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٢٥٨.

حتى إذا سقطت بيده خرب المدينة والهيكل المعاد بناؤه وقتل وسبى من شاء.

٤. نازلة في النصارى، فعن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قال: (هم النصارى). وعن مجاهد: (هم النصارى، كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه)^(١).

والمراد من بيت المقدس هنا خصوص هيكل سليمان. ويأتي هذا بناءً على انتقام النصارى من اليهود لأنهم سعوا لقتل السيد المسيح «عليه السلام». عن قتادة قال: (أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر^(٢) البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس)^(٣).

والغلط في كلامه فادح، فلم يُبعث السيد المسيح إلا بعد ٦ قرون تقريباً على تخريب بيت المقدس بيد نبوخذ نصر «بختنصر»، الذي لم يكن مجوسياً. والقول الأكثر فداحة في الغلط من القول السابق ما جاء عن السدي أن النصارى: (كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خربه، وأمر به أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا)^(٤)، حيث تصوّر أن الروم كانوا نصارى على عهد نبوخذنصر، والواقع أنهم كانوا وثنيين، والروم ما صاروا نصارى إلا بعد أكثر من ثلاثة قرون من ولادة المسيح «عليه السلام»، أي بعد ٩ قرون تقريباً من

١. السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالماثور، ج ١، ص ٢٠٤.

٢. بختنصر: أي نبوخذنصر.

٣. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢، ص ٥٢٠.

٤. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢، ص ٥٢١.

خراب بيت المقدس على يد نبوخذ نصر والتي كانت قبل ولادة المسيح بقرابة ٦ قرون.

كما لم يكن للروم وجود فيها على عهد نبوخذ نصر؛ فقد خلط السدي بين غزوة نبوخذ نصر والقائد الروماني طيطس، ووقع المفسر الطبري في فخ المعلومة التاريخية المغلوطة حيث قال: (وأولى التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية قول مَنْ قال: عنى الله «عز وجل» بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ النصارى. وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده)^(١).

□ تحديد المراد بالمساجد:

كخطوة أولى ومن أجل الوصول إلى التأويل الصحيح للآية الشريفة لابد وأن نحدد ما هي المساجد المعنيّة في الآية الشريفة.

١. المسجد الحرام: وقد طرح ابن كثير عدة احتمالات لاستعمال كلمة «مسجد» بصيغة الجمع، والحال أن المراد بذلك المسجد الحرام بحسب رأيه، وتتلخص في التالي:

أ. للتعظيم، فإن الجمع يجيء للتعظيم كقوله «عز وجل»: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾^(٢).

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢، ص ٥٢١-٥٢٢.

٢. سورة الفرقان: ٢٧.

ب. لما فيه من أماكن العبادة، وهي البيت والمسجد الحرام ومقام إبراهيم والحطيم.

ج. لما يتصل به أيضاً من الخيف ومنى والمشعر الحرام، وكلها مساجد.

وأيد العلامة الطباطبائي الاحتمال الثاني قائلاً: (كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والمساجد التي اتخذوها بفناء الكعبة)^(١).

٢. مسجد بيت المقدس: استدلل الطبري على مختاره قائلاً: (لا مسجد عنى الله «عز وجل» بقوله: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ إلا أحد المسجدين، إما مسجد بيت المقدس، وإما المسجد الحرام. وإذا كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأصحابه من الصلاة فيه، صح وثبت أن الذين وصفهم الله «عز وجل» بالسعي في خراب مساجده، غير الذين وصفهم الله بعمارتها. إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم^(٢)، وإن كان بعض أفعالهم فيه كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم. وأخرى، أن الآية التي قبل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذم أفعالهم، والتي بعدها نبّهت بزم النصارى والخبر عن

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٢٥٨.

٢. يشير بذلك إلى قوله «عز وجل»: ﴿أَجْعَلْنَمُ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ «التوبة: ١٩». فالقرآن الكريم يقرّ لهم العناية بالمسجد الحرام وبمن يفد عليهم، عمارة وسقاية وسائر شؤون رعاية الحاج.

افترائهم على ربهم، ولم يجز لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر^(١) - بقول الله «عز وجل»: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ - إليهم وإلى المسجد الحرام^(٢).

□ تحديد الخائفين:

اختلف المفسرون أيضاً في تحديد من هم الخائفون؟ وما دلالة خوفهم؟ ويمكن تلخيص أقوالهم كالتالي:

١. المشركون: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ هذا خبر معناه الطلب، أي أيها المؤمنون، لا تمكّنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخول مساجد الله إلا تحت الهدنة والجزية. ولهذا لما فتح رسول الله «صلى الله عليه وآله» مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى: (ألا لا يحجّن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته). وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله «تبارك وتعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(٣) (٤).

٢. المشركون: أيضاً، ولكن الآية في مورد الوصف لا الطلب. أي ما كان الحق والواجب إلا أن يدخلوا مساجد الله خائفين على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فكيف بأن يستولوا عليها ويمنعوا

١. أي كي يوجه الخبر.

٢. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢، ص ٥٢٢.

٣. سورة التوبة: ٢٨.

٤. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢٦.

المؤمنين منها؟ ولولا ظُلم الكفرة وغيرهم لكان هذا هو حالهم^(١).

٣. المشركون: إنَّ هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيُظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذلُّ المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً، يخاف أن يؤخذ فيُعاقب، أو يُقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد لاحقاً، وأوصى رسولُ الله أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن تجلى اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة^(٢). وما ذاك إلا تشريفُ أكناف المسجد الحرام وتطهيرُ البقعة المباركة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً. وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل. فكما صدّوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدّوا عنه، وكما أجلوهم من مكة، أجّلوا منها ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده والطواف به عرياً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرها الله ورسوله^(٣).

٤. المشركون: على أنَّ الخوف بمعنى الخشوع والخشية. ويكون المراد من الآية أنه كان يفترض بهؤلاء المشركين أن يتعاملوا مع مساجد الله بطريقة

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢٦.

٢. ذكرتُ في بحث خاص خلال موسم شهر محرم ١٤٢٩ هـ وطبع في الجزء السابع من كتاب «ليالي عاشوراء» أن النصوص بهذا الشأن غير صحيحة، وأن المسألة لا تتم فقهيّاً بحسب الأدلة إلا بخصوص الحرم المكي، وأن اليهود والنصارى جاؤوا المسلمين في أنحاء الجزيرة العربية، وأن الخليفة عمر أجلى يهود خيبر لاحقاً، وأخذ بعض الإجراءات أيضاً بحق بعض النصارى. بل استمر وجود المشركين المعاهدين أيضاً فيها لفترة بسيطة ثم انتهى ذكرهم لإسلامهم على الأغلب.

٣. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢٦-٢٧.

مختلفة تتمثل في الخشوع والخشية والتقديس والاحترام، لا بالطريقة العدائية التي ذكرتها الآية الشريفة.

٥. المؤمنون: قال ابن عاشور: (وهي تشير إلى منع أهل مكة النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين من الدخول لمكة كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية وقال له أبو جهل: «ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد أويتم الصباء»، وتكرر ذلك في عام الحديبية)^(١). أي أن المؤمنين بحسب هذا القول هم الخائفون، وذلك نتيجة التصرفات العدائية والقمعية الصادرة عن المشركين تجاه المؤمنين، قبل وبعد الهجرة.

٦. النصارى: فمن فسّر مساجد الله بمسجد بيت المقدس، فقد ذهب إلى القول بأن النصارى هم الذين لن يدخلوا هذا المسجد إلا خائفين.. كيف؟ ومتى؟ قال كعب الأحبار: (إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه، فلما بعث الله محمداً «صلى الله عليه وسلم» أنزل عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفاً)^(٢). ولا يخفى ما لليهود من موقف سلبي تجاه النصارى.. والزجّ بهم في هذه المقولة التي جاء بها كعب أحبار اليهود يمثل واحدة من موارد توظيف القرآن في ما له علاقة بمتبنيات اليهود ومصالحهم، وهو التأويل بحسب أهواء النفس، أو رغبة في تشويش الأفكار، أو لإثارة الفتنة بين طرفين، علماً بأن النصارى تواجدوا

١. ابن عاشور: تحرير المعنى السديد وتبوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ج ١، ص ٦٧٨-٦٧٩.

٢. السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالماثور، ج ١، ص ٢٠٤.

في بيت المقدس لقرون وكانوا حكام تلك الديار، فكيف دخلوا مسجده خائفين؟ وإذا كانوا يسعون لخرابه فلماذا يدخلونه؟

ولنلاحظ الآيات التالية التي تحكي بعثة النبي عيسى بن مريم «عليه السلام» لقومه من بني إسرائيل، وكيف واجهه غالبيتهم بالكفر والعناد، وماذا كان مصيرهم: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ، وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ، فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمْ مِنَ الْيَهُودِ ﴿الْكُفْرَ﴾ بِرِسَالَتِهِ وَدَعْوَتِهِ وَانْجِيلِهِ ﴿قَالَ مِّنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَمَكْرُوءًا﴾ بِالْتَخْطِيطِ وَالتَّأْمَرِ مَعَ الرُّومَانِ لِلتَّخْلِصِ مِنَ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ «عليه السلام» بِقَتْلِهِ ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيِ الْيَهُودِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(١).

عن قتادة: (﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، وهم اليوم كذلك، لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا نُهَكَ ضَرْبًا، وأبلغ إليه في العقوبة)^(٢).

١. سورة آل عمران : ٤٩-٥٥.

٢. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢، ص ٥٢٤.

عن قتادة: (وهم النصارى، فلا يدخلون المسجد إلا مسارقة، إن قدر عليهم عوقبوا)^(١). على اعتبار أن مسجد بيت المقدس «هيكل/معبد سليمان» صار مكاناً لصلاة المسلمين، فلا يُسمح لغيرهم بالتعبّد فيه.

□ الرأي المختار:

بعد استعراض الأقوال السابقة حول تأويل الآية الشريفة في مفرداتها المختلفة، لا بد من العودة إلى السياق الذي جاءت فيه من أجل استيضاح المراد منها، لأنّ اقتطاع الآية من سياقها يوقعنا في احتمال فهمها بصورة مغلوطة أو ناقصة، بالإضافة إلى وقوع التشويش في تأويلها، أي من هم المقصودون بالآية؛ والعكس صحيح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ فلهذه الكلمة دلالة سلبية في العبرية، فلما سمع اليهود المسلمين يقولونها صاروا يقولونها للنبي ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ، مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ... وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ..... وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢، ص ٥٢٤.

الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿أَيُّ الْمَشْرُكُونَ﴾ ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ... وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُن لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ... وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١﴾.

من الواضح أن في سياق الآيات حديث عن ٣ فئات، وهي:

١. المشركون: «الذين لا يعلمون».

٢. اليهود: من أهل الكتاب، أي لديهم شيء من العلم في مقابل المشركين الذين لا يعلمون.

٣. النصارى: من أهل الكتاب، أي لديهم شيء من العلم في مقابل المشركين الذين لا يعلمون.

وبالتالي فإن الآية التي نبحث فيها تتحدث عن نموذج من السلوك العدوانى الصادر عن الأطراف المختلفة بحق مواطن عبادة الله التي أطلق القرآن الكريم على كل واحد منها اسم «مسجد» ولو كانت مؤسسة من قبل اليهود أو النصارى، كما في الآيات التالية:

﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾

إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿١﴾.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢).

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (٣).

والآية الشريفة تحاكم هذا النوع من السلوك العدواني الذي صدر من اليهود تجاه مواطن عبادة النصارى، ومن النصارى تجاه مواطن عبادة اليهود، ومن الذين لا يعلمون - المشركين عموماً كما صدر عن الرومان الوثنيين مثلاً في بعض حُقب التاريخ، وليس خصوص أهل مكة - تجاه مواطن عبادة اليهود والنصارى والمسلمين، وما قد يصدر من اليهود والنصارى تجاه المسلمين بعد نزول هذه الآية، لاسيماً بلحاظ تمنّي أهل الكتاب عودة المسلمين إلى الشرك كما أخبرت بذلك الآية ١٠٩، والمواقف العدائية التي بدأت تتبلور بصورة أكبر من قِبَل اليهود في هذه المرحلة، ومن قبل النصارى في المستقبل.

وليس من الضروري أن نفهم السعي في خراب مواطن العبادة «مساجد الله» بمعنى الهدم، بل إن هذا يشمل الاضطهاد الديني، وقتل الأنفس،

١. سورة الكهف : ٢١.

٢. سورة الإسراء : ١.

٣. سورة الإسراء : ٧.

والتهجير، وما إلى ذلك من أساليب ستؤدّي إلى جعل «مساجد الله» خاوية من المتعبدين فيها، لاسيما بلحاظ: ﴿مَنْعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾. ومن هنا جاءت وصايا النبي «صلى الله عليه وآله» للمقاتلين الذين كان يرسلهم في مهام عسكرية أو أمنية بالمنع من التعرّض لأهل الصوامع التي كانت منتشرة في طريق السفر من الشام إلى اليمن وفي غيرها من مواقع الجزيرة العربية وجنوب بلاد الشام. ففي الكافي مثلاً أنه «صلى الله عليه وآله» قال: (... ولا تغدروا ولا تغلوا وتمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا متبتلاً في شاهر...)^(١). وبهذا التزم الخليفة أبوبكر من بعده، ففي سنن البيهقي حول وصية له لبعض قادة الجيش: (... ولا تغرقن نخلاً ولا تحرقنّها، ولا تعقرنوا بهيمة ولا شجرة تُثمر، ولا تهدموا بيعة، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له...)^(٢).

وهكذا جاء في وصية عمر بن عبد العزيز كما في كتاب الأموال لابن زنجويه، فعن أبي بن عبد الله قال: (أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز: لا تهدموا كنيسة، ولا بيعة، ولا بيت نار...)^(٣).

وقد شهدنا في عصرنا هذا نماذج من السعي في خراب المساجد، بالإضافة إلى صور من منع ذكر اسم الله فيها، ومن بينها جريمة حرق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩م، ومنع المصلين من الوصول إليه، وتدمير المساجد

١. الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٢٩.

٢. البيهقي: السنن الكبرى، ج ٩، ص ١٤٦.

٣. ابن زنجويه: الأموال، ح ٣١٨.

والمقامات على يد التكفيريين، كما جرى لمرقد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري «عليهما السلام» في سامراء، ولقمام أو مسجد النبي يونس «عليه السلام» في الموصل، وغير ذلك كثير.

وأما قوله «عز وجل»: ﴿أَوَلَيْكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فهو بيان لمسؤولية المؤمنين تجاههم، بأن يعملوا على تغيير الواقع إلى المستوى الذي يصلون من خلاله إلى تحقيق هذه الغاية حفاظاً على مساجد الله «عز وجل»، ولو استدعى الأمر استعمال القوة كما قال «عز وجل»: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

وخلاصة البحث أن تأويل الآية ينطبق على ما صدر من المشركين واليهود والنصارى بحق مساجد الله «عز وجل»، والتي لا تخص المساجد بالمعنى الأخص الذي نستعمله اليوم، بل كل موطن جعل لعبادة الله، كما أنه ينطبق على ما صدر من التكفيريين بحق المساجد بالمعنى الأخص، وأن على المؤمنين أن يعملوا على تغيير الواقع بحيث لا يجروون على مثل هذه الأفعال الدنيئة.

وقد وقع بعض المفسرين في أخطاء تاريخية فادحة عند تأويل هذه الآية نتيجة الجهل بالتاريخ أحياناً، ونتيجة الوقوع في فخ بعض مدعي العلم أو مُسلمة اليهود والنصارى من الأحبار والرهبان الذين كان يُنظر إليهم نظرة

إكبار لأنهم ورثة علوم الأنبياء السابقين والكتب السماوية، فأخذت عنهم المعلومات التاريخية المغلوطة، سواء أكانوا متعمدين في ذلك أو نتيجة جهلهم، مما ترك أثره على كتب التفسير، وهو ما يستدعي التثبت.

الشجرة الملعونة

في القرآن

الشجرة الملعونة في القرآن

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(١).

ما الرؤيا التي رآها النبي ؟

وما حقيقة الشجرة الملعونة في القرآن ؟

عن أية فتنة تتحدث الآية ؟

التخويف لمن ؟ للمسلمين أم لقريش أم لغيرهم ؟ ومن أي شيء ؟

وما علاقة الإحاطة بالناس بالرؤيا وبالشجرة وبالفتنة والتخويف ؟

□ الفكرة الإجمالية للآية:

قبل محاولة استكشاف حقيقة تأويل الآية الشريفة، نبدأ جولة مع أقوال بعض المفسرين حول معنى الآية وفكرتها الإجمالية. فبحسب الطبري : (هذا حُضُّ من الله تعالى ذكره « نبيّه محمداً » صلى الله عليه وسلم » على تبليغ رسالته، وإعلام منه أنه قد تقدّم منه إليه القول بأنه سيمنعه^(٢) من كل من بغاه سوءً

١. سورة الإسراء : ٦٠.

٢. يمنعه: يحميه.

وهلاكاً، يقول جلّ ثناؤه: واذكر يا محمد إذ قلنا لك إنّ ربك أحاط بالناس قدرةً، فهم في قبضته لا يقدرّون على الخروج من مشيئته، ونحن مانعوك منهم، فلا تتهيبّ منهم أحداً، وامض لما أمرناك به من تبليغ رسالتنا^(١).

وبحسب العلامة الطباطبائي: (سياق الآية سياق التسلية)^(٢) فالله «عز وجل» يعزي نبيه - فيها بالذي أراه من الأمر وعرفه من الفتن؛ وقد جرت سنته «عز وجل» على امتحان عباده بالمحن والفتن، وقد اعترف بذلك غير واحد من المفسرين^(٣).

وبحسب العلامة فضل الله: (مدلول الآية يتضمن الإيحاء للنبي - بأن الله قد أحاط بالناس في علمه... كما أحاط بهم في قدرته... وقد كان من حكمة الله أن يختبر الناس، ويفتنهم بما يكون محلاً للأخذ والرد والنفي والإثبات، سواءً في ذلك الحوادث التي تحدث في ساحتهم... أو ما يريه من منامات، ليحدث بها النبي «صلى الله عليه وآله» الناس، فيختلفون حولها. وهكذا يريد الله أن يجعل الرؤيا التي أراها له فتنةً للناس، كما هي الشجرة الملعونة في القرآن. ولكن الناس لا يواجهون ذلك بمسؤولية.... بل يزدادون تمرداً وطغياناً)^(٤).

□ الرؤيا:

ما الرؤيا التي رآها النبي «صلى الله عليه وآله» ؟

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٧، ص ٤٩٧.

٢. التسلية: الطمأنة.

٣. الطباطبائي: المزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ١٤٠.

٤. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١٤، ص ١٦١-١٦٢.

وهل كانت رؤيا عين أم رؤيا منام ؟

ذكر المفسرون عدة وجوه في تأويلها، ومن بينها :

١. أن المراد بالرؤيا رؤية العين، وهي ما ذكره في أول السورة من إسرائ النبي . من مكة إلى بيت المقدس وإلى السماوات في ليلة واحدة. إلا أنه لما رأى ذلك ليلاً وأخبر بها حين أصبح، سمّاها رؤيا، كما هو حال المنامات. وسمّاها فتنةً، لأنه أراد بالفتنة الامتحان وشدة التكليف، ليعرض المصدق بذلك لجزيل ثوابه والمكذب لأليم عقابه.

قال ابن عاشور: (والرؤيا أشهر استعمالها في رؤيا النوم، وتستعمل في رؤية العين. كما نُقل عن ابن عباس في هذه الآية، قال: هي رؤيا عَيْن أريها النبي ليلة أسري به إلى بيت المقدس، رواه الترمذي. وقال: إنه قول عائشة ومعاوية وسبعة من التابعين، سماهم الترمذي. وتأولها جماعة أنها ما رآه ليلة أسري به، إذ رأى بيت المقدس وجعل يصفه للمشركين، ورأى غيرهم واردة في مكان معين من الطريق ووصف لهم حال رجال فيها فكان كما وصف. ويؤيد هذا الوجه قوله: ﴿الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ فإنه وصف للرؤيا ليُعلم أنها رؤية عين^(١).

٢. تتحدث الآية عن رؤيا نوم رآها النبي أنه سيدخل مكة، وهو بالمدينة - أي أن الآية مدنية - فأخبر النبي أصحابه. ولما قصدوا صدّه المشركون في الحديبية عن دخولها، حتى شكّ قوم من المؤمنين فقالوا: يا رسول الله، أليس قد أخبرتنا أننا ندخل المسجد الحرام آمنين؟ فقال «صلى الله عليه وآله»: (أَوْ قَلْتُ

١. ابن عاشور: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ج ١٦،

لكم إنكم تدخلونها العام؟ قالوا: لا، فقال: لندخلها إن شاء الله. ورجع ثم دخل مكة في العام القابل. فنزل: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾^(١).

٣. رؤيا رآها النبي «صلى الله عليه وآله» في المنام، أن قروداً تصعد منبره وتنتزل، فسأه ذلك واغتم به. روى سهل بن سعيد^(٢) عن أبيه أن النبي رأى ذلك، وقال له: (لم يستجمع بعد ذلك ضاحكاً حتى مات)^(٣).

ورواه سعيد بن يسار^(٤) أيضاً، وهو المروي عن الباقر والصادق «عليهما السلام».

٤. رؤيا النبي «صلى الله عليه وآله» في المنام لمصارع المشركين في بدر، قبل المعركة،

١. الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٦، ص ٢٦٦.

٢. والصحيح كما في بعض المصادر سعد. وهو الصحابي سهل بن سعد بن مالك الأنصاري الخزرجي الساعدي. كان اسمه حزناً، فغيّره النبي. قيل هو آخر من مات بالمدينة من الصحابة. وقد عمّر أكثر من قرن، فأدرك الحجاج بن يوسف، وامتحن معه، أرسل الحجاج سنة ٧٤ هـ إلى سهل بن سعد، وقال له: ما منعك من نصر أمير المؤمنين عثمان؟ قال: قد فعلته، قال: كذبت، ثم أمر به فُختم في عنقه، وُختم أيضاً في عنق أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، يريد إذلالهم بذلك، وأن يجتنبهم الناس، ولا يسمعوهم منهم. وسهل من رواة حديث الغدير، وروي عنه أنه قال: (خرجت إلى بيت المقدس حتى توصلت الشام فإذا أنا بمدينة مطردة الأنهار كثيرة الأشجار قد علقوا الستور والحجب والديباج وهم فرحون مستبشرون وعندهم نساء يلعبن بالدفوف والطبول، فقلت في نفسي: لعل لأهل الشام عيداً لا نعرفه نحن. فرأيت قوماً يتحدثون، فقلت: يا هؤلاء ألكم بالشام عيد لا نعرفه نحن؟ قالوا: يا شيخ نراك غريباً! فقلت: أنا سهل بن سعد قد رأيت رسول الله وحملت حديثه، فقالوا: يا سهل ما أعجبك السماء لا تمطر دماً والأرض لا تخسف بأهلها. قلت: ولم ذلك؟ فقالوا: هذا رأس الحسين عترة رسول الله يهدي من أرض العراق إلى الشام وسيأتي الان. قلت: وا عجبا! يهدي رأس الحسين والناس يفرحون؟!).

٣. الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٦، ص ٢٦٦.

٤. أبو الحباب سعيد بن يسار المدني مولى أم المؤمنين ميمونة وقيل بل مولى الحسن بن علي. عدّه البعض من العلماء الأثبات. توفي سنة ١١٠ هـ بالمدينة.

فحدّث به أصحابه. فقد رُوي عنه قوله حين ورد ماء بدر: (والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم) وهو يوميء إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان. فتسامعت قريش بما أوحى إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» من أمر يوم بدر وما أرى في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاءً^(١).

□ الشجرة الملعونة:

ذكر المفسرون عدة وجوه في تأويل الشجرة الملعونة أيضاً، ومن بينها :

١- إنها شجرة الزقوم الملعونة من حيث طعمها وآثارها السيئة. وقد ذكر جمع من المفسرين أنه لما سمع المشركون آيات ذكر الله فيها الزقوم كذبوه وسخروا منه. فأنزل الله في هذه الآية أنه ما ذكر شجرة الزقوم إلا فتنة للناس. روي أن أبا جهل قال: (زعم صاحبكم أن نار جهنم تُحرق الحجر؛ ثم يقول بأن في النار شجرة لا تُحرقها النار). وجهلوا أن الله يخلق في النار شجرة لا تأكلها النار. وهذا مروى عن ابن عباس وأصحابه في أسباب النزول للواحدي وتفسير الطبري^(٢). وعن ابن عباس قال: (هي شجرة الزقوم، قال أبو جهل: أيخوفني ابن أبي كبشة بشجرة الزقوم، ثم دعا بتمر وزبد^(٣))، فجعل

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١٤، ص ١٦٤.

٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٤٧.

٣. وروي أن ابن الزبعرى قال: (الزقوم التمر بالرُّبْد بلغة اليمن، وأن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمرأ وزبداً وقال لأصحابه: تزقّموا). وابن الزبعرى هو عبد الله بن الزبعرى بن عدي القرشي السهمي. شاعر قريش في الجاهلية. كان يحارب النبي والمسلمين في شعره حتى فُتحت مكة، فهرب إلى نجران، ثم عاد إلى مكة، واعتذر للنبي، ومدحه.

يقول: زقمني، فأنزل الله «عز وجل»: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ وأنزل ﴿وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(١).

٢. شجرة «عائلة بني أمية»، على أساس الوجه الثالث في تأويل الرؤيا. ويكون اللعن في القرآن متعلقاً بهم من خلال انطباق أحد العناوين الملعونة من المنافقين والظالمين وأمثالهم عليهم. وبذلك يحصل انسجام بين الرؤيا وبين الشجرة الملعونة التي تمثل المضمون الواقعي للرؤيا.

وهذا يعني أن الفتنة والاختبار بالرؤيا وبالشجرة تحقق في عهد النبي. في خصوص الإخبار، وبعد عهد النبي على مستوى الابتلاء العملي بحكم آل أمية. أما مسألة الفتنة في ذلك، فمن خلال موقع وعنوان الخلافة الذي قد يخدع الكثيرين من الناس، فيوحي إليهم بشرعية تصرفات الحكام الطاغية المستكبرة والمنحرفة عن خط الإسلام، ما يمنحها نوعاً من القداسة التي تحوّل الضلال إلى عنصر مقدّس، وتجعل لرموزه قداسة في ميزان التقويم الديني للأشخاص^(٢).

وقد روي عن ابن عمر أن النبي قال: (رَأَيْتُ وَلَدَ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ عَلَى الْمَنَابِرِ كَأَنَّهُمْ الْقَرْدَةُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾. يعني الحكم وولده)^(٣).

١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٤، ص ٤٨٤.

٢. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١٤، ص ١٦٤.

٣. السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٤، ص ٣٤٦.

وعن يعلى بن مرة^(١) قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أُرِيتُ بني أمية على منابر الأرض وسيتملكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتم رسول الله «صلى الله عليه وسلم»^(٢) لذلك، فأُنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾^(٣)).

وعن الإمام الحسين بن علي «عليه السلام»: (أن رسول الله أصبح وهو مهموم فقيل: ما لك يا رسول الله؟ فقال: إني أُرِيتُ في المنام كأن بني أمية يتعاورون منبري هذا) وهذا يعني أن الرؤيا كانت في المدينة والآية مكية، علماً بأنه لم يُصنع للنبي منبر على ما هو المروي إلا في السنة السابعة للهجرة (فقيل: يا رسول الله لا تهتم، فإنها دنيا تنالهم، فأُنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾^(٤)).

وفي مجمع البيان: (رؤيا رآها النبي «صلى الله عليه وآله» أن قروداً تصعد منبره وتنزل، وساء ذلك واغتم. رواه سهل بن سعيد عن أبيه. ثم قال: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله «عليه السلام»^(٥)).

وعن أم المؤمنين عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: (سمعتُ رسول

١. يعلى بن مرة بن وهب الثقفي. أسلم وشهد مع النبي بعض الغزوات وبيع ببيعة الرضوان. وكان يعلى بن مرة من أصحاب الإمام علي، وهو راوي حديث (حسين سبط من الأسباط).

٢. اهتم: أصابه الهم.

٣. السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٤، ص ٣٤٦.

٤. السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٤، ص ٣٤٦.

٥. الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٦، ص ٢٦٦.

اللَّهُ «صلى الله عليه وسلم» يقول لأبيك وجدك: إنكم الشجرة الملعونة في القرآن»^(١)، وهذه الرواية مرتبطة بحدث مهم رواه ناصر الدين الألباني: (عن عبد الله البهي قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله «تعالى» قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً وأن يستخلفه، فقد استخلف أبوبكر عمر «رضي الله عنهما». فقال عبد الرحمن بن أبي بكر «رضي الله عنهما»: أهرقلية؟ إن أبا بكر «رضي الله عنه» ما جعلها في أحد من ولده، وأحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده! فقال مروان: ألسنت الذي قال لوالديه: «أف لكما»؟ فقال عبد الرحمن: ألسنت يا مروان ابن اللعين الذي لعن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أباك؟ قال: وسمعتهما عائشة «رضي الله عنها»، فقالت: يا مروان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟! كذبت! ما فيه نزلت، ولكن نزلت في فلان بن فلان. ثم انتحب مروان! ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف. قلت: سكت عنه ابن كثير، وهو إسناد صحيح. وأخرجه البخاري في صحيحه - ٤٨٢٧ - بإسناد آخر مختصراً، وفيه: فقال «مروان»: خذوه! فدخل بيت عائشة، فلم يقدرُوا عليه. وفيه إنكار عائشة على مروان. وأخرجه النسائي في «الكبرى»^(٢) - ٤٥٨/٦ - ٤٥٩ - من طريق ثالثة من رواية شعبة عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه قال مروان: سنة أبي بكر وعمر! فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: سنة هرقل وقيصر! وفيه أن عائشة قالت رداً على مروان: كذب والله! ما هو به، ولو شئت أن أسمى

١. السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٤، ص ٣٤٦.

٢. أي في كتابه السنن الكبرى.

الذي أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لعن «أبا مروان»، ومروان في صلبه فَضَض من لعنة الله. قلت: وإسناده صحيح، وعزاه الحافظ في «الفتح»^(١) - ٥٧٧/١٣ - السيوطي في «الدر»^(٢) - ٦ / ٤١ - لعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم - وصححه - وابن مردويه^(٣).

٣. الشجرة هنا كناية عن اليهود، لأن الله «سبحانه وتعالى» تحدّث عن لعنهم في القرآن، ولأن السورة بدأت بهم بعد ذكر الإسراء وعادت وذكّرتهم في أواخرها.

□ نقد الأقوال:

ذكر العلامة فضل الله ملخصاً لكثير من ملاحظات المفسرين حول الآراء السابقة، قال:

١. قد نلاحظ على التفسير الأول للرؤيا - رؤية العين - بأنه خلاف ظاهر الكلمة التي تدل - بحسب إطلاقها - على ما يراه الإنسان في المنام.

٢. التفسير الثاني - دخول مكة - لا ينسجم مع الطبيعة المكية للسورة، مما لا يتفق مع رؤيا دخول مكة التي كانت في المدينة، حيث كانت متأخرة عن مورد نزول الآية.

٣. أما التفسير الرابع - مصارع المشركين يوم بدر - فقد تكون نقطة ضعفه

١. أي فتح الباري شرح صحيح البخاري.

٢. أي تفسيره الدر المنثور في التفسير بالمأثور.

٣. الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج ٧، ص ٧٢١-٧٢٢.

أنه لا دليل على وجود رؤيا من هذا القبيل في هذا الشأن، لأن ما ذكره الله من منام الرسول، في يوم بدر، هو ما يتعلق بحجم الأعداء، لا بمصارعهم: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١).

٤. وبذلك يكون التفسير الثالث - رؤيا القردة - أقرب إلى الذهن وإلى جو الآية من خلال ما توحى به كلمة الإحاطة من الانفتاح على الأشياء المستقبلية، المتصلة بحركة الإسلام في المستقبل في ما يريد الله أن يعرف به رسوله، بما ينتظر دينه من تطورات على صعيد التطبيق في حركة الواقع.

كما أن مفهوم الفتنة يلتقي بالواقع المنحرف الذي يقود إلى الارتباك، أكثر مما يلتقي بما يختلف الناس حوله من الإخبار.

ومن الأمور التي تؤكد هذا التفسير، التقاء روايات أئمة أهل البيت «عليهم السلام» الذين هم الحجة في تفسير القرآن، بروايات غيرهم من أهل السنة، وانسجامه مع حركة الآية في تحذير الناس من الانحراف عن خط الله، من خلال الواقع المنحرف الذي يقودهم إلى الهلاك^(٢).

قال العلامة الطباطبائي: (فالذي يهدي إليه الإمعان في البحث أن المراد بالشجرة الملعونة قوم من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتعرقون بين المسلمين إما بالنسل وإما بالعقيدة والمسلوك، هم فتنة للناس. ويؤيد جميع ما تقدم ما ورد من طرق أهل السنة واتفقت عليه أحاديث أئمة أهل البيت «عليهم السلام»

١. سورة الأنفال: ٤٣.

٢. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١٤، ص ١٦٤-١٦٥.

أن المراد بالرؤيا في الآية هي رؤيا رآها النبي «صلى الله عليه وآله» في بني أمية والشجرة شجرتهم^(١).

□ تعليق:

لكي نستوضح المراد بما جاء في الآية الشريفة، لابد أن نأخذ بعين الاعتبار عدة أمور وردت فيها، وأهمها:

١. هل الفتنة ما سيحدث في المستقبل، كما قال العلامة فضل الله؟ أم الرؤيا في حد ذاتها فتنة من خلال الإخبار عنها ورصد ردود الأفعال بعد ذلك؟
ظاهر الآية أن نفس الرؤيا هي الفتنة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾. ولنلاحظ المثال الآخر من القرآن والشبيه بما ورد في الآية التي نبحث بشأنها من حيث التعبير: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ، لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ، عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ، وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلَأَكَّةً وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتْهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾^(٢).

فلكي تكون «عدة الملائكة» فتنة للناس، لابد وأن النبي «صلى الله عليه وآله» طرح الأمر على الملأ، ليتم على إثر ذلك رصد ردود الأفعال بين مصدق ومشكك ومستهزي ومرتد. وهذا هو معنى أن الرؤيا في نفسها فتنة. وآية سورة المدثر

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ١٢٩.

٢. سورة المدثر: ٢٦-٣١.

واضحة في عملية رصد ردود الأفعال والتعليق عليها كجزء من عملية الفتنة.

وهذا يعني حتمية إخبار النبي «صلى الله عليه وآله» للناس برؤياه حول بني أمية الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد، إلا بضعة نفر منهم كخالد بن سعيد، وأخيه عمرو، وعثمان بن عفان.

ولا معنى أن تنزل الآية لتقول أن الرؤيا التي رآها النبي والشجرة الملعونة فتنة، ثم يكتّم النبي ذلك كله.. فكيف تكون فتنة؟ وإذا كان الأمر خاصاً للنبي فلماذا تنزل آية بهذا الخصوص؟ أما كان بالإمكان أن يخبر النبي بذلك بطريقة خاصة بعيداً عن النص القرآني؟

والسؤال: ما الغاية لكي يري الله نبيّه رؤيا ثم يذهب النبي «صلى الله عليه وآله» ليخبر قريشاً وغيرهم في مكة المكرمة بأن بني أمية سيتغلغلون في الوسط الإسلامي وسيُفسدون فيه، والحال أنه كان يسعى إلى هداية الناس، وطمأننة المسلمين إلى مستقبلهم، والتفاف أصحابه على تنوّع انتماءاتهم الأسرية والعرقية حوله؟

هل من المنطقي أن يوجّه هكذا رسالة سلبية إلى أصحابه من بني أمية الذين ذكرنا أسماء بعضهم فيجعلهم في صراع نفسي حول مستقبل دورهم في الإسلام؟ هل من المنطقي أن يزرع الشك بين أصحابه ليعيشوا حالة من التشرذم والانقسام الداخلي والحذر من بعضهم البعض؟

ولذا فأنا أميل إلى القول بأن الرؤيا حصلت في مكة وتخصّ دخول المسجد الحرام ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ^ﷺ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ التي رآها قبل سنين في مكة

وأخبر الناس بها ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(١).

بمعنى أن النبي رأى في المنام حشود المسلمين بأعداد غفيرة تدخل المسجد الحرام في حالة من العزة والقوة والمنعة وتبدو عليهم حالة الطمأنينة النفسية في مقابل حالة الخوف وقلة العدد التي كانوا يعيشونها في مكة عند وقوع الرؤيا ونزول آية سورة الإسراء، بما يُنبئ بالمستقبل الزاهر الذي سينتظروهم في صراعهم مع قريش والشرك، بحيث تتبدل موازين القوى، ويتحوّل المسجد الحرام إلى مكان خالص لممارسة الشعائر التوحيدية.

وعندما أخبر النبي «صلى الله عليه وآله» الناس بما رأى انقسموا فيما بينهم بصورة تُشبه الانقسام الذي عرّضته آية سورة المدثر بخصوص عدّة الملائكة. فمنهم مَنْ استهزأ بلحاظ المعطيات على الأرض، ومن المؤمنين مَنْ صدّق بلحاظ قوة الإيمان، ومنهم مَنْ لربما شكّ وتردّد بلحاظ أنهم من «الذين في قلوبهم مرض». وهكذا بالنسبة لأهل الكتاب المتواجدين في مكة أو الوافدين عليها أو الذين يبلغهم القرآن وكلام النبي، حيث يراد لهذه الرؤيا أن تدفعهم للإيمان بمصادقية النبي والإسراع في نصرته. وهذا هو مؤدّى الفتنة والاختبار الوارد في الآيتين.

وأما الشجرة الملعونة فلا بد أن تكون مذكورة في القرآن الكريم بلحاظ قول الله «عز وجل»: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾، إما باستعمال اللفظ المباشر «شجرة» أو بالمدلول.

فعلى الأول ينبغي علينا استقصاء الموارد التي ذكرت فيها كلمة شجرة.

وعلى الثاني ينبغي علينا تتبع موارد اللعن في القرآن.

وحاصل تتبع الموارد التي ذكرت فيها كلمة «شجرة»، سنجد كثيراً من الآيات التي لا علاقة لها بالموضوع، كآيات أكل آدم وحواء من الشجرة، والشجر الذي يتغذى عليه النحل، وشجرة الزيتون المباركة، والشجرة التي كلم الله موسى من خلالها.. إلخ. ويبقى لنا ما يلي:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(١).

والآية محتملة وإن لم تعبر بكلمة اللعن، فاللعن يعني الإبعاد والطرده من الخير، والخبث لا يريده الله، ولا يحبه. وهذه الشجرة الخبيثة هي شجرة الشرك والنفاق والفساد وكل ما تمثله الكلمة الخبيثة على المستوى الفكري والأخلاقي والتشريعي. إلا أن التخويف بهذا غير واضح، وإن كان غير مستبعد بلحاظ الاجتثاث وعدم القرار.

٢. ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ، إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ، إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ

مِنْهَا فَمَالُؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ
لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴿١﴾.

والآية أقوى احتمالاً وهي الأرجح عندي من سابقتها بكثير:

أولاً بلحاظ ذكر أن الله جعلها فتنة ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾.

وثانياً بلحاظ أنها ذكرت تخويفاً من المصير في الجحيم وما يلاقيه
الظالمون من صنوف العذاب، ومعنى الفتنة بها ذكرناه في بداية العرض.

وقد جيء على ذكرها في القرآن تخويفاً أكثر من مرة في السور المكية
القصار مما يرجح نزولها قبل سورة الإسراء، من بينها ما جاء في سورة
الصافات، وكذلك في قوله «عز وجل»: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُومِ، طَعَامُ الْأَثِيمِ،
كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ، خُذُوهُ فَاعْتُلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (٢)،
وقوله «عز وجل»: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتَيْهَا الضَّالُّونَ الْكَذِبُونَ، لَا أَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ،
فَمَالُؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ، هَذَا
نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٣).

وقد ذكر العلامة الطباطبائي إشكالاً بخصوص هذا الاحتمال حيث قيل:
(لا معنى لتسمية الزقوم شجرة ملعونة ولا ذنب للشجرة)، ثم قدّم ما أجيب
به على الإشكال ويتلخص في الإجابات التالية:

١. المراد من لعنها لعن طاعميها على نحو المجاز في الإسناد، للدلالة على

١. سورة الصافات: ٦٢-٦٨.

٢. سورة الدخان: ٤٣-٤٧.

٣. سورة الواقعة: ٥١-٥٦.

المبالغة في لعنهم كما قيل.

٢. اللعنة بمعنى البُعد، وهي في أبعد مكان من الرحمة لأنها تنبت في أصل الجحيم.

٣. جُعِلت ملعونة لأنَّ طلوعها يشبه رؤوس الشياطين، والشياطين ملعونون.

٤. العرب تسمي كل غذاء مكروه ضار: ملعوناً^(١).

ويجب أن ننتبه إلى أن ترجيح قولٍ يخالف التأويل الذي يتناسب مع هوانا أو متبنياتنا بخصوص بني أمية ليس لتبرئتهم من الجرائم التي ارتكبوها - ومتى كنا بحاجة إلى آية قرآنية لكي نثبتها أو نصدّقها؟ - بل انطلاقاً من تجرّد البحث العلمي، إذ لا مجال فيه - لاسيما في ما له علاقة بتفسير وتأويل القرآن الكريم - إلى الأمزجة والأهواء.. والله أعلم بحقيقة الحال. كما أن مراجعة السياق الذي جاءت فيه الآية، وإحدى المحاور والموضوعات الرئيسة للسورة ككل يقوِّي المعنى الذي ذكرته. فالسورة تتحدث مرتين عن موضوع «الآيات» أي المعاجز التي كان المشركون يطالبون بها النبي - أسوة بحال سائر الأنبياء «عليهم السلام» وإثباتاً لنبوته «صلى الله عليه وآله» وارتباطه بالغيب.

والسورة تؤكد المرة تلو الأخرى أن هذا ممتنع لأسباب مختلفة، مع التأكيد على وجود «دلائل=آيات» تُغنيهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا،

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ١٤٢.

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١﴾.

ومن أسباب الامتناع ما جاء في الآيات التالية : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا، قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا، فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (٢). وهذه الإرادة لاستفزازهم وطردهم من الأرض بعد عدم إيمانه بالآيات «المعاجز» كان سبباً لإهلاكه وجنوده بالغرق.

وقد سبق للسورة أن هدّدت قريشاً بهذا المضمون أيضاً: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٣).

وتأتي الآية ٥٩، وهي التي تسبق الآية التي نبحت فيها مباشرة لتتحدث عن ذات الموضوع: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

فالسورة تؤكد على عدم إرسال «الآيات= المعاجز»، كما تُبين الغاية من إرسالها في المقام الأول وهو التخويف. وقد وردت كلمة الخوف مجدداً في الآية التي نبحت فيها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي

١. سورة الإسراء : ٩٠-٩٣.

٢. سورة الإسراء: ١٠١-١٠٣.

٣. سورة الإسراء: ٧٦-٧٧.

أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا». أي أن الغاية من «الآيات = المعاجز» متحققة عن طريق ما جاء في القرآن من إنذار ووعيد وتهديد وإخبارات عن الماضي والمستقبل الدنيوي والأخروي.

ومن ضمن تلك الإخبارات القرآنية ما يخص الرؤيا «مستقبل دنيوي حول غلبة الإسلام واندحار الشرك»، وما يخص الشجرة الملعونة في النار «مستقبل أخروي ينتظر المشركين والمعاندين والجاحدين».

وقد تتساءل: وكيف نتعامل مع الروايات التي فسّرت الآية بغير ذلك، لاسيما بلحاظ وجود اتفاق في بعضها عند السنة والشيعة فيما يخص تفسيرها ببني أمية؟ والجواب واضح، وهو أن وجود الروايات بحد ذاته ليس بدليل على صدورها عن النبي أو الإمام.

كما أن وجود روايات اتفق عليها الطرفان أيضاً ليس بدليل، لا سيما بلحاظ مشاعر الكراهية التي عمّت العالم الإسلامي تجاه بني أمية في فترة ما من العهد الإسلامي دون اختصاص ذلك بشيعة أهل البيت «عليهم السلام»، بل عم الخوارج وأتباع مدرسة الخلافة وعامة الناس. كما أن الدور العباسي غير خاف أيضاً في مواجهة الأمويين وتوظيف النصوص ضدهم، مما يجعلنا نحتمل على الأقل أن مثل هذه الروايات قد تكون موضوعة عن قصد.

هذا كله إن لم نقل أنها من باب الانطباق لا سبب النزول، لتخلص من إشكالية تعددها ووجود نوع من التوافق عليها، علماً بأنه تكرر استعمال عبارة «نزلت الآية في كذا وكذا» ومرادهم الانطباق.

قال العلامة الطباطبائي: (ليتبصر الباحث المتأمل أن ما ذكره من أسباب النزول كلّها أو جلّها نظرية، بمعنى أنهم يروون غالباً الحوادث التاريخية، ثم يشفعونها بما يقبل الانطباق عليها من الآيات الكريمة، فيعدّونها أسباب النزول. وربما أدى ذلك إلى تجزئة آية واحدة، أو آيات ذات سياق واحد، ثم نسبة كل جزء إلى تنزيل واحد مستقل، وإن أوجب ذلك اختلال النظم للآيات وبطلان سياقها. وهذا أحد أسباب الوهن في نوع الروايات الواردة في أسباب النزول. وأضف إلى ذلك، أن لاختلاف المذاهب تأثيراً في لحن هذه الروايات، وسوقها إلى ما يوجه به المذاهب الخاصة. على أن للأجواء السياسية والبيئات الحاكمة في كل زمان أثراً قوياً في الحقائق، من حيث إخفائها أو إبهامها، فيجب على الباحث المتأمل أن لا يهمل أمر هذه الأسباب الدخيلة في فهم الحقائق والله الهادي) (١).

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٧٤.

الإيمان بالآخرة

الإيمان بالآخرة

قال «عز وجل»: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ... وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾^(١).

وقال «عز وجل»: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.... كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ، وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطَ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ، أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٢).

تُبَيِّنُ لَنَا الْآيَاتُ السَّابِقَةُ أَنَّ مَوْضُوعَ الْإِيمَانِ بِالْمَعَادِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ مِنَ الْعَنَاوِينِ الَّتِي طَرَحَهَا الْأَنْبِيَاءُ «عَلَيْهِمُ السَّلَامُ» مِنْذُ نُوحٍ إِلَى نَبِينِنَا الْأَكْرَمِ مُحَمَّدٍ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ»، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَوَاجِهُونَ بِالرَّفْضِ وَالْإِنْكَارِ.

بَلِ إِنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ التَّالِيَةَ تَوَكَّدَ مَعْرِفَةَ آدَمَ وَحَوَاءَ بِذَلِكَ أَيْضًا، مَا يَعْنِي

١. سورة نوح: ١ - ١٨.

٢. سورة ق: ١ - ١٠.

أن هذه الحقيقة الإيمانية كانت مطروحة منذ بداية النسل البشري الممتد منهما: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَازَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

ويبدو من خلال تتبع معطيات الآثار للأمم التي دَوَّنت شيئاً من معتقداتها، وُجِدت في بلاد الرافدين ومصر القديمة والإغريق وغيرها من المجتمعات والحضارات البشرية، أنَّ الإيمان بالآخرة - بشكل إجمالي - فرض نفسه على الرغم من موجة الإنكار التي نقلها القرآن عن بعض أمم الأنبياء، وإنَّ تمَّ تحويله وقولته غالباً بالصورة التي تُناسب أغراض وغايات أصحاب القوة والنفوذ من الحكّام والكهنة وغيرهم.

□ تناسخ الأرواح:

بل يمكن القول أن اعتقاد بعض الديانات والمذاهب بتقمص الروح أو تناسخ الأرواح أو رجوع الروح إلى الحياة بجسد آخر، إنسي أو حيواني أو نباتي أو غير ذلك، جاءت كمحاولة للالتفاف على إحدى الحجج العقلية القوية المقدمة لإثبات المعاد، وعلى الحقيقة التي لا يمكن تجاوزها والمتمثلة بضرورة محاسبة

العصاة والمجرمين على ما اقترفت أيديهم، وإثابة المحسنين والصالحين، لأنَّ هذه العدالة لا تتحقق عادةً في المدة التي يعيشها الفرد.

وهناك العديد من الأديان والمذاهب التي تؤمن بتناسخ الأرواح وإن اختلفت في تفسيرها وبعض خصوصياتها وتفاصيلها، ومنها الهندوسية والسيخية والبوذية والطاوية^(١) والجاينية^(٢) وشعوب المايا في أمريكا الوسطى، والإنكا في أمريكا الجنوبية، وعند طائفة القبالا اليهودية^(٣) وعند الدروز^(٤)، وعند طائفة العلويين «النصيريين».

على أن القول بالتناسخ في الهندوسية والبوذية وفي عقائد أخرى ينحو منحى العقوبة والإثابة من خلال طبيعة الجسد التالي الذي تحل فيه الروح، أو الظروف التي سيعيشها ذلك الجسد الجديد شدةً أو رخاءً.

ففي الجاينية مثلاً ينقسم حال الناس إلى فئات بعد موتهم، وذلك بالنظر إلى ما قدّموا في حياتهم من خير أو شر، وبلحاظ الاعتقاد بتناسخ الروح:

١. تُعتبر الأفعال العنيفة، وقتل بعض المخلوقات، وأكل السمك، وما إلى ذلك، سبباً لولادة إنسان جديد في الجحيم وفيه تلك الروح المذنبة.

٢. الخداع والغش والباطل تؤدّي كلها إلى ولادة جديدة في صورة حيوان أو نبات تحلّ فيها تلك الروح العاصية.

١. من معتقدات الصين القديمة.

٢. من معتقدات الهند القديمة.

٣. وتسمى «غيلغول نشيمات» أي دورة النّسمة.

٤. ويسمّى لديهم بالنقمص، لأن الدروز لا يؤمنون إلا بانتقال روح بشرية إلى جسد بشري آخر دون سائر المخلوقات، بينما في التناسخ فإن انتقال الروح يتحقق إلى غير الإنسان أيضاً.

٣. اللطف والحنان والتواضع يؤدي إلى ولادة طفل بشري جديد في هذه الحياة وفيه تلك الروح.

٤. الزهد والتقشف وتقديم النذورات وحفظها يؤدي إلى ولادة جديدة لإنسان يعيش في السماء «الجنة» وفيه روح ذلك الزاهد الصالح.

□ عودة الروح أم الجسد والروح معاً؟

كما شهد الإيمان بالآخرة والحياة بعد الموت - عبر التاريخ - انقساماً بين القائلين به، فمنهم من قال بعودة الروح فقط واستحالة عودة الجسد، ومنهم من قال بعودة الجسد والروح.

وبحسب الموسوعة الكاثوليكية، فإن عودة أصحاب الكهف إلى الحياة الطبيعية بعد أكثر من ٣٠٠ سنة من وجودهم في الكهف شبه أموات كان تدبيراً إلهياً للانتصار لعقيدة عودة الروح والجسد معاً.

فقد جاءت القصة في الموسوعة الكاثوليكية تحت عنوان «قدّيسو أفسس السبعة»^(١) معتبرة أنّ كشف وجودهم في الكهف تزامن مع إثارة قضية إحياء الموتى في يوم القيامة كمشكلة فكرية كبيرة انقسم على إثرها الناس

١. The Seven Sleepers of Ephesus. أفسس أو إفسوس من أعظم المدن الإغريقية القديمة في الأناضول، وتقع في منطقة ليديا وجزء من تركيا الحالية. أسست في القرن العاشر قبل الميلاد من الإغريق. ثم صارت أهم مركز للمسيحية في المنطقة، حيث انتقل إليها «الرسول يوحنا» وهو من الحواريين، كما استخدمها «الرسول بولس» كقاعدة له. وفي المدينة منزل يُنسب للسيدة مريم أم السيد المسيح حيث يقولون أنها انتقلت إليه كآخر بيت سكنت فيه؛ والمكان مقدس عند النصارى حيث يحجون إليه من كل مكان.

يومذاك^(١)، ولم ينتصر أصحاب الرأي القائل بحقيقة البعث الجسماني بعد الموت إلا حين اكتُشف أمرهم. وأراد الملك أن يبني لهم أضرحة من ذهب، إلا أن الفئة الغالبة أصرت على بناء كنيسة على الكهف، وهو ما جاء التعبير عنه في الآية الشريفة كالتالي: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾^(٢).

ولنستعرض تدريجياً بعضاً من تلك الصور التاريخية لمعتقدات الأمم الغابرة، وما لدى أهل الكتاب أيضاً حول البعث والحياة بعد الموت، وكيفية الاستعداد لتلك المرحلة ومتطلباتها، وعن طبيعة التصورات القائمة لنموذج الحياة في النشأة الأخرى، على أن يكون البدء بمعتقدات أهل الكتاب.

□ اليهود والإيمان بالآخرة:

تؤكد نصوص التَّنْخ على قدرة الله «عز وجل» على إحياء الموتى، ويُنطق هذا المصطلح في العبرية كالتالي: «تحيات ميّيم»، كما تذكر يوم الدين، ويُنطق المصطلح في العبرية كالتالي: «يوم هادّين»^(٣)، وهو يوم الحساب أو يوم الحكم والقضاء بعد الموت، ولكنها نصوص نادرة جداً، وفي التلمود بعض النصوص القليلة أيضاً.

١. وللأسف اليونانية دور في إنكار عودة الجسد مع عودة الروح.

٢. سورة الكهف : ٢١.

٣. تُجمع الكلمة في العبرية بإضافة «يم» في نهاية الكلمة. بينما أداة التعريف فيها هي «ها» وهي تقابل «ال» التعريف في العربية.

ولذا فإن فكرة الحياة الآخرة في التَّخ تبقى غامضة وتؤدي إلى تفسيرات متضاربة^(١)، حتى قال بعض الباحثين في الشأن اليهودي أن عقيدة المعاد في الآخرة تطورت عند اليهود واختلفت من زمن إلى آخر. ومن تلك النصوص ما في سفر دانيال: (وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الْأَرْضِ سَيَتَقِظُونَ، هَؤُلَاءِ إِلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَهَؤُلَاءِ إِلَى الْعَارِ لِلْأَزْدِرَاءِ الْأَبَدِيِّ)^(٢).

قيل تعليقاً على النص السابق أن أشد الناس إجراماً لا يعودون إلى الحياة، بل يذهبون إلى جهنم بعد موتهم مباشرة، وهناك فئة العصاة الذين يُعَذَّبون لمدة ١٢ شهراً أو أقل، وهناك من يلحقهم العار بعد إحيائهم ويختفون من الوجود، وقيل بل يلحقهم العار عند موتهم ولا يُحيون، واعتُبرت الأمراض والمحن الدنيوية بديلة عن العذاب الأخروي.

ولعل إلى هذا أشارت الآية الشريفة: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ، وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

وتشير بعض المصادر اليهودية إلى أن يوم الحساب ليس يوماً أخروياً كما هو الحال في عقيدة المسلمين، بل هو يوم من أيام الدنيا في آخر الزمان، حيث سيتم فيه تطهير اليهود من آثامهم، ثم تعود البقية الصالحة من الأموات^(٤)

١. لا كما هو الحال في نصوص القرآن حول الآخرة من حيث التأكيد والتكرار والتفصيل.

٢. الكتاب المقدس: سفر دانيال، الإصحاح ١٢ : ٢.

٣. سورة البقرة: ٧٩-٨٠.

٤. بما يشبه القول بالرجعة عند بعض طوائف المسلمين.

إلى أرض الميعاد «إسرائيل» ليحيوا جميعاً حياة سعيدة هنيئة عليها.

وعلى العموم، فإنّ اليهود مُقَلَّون في نصوصهم وفي كلماتهم بشأن الموت، ولعل إلى هذا يشير «عز وجل»: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)، وقوله «عز وجل»: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢). والحال أن القرآن يخبرنا أنّ الله «عز وجل» ذكر الآخرة في أول ما تكلم به مع النبي موسى «عليه السلام» في بداية بعثته: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي، إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى، فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾^(٣).

□ النصارى والإيمان بالآخرة:

على خلاف اليهود، فإنّ لذكر «يوم الدينونة»^(٤) حضوراً قوياً في النصوص المقدسة للنفارى وفي أدبياتهم. ولكن يجب أن لا نخلط بين مصطلح «يوم

١. سورة البقرة: ٩٤.

٢. سورة الجمعة: ٦-٨.

٣. سورة طه: ١١-١٦.

٤. وجاء في القرآن الكريم بعنوان «يوم الدين» أي يوم المحاسبة.

القيامة» عند المسلمين وبين عنوان «عيد القيامة» عند النصارى، فهم يعنون بذلك عودة المسيح «عليه السلام» إلى الحياة بعد صلبه وقتله بثلاثة أيام، ويحتفلون كل عام بهذه المناسبة التي يطلق عليها أيضاً «عيد الفصح».

ولدى النصارى استخدام آخر «للقیامة» مرتبط بآخر الزمان، حيث يعود المسيح «عليه السلام» إلى الدنيا ليحكم فيها لمدة ألف عام ويُغلّ إبليس ليبقى خلالها في النار، ثم يُطلق من جديد ليختبر الناس بفتنته بعد هذه الألفية. فمن يتبعه يهلك، ومن ينجح في الاختبار يعيش في الجنة مع المسيح «عليه السلام»، وتُعرف هذه بالقيامة الثانية.

ولذا نستطيع أن نقول بوجود ثلاث قيامات، واحدة خاصة بالسيد المسيح نفسه حصلت قبل ألفي سنة تقريباً، وبقيت اثنتان. وليوم الحساب عند النصارى فلسفة مختلفة عنها عند المسلمين، فهم يعتبرون أن الله «عز وجل» خلق البشر على الأرض أساساً ليخلدوا فيها، لا ليختبروا لمعرفة مدى أهليتهم لحياة أخرى في مكان آخر. إلا أن الأمور جرت على خلاف ذلك حين تمرد أبوا البشرية «آدم وحواء» على الإرادة الإلهية، على الرغم من كمالهما الجسدي والعقلي، فخسرا الخلود، وصار مصير كل مولود جديد هو أن يولد عاصياً وغير مخلص. وحين يموت الناس قبل عودة المسيح المجددة إلى الأرض والمسمى «يوم الدينونة»، فإنهم ينقسمون إلى ثلاث فئات:

١. الذين لن يعودوا إلى الحياة مجدداً لأنهم من الشريرين الأشقياء، وينتهي أمرهم بهذا الموت المدمر لوجودهم.
٢. الذين تُرفع أرواحهم إلى السماء بانتظار يوم الدينونة، وهؤلاء من

القديسين وخيرة الناس، وعددهم ١٤٤ ألفاً، لا يزيد ولا ينقص.

٣. الذين يموتون، ولكنهم سيعودون ليعيشوا في دولة المسيح يوم الدينونة بعد أن تُمحى كل أعمالهم السابقة، ولا يُحاسبون عليها «الرجعة». وهؤلاء سيشاركون مَنْ هم فعلاً على قيد الحياة ليعيشوا جميعاً تحت حكم السيد المسيح «عليه السلام» لمدة تطول ألف عام وفي أوضاع مثالية.

وفي العهد الجديد أن الله «عز وجل» يوكل بالمسيح مهمة حساب الناس على ما يصدر عنهم خلال فترة الألف عام، فهو (الديان المعين من الله ليُدين الأحياء والأموات)^(١).

خلال فترة الدينونة هذه التي تمتد ألف عام، سيحكم المسيح الأرض مع ١٤٤ ألف من الرجال والنساء الذين جعل الله أرواحهم في السماء بعد أن ماتوا. وسيكون هؤلاء ملوكاً وكهنة، يساعدون الناس على الترقّي في مدارج الكمال الجسدي والعقلي شيئاً فشيئاً.

بالنسبة إلى العديد من الذين يُحيون بعد الموت، ستكون هذه هي المرة الأولى التي يتعرّفون فيها إلى الله وما يطلبه منهم في الحياة. وسيحظون بفرصة ليعيشوا بانسجام مع مشيئة الله وينالوا الحياة الأبدية على الأرض. كل فرد من هذه المجموعة سيُعطى الفرصة من أجل أن يُقرّر مصيره بعد انتهاء الألف عام، حيث يمكنه أن يكون من الخالدين في الأرض التي ستبديل أحوالها إلى أحوال مثالية.. وكيف ذلك؟

خلال الألف عام من الدينونة يكون إبليس مع الشياطين محبوسين في

1. <https://wol.jw.org/ar/wol/d/r39/lp-a/102010006>.

النار، حتى إذا انتهت المدة أُطلق سراحهم لغواية هؤلاء الناس، فمن يتَّبِع إبليس والشياطين يكون معهم من الهالكين، ومَن يتمرّد على إبليس والشياطين يعيش خالداً في الأرض مع المسيح والقديسين.

□ قدماء المصريين والإيمان بالآخرة:

المصريون القدماء كانوا ينظرون إلى الموت كجزء لا يتجزأ من مفهوم الحياة والوجود، وهم يستعدّون للموت كما يجب، وذلك للنجاح في العبور بسلامة نحو الحياة الآخروية المنعمّة.

في الحياة الآخرة المنعمّة، يعيش الإنسان الصالح مثلما كان يعيش على الأرض، ولكن من دون أمراض ولا تعب ولا كبر في السن، بل يكون في الآخرة رفيقاً للآلهة يأكل ويشرب معهم في بعض المناسبات.

وقد كتب قدماء المصريين «كتاب الموتى»، وهو يشتمل على شرح وافٍ لمعتقداتهم حول الموت والحساب والبعث والجزاء، كما يشتمل على التعاويذ والتوجيهات للميت والتي تساعد على البعث من الموت والانتقال إلى الآخرة. ومن هنا، فإنّ هذا الكتاب يعدّ كنزاً معلوماتياً حول هذا المعتقد، وأحد أبرز النصوص التي كتبها الإنسان قبل قرابة ٥٠٠٠ سنة والتي تهتم بمفهوم البعث والحساب. وتُعدّ نسخة «بردية حُونِفِر»^(١) واحدة من النسخ الباقية. في الأساس، كان هذا الكتاب بتفاصيله وتعاويذه يُنقش على جدران المقابر

١. «حُونِفِر» هو الكاتب الخاص للفرعون سيتي الأول ابن رمسيس الأول ووالد رمسيس الثاني الذي جاء في التوراة أنّه فرعون موسى، ويعتقد أن البردية تعود للعام ١٢٠٠ قبل الميلاد، وهي موجودة حالياً في المتحف البريطاني.

أو على التواييت وذلك إبان عصر الدولة القديمة «ما بين ٢٧٨٠ ق.م - ٢٢٦٣ ق.م»، ولكن خلال عصر الدولة الوسطى والحديثة «ما بين ٢١٣٤ ق.م - ١٠٦٩ ق.م» صارت تلك النقوش الكتابية الجدرانبة تُكتب على بردية، ثم توضع في التابوت إلى جانب المومياء.

تعليق: نحن نجد في ضمن مستحبات الدفن في فقهننا الإسلامي «الإمامي» شيئاً مشابهاً لذلك، حيث يُكتب دعاء الجوشن مثلاً على الكفن، وشهادات أربعين مؤمناً على الجريدتين، ويوضع مع الميت خاتم عقيق وتربة حسينية وما إلى ذلك، وبعض هذه الأمور إن كانت صادرة فعلاً عن النبي «صلى الله عليه وآله» أو الإمام «عليه السلام» فلا بد حينها أن نلتفت إلى أن المسألة ليست من باب أن الإنسان يشتري كفنًا جاهزاً قد كُتب عليه دعاء فيكون ذلك سبباً لنجاته أو تجاوز بعض عقبات البرزخ أو الآخرة، كي نقول أن الذي يملك المال يوفّق لذلك وأما الفقير فلا.. أو أن رضا الله يُشترى بالمال، أو أن الملائكة يتم إرضاءها بمثل ذلك، بل بأن يقوم الإنسان في حياته بكتابة الدعاء على كفنه وكأنه يراجع مفاهيمه التوحيدية وما فيه من توسل إلى الله «عز وجل» وتذلل وأمثال ذلك، وكأنه يكتب وصيته ويعلن متبنياتة، تماماً كما يستحب أن يبدأ عند كتابة الوصية بذكر ما يؤمن به من الشهادتين والإيمان بالمعاد ... إلخ.

وبالعودة إلى معتقد قدماء المصريين، فإن تجهيز الموتى بالصورة التي تظهر في الآثار والتحنيط وتدوين كتاب للميت خاص به لم يكن أمراً ميسراً للجميع، لأنه مكلف جداً. ومن هنا اختصت طبقة معينة من النبلاء والموظفين والأثرياء وخدام الآلهة في المعبد بالحصول على ذلك. وقد حرصت هذه الطبقة

على تكليف الكهنة بتجهيز كتاب الموتى الخاص بكل واحد منهم، بحيث يُذكر فيه اسمه واسم أبيه واسم أمه ووظيفته في الدنيا، وذلك استعداداً ليوم الوفاة وتجهيز طقوس النقل إلى المقبرة.

كانت تلك التعاويذ والتمايم التي يحملها الكتاب عبارة عن تعليمات إرشادية تُمكن الميت من تخطي العقبات والمخاطر التي ستصادف روحه في أثناء رحلته إلى الحياة الأخرى، وتدله أيضاً على الوسائل التي يتعين عليه أن يستخدمها ليتمم هذه الرحلة بنجاح من دون أن يتعرض لأي سوء.

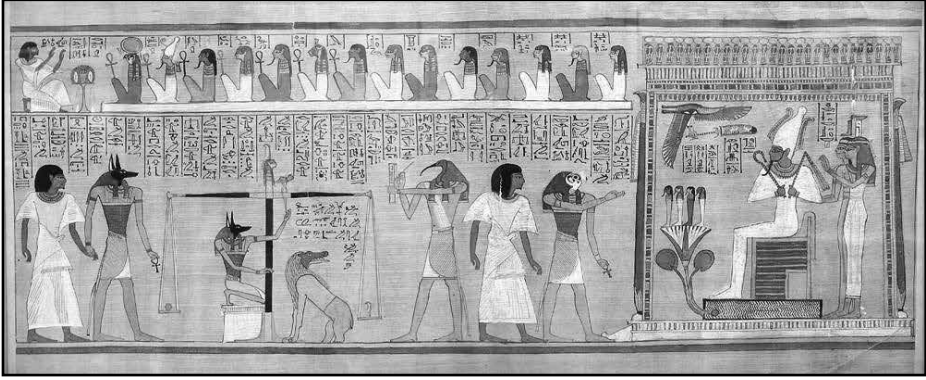
ويمكن شرح رحلة ما بعد الموت كالتالي:

١. في البدء يصاحب الإله «أنوبيس» إله الموتى الميت نحو المحطة الأولى في الحساب الأخروي.

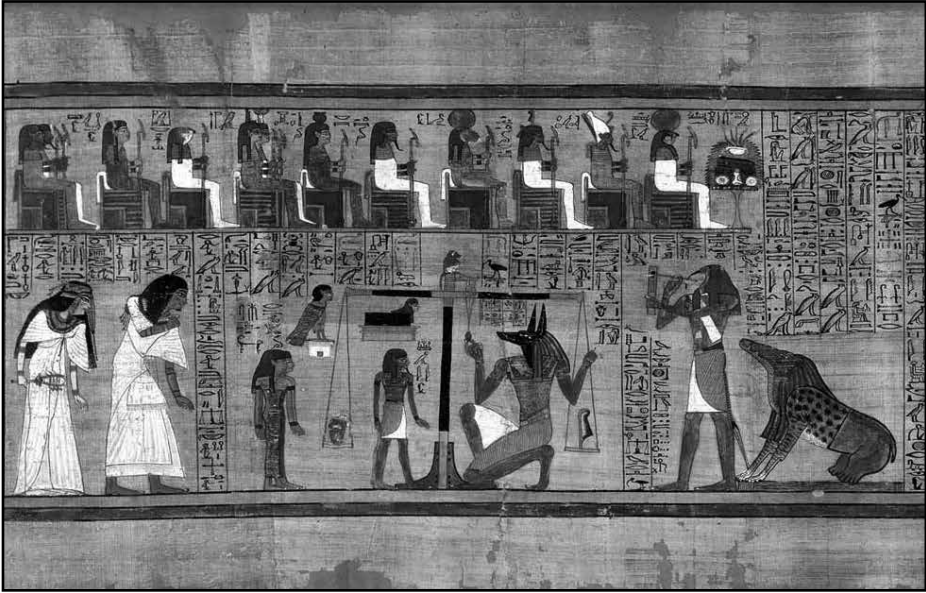
٢. تتم عملية وزن أعمال الميت التي صدرت عنه في الدنيا، وذلك عن طريق وضع قلبه في إحدى كفتي الميزان، وتوضع في كفة الميزان الأخرى ريشة «ماعت»^(١) وهي رمز «العدالة والأخلاق السويّة». فإذا كانت الريشة أثقل من قلب الميت، فمعنى ذلك أنه كان شخصاً طيباً في حياته وعلى خلق كريم، وسينال جزاءً حسناً.

وبحسب كتاب الموتى فإنه حتى ينال الميت الحياة الآخرة المنعمّة لابد وأن يكون قد عمل من الصالحات ما يجعله مستحقاً لذلك، بأن يكون أميناً وصادقاً يساعد الفقير والجائع والعطشان، ويساعد الأراامل واليتامى، وحينذاك فإنه

١. ماعت هي إلهة الحق والعدل والنظام في الكون، تُمثّل بهيئة سيدة تلو رأسها ريشة النعام رمز العدالة، وكما في الصورة نجدها ممسكة مفتاح الحياة «عنخ» في أحد يديها، وتمسك في يدها الأخرى صولجان الحكم. وأحياناً يرمز لماعت بالريشة.



محكمة الموتى من كتاب الموتى - بردية حونفر



جانب من نسخة أخرى من كتاب ميّت

يكون من الذين عاشوا حياتهم الدنيا طبقاً لما أرادته له الآلهة من قواعد حياة
سويّة، ونظام عادل، وهذا ما يجعله ينجو عند إجراء الميزان الأخروي.

أما إذا كان قلب الميت أثقل من وزن الريشة، فمعناه أنه قد كان في حياته

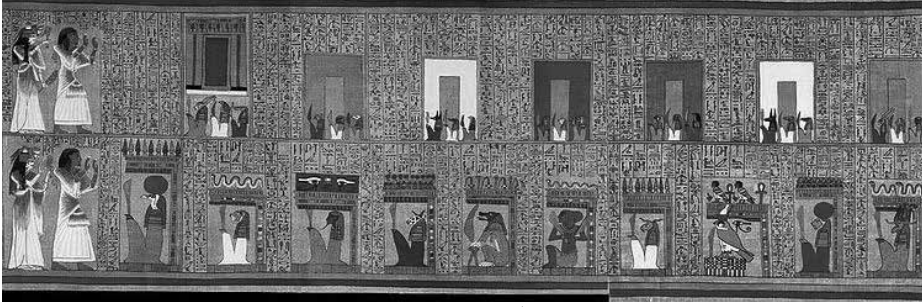
شخصاً شريراً، وعندئذ يُلقى بالقلب وبالميت إلى «عمعموت»^(١) الواقف بجوار الميزان، ليلتهمه على التوّ وتكون تلك هي نهايته. وبالطبع فإنّ لما دفعه الميت من أموال للكهنة كي يعدّوا له كتاب الموتى وفيه التعاويذ ووسائل النجاة في الآخرة دور في أن ينجو من عمعموت والخسارة الأخروية.

تعليق: وهنا يحصل الانحراف في الفكرة الجميلة المتمثلة في الميزان. ولو كان القرآن الكريم من تأليف الإنسان كما يدّعي البعض لوجدنا فيه مثل هذه الصور الطفولية والأسطورية من قبيل الريشة وعمعموت، ولكن القرآن خالٍ من أمثال ذلك، ويقدم لنا الموت والحياة الآخرة بصورة رائعة ترتبط بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق والقيم الفاضلة والعدالة الدقيقة جداً والموازن القسط والشهادات وحفظ الأعمال وانتفاء الوساطات القائمة على أساس عائلي أو مادي أو وجاهتي.

ولكن بدخول الروايات الموضوعة والمحرّفة على لسان النبي والأئمة والصحابة وأقوال بعض المفسّرين تشوّهت هذه الصورة النقية الخالصة ودخلت على الخط التصورات البشرية من قبيل التنين الذي يدخل قبر الإنسان فينهش فيه، أو الحيات والعقارب الذي تظهر في القبر، أو النار التي تشتعل في القبر، وكلها بلا شواهد قرآنية، بل من خلال روايات آحاد، وجلّها ضعيفة السند أو غير مسندة أصلاً.

٣. وفي نفس الوقت الذي يوزن فيه قلب الميت، يقوم «تحت» إله الحكمة

١. عمعموت أو أمّت أو أمّت أو «أو أم-مت» أو عميمت: حيوان خرافي، رأسه رأس تمساح، وجسمه جسم أسد، وفرس النهر.



الميت ماثلاً أمام قضاة الآخرة

الذي علّم المصريين القدماء الكتابة والحساب بتسجيل نتيجة الميزان بالقلم في سجله الأبدي.

فإذا نجح الميت وتجاوز هذه المحطة، يتقدّم الإله «حورس» ملك الحياة الدنيا ليصطحبه إلى الإله «أوزيريس» في المحطة الثانية، ويُعطى لباساً جميلاً. ٤. ومن المحطات الأخروية التي تظهر في كتاب الموتى وقوف الميت أمام قضاة الآخرة وعددهم ٤٢ قاضياً، والدفاع عن نفسه.

ومن ضمن هذا الدفاع الذي يدافع به الميت عن نفسه الدعاء الخاص، ويسمى الاعتراف بالنفي، ويشتمل على مفاهيم أخلاقية واجتماعية رائعة وتركز على العديد من القيم الإنسانية التي ترسخ حالة السلام والأمن في العلاقات البينية، حيث يقول: (السلام عليك أيها الإله الأعظم إله الحق. لقد جئتك يا إلهي خاضعاً لأشهد جلالك، جئتك يا إلهي متخلياً بالحق، متخلياً عن الباطل، فلم أظلم أحداً، ولم أسلك سبيل الضالين، لم أحنث في يمين، ولم تضلني الشهوة فتتمتد عيني لزوجاة أحد من رَحمي، ولم تمتد يدي لمال غيري، لم أكن كاذباً، ولم أكن لك عصياً، ولم أسع في الإيقاع بعبدٍ عند سيده. إني يا إلهي لم أوجع ولم أبك أحداً، وما قتلْتُ وما غدرتُ، بل وما كنتُ محرّضاً على

قَتْلَ، إِنِّي لَمْ أُسْرِقْ مِنَ الْمَعَابِدِ خَبَرَهَا، وَلَمْ أُرْتَكِبِ الْفَحْشَاءَ، وَلَمْ أُدْنَسْ شَيْئاً
مَقْدَساً، وَلَمْ أَغْتَصِبْ مَالاً حَرَاماً، وَلَمْ أَنْتَهِكْ حُرْمَةَ الْأَمْوَاتِ، إِنِّي لَمْ أَبْعِ قَمْحاً
بِثْمَنِ فَاحِشٍ، وَلَمْ أَغْشِ الْكَيْلَ. أَنَا طَاهِرٌ، أَنَا طَاهِرٌ، أَنَا طَاهِرٌ. وَمَا دَمْتُ بَرِيئاً
مِنَ الْآثَامِ، فَاجْعَلْنِي يَا إِلَهِي مِنَ الْفَائِزِينَ^(١).

كما يشتمل كتاب الموتى على بيان طرق:

□ وقاية الميت من الشياطين والأرواح الشريرة والثعابين وغيرها والتي قد
تعترض طريقه نحو النعيم الأخروي.

□ تعرّف الميت عند بعثه على الطريق إلى الحياة الأبدية في الآخرة.

□ عبور بحر النار، والصعاب التي تهدده.

□ السماح له بالتردد بين العالم الأرضي والعالم الآخر.

□ معرفة الأماكن في الآخرة، وتذكّر أسماء الآلهة والأسماء الهامة التي
لها دخل في نجاته.

□ معرفة الأبواب وأسمائها وتعاويز فتحها والمرور منها والوصول إلى
الآلهة وتعريف نفسه إليهم.

وهكذا نجد أن المصريين القدماء آمنوا بالحياة بعد الممات وضرورة
الاستعداد لها بالعمل الصالح، وأن أعمال الإنسان وقلبه الطاهر وروحه
الطيبة توزن قبل المحاكمة التي تتم أمام عدد من قضاة الآخرة، وأن
الدخول إلى الجنة يتم عبر أبواب معيّنة، بعد أن يجتاز الميت النار والعقبات

1. كتاب - الموتى <https://ar.wikipedia.org/wiki/الموتى>

المختلفة. ويسجّل على الصورة السابقة دخول الاعتقاد بالآلهة على الخط في عملية العرض والحساب والميزان وما إلى ذلك، ولعلها كانت تخص الاعتقاد بالملائكة الموكلة بكل مرحلة، فتطوّرت لتصبح اعتقاداً بالآلهة، مع بقاء شيء من العقيدة التوحيدية الأصلية والتي ربما نلاحظها في النص الذي يقوله الميت: (السلام عليك أيها الإله الأعظم إله الحق. لقد جئتك يا إلهي خاضعاً لأشهد جلالك، جئتك يا إلهي متحلياً بالحق...). كما ويسجّل عليها الطبقية في التمييز بين الناس في حصولهم على مثل هذه التسهيلات لاجتياز العقبات الأخروية إلى الجنة، وهو ما يتنافى مع العدالة الإلهية. هذا كله بالإضافة إلى مجموعة من التصورات حول التنقل بين الحياتين، وفتح أبواب الجنة عن طريق التعاويذ، وأمثال ذلك مما ذكرناه مسبقاً. وتأتي مسألة التحنيط عند قدماء المصريين لتثير سلبية أخرى في معتقداتهم حول البعث والحساب، فكأنّ التحنيط يأتي لاعتقادهم بأن الجسد إذا بقي لن يعود من جديد، وبالتالي لن يعيش هذا الإنسان حياة أخرى ليتنعم في الجنة، وهي الإشكالية التي ترتبط بقدرة الله «تعالى»، وعالجها القرآن الكريم في أكثر من موضع.

□ الإيمان بالآخرة في بلاد الرافدين:

كتب البروفيسور «بيتر موري»^(١) في كتابه «قرن من علم الآثار التوراتي»^(٢) حول عقيدة شعب بلاد الرافدين القديمة بالبعث والآخرة والحساب والثواب

١. البروفيسور بيتر روجر ستيوارت موري «ت٢٠٠٤» عالم آثار بريطاني ومؤرخ في شأن بلاد ما بين النهرين والشرق الأدنى القديم، والمسؤول عن الآثار في متحف آشمولين التابع لجامعة أكسفورد البريطانية. له عدة مؤلفات.

والعقاب: (كان شعب بلاد ما بين النهرين القديمة يؤمنون بالآخرة التي يعتبرونها أرضاً تحت عالمنا. وكانت هذه الأرض المعروفة بأرالو وقانزير وأركالو، وتعني الأخيرة «آخر أرض سفلية»، حيث يذهب جميع الناس إليها بعد الموت، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو الأعمال التي يؤدونها خلال الحياة. لم يكن شعب بلاد ما بين النهرين يعتبر العالم السفلي ثواباً أو عقاباً على عكس جحيم المسيحية. ومع ذلك فإن وضع الموتى لم يكن يُعتبر كوضعهم سابقاً في الحياة بتمتعهم على وجه الأرض؛ فهم كانوا يُعتبرون مجرد أشباح ضعيفة وعاجزة. فأسطورة هبوط عشتار إلى العالم السفلي تروي أن «الغبار هو طعامهم والطين هو قوتهم، فهم لا يرون الضوء حيث يسكنون في الظلام». قصص - مثل الأسطورة البابلية - تروي أنه يجب أن يموت جميع البشر بسبب أخطائهم الفادحة، وأن الحياة الأبدية الحقيقية هي صفة للآلهة وحدها)^(١).

وخلاصة الأفكار التي عرضها كما يلي:

١. كان شعب بلاد ما بين النهرين القديمة يؤمنون بالآخرة التي يعتبرونها أرضاً تحت عالمنا.
٢. جميع الناس يذهبون إلى تلك الأرض بعد الموت، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو الأعمال التي يؤدونها خلال الحياة.
٣. العالم السفلي ليس نوعاً من الثواب أو العقاب، بل حياة من نوع آخر، حيث يكون الميت مجرد شبح عاجز ضعيف، طعامه الغبار والطين، وبيئته

ديانة - بلاد - ما - بين - النهرين - القديمة 1. <https://wikivisually.com/lang-ar/wiki/>

مظلمة لا نور فيها.

٤. الآلهة فقط هي التي يُكتب لها الخلود في الحياة الأبدية المنعمة.

وأما في كتاب «التلمود: البعث والحساب والثواب والعقاب» لمؤلفه علاء تيسير أحمد فيمكن أن نجد تصورات لا تتفق من حيث أصل الفكرة أحياناً ومن حيث تفاصيلها أحياناً أخرى: (أما في بلاد الرافدين فهناك بعض النصوص السومرية والبابلية^(١) التي تشير إلى وجود حساب للموتى في العالم السفلي، فورد في الأسطورة السومرية «نزول إنانا»^(٢) إلى العالم السفلي» وكذلك في الأسطورة البابلية المناظرة لها «نزول عشتار إلى العالم السفلي»، إن هناك سبعة من القضاة يقومون بالحكم على جميع من في العالم السفلي، حيث ورد في السطر رقم ١٥٥ - ١٦٠ «وعندما دخلت إنانا من البوابة السابعة رفع الخادم عن جسدها الرداء الملكي، فقالت له: لم ذلك؟ فقال لها: اصمتي يا إنانا، سلطات العالم السفلي لا مأخذ عليها، لا تعارضي أوامر آلهة العالم السفلي. فأحضرها إلى «إيريشيكجال» ملكة

١. تعاقبت الدول والحضارات على بلاد الرافدين: العهد السومري القديم «العبيديون» وسط وجنوب العراق إلى جزيرة البحرين ٢٨٠٠ ق.م. ثم العهد الأكادي في وسط وجنوب العراق. ثم العهد السومري. ثم العهد البابلي القديم ومن حكمهم حمورابي. ثم العهد البابلي الوسيط في الوسط والجنوب ويموازاتهم العهد الآشوري في الشمال ومن أشهر حكام الآشوريين سرجون الثاني وآشوربانيبال. ثم العهد البابلي الحديث والذي انتهى سنة ٥٣٩ ق.م. ومن أشهر حكمهم نبوخذ نصر. ولم تقم بعد ذلك للعراق حضارة خاصة بها. واختلاف الحضارات يجعل من تغير المعتقدات أمراً مسلماً ما دامت اليد البشرية هي التي تضع مفرداتها.

٢. إنانا من آلهة سومر، وهي إلهة الحب والحرب وأغلب الصفات الأنثوية، ويُرمز لها بكوكب الزهرة، فهي بالتالي تقابل الإلهة فينوس إلهة الحب والغريزة الجنسية والخصوبة والنصر عند الرومان، واسم فينوس يُطلق على كوكب الزهرة أيضاً.

العالم السفلي، وجسدها عار مجرّد من ألبسته، وكانت «إيريشيكيجال» تجلس على عرشها و «الأنونا» أي القضاة السبعة ينطقون بالحكم». وثمة إشارة أخرى إلى وجود حساب في العالم السفلي، وردت في النص البابلي «رؤيا عن العالم السفلي في حلم أمير من آشور» ويشير النص إلى بعض مظاهر الرهبة في العالم السفلي، ويعدد المخلوقات الشيطانية والآلهة الذين يساعدون «نيرجال»^(١) في مهامه، وعددهم خمسة عشر إلهاً، كما يشير النص إلى وجود مستشار لـ «نيرجال» في العالم السفلي يلقب بالشفيع الذي يُنقذ الحياة ويحب العدالة. وتشير الشفاعة هنا إلى معنى الحساب وتحقيق العدالة وفرض العقاب العادل: «يقول الأمير: رأيت في حلمي أن «نيرجال» صرخ صرخة قوية، صرخ غاضباً منّي، وعصا الحكم كانت بيده مثل ثعبان مسمّم، ووجهها نحوي، لكن «إيشوام» مستشاره الشفيع الذي ينقذ الحياة ويحب العدالة تدخّل قائلاً: لا تحكم على هذا الرجل بالموت. ويتضح من خلال النصوص السابقة أن القضاة السبعة في أسطورة «نزول إنانا إلى العالم السفلي» و «إيشوم» مستشار «نيرجال» يقومون بنفس الدور الذي يقوم به «مينوس» في العالم السفلي عند اليونان، فدورهم لا يتعدّى سوى إعلان القوانين واللوائح التي تنظم حياة الموتى في عالمهم. وهذا لا يشير بوضوح إلى وجود فكرة حساب بعد الموت في بلاد الرافدين. ولكن

١. نيرجال أو نيرغال أو نركال. من الآلهة السومرية ويوصف في بعض نصوصهم بالثور الذي لا يُقهر، وهو إله العالم السفلي وإله الحرب وحامي الديار.

يتضح من ملحمة جلجاميش^(١) أن مصير الموتى في العالم السفلي يختلف من ميت لآخر، فالموتى يعاملون معاملة مختلفة ومتفاوتة، وفقاً لقواعد تبدو وكأنها نوع من الثواب والعقاب داخل العالم السفلي. فمعاملة الأموات ممن أنجبوا أبناء في حياتهم كانت تتحسن كلما زاد عدد الأبناء، ويُعرض النص مصير من كان له ابن واحد أو اثنان أو ثلاثة وحتى سبعة أبناء، فهناك تدرّج في مصير الموتى يتراوح بين البكاء المرير، مروراً بالسماح بشرب الماء، ثم السعادة التي تصل إلى الاستماع إلى الموسيقى في حضرة الآلهة لمن له سبعة أبناء. وربما يُناقض هذا النص الاتجاه السائد الذي يجعل جميع الأموات في المقر المظلم يخضعون لمعاملة واحدة، فورد في ملحمة جلجاميش في الجزء الذي يجيب فيه شبح «إيباني» صديق جلجاميش على أسئلة جلجاميش: «يقول جلجاميش إلى شبح إيباني صديقه أخبرني عما شاهدته في العالم السفلي. لن أخبرك لأنه إذا رويت لك ما شاهدته في العالم السفلي، سوف تنهار وتسكب الدموع! جسدي الذي كنت تتحسسه بكثير من الغبطة تلتهمه الديدان، جسدي الذي كنت تتلمسه بكثير من الغبطة يملؤه التراب - فقال له جلجاميش^(٢): هل رأيت من له ابنٌ واحد؟ نعم رأيتُه يبكي بمرارة أمام مسمار مثبت على جدار. فهل رأيت من له ابنان؟ نعم رأيتُه يأكل وهو جالس

١. ملحمة سومرية شعرية مكتوبة بخط مسماري على ألواح طينية اكتشفت عام ١٨٥٢ م في موقع أثري تبين أنه المكتبة الشخصية للملك الآشوري آشوربانيبال في العراق. الألواح مكتوبة باللغة الأكادية وتحمل في نهايتها توقيعاً لشخص اسمه «شين إيقى إونيني»، واعتبرها البعض أقدم قصة كتبها الإنسان.

٢. ليست من النص الأصلي للملحمة بل لمجرد التوضيح.

على أجرتين في وضعية القرفصاء. فهل رأيت من له ثلاثة أبناء؟ نعم رأيت
يشرب الماء من قربة كالتى تُحمل في الصحراء. فهل رأيت من له أربعة أبناء؟
نعم رأيت في سعادة يملك نير يشده أربعة حمير. فهل رأيت من له خمسة
أبناء؟ نعم رأيت مثل كاتب ماهر لديه عمل كثير يدخل القصر كما يشاء. فهل
رأيت من له ستة أبناء؟ نعم رأيت سعيداً مثل الفلاح. فهل رأيت من له سبعة
أبناء؟ نعم رأيت جالساً في حضرة الآلهة يستمع إلى الموسيقى». أما الشاب
أو الفتاة اللذان يختطفهما الموت في سن مبكرة وقبل التمتع بمباهج الحياة،
فلهما مصير آخر في العالم السفلي، حيث يسعى الجميع في العالم السفلي
إلى مساعدتهما. فورد في ملحمة جلجاميش: «فهل رأيت الفتى الذي مات في
سن مبكرة قبل الزواج؟ نعم رأيت إنهم يمدون له حبلاً لمساعدته وهو يبكي
خائفاً. فهل رأيت الفتاة التي ماتت في سن مبكرة قبل الزواج؟ نعم رأيتها
إنهم يمدون لها عود قصب لمساعدتها وهي تبكي خائفة». ولعل أسوأ مصير في
العالم السفلي هو مصير من ليس له أحد يهتم ويعتنى بقبره بعد موته، وكذلك
من يُترك في الصحراء دون أن يُدفن، فالأول يأكل نفايات العالم السفلي،
والثاني لن ينعم بالراحة، فورد في ملحمة جلجاميش: «الذي لم يبق لجثته أحد
ليعتني بها هل رأيت؟ نعم رأيت يأكل نفايات العالم السفلي. والذي تركت جثته
في الصحراء دون دفن هل رأيت؟ نعم رأيت في العالم السفلي شبحه لا يعرف
الراحة»^(١). ويمكن تلخيص ما سبق في النقاط التالية:

١. بعض النصوص السومرية والبابلية تشير إلى وجود نوع من الحساب

1. <https://books.google.com.kw/books?isbn=9772088606>.

للموتى في العالم السفلي، وأن هناك سبعة من القضاة يقومون بالحكم على جميع من فيه. وفي المقابل فإن نصوصاً أخرى لا تشير إلى وجود حساب، ويقتصر دور القضاة على إعلان القوانين واللوائح التي تنظم حياة الموتى في عالمهم الجديد.

٢. في العالم السفلي تنتظر الناس مخلوقات شيطانية وآلهة وعددهم خمسة عشر إلهاً، وكلهم يساعدون «نيرجال» في مهامه.

٣. وفي العالم السفلي يوجد مستشار لـ «نيرجال» يلقب بالشفيع الذي يُنقذ الناس من الموت ويحب العدالة.

٤. أما في ملحمة «جلجاميش» فالصورة عن العالم السفلي مغايرة لما سبق، حيث أن مصير الموتى في العالم السفلي يختلف من ميت لآخر، وذلك وفقاً لقواعد تبدو وكأنها نوع من الثواب والعقاب داخل ذلك العالم.

٥. من عوامل تحسّن نوعية الحياة الآخرة للأموات، زيادة عدد الأبناء الذين أنجبهم الإنسان في حياته الدنيا. فبحسب ما جاء في الملحمة روى «شبح» إيباني صديق جلجاميش ما رآه في العالم السفلي، فكانت الصورة كما يلي:

□ من كان له ابنٌ واحد رآه يبكي بمرارة.

□ ومن كان له ابنان رآه يأكل وهو جالس على آجرتين في وضعية القرفصاء «أي كالمستجدي للعطية».

□ ومن كان له ثلاثة أبناء رآه يشرب الماء من قربة كالتي تُحمل في الصحراء.

□ ومن كان له أربعة أبناء رآه يعيش في سعادة، يملك نيراً^(١) يشده أربعة حمير.

□ ومن كان له خمسة أبناء رآه يعيش مثل كاتب ماهر، لديه عمل كثير، يدخل القصر كما يشاء.

□ ومن كان له ستة أبناء رآه يعيش سعيداً مثل الفلاح.

□ ومن كان له سبعة أبناء رآه يعيش جالساً في حضرة الآلهة يستمع إلى الموسيقى.

□ والفتى الذي مات في سن مبكرة قبل الزواج رآه والبعض يمد له حبلاً لمساعدته وهو يبكي خائفاً.

□ والفتاة التي ماتت في سن مبكرة قبل الزواج رآها والبعض يمد لها عود قصب لمساعدتها وهي تبكي.

□ أسوأ مصير في العالم السفلي هو مصير من ليس له أحد يهتم ويعتني بقبوره بعد موته، وكذلك من يُترك في الصحراء دون أن يُدفن، فالأول يأكل نفايات العالم السفلي، والثاني لن ينعم بالراحة.

مما سبق تتضح لنا التصورات البدائية التي كانت متداولة ضمن عقيدة أهل بلاد ما بين النهرين حول عالم الآخرة، وتغيّرها من زمن إلى آخر، وهذا التغيّر مفهوم بلحاظين:

الأول هو أنها تصورات بشرية من وحي الخيال.

١. الخشبة المعترضة فوق عنق الحيوان لجراً المحراث أو غيره.

والثاني تعاقب الحضارات وتباينها في نواح عديدة، ومن بينها المعتقد الديني.

ومع هذا فإن أصل الإيمان بوجود حياة أخرى بعد الموت أمر في حد ذاته يؤكد رسوخ هذا المعتقد في الأمم الماضية. نعم، هذا الإيمان لا يواكبه أحياناً الإيمان بوجود حساب وثواب وعقاب، بل مجرد حياة من نوع آخر، كما لا تفترض تصوراتهم عودة الأجساد بالضرورة، بل مجرد أشباح ضعيفة، وهو ما رفضه القرآن الكريم معتبراً أن عدم وجود حساب وثواب وعقاب يعني عبثية الخلق: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١).

كما أكد القرآن الكريم على قدرة الله «عز وجل» على إعادة هذا الجسد ولو بلي عبر القرون وتحول إلى تراب: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٢)، ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٣).

□ الإيمان بالآخرة لدى الإغريق:

يُعرف الإله اليوناني «هاديس» Hades في الأساطير الإغريقية بأنه ملك العالم السفلي، وهو المكان الذي تعيش فيه الأرواح بعد الموت. ويُطلق على العالم السفلي «بيت هاديس» وأحياناً يُختصر إلى «هاديس» فقط.

أما الإله اليوناني «هرمس» Hermes فهو رسول الآلهة، وهو الذي يأخذ

١. سورة المؤمنون: ١١٥.

٢. سورة طه: ٥٥.

٣. سورة ق: ١٥.

الروح الميتة إلى العالم السفلي، حيث يترك «هرمس» الروح على ضفاف نهر «ستيكس» Styx، وهو النهر الفاصل بين الحياة والموت، ولعله يقابل - وفق تعبيرنا في المصطلح الإسلامي - عنوان «البرزخ».

ثم يأتي «تشارون» Charon المعروف أيضاً باسم «رجل العبّارة» ليأخذ الروح عبر النهر إلى العالم السفلي.

امتلاك أهل الميت للذهب مهم جداً بحسب تصوّرهم، حيث يقومون بوضع عملات ذهبية تحت لسان الميت عند الدفن لتسهيل انتقاله إلى حيث النعيم. وتتم لاحقاً محاكمة روح الميت من قبل ثلاثة من الآلهة، ثم يُحكّم عليه بالنعيم أو العذاب، لينقسم الأموات بذلك إلى فئات بحسب مصائرهم:

١. المنعمون يؤخذون إلى «إليسيون» جزيرة الخالدين التي تقع في المغرب الأقصى من قرص الأرض، ويحيط بها ويحميها المحيط، كي يقضوا حياةً أبديةً كلّها سعادة ونعيم. وهي جزيرة دائمة الخضرة، وفيها حدائق غناء نضرة، كثيرة الورود كأنّ فصل الربيع ابتدأ فيها، تجري فيها أنهار ماء كالرحيق، تنبثق من نبع اسمه «ليثي»^(١) Lethe، ومن يشرب من مائها ينسى كل أنواع الهموم والعذاب. وفي «إليسيون» تُؤتي النباتات ثمارها ثلاث أو أربع مرّات في العام، وليس فيها فصول حارّة أو باردة، وإنّما هناك نسيم الغرب العليل. يركب المنعمون فيها الخيل، ويتسابقون، ويلعبون النرد. وقد ذكر سقراط أن من يعمل في هذه الحياة من الصالحات، فإنه سيجد في الآخرة أضعاف المتع والنعيم واللذائذ التي تمتّع بها المقبلون على شهواتهم في هذه الحياة.

١. بما يقابل عنوان نهر الكوثر في بعض المرويات الإسلامية.

٢. فئة المعذبين من الأموات، حيث تُرسل أرواحهم إلى «تارتاروس» Tartarus، وهو سجن تحت الأرض ويبعد عن العالم السفلي «هاديس» كبُعد الأرض عن السماء، وهو مأوى الذين تمرّدوا في حياتهم ضد الإله «زيوس» Zeus، ومأوى المذنبين. في تارتاروس، تتم معاقبة النفس من خلال حرقها في الحمم البركانية، أو يتم شدّها على الرفوف «كنوع من التعذيب».

٣. الفئة التي تنال نصيباً أقل من العذاب، إذ تُرسل أرواحها إلى حقول العقوبة، وهي مصير الذين أخطأوا في كثير من الأحيان، ولكن ليس بقدر أن يكونوا من أهل «تارتاروس».

٤. الفئة التي تتعادل خطاياها مع حسناتها، وكذلك من الذين لم يتم الحكم عليهم، إذ تُرسل أرواحهم إلى «حقول الأسفدال»^(١)، وهي مأوى الناس غير المعذبين ولا المنعمين.

ولم يكن الأمر يقتصر على أن يكون الإنسان صالحاً لنفسه وللآخرين، بل وللآلهة أيضاً، أي أن نيل النعيم في الآخرة يحتاج إلى «الإيمان» علاوة على «العمل الصالح». كما اعتقد الإغريق أن من واجب الأحياء أن يذكروا موتاهم بما هو أحسن، سواء أ كانوا صالحين فعلاً أم لا، ليكون ذلك سبباً فعلياً في نيل أمواتهم النعيم في «إليسيون». ومن هنا اهتم الإغريق بتصوير مشاهد من الحياة الصالحة التي عاشها أمواتهم على شواهد القبور كنوع من واجب إحياء الذكرى الحسنة لأمواتهم للتأثير على مصيرهم الآخري

١. الأسفدال أو زهرة «البروق الأبيض» نوع من الزهور التي تنمو في الجزء الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط.

بصورة إيجابية. وذلك من قبيل تصوير:

□ الزوجة وهي تقدم الطعام لزوجها وهو في حالة من الاستراحة.

□ الرجل وقد استقبلته كلابه وهي سعيدة عند عودته إلى بيته.

□ الأم وهي ترعى وليدها.

مما سبق يتضح أن الإغريق آمنوا بالحياة الأخرى والحساب والثواب والعقاب ودرجات ذلك المختلفة، ولكن يلاحظ على معتقداتهم ما يلي:

١. تأثير المادة على المصير الأخروي أحياناً، بما يخل بالعدالة الحقيقية.
٢. محاولة التأثير على القرار الذي يُتخذ من قبل الآلهة حول مصير الميت من خلال ذكر بعض حسناته، بما يخل أيضاً بالعدالة في الحساب.
٣. الإيمان بالمعاد الروحي، لا بالحياة بعد الممات ولا بعودة الجسد.
٤. التصورات الخيالية المرتبطة بنقل روح الميت عبر النهر وأمثال ذلك.
٥. الحياة الأخرى موازية في الزمان مع هذه الحياة، كما أن أماكن النعيم والعذاب موجودة فعلاً.. ولا وجود للساعة ويوم القيامة.
٦. الحساب بيد بعض الآلهة.

□ ملاحظة أخيرة:

لابد من التنبيه أخيراً، إلى أن مشركي مكة على عهد نزول القرآن الكريم لم تكن لديهم أية معتقدات مشابهة لما ذكرناه عند أهل الكتاب أو المصريين أو بلاد الرافدين أو الإغريق، وكانوا يُنكرون المعاد الجسماني نهائياً، كما ليس

في القرآن ما يشير إلى إيمانهم بوجود الروح التي يمكن لها أن تعيش نوعاً من النعيم أو العذاب الآخروي.. فقد كانوا يصرون على أن موت الإنسان يعني نهايته الأبدية، وإغلاق ملفه إلى الأبد.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

ولذا كان من ضمن الحجج القرآنية قوله «عز وجل»: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾^(٢)، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾^(٣)، بما يعني إنكارهم لأصل المعاد والحساب الآخروي، سواء على مستوى الروح أو الروح والبدن.

١. سورة النحل : ٣٨ - ٤٠.

٢. سورة المؤمنون: ١١٥- ١١٦.

٣. سورة سبأ: ٣.

ملحق

مصادر الكتاب

وإصدارات المؤلف

المصادر العربية

١. القرآن الكريم
٢. الكتاب المقدس
٣. الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي
٤. اختيار معرفة الرجال: محمد بن عمر الكشي
٥. الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد محمد أبو شهبه
٦. الأعمال الكاملة لرابي سعيد الفيومي: التوراة العربية بالحروف العبرانية
٧. الأمالي: السيد المرتضى
٨. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: مكارم الشيرازي
٩. الأموال: حميد بن مخلد المعروف بابن زنجويه
١٠. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي
١١. البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي
١٢. تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي
١٣. تاريخ الأدب العربي: شوقي ضيف
١٤. تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري
١٥. التبيان في تفسير القرآن: محمد بن الحسن الطوسي
١٦. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور
١٧. تحفة الأحوزي في شرح سنن الترمذي: محمد بن عبد الرحمن المباركفوري
١٨. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس: لعدة مؤلفين

١٩. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير الدمشقي
٢٠. التفسير الكبير: الفخر الرازي
٢١. تنزيه الأنبياء: السيد المرتضى
٢٢. تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ابن حجر العسقلاني
٢٣. التهذيب: محمد بن الحسن الطوسي
٢٤. التوحيد: محمد بن علي الصدوق
٢٥. جامع البيان في تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري
٢٦. الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
٢٧. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه «صحيح البخاري»: محمد بن إسماعيل البخاري
٢٨. جوابات أهل الموصل: محمد بن محمد بن نعمان المفيد
٢٩. الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي
٣٠. الخصال: محمد بن علي الصدوق
٣١. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي
٣٢. ديوان امرئ القيس: دار الكتاب العربي
٣٣. ديوان امرئ القيس: دار المعارف
٣٤. الرحلة المدرسية والمدرسة السيارة في نهج الهدى: محمد جواد البلاغي
٣٥. الرسائل: السيد المرتضى
٣٦. السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي
٣٧. السنن: محمد بن عيسى الترمذي
٣٨. السنن: محمد بن يزيد بن ماجه
٣٩. شرح إحقاق الحق: المرعشي النجفي
٤٠. شرح الأخبار: القاضي النعمان المغربي
٤١. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي
٤٢. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان

٤٣. صحيح الأدب المفرد للبخاري: ناصر الدين الألباني
٤٤. صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته: ناصر الدين الألباني
٤٥. غنائم الأيام: الميرزا القمي
٤٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني
٤٧. قصة الحضارة: ويل ديورنت
٤٨. قصص الأنبياء: النجار
٤٩. الكافي: محمد بن يعقوب الكليني
٥٠. كامل الزيارة: جعفر بن قولويه
٥١. لسان العرب: ابن منظور الأفرقي
٥٢. مآثر الأبرار: ابن فند محمد بن علي الصعدي
٥٣. مجلة الميثاق
٥٤. مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسن الطبرسي
٥٥. المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم: بولس الفغالي
٥٦. المرأة في النص الديني، قراءة نقدية في روايات ذم المرأة: حسين الخشن
٥٧. المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري
٥٨. المسند الصحيح «صحيح مسلم»: مسلم بن الحجاج القشيري
٥٩. المسند: أحمد بن حنبل
٦٠. مشرعة بحار الأنوار: آصف المحسني
٦١. معالم المدرستين: مرتضى العسكري
٦٢. معجم الأحاديث المعتبرة: آصف المحسني
٦٣. معجم البلدان: ياقوت الحموي
٦٤. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي
٦٥. مقارنة الأديان: سيد القمني
٦٦. من لا يحضره الفقيه: محمد بن علي الصدوق
٦٧. من وحي القرآن: محمد حسين فضل الله

٦٨. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي
٦٩. نور الثقلين: عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي
٧١. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: ابن قيم الجوزية
٧٢. وسائل الشيعة: محمد بن الحسن الحر العاملي

المصادر الأجنبية

1. A Brief Introduction to the Old Testament, The Hebrew Bible in Its Context: Michael David Coogan
2. A Century of Biblical Archaeology: P. R. S. Moorey
3. A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament: William Gesenius, Edward Robinson
4. A History of the Jews of Arabia, From Ancient Times to Their Eclipse under Islam: Gordon Darnell Newby

مواقع الإنترنت

1. albadri.info
2. almoneer.org
3. ar.wikipedia.org

4. azamil.com
5. betterdaysarecoming.com
6. bible.org
7. books.google.com.kw
8. curiousjew.blogspot.com
9. dnaj2.com
10. en.wikipedia.org
11. islammarvel.blogspot.com
12. st-takla.org
13. wikivisually.com
14. wol.jw.org
15. www.biblegateway.com
16. www.biblegateway.com
17. www.britannica.co
18. www.britannica.com
19. www.chabad.org
20. www.erfan.ir
21. www.jewishencyclopedia.com
22. www.jewishvirtuallibrary.org
23. www.theguardian.com
24. www.torahclass.com
25. www.usefulbible.com
26. www.youtube.com

إصدارات المؤلف

١. آفاق الجمعة: روح وفكر
٢. أحبك يا ربي: كتيب للأذكار مخصص للأطفال
٣. أحكام الحدث الأكبر
٤. أحكام الدماء الثلاثة
٥. أحكام المريض والمصاب
٦. أخلاقيات الطب وآدابه
٧. أخلاقيات المهن الحقوقية وآدابها
٨. إضاءات على فكر الفقيه المجدد السيد فضل الله
٩. أطلس واقعة الطف
١٠. إليك يا ابنتي
١١. إليك يا ولدي
١٢. بساين الإيمان: ٤ كتب دراسية في التربية الإسلامية للمرحلة المتوسطة
١٣. حروب الردة: الحقيقة والأساطير
١٤. الدرة الثمينة في أعمال مكة والمدينة
١٥. الدليل: مرشد الزائرين للعتبات المقدسة في إيران
١٦. رسالة المسجد
١٧. زوجتي العزيزة
١٨. زوجي العزيز
١٩. زينة الحياة
٢٠. حقائق الإيمان: ٥ كتب دراسية في التربية الإسلامية للمرحلة الابتدائية

٢١. السيرة العسكرية للأمير المؤمنين علي
٢٢. السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد
٢٣. شهداء على أرض فخ
٢٤. صلاة الجمعة
٢٥. طريق سعادتي: كتاب تعليمي لأحكام الطهارة والصلاة ومفاهيمهما، صدر بثلاث لغات (العربية - الإنجليزية - الهندية)
٢٦. الغناء في ميزان الشرع
٢٧. فراس: قصة للأطفال
٢٧. فك لغز الأسباط
٢٨. لا فتى إلا علي
٢٩. للشباب فقط
٣٠. ليالي عاشوراء (٨ أجزاء)
٣١. المآثم الحسينية... أهداف وتطلعات
٣٢. محطات في الفكر والسياسة والأدب
٣٣. المرأة والستر الشرعي
٣٤. مفاهيم حركية من وحي القرآن (في مجلدين)
٣٥. من هدي الإمام المجتبي
٣٦. من هدي أمير المؤمنين
٣٧. من هدي الزهراء
٣٨. من هدي سيد الشهداء
٣٩. من هدي النبي الأكرم
٤٠. المنبر الحسيني: أفكار ورؤى الفقيه المجدد السيد فضل الله
٤١. منتقى الجمان من مفاتيح الجنان
٤٢. منتقيات (١٠ أجزاء)
٤٣. المنهج الرسالي في التفسير القرآني عند السيد محمد حسين فضل الله
٤٤. ميتولوجيا الخضر
٤٥. وداع الأحبة

إصدارات أخرى متنوعة

١. ١٤ برنامج حاسب آلي في موضوعات مختلفة.
٢. إصدار أسبوعي لصفحة دينية متخصصة بعنوان منتقى الجمان صدرت في الكويت في جريدة الوطن لمدة ٩ سنوات متتالية.
٣. ١٦ حلقة رسوم متحركة تربوية للأطفال بعنوان مغامرات عجيب.
٤. عدة تمثيلات وبرامج إذاعية.
٥. أفلام توضيحية لتحديد بدايات الأشهر وفق فتاوى المراجع
٦. قصص وعبر: أفلام كرتونية من سيرة أهل البيت.
٧. واقعة كربلاء: فيلم كرتوني صدر بثلاث لغات (العربية - الإنجليزية - الفرنسية)
٨. سلسلة فن الحياة: مفاهيم ونصوص من حكم أمير المؤمنين علي
٩. مقاطع فيديو بعنوان: سلسلة آداب المساجد
١٠. مقاطع فيديو بعنوان: سلسلة ما جعل عليكم في الدين من حرج
١١. مقاطع فيديو حول: أحكام الحج والعمرة
١٢. مقاطع فيديو حول مسائل فقهية متنوعة
١٣. تطبيق الولاء
١٤. تطبيق مؤلفاتي
١٥. تطبيق المرشد لأحكام الحج
١٦. تطبيق وهم الإلحاد
١٧. تطبيق وصية
- ١٨.